

روايــة

سِدْرَةُ المُنْتَهَى

رواية

سِدْرَةُ المُنتَهَىْ

أحمد بن عيسى الهلالي

نادي حائل الأدبي الثقافي

ⓗ نادي حائل الأدبي الثقافي، ١٤٣٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الهلالي، أحمد عيسى

سدرة المنتهى. / أحمد عيسى الهلالي. - حائل، ١٤٣٥هـ

٣٤٤ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٠ - ٨ - ٩٠٥٠٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القصص العربية - السعودية أ - العنوان

ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٣٥/٢٥١٤

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٢٥١٤

ردمك: ٠ - ٨ - ٩٠٥٠٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨

نادي حائل الأدبي الثقافي:

حائل - ص. ب: ٢٨٦٥، الرمز البريدي: ٨١٤٦١

هاتف: ٥٤٣٦٤١٨/ ٠٦، فاكس: ٥٤٣٠٩٤٤ /٠٦

www.adabihail.com

تنفيذ

دار المفردات للنشر والتوزيع، الرياض

المملكة العربية السعودية

ص. ب: ٧٠٣، الرمز البريدي: ١١٤٢١

هاتف: ٤٧٠٨٥٢٩، فاكس: ٤٧٠٨٥٤٥

البريد الإلكتروني: almufradat@gmail.com

الموقع الإلكتروني: www.almufradat.com

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

أهديها:

إلى:

المتجردين من سخام العتمة، التائقين إلى النور في ثوب الإنسانية الناصع.

١

" عطر القرية ما تزال بكارته نائية عن رجس الحضارة يا أمي،
سأستعيد بعض صفائي هناك ".

*يحيى الشيخ، في آخر مهاتفاته لأمه

- ١ -

أكلَتْ الطريق الوعرة بشراهة من صحتنا، في الطريق إلى القرية النائية بدت تعرجاتها تقلقني من هول ما رأيت! فبالكاد تجدُ عجلات السيارة ما يتسع لعرضها، وكم يكون الأمر مظلماً عندما يقابلنا منعطف أثناء الصعود؛ حينها تشمخ سيارتنا بأنفها في السماء، ثم يفاجئنا منحدر تكاد تقبّل السيارة قاع الأرض، همَّ بالوقوف سائق المديرية؛ لولا أنه لم يجد متسعا؛ لتغيير اتجاه السيارة إلى طريق العودة، أتأمل الأوساخ المتراكمة على مقود السيارة وهي تتحلل من عرق يديه! وصوته المتذمر شاخ في حنجرته، وانحنى ظهر أملـه أن يجد جوابا عندي! تجلدتُ أمام السائق منهار القوى؛ لأحافظ على بقاء نوعنا المحمول على متهالكة ذات مطاط ودسر! لم أصدق ابتسامة القدر بعد أن جاوزنا المنحدر الرهيب، فانغمست عجلات السيارة في نبع جارٍ، كانت جغجغته توقظ فينا حس الحياة، وتبشرنا بتجاوز المخاطر، وكأنه يقول صبرتما فنلتما، ويهمس لسيارتنا المسكينة في ذات اللحظة، هنيئا لك وصولك سالمة، لا بد أن تتطهري من رجس الإسفلت؛ كي تصلي إلى القرية النائية كما يجب.

ولا تسل عن ابتسامة سائق المديرية عندما رأى الرعاة يستظلون أشجار السدر الضخمة، جزمتُ في سرّي أن الذكرى قد سافرت به بعيدا. المناظر التي سرقت ابتسامته من بين مخالب العبوس؛ لم تكن ساذجة كما يتصوّر البعض، والغريب حقا كثرة مفترقات الطرق بعد النبع، لكن السائق اتجه بنا دون أن يسأل أحدا عن طريق المركز الصحي، مع زعمه أنها المرة الأولى التي يجيء فيها إلى هذه القرية، فقد حَفظ وصف الطريق كما شرحه مدير الشؤون الصحية.

كانت البشرى في رؤية المركز الصحي، وجمال تصميمه المستوحى من كرتون البرتقال، بعد أن اتخذه الأطفال منبرا يلقون فوق تهتكاته أناشيد الفضاء! وسيارة الإسعاف التي ظننتها لأول وهلة منزلا أفريقيا كُوِّمَ من سعف النخل، تراكم عليها غبار العصور البدائية، ولم تأخذ شكل السيارات!! حتى أوقف السائق سيارتنا التعيسة جوارها. لم يصدق وقدماه تلمسان الأرض، وتعودان سيرتهما الأولى، تحملانه وتسيران به، أخذ دورة كاملة، ورفع اليمنى وهزّها في الهواء، كما يفعل اللاعبون في حركات الإحماء، وكذلك فعل باليسرى، حتى اطمأن أنهما

بخير، وأن السيالات العصبية التي اعتكفت خلالهما في الطريق الوعرة، قد رحلتْ ولم تؤذهما، فتوجهنا إلى المستوصف على أرضية تشتكي هجر الأقدام، وأول صفعة كانت قفلا حديديا صدئا، جعل أيدينا دون شعور تجوب خلال ثيابنا علّها تظفر بمفتاح، يقتحم عناده، وهيهات، فالقفل يعود إلى عصر نبي الله داوود، لكن الانتظار لم يطل، وقد لمح السائق رجلين قادمين من ناحية القرية، لم أنتظر بطأه في نقل المشهد، فوقفت بجوار السيارة، أرقبُ رجلين يسيران بخطى حثيثة، أحدهما محظوظ إن لم تهب نسمة من حوله فتطيّره، أما الآخر فمربوع القامة، كأنه مصبوب في قالب شوكولاتة عيد الفصح، نسيه والده في بطن أمه سنين عددا، كما تنسى فتاة قطعة الكيك في الفرن وهي تحدث صديقتها عن سفرها مع فارس أوهامها إلى جبل هوليود في روسيا الأسترالية. تبيّنتُ أنهما قادمان إلينا، ألقيا التحية، لكنهما لم يقتربا منا، ولم يصافحانا، تأملا ملابسي ففهمت أنهما عرفاني، فدخل الأول وفتح القفل بعد عنتٍ، أما الآخر فكأنه موكل بدفع الباب بشدة، حتى انفتح وللمتفائل أن يتخيلَ ما بداخل المستوصف من غبار وهوام!!

تكلّما بلهجة سريعة جدا، لم أفهم منها إلا الفحوى، أحدهما يطلب من الآخر إحضار المكنسة، عدتُ أنا والسائق إلى السيارة، وأخذت أعبث بهاتفي الجوال، علّني أظفر بحياة لموات الإرسال، إذ ظهر لنا الرجل النحيل جدا، ونادى علينا، فنزل السائق يستطلع الأمر، فكانت الصدمة مجهدة للاستيعاب، إذ تمكنا من تنظيف الفناء في أقل من ثلاث دقائق، نزلتُ بعده مذهولا أمام هذه القدرة العجيبة المختزلة للزمن، كنت أخال الأمر سيأخذ منهما نصف يوم!!!

دخلتُ المستوصف على أذن أعصابي، أتوجسُ الهوام والجرذان، لم يكن إلا حجرتين وصالة يتخذها الحارس مجلسا أرضيا له ولمؤنسيه، فانتفض الإدرينالين ملء جسدي أمام أفعى ضخمة، تتدلى على باب حجرة الطبيب، رأسها مغطىً بجلد اصطناعي أملس لامع، وقد زُيّنَت أطرافه بالودع الأبيض، أتسمّر مشدوها أمامها؛ ليدرك الرجلان الخوف الذي اعتراني. جسدي يهتز ذعرا، وشفتاي كثيبان متباعدان لم يصبهما وابل ولا طل! أما حروف الاستغاثة والرجاء والبسملة والحوقلة فقد خاطت عليهما العنكبوت بيتا من صخر! لم

أتحسس أطرافي لمعرفة درجة الحرارة كطبيب، لكنها تتأرجح بين العشرين والخمسين درجة مئوية، مسح الرجلان بخفة على الجلد ودخلا إلى حجرة الطبيب، كأنهما يسخران من تيبسي اللامبرر في نظرهما، فتدفقت دماء الرجولة ملء خجلي، لأنحني شجاعة وتواضعا بعد أن تأكدت أنها جافة، وأسير من تحتها، أدلف إلى غرفتي، وضحكات الحارسين، ترن في صالة الجلوس.

تفحصت الغرفة بعناية شديدة، ومنظر الأفعى الرهيبة يجلجل في أذن حذري، ثم قاربت تباعد مفاصلي على الكرسي المتآكل، لا أكف عن تصنع السكينة لإيقاف هدر الطاقة الحركية عبر أجهزتي العصبية المستنفَرَة، فاستدرت بالكرسي يمينا ويسارا، وصوته يذكرني بصوت جنزير التراكتور؛ الذي كان يجرف مزرعة جيراننا في أطراف جدة، بعدما اشتراها أحد الموسرين بثمن بخس، وبنى على أنقاضها برجا عملاقا!!

جلس الرجل النحيل على الكرسي المقابل لي، وصاحبه على الآخر، أما سائق المديرية، فمكث في الخارج يدخّن، فسألني الأول:

ـ أنت الطبيب الجديد؟

ـ نعم أنا د. يحيى الشيخ.

رحبا بي مبتسمين، وقال الحارس:

ـ أنا (عنبر) حارس المستوصف الصباحي وسائق سيارة الإسعاف، وهذا رفيقي (ساهك) الحارس الليلي، لكنه لا يجيد القيادة، وقد حضر اليوم لاستقبالك.

لم أبدِ اهتماما بأمر الوظائف، بقدر اهتمامي لتلك الأفعى، فأخذني الفضول وأشرت إليها:

ـ وهذه؟

لم يرد الجريء (عنبر)، وكسر (ساهك) الصمت:

ـ علقها الطبيب السوداني، قبل خمس سنوات.

ـ متى كانت آخر مرة جاءكم فيها طبيب؟

ـ قبل خمس سنوات، جاء طبيب واحد، مكث عندنا شهرا، ثم ذهب ولم يعد، وأنت الطبيب الثاني. من أين أنت؟

ـ أنا من جدة.

ـ أين جدة؟

ـ قريبة من مكة.

ـ وهل عرفنا جدة، حتى نعرف مكة؟

ضحكتُ مجاملة، وضحكا معي. وعجبتُ من إجابتهما، لكنني ظننتها من شقاوة سكان القرى، التي أسمع عنها من والدي. وعجائب أقاصيصهم، وتظاهرهم أحيانا بالغباء.

يستأذن عنبر؛ كي يجهّز سيارة الإسعاف. أما ساهك فتركني زمنا ثم عاد بالقهوة والتمر! ! و إناء معدني متوسط الحجم مملوء بالماء إلى منتصفه، لكنه لم يدخل المكتب، فقد ناداني إلى صالة الجلوس، وجلستُ إلى جواره. وأخذ يسألني عن كل شيء يخصّني، وأنا أجيبه بحذر يسربل إجاباتي، فمازلت أجس نبض حالة الأفعى المتدلية أمامي.

سمعنا أصوات طقطقة، ثم داهمنا أول أكسيد الكربون، وثانيه وثالثه، فابتسم ساهك فرحا، فقد اشتغلت سيارة الإسعاف، خرجنا إلى هناك، ووجدت سائق المديرية يساعده، وعنبر يقلب أكوام التراب عن السيارة بطريقة عجيبة، وساهك يزيح الكراتين والأقمشة عن الإطارات التي تحميها من الشمس، فبدت جميعها جديدة، لكنها خاوية على (جنوطها) من الهواء. فتدبرا على الفور منفاخا يدويا، وأخذا يملآنها بالهواء.

عدنا إلى الداخل لتناول القهوة، فتفاجأنا برجل أحمر الوجه، كل جسده مغطى بالشعر، وأظافره لم يقلمها ربما منذ ولادته، دخل علينا خلسة ثم حيّانا جميعا، فظهرت علامات الفزع والخوف على الحارسين، وبدا انزعاجهما بشدة، والرجل يومئ إلى السائق، ويطلب منه سيجارة بالإشارة، فأعطاه، فأشعلها مباشرة، وأخذ يمزها بشره غريب، ثم طلب أخرى، وأخرى، حتى ألقى إليه السائق بكامل علبة السجائر، وأنا أتأمل سلوك الحارسين، فقد زادا سوادا على ما بهما من سُمرة! ! أخذ الرجل السجائر، وخرج سريعا، فدنا مني عنبر بصوت منخفض، " انتبه من هذا الرجل، لا تدخل معه في خصومة"!

سألته: لماذا؟. قال: انتبه فقط، وستعرف لاحقا. أما الآن فسنذهب إلى (مذرى).

ـ ما مذرى؟

ـ إنه منزل الكبير (الجمل).

ـ أسمه الجمل؟!

ـ كلا، إنه لقبه مثل لقب (الشيخ).

ـ لماذا نذهب إليه؟

ـ لابد أن يراك ويتعرف عليك ويكرمك، وقد أوصانا بذلك.

ـ لا بأس، نؤجلها ليوم آخر.

فامتعض الحارسان بشدة من لا مبالاتي، وبدا عليهما الارتباك، وتغيّر حالهما أكثر من ذي قبل. وقال (ساهك) باتزان:

يا دكتور، لابد أن تذهب إليه اليوم، يتعرف عليك، ويكرمك، أو سيغضب كثيرا، وربما لن نسلم منه لاحقا.

ـ لكنني، مضطر إلى العودة مبكرا اليوم، لدي الكثير من الأمور تحتاج إلى ترتيب.

ـ كل شيء يمكنك تأجيله، إلا الذهاب إلى الجمل!!!

ـ وإلا ماذا سيحدث؟.

ـ لن نخبرك، فقط هيا بنا.

شعرتُ بقلق الآن، وبدا لي أن الأمور تجنح إلى الغرابة أكثر، بدءاً من سرعة إنجازهما لأعمالهما، ثم الثعبان، إلى ذلك الرجل الغريب الأطوار والخلقة، والتحذيرات منه، إلى اسم (الجمل)، ثم هذا الخوف منه!! قلت في نفسي لابد أن أساير الأمور حتى أفهم كل شيء. خرجنا، وعندما هممت بركوب سيارتنا، رفض (عنبر)، وقال دع السائق يعود إلى المدينة، واحتج بأن ذهابنا في سيارة الإسعاف أليق، لكوننا موظفين في المستوصف، فلم يطب لي ذلك، وحاولت أن أثنيهما عن هذا، لكنهما أصرّا، واقترب منّي ساهك وهمس في أذني: (لا يجب أن يكون معنا).

شعرتُ بالخوف، وشممت رائحة خبثٍ من ملامحهما، ورفضت أن يفارقني السائق، وقلت سنسير خلفكما بسيارتنا، فقال لي عنبر بصوت عالٍ:

ـ هل تعرف المستحيلات الثلاثة؟ هذا رابعها!!!

شككتُ في الأمر، خلتُ أن السائق قد اتفق معهما، يريد التخلص مني، وهما يدبران أمرا، فرفضت وعدت إلى المكتب، وأمرت السائق ألا يتحرك. فلحق بي ساهك، وقال:

ـ يا دكتور، أقسم لك أننا ننفذ أوامر الجمل. وإن لم تأتِ معنا وحدك الآن، لنجد جميعا ما لا يخطر على قلب مخلوق، وفاضت عيناه دمعا وهو يتوسلني.

قررت المخاطرة واستجلاء هذا الأمر المشكل، أشعر بسواد هذا اليوم منذ سلكنا تلك الطريق الموحشة، فأخذت مقصا حادا من المكتب، خبأته تحت ملابسي، وخرجت برفقتهما، أما السائق فقد فرّ من القرية جذلا.

خرجنا من القرية، وسألتهما: أين منزل الجمل؟

فأشارا إلى قمة جبل يشرف على القرية له طريقٌ خاصة، وعندما هممنا ببلوغ قمة الجبل. توقف عنبر. نزل من السيارة، ورمى بثلاثة أحجار إلى أسفل المنحدر، لا أرى الشيء الذي يرميه وأنا جالس في السيارة، فإذا صوت ثلاث عيارات نارية من القمة، فعاد إلى السيارة، وتحرك صعودا، لأسأل ساهك، فلا أجده يلتفت إليّ، وكأنني لا أحدثه، فزاد توتري، واقشعرّ بدني من إقفار المكان اليباب الذي نسلكه، ومنظر هذين الرجلين البشع، ورائحتهما الغريبة، تدور في ذهني القصة التي رواها أحد الزملاء في الجامعة، عن شاب تعطلت سيارته، وركب مع شخصين في الصحراء، أوهموه بأنهما سيوصلانه إلى الطريق العام، فغدرا به، وأخذا ما يملك، ثم كبّلاه في العراء وتركاه هناك يقاسي الموت عطشا وجوعا، والسباع تتعاور جسده المنهك نهشا قبل أن يموت ولا يجدون إلا هيكله العظمي وبعض أوراقه. فقطع تذكري صوت حارس ينعق بنا عند بلوغنا القمة، ثم رفع آخران جذع نخلة ضخمة، يستخدمانها حاجزا على باب دخول (قصر مذرى)، توقف عنبر بجوارهما وسلّم عليهما، وأحدهما لم يشح ببصره عني، رغم حديثه إلى ساهك الذي لا أكاد أفقه منه شيئا.

تحركنا بالسيارة على مهل، حتى توقّفنا أمام بناءٍ ضخْم، كله من الحجارة الضخمة، وأبوابه ونوافذه تتخذ أشكالا هندسية مقوسة، وأعاليه منقوشة بحجارة المرو البيضاء بتموجات ساحرة، ودقة مذهلة، والدرج مرصوف بأحجار ملساء لا تجد بين الحجر والآخر فراغا لدخول إبرة، وعلى رأس الدرج حارسٌ بملابس حمراء فاقعة، يسند إلى جواره بندقية، وقف

يرحب بنا، ويزداد ترحابه كلما اقتربنا حتى وصلنا عنده، سلّم على ساهك وعنبر مصافحة، أما أنا فأومأ إليّ من بعيد، ورمى قُبْلةً في الهواء. ثم أمرهما بالمغادرة، فاعترضت أمره:

ـ كلا سيبقيان معي.

ـ لا يمكنهما دخول القصر.

ـ لماذا؟

رد عليّ عنبر، ورأسه منكسة إلى الأرض،

ـ أبدا يا دكتور يحيى لا يمكننا الدخول، لكن لا تقلق ستكون بخير.

ـ ومن يعيدني؟

ـ سيعيدك الجمل، لا تخف.

عندما وصلت القصر برفقتهما، شعرت بصدقهما، وبدأت الألفة تدب في روحي بمعرفتهما، فعلى الأقل لم يغدرا بي حتى الآن.

ودعتهما، ومضيت خلف الحارس، خلال ردهات المبنى الخارجية المرصوفة بحجارة بيضاء تميل إلى اللون البني الفاتح، وعلى الباب الرئيس للمبنى حارسان، رجلٌ وامرأة مسنة، قامت المرأة بصعوبة إلينا، لكنّها جنحت عن الحارس، وقصدتني. وقفت حائرا، فأخذت بيدي، وأدخلتني من باب مجاور للباب الرئيسي، أجلستني على كرسي من الخشب اللين، خرجت ثم عادت تحمل طستا، وضعته أمامي على الرف، مملوءا بماء أخضر خفيف جدا كالبنزين، ورائحته نفاذة، تشبه رائحة الورد المركز، أومأت إليّ، فلم أفهم ما تعنيه، فقالت لي: افعل كما أفعل.

غمستْ يدها اليمنى في الطست مفرّجة الأصابع، ثم قبضتْ على الماء ورفعتْها، ووضعتْها مقبوضة على جبينها، ونظرَتْ إليّ، ففعلتُ فعلها، ثم أعادتْها مقبوضة إلى الطست، وفرجتها، ثم رفعتْها مقبوضة، ومسحتْ بباطن أصابعها على خدها الأيمن، وبظاهر كفها على خدها الأيسر، فتوقفتْ. ثم فعلتُ كما فعلتْ، فأعادتْ يدها إلى الطست لكنها لم تغمسها، فقط نفضتْ الرذاذ المتبقي على كفها، فأعادتنْي حيث كنت في الخارج!! دون أن أعي هذه الطقوس!!!

دخل معي الحارس المرافق للمرأة المسنة (ذو الملابس الخضراء)، فصعدنا درجا عاليا، ثم التفّ بنا داخل ممرات المبنى العلوي، وأنا أنظر إلى كل شيء حولي، وأتعجب من الإبداع في البناء، وطريقة الإنارة العجيبة باستخدام أشعة الشمس، ونقلها إلى الأماكن المعتمة عبر المرايا المركبة بطرائق هندسية غاية في الدقة!! عندما وقف الحارس على ألواح مرصوفة، ونقر على الخشب نقرات متتابعة، أوحت إليّ بالاتفاق عليها، ليتحرك اللوح الخشبي إلى أعلى، وصوت البكرات يرنُّ في أذني؛ كأنه عزف موغل في القدم! ويعود اللوح، لأقفَ عليه، والإثارة تسري في جسدي أثناء ارتفاعه، حتى صعدتُ على سطح عالٍ لا يمكن وصوله إلا عبر هذا اللوح، فأرى ثورين عملاقين في الأعلى، أوكل بهما حارسٌ، يأمرهما إذا سمع الطرقات المتفق عليها من الأسفل.

لم أحرجِ نفسي بالسلام على أحد، سرتُ مع الحارس الأخضر، حتى بلغنا بابا عظيما، كان بانتظاري حارسٌ وسيم القسمات، يرتدي ملابس بيضاء ناعمة، استقبلني بقطعة قماش حريرية ناعمة جدا، لفّها على يدي اليمنى بطريقة عجيبة، ثم سحبها، ومسح بها وجهي، فأدخلني بعد ذلك مجلس الجمل.

كل تلك المفاجآت، لم تجعل التوق يفتر لحظة إلى رؤية الجمل المتمترس خلفها!!! كل هذا لأصل أخيرا إلى مجلس الجمل!! وهنا عالم آخر من الروعة، والدهشة، والمفاجآت فالطريق التي تلي الحارس الوسيم، مفروشة بالرمل الأبيض الناعم، وعلى جوانب الممر أصناف المرايا المتداخلة بنظام معقد، يجعلني أنشغل برؤية ذاتي بأشكال وطرائق مختلفة، وزوايا متباينة، حتى افضى الممر إلى المجلس العظيم، على شكل دائرة، تتوهج الشمس في مركزها، بفعل قبة علوية، تُسقط الشعاع على إناء ضخم متحرك، بفعل الماء الجاري حوله، والمرايا متباينة الألوان الموزعة على جوانبه، تضيء كل زوايا المجلس الفخم، بطريقة الإضاءة الخاطفة المتحركة، والمتموجة كذلك، وخرير الماء الناعم يشبه حفيف الرياح في الأرجاء بتحريكه الإناء الدائري!!

فيومئ إليَّ الحارس الأخير بأصابعه إلى مكان جلوسي، والدهشة لا تتركني لحظة، فكل شيء هنا مبهر، وجديد لأول مرة أراه، لم أتخيل أن يكون في هذه القرية النائية إبداع محبوك

بهذه الطريقة المدهشة!!

فور جلوسي، تقدم الحارس إلى مركز الدائرة في وسط المجلس، وجذبَ بخفة طرف حبل إلى أعلى، فارتفع الإناء، وتوقف عن الدوران، وخف صوت الماء، ثم تركّزت إضاءات تلك المرايا أعلى الجدران في منظر جميل ساحر، لتبهرني صورة مجسم رأس الأسد الضخم في صدر المجلس، تمنيت أن عنبر وساهك بجواري كي أسألهما عنها، لكنهما فارقاني مبكرا، ولم أنتبه إلا لحركة فكّي الأسد أحدهما يهبط والآخر يرتفع، وبينهما ستارة جلدية مموجة أفقيا تحجب رؤية ما بداخلهما، استمرا بالتباعد عن بعضهما، والستارة تتمدد معهما، حتى بلغا أقصى ما يمكنهما، أترقب ماذا سيظهر في منزل العجائب بين فكي هذا الأسد؟

في غمرة دهشتي وترقبي، تقدم الحارس إلى الفكين، وهزّ الستارة، فانفرجت قليلا، أرقبها باهتمام شديد، فإذا برجل واقف، أومأ إليّ بالسلام، فوقفت، فابتسم الحارس، وأشار بيده كي أجلس. ثم زال توهمي عندما رأيته يناول الحارس طستا كبيرا به القهوة والتمر والماء والحليب.

وقبل أن يناولني الحارس القهوة، توقف واستدار، ليقف إلى جواري، والحارس الثاني يرذ العطر من خلال فكي الأسد، ويبتسم، وإذا برجل مقنّع متوسط القامة ملفلف بأردية متداخلة الألوان، أتبين قمحية بشرته من خلال كفيه، وجبينه، على رأسه عمامة بيضاء، وقف وأشار بيده إلينا جميعا في تلويحة واثقة، أدركت من خلالها ومن تصرفات الحارس أنه الجمل، وقفت وقلدتُ الحراس في الإشارة إليه بالسلام. ليجلس على كرسي فخم، يدفعه الحارس خلفه أثناء سلامه علينا. جلس والحارس إلى جواره يناوله القهوة، والحارس الوسيم يناولني قهوتي، والصمت يخيّم على المجلس!

نظرت إليه، لكن لا أجد ما أقوله كي أكسر حواجز الصمت والرهبة التي تتصدّر أفكاري، فبادرني هو بالسؤال المقلق جدا:

ـ كيف حالك يا د. يحيى؟

ارتبكتُ، أمام صوته الأجش، ومعرفته لاسمي، وهيبة المكان تزيد من توتري، وانقطاع نفسي أثناء الكلام، فأخذت أتذكر كل قواعد الانضباط وردات الفعل، والسيطرة على الذات،

كيلا تهتز شخصيتي أمامه من أول لقاء، فتحايلت على الموقف، بالتشاغل بوضع فنجان القهوة على الطاولة، ثم رفعت رأسي إليه في أناة وأجبته أنني بخير يا سيدي. وعاد الصمت من جديد، وكأنه يتفرّسني، وأنا أحاول ألا تبدو عليّ مظاهر القلق!!

قطع الصمت صوته من جديد:

ـ نحن في هذه الجبال، كقطعة نورٍ، تعمّم بها الليل، تضيء للوجود مغمض العينين، وتشرح صدر الأرض لشرب أنوار السماء، التي لا يراها إلا المبصرون.

لم أعلّق على عبارته التي دمغت على يقيني أنني أمام إنسان لم ألتقِ بمثله في حياتي! كل الذي فعلته أن هززت رأسي مبتسما، ابتسامة تفضح دهشتي وإكباري لهذا الرجل، ونسياني للدنيا كلها أمام أبّهته في قصره وشخصه. فاستطرد قائلا:

ـ تعيشون في المدينة، فتفقِدكم جلّ حواسّكم، تموتُ بالتدريج تلك الحواس، لأنكم لا تستخدمون منها إلا أجزاءً يسيرة، فالنظر بحذر في الطرقات يربك حاسة مهمة، وضجيج المنبهات والمركبات يقتل طبلة الأذن، واللمس لمقود السيارة، وأجهزة التقنية يخلخل الاحساس بالطبيعة، واشتمام الأبخرة والغازات يفقد الاستمتاع ببكارة العطر الطبيعي، أما الذوق فغارق في عدميته.

صمتَ قليلا، وأنا لا أجرؤ التفوه بكلمة. ثم أردف:

ـ سمحتُ لك اليوم أن تطأ قصري بالسيارة، لأنها أول زيارة لك هنا، أما زياراتك الأخرى، ستكون لها طريقة أخرى تجعلك إنسانا كامل الحواس، تشعر بأنك حيٌّ بحق.

ابتسمت أيضا، وأنا أخالج الرغبات، وبي توقٌ يأخذني إلى تكرار الزيارة، ورهبة تفزعني من كينونة هذا الرجل، وهذا المكان. الشك يخالجني أنني في عالم آخر، لماذا لم أسمع به من قبل؟! أهو في وطني؟!! أم أنا في وطن آخر!! أبي كثير الجَولان في بلادنا، كثير القراءة، لم يخبرني عن هذا قط!!!

سألني:

ـ من أي مدينة أتيت يا يحيى؟

تشجعت هذه المرة، وأخذت أتمالك نفسي، فأجبته:

ـ من مدينة جدة يا سيدي.

ـ أها.

ثم صمتَ، وأعاد حيرتي وقلقي. وأومأ إلى الحارس بإشارة لا أفهمها، فناولني في عجل ولطف، كأس الحليب، فتناولتها، ورشفت أول رشفة منه، وكان الطعم غريبا، لم أطعم في لذته قط، ونكهته التي تعلق بلساني، وترغمني على الارتشاف مرة أخرى رغم رسمية اللقاء، وهكذا توالت رشفاتي، وأنا أنظر إلى الجمل.

هو كذلك أخذ يترشف الحليب، ثم وضع كأسه ونظر إليّ:

ـ أعلم يايحيى، أن خلالك أنهار أسئلة، أسمع ضجيجها، وأعدك بالإجابة يوما. أنتَ الآن في ضيافتي، في قُرانا الثلاث، قريتنا هذه اسمها (تاوه) تليها قرية (رتال) والقرية الثالثة (قُصوى) تحفّزت لسؤاله هذه المرة، فقاطعني:

ـ نعيش على الطبيعة التي أحكم الله صنعها، ضوء الشمس في النهار يغنينا، وهي لا تغيب عنا حتى في الليل، وإن لم نحتط؛ فأضواء الشموع الطبيعية تكفينا، نتأمّل كل شيء، حتى ذواتنا، وننجز أعمالنا اليومية بنجاح لا يتسنّى لكم في المدن، لا نخشى على أنفسنا الأخطار المحدقة بكم من كل جانب، نتحسس التربة التي تمدنا بطاقة عجيبة، فهي المنشأ وإليها المعاد، نوزع مهام العيش بيننا في قرانا الثلاث، فلكل أسرة حرفة، وخصيصة، لا يجرؤ أحدٌ على المساس بها، إلا إن بدر منهم تقصير أو قلة طاقة، وهذا نادرٌ جدا. للمواشي ـ مثلا ـ متخصصون في رعايتها والاهتمام بها، وللزراعة أناس، وللسقيا آخرون، ولجلب البضائع من المدن أمناء؛ يعملون وفق منهجية متفق عليها بيننا، وبأنواع محددة من تلك البضائع التي يجزم خبراؤنا بجودتها وعدمية ضررها. وستدرك ذلك من خلال عملك في المستوصف، وسترى قلة الأمراض والأعراض بين مواطني قرانا الثلاث.

سألته بجرأة هذه المرة:

ـ ماذا عن التعليم سيدي الجمل؟

ـ التعليم، ما التعليم.. التعليم يا يحيى مجلوب من العلم، ولكل مجتمع علومه، والعلم ضد الجهل، والجهل عدو الإنسان، فإن أردت أن تقتطع عَصاً من إحدى الأشجار دون علمك

بخصائص تلك الشجرة، لن تكون عصاك جيدة، لربما خذلتك يوما ما.

لم أفهم مغزاه من هذه الإجابة المرمّزة، فهززت رأسي دلالة على وجوب الاستطراد والتجلية، فاستمر:

ـ العلم يا يحيى كونٌ فسيحٌ من المُدْرَكات، لا يدرِكه إلا الألِبّاء، فيعملون منبّهين للأقل لبابَةً؛ كيما يستفزون كوامِنهم، ويحرّضون ملكاتهم، فتستجيب القُدراتُ في انتظام ضابط للربكة المتخيّلة بالعلم الأول.

أدركَ أنني في وادٍ من اللافهم أهيم، فاستطردَ:

ـ في أرضنا علمٌ لم يحِط به بشرٌ بعد، وربما رأيتَ بعض مظاهره، وما خفيَ عنك أعظم، فقد آتانا الله من أسرار كونه العِظام، ما لن تقوى على استيعابه يا بني، وآثرنا أن نُجْليه عن الجهلاء، وربما تأتي ساعةٌ نُظهِر بعضه في صفحة الوجود المعتم، ليمحوَ دياجير الجهل المطبقة على شركائنا على كوكب الأرض.

التفت إلى الحارس الواقف إلى جواره، وهمس في أذنه، فخرج، وأنا في غاية ذهولي من ادعاءاته، التي أفسرها على محامل كثيرة، فتارة أقول ربما يكون ساحرا، وأخرى أراه كذّابا، وثالثة أظنه من معتنقي المذاهب التي تخالف مذهبي، وأخرى أراه من المناطقة أو الفلاسفة، أو ربما يكون ديكتاتورا، لكنني أجهل علاقته بالمجتمع والدولة. يقطع وسوستي بالقول:

ـ يايحيى، نحن لا نرضى أن يدرس أبناؤنا مناهجكم التعليمية، فلدينا دورٌ تعليمية خاصة، لكنها غاية في السرية، تدرّس أبناءنا ألف باء الكون والنور، وترضعهم حياة الإنسان الأعلى، وأنتم إخواننا الأعزاء علينا، لكنكم تعيشون في الجزء المعتم، وتؤثرون أن تعيشوا كذلك، ولو تأملت كلامي الأول عندما قلت (الألبّاء) لأدركت ما أعنيه، أنت طبيب، وكانت العرب تسمي الطبيب الحاذق في الماضي القديم لذكائه وفطنته، وأعلم قوانينكم الصارمة؛ في هذه المهنة التي لا يمتهنها إلا الجاد في دراسته، رغم أن هذه القوانين كفيفة في بعض منابت إبصارها وتخيّلها للذات الفاعلة الفطِنة، لكنه اجتهاد، ولأنه كذلك؛ لم أرض أن يطأ أرضنا ويختلط مع مواطني قراي الثلاث إلا من هم كذلك في نظرتكم، فنحن لا نملك الوقت لدراستكم، فنتخير من نتعامل معهم، فكان إجماعنا على قبول الأطباء فقط، كي

يخالطوا أبناء شعبنا إلى حد معين.

لم تسألنِي –وأنت الحاذق– عن الأمن، بل سألتني عن التعليم، والإنسان الخائف المضطرب، يستحيل عليه امتلاك ناصية العلم، أعلم عنكم الكثير في هذا الجانب، فلا تتعلمون بالرغبة، بل هاجس الخوف يطاردكم أبدا.

ـ كيف ذلك؟

يقهقه، سألتني كيف ذلك؟

ارتبكت وخشيت أنني أغضبته، لكنه أكمل قهقهته.

ـ والدك يايحيى، كان يؤزك إلى المدرسة أزًا كل يوم، بدافع الخوف عليك، خوف أن يتفوق عليك ابن عمك، والخوف عليك من المستقبل. معلموك يزرعون فيك الخوف من المجتمع، والحذر من زملائك، خطيب المسجد يخوّفك من نفسك الأمارة بالسوء، ومن الموت، والآخرة. كل هذه الآنية من الخوف وغيرها يسكبونها في أعماقك دون أن تعي، أخذتَ تشعر بالخوف من كل شيء. ثم تخرّجت من الجامعة طبيبا، وتمَّ تعيينك في المكانة المرموقة التي كنت تريدها، فأول شخصية ستتعامل معها في المستشفى هو مديرك، الذي اجتمعتْ فيه كؤوس شتى من الخوف أكثر من الكأس المسكوبة فيك قديما، سكبَ فيكَ منها، فخوّفك من زملائك والمرضى، وتحايلاتهم، وأرعبك بحديثه عن كثرة الأخطاء الطبية، حتى أصبح الخوف رفيقك الأبدي!! بعد أن تغلبت على مخاوفك القديمة. اختلطت بزملائك، فلان يحسدك، وفلانة تخطط للتقرب منك، وذاك يغار منك وهذا ينافسك. وأمك كذلك تشحنك خوفا وحذرا ممن ترغب الاقتران بها، ووالدك يحذرك من الانصياع لمطالب الآخرين، والشيخ يحذّرك من النساء، وفتنة الاختلاط، والخوف من استدراج الشيطان. فما حال مولود لكم ستسكب فيه كل هذه الآنية من الخوف، وكلما تقدم الزمن كبر هاجس الخوف، وسيرتقي إلى درجة الرعب الذي يقف حاجزا أمام رؤية المستقبل.

هل رأيت يا د. يحيى، كم من الخوف سكبته آنية المجتمع في جسدك الضئيل؟!

أذهلني حقا هذا السرد، وعلمه بكل أحوالنا في المدن! رجل معزول في قمة جبل لا أظنه يعلم عن المدن إلا اسمها هكذا بدا لي. فهززت رأسي مذهولا أمام علمه!!! تنهدت:

ـ صدقت سيدي في كل ما قلت، لكنه ليس خوفا بالمعني الحرفي للخوف، هو ضوابط وحذر، وأمنٌ للإنسان ومجتمعه.

ـ مفهومنا للأمن يا يحيى يختلف كثيرا عن مفهومكم له؛ لأنكم شخصيات نسقية؛ تعيش على النسق المتوارث. فأول ما نتحسس من الأمن: الأمن الروحي، ثم الاجتماعي، ثم الأممي، ولكل منها ارتباط بالآخر ويعتبر قاعدة له، فالأمن الروحي هو قاعدة الأمن كله؛ لأنه فردي، يتشكل في أعماق الذات. فإن أمنَ الإنسان نفسه أولا، وشعر بهذا الأمن ينضح من أعماقه؛ فاضَ على القريبين أمنا، وتلاقى فيضه مع فيض مَن حوله، حتى تشكل الأمن الاجتماعي الذي يشمل الأسرة والحي والقرية بأكملها، فيلتقي فيض الأمن الاجتماعي بالفيض من الآخرين، فيتشكل الأمن الأممي. أعلم أنك واقعيٌّ يا يحيى، وستقول هذا أشبه بالأفلاطونية، لكنني لم أكمل حديثي بعد، فلكل ذات اعتلالات، لكن يجب أن تتفحص مثالي الآتي: لديك أرض مهيأة للزراعة، قمت بتسميدها، ثم روّيتها بالماء وحرثتها، وبعد أيام بدأ الزرع يشق الطين بعد قوقعة البذرة، عندما يستوي الزرع على سوقه، سيكون عليك أثناء ذلك صيانته وحمايته من الحيوانات، وهبْ أنك فعلت كل ذلك، ستجد بعض السنبلات ليست كما يجب، بها اعتلال، وفي تركيب حبوبها اختلال، فإما أن تكون داكنة، أو صغيرة الحبوب، أو حتى سوداء متآكلة، هل تعتبر كل السنابل فاسدة؟، كلا؛ بل ستكون هذه حالات قليلة في النظرة الكاملة إلى الحقل، لأنك لا تعلم ماذا تحت كل نبتة، فربما كان تحت النبتة حجرا قلل تدفق الماء إليها، فاختل إنتاجها، وربما في ذلك الجزء من التربة الذي نبتت فيه اختلال كيماوي، أو قرضتها بعض القوارض التي لم تستطع صدّها، فالأسباب كثيرة. لكن العبرة بالحلول التي يطرحها الألبّاء لمعالجة الاختلال، أو حصره في حيّزه.

ما يجعلكم يا يحيى خائفين؛ أن بنيتكم الأمنية مختلة من الأساس، وتغليبكم للظن، وكثرة الحَذِر، يفقدكم فيض الأمن الروحي إلى الآخر، وحتى لو افترضنا أنه سليم من أدوائكم، وفاض أمنه عليكم، سترهق فيضَه حجارةُ ظنكم فينحسر، ويتراجع ذلك الفيض إلى أعماقه، ويبدأ في الاضمحلال حتى يجف، ويصبح واحدا منكم، فكأنكم عكس قاعدة المزرعة التي حكيتها لك.

لم أشعر بفكيَّ يتباعدان وأنا أستمع إلى سرده الواعي، إلا بانقطاع صوته، وتنهيدتي وأنا أستنشق الهواء فيصوّت أنفي، بصوتٍ محرج لي، لكنه ينشغل بالحارس الذي أحضر طبقا كبيرا مغطىً بقماش، رفع الجمل غطاءه، وأشعل فزعي، وهو يلتقط من ذلك الطبق أفعى مخططة بالأصفر والأسود، ويقول لي:

ـ أنظر إلى هذه الأفعى المسكينة المسالمة، وكيف نعاملها إن وجدناها، نحن في قرانا؛ لا نتعامل معها إلا بالعلم الذي نعلمْه عنها، فلذلك نتعايش معها بأمن وسلام، لكنكم لا تتعاملون معها كذلك، بناء على قواعد الخوف المتداول في مجتمعاتكم، ففكرة الغالبية العظمى منكم أن الأفعى عدو يجب التخلص منه وقتله، لأنه يهدد الحياة، فلذلك صار الحكم على جميع الأفاعي التي تعيش في بيئاتكم (إعدام) لا رحمة ولا هوادة فيه. من منطلق (الخوف)، لا يلتفت عقلائكم إلى ظلم هذا الحكم، بل يعتبرونه عقلا يحافظ على نوعيته وأمنه، ولو علمتَ أن الأفاعي السامة قليلة إذا قارنّاها بغير السامة لأدركت أن قتل كل الأفاعي ظلم وعدوان لا يليق. ولو أدركتَ أن الأفعى السامة حتى؛ لا تلدغك إلا من منطلق الخوف منك؛ لأعدت النظر في التعامل مع الأفاعي بمجملها سامة وغير سامة، وما يجعل الأمر أكثر مرارة أنكم جعلتم حكمكم على الأفاعي، ينتقل إلى جنسكم، فالخوف معمم على الجميع ! ! !

نحن في قرانا الثلاث، لا نقتل الأفاعي أبدا، حتى السامة منها التي تستوطن منازلنا نتدبر لها حلا يخرجها لتبحث عن أماكن بعيدة عنا تعيش فيها، وإن سرنا في الليل، فإن الماشي منا يتسلح بأحذية مصممة للتقليل من مخاطر الأفاعي السامة التي تدافع عن ممالكها إن شعرت بخطر، ولا أذكر أنّ أحدا منّا لدغته أفعى مذ خُلِقت، ولم نقتل أفعى.

تبادرت إلى ذهني مباشرة أفعى المستوصف المتدلية، فبادرته بالسؤال:

ـ وتلك المتدلية في المستوصف ياسيدي؟

قهقه طويلا. ثم أعاد الأفعى إلى الطبق، واستند على خلفية الكرسي الفخم مسترخيا.

ـ تلك الأفعى يا يحيى لها قصةٌ أخرى، ألم ترَ كم هي ضخمة؟ ألم تلحظْ قطعة الجلد التي تجلل رأسها؟.

ـ بلى رأيت ذلك.

ـ سأحكي لك حكايتها يوما ما. الآن، اقتربت صلاة الظهر، وبعد الصلاة سنتناول الغداء، وسيكون لنا أحاديث شيّقة.

ـ والمستوصف سيدي؟

ـ لا تحمل همّه أبدا، واترك هواجس الخوف في حضرتي، لن يأتي أحدٌ من مسؤوليك يتفقدك، ولن يزوره أحدٌ، لأننا لا نحتاجه إلا نادرا.

استغربت كلامه، وداخلني شعور يتراوح بين القلق والخوف، لكنني لا أملك أمام هذه الشخصية النادرة إلا الانصياع لما يريد، والتوق يجرفني الإنصات له.

أخذني الحارس الوسيم، وأخرجني من بابٍ خفيّ لم أرَه حتى فتحه، فأرشدني إلى أماكن الوضوء، توضأت وهممت بدخول المسجد، فاستقبلني بإناء مملوء بماء أخضر، كالذي عمّدتني فيه المرأة المسنة أول دخولي، أشار أن أغمس يدي كلتيهما في الإناء، ثم أنفضهما وأمسح ببللهما وجهي، ففعلتُ، ودخلت المكان المعد للصلاة، وهناك للعجب حكايات أخرى.

المر الموصل إلى المسجد مفروش بحصىً صغيرةٍ ملونة ملساء، وجدران المسجد كلها من المرو الأبيض المصقول اللامع، وكوةٌ صغيرة تدخل منها الشمس، يرتكز شعاعها على مرآة في الجانب الآخر، ممالةٌ لتعكس الضوء إلى مرآة في مؤخرة المسجد، ترسل الضوء في بقعة شديدة البياض أعلى المنبر تجعل المسجد متوهجا بالضوء على جدرانه البيضاء اللامعة. جلتُ ببصري خلاله لأجد كوة أخرى، أخالها للشمس لحظة صلاة العصر، وأرضية المسجد من الرمل الناعم الأبيض، له كثافة كالحليب المجفف، لكنه لا يلتصق بالملابس إلا يسيرا، والحجارة الصغيرة الملساء تفصل بين موضع كل مصلٍ والآخر، كالخطوط التي نألفها على سجاد المساجد الحديث، ومروة ملساء مصقولة، على شكل مثلث مقلوب، موضوعة في موضع سجود كل مصلٍّ، ومثبتة لا يمكن انتزاعها، أتوهم أنها حماية للوجه من الرمل الناعم. لم يربني فيه إلا شيء واحد، لا أعهده في مساجدنا، تيارٌ من الماء يندفع من أمام مصلى الإمام، فينفرق من هناك ليحيط بكل المسجد ويلتقي في آخره، لا أعلم من أين ينبع، وإلى أين ينتهي، لكنه لا يكف عن الجريان كالنبع تماما، وتكمن الدهشة فيه تموجاته الأفقية، التي تشبه الورقة المسطرة، لا أدري كيف صنعوها بتلك الدقة والانتظام.

قام رجل في مقدمة المسجد وهتف بالأذان، فكان الصوت يرن بحدةِ وشدةِ مكبرات الصوت، تأملته فإذا هو يقترب من فتحة في الجدار، يدخل من خلالها الصوت، ويعبر خلال نفق يضيق إلى أن يجد فتحة ينفذ منها، فيخرج قويا حاداً، كانت في المسجد ثلاث فتحات غير تلك التي يقترب منها المؤذن، اثنتان في الجوانب وثالثة في مؤخرة المسجد، وربما هناك فتحات أخريات في الخارج؛ لم أرها إلا بعدما خرجت مع الجمل يوما، تحت سدرة ضخمة جدا خلف المسجد، حكى أن الألباء المحتضرين ينقلون تحتها حتى يموتوا مطمئنين.

اكتظ المسجد بالمصلين، وكلهم من كبار السن، لم أتخيل أن يحضر الصلاة إلا القليل بحكم بُعد القصر عن القرية، وعندما أقيمت الصلاة، انفرج الجدار، فإذا بالجمل يدخل مع هالة من البخور يحركها الحارس خلفه، فكبّر وصلّينا خلفه، أشعر بخشوع الناس من حولي، ويتلبّسني الخشوع كذلك، فكأنني لأول مرة أصلي، ولا أفكر في شيء غير صلاتي، وبعد أن سلّم، سبّح قليلا، ثم وقف، وألقى التحية بيده أولا، ثم قال:

ـ اليوم، رواق النور تحرك، وجاء بحبة قمح، فأحسنوا الحرثَ؛ كي نبذرها في أصل النعيم والنور.

رأيت كل الأعين تنظرُ إليّ، ولم أعلم أنني (حبة القمح) تلك، فقاموا جميعا عندما اقترب مني، ومدّ يده إليّ، فصافحته. في يده حرارةٌ ليست طبيعية أبدا، ربما تقترب من ٤٠ درجة حسب عُرْفنا في الترمومتر المئوي، وقوّته عندما هز يدي لم تكن عادية، لكنني قاومت، ونظرت إلى عينيه عن كثب، فلم أرَ فيهما ما لا أفهمه، كانتا طبيعتين تماما، وليته يخلع ذاك القناع الذي يحجبه عنا.

خرجنا جميعا، لم نخرج من ذلك الباب، ولم نعد إلى مجلسنا الأول، بل فتح الحرّاس، باب صالة كبيرة جدا، فجلسنا جميعا على مقاعد خشبية لها روائح زكية، ولم يكن الجمل برفقتنا في تلك الصالة.

جلس إلى جواري شيخٌ مسنٌ، حياني بابتسامة قبل أن يجلس، وصافحني بيده، أما القبلة فقد ذرّها في الهواء، لم تكن حرارة يده مرتفعة كالجمل، بل كانت عادية، فسألته عن الجمل، مَن يكون؟، فأعرض عني، ولم يلتفت إليّ بعد ذلك. صمتُّ وأخذت أحدق في كل

شيء في تلك الصالة، وأثناء تحديقي، فتح الحرّاس بابا في صدر الصالة، كنت أرى الجميع يرقبونه، فلم يجرؤ أحدٌ على دخوله، حتى دخلته أنا أولا، وقد مُدت على طول أرضية الصالة مائدة عظيمة، ألوانها تبعث في عينيّ الغرابة، وروائحها الزكية النفّاذة تدغدغ خلايا الجوع، على رأس المائدة جلس الجمل، قادني أحد الحراس إلى جواره فأخذت مكاني، وجلس الجميع. ولم يمد أحدٌ يده على شيء. حتى قال الجمل:

ـ للسغب أعددنا الاجتهاد. باسم الله.

لم أسمع بعد ذلك سوى أصوات الأَكَلَة، حتى الملاعق لا صوت لها، فكلها خشبية كالآنية، مددت يدي إلى الطبق الذي أمامي، وعندما فتحته فاحت رائحة الشواء اللذيذة، وكان الطبق مقسوما إلى قسمين، قِسمٌ به عظمٌ مغطى بقليل من اللحم المشوي، وقسم آخر، فيه رقائق من اللحم شبه نيئة، شعرت بالاشمئزاز عندما رأيتها، فأخذت العظم المشوي، ولا شيء غيره بقربي، نظر إلي الجمل، وأنا أحاول أن أجد فرصة لرؤية بعض وجهه من تحت القناع أثناء تناوله الطعام، فاستحييت بعد نظرته الحمراء!! فأومأ إلى أحد الغلمان الواقفين حولنا، فجلس بجواري، وفتح طبقا مملوءا بالجمر، ثم أخذ يشوي شرائح اللحم شبه النيء. جلتُ بنظري خلال السفرة، وأبصرت من يأكل شرائح اللحم تلك، وبعض الخضروات التي أخالها نيئةً أيضا، لكن أعدتُ نظري، وقلت في نفسي أنا في قصر العجائب التي لا تنتهي أبدا!! وكأن الجمل يعلم بكل ما أفكر فيه، عندما قال لي:

ـ الغذاء الذي تعدُّه الطبيعة، أجود وأكثر فائدة، من إعداد الآخرين له؛ فما يزال محتفظا بخصائص الطبيعة. فأجبته:

ـ لكنّ بعض الأغذية ياسيدي تحتوي على جسيمات ضارة بصحة الإنسان، والتسخين أو التبريد، يعملان على تنقيتها.

ـ نحن يايحيى، نؤمن بذلك، فنغسل كل شيء بالماء النقي متفاوت الدرجات، لكننا ـ أيضا ـ نؤمن بأن طهو الأطعمة كثيرا يفقدها الكثير من خصائصها الغذائية، ولأنكم تكثرون الطهو؛ فقد كثرت أدواؤكم، لتعلم أن للجسم الكثير من الخصائص التي عطلتها طرائقكم، فما عادت الكليتان تؤديان دورهما في تنقية الماء كما كانت، وما عادت المعدة تتعامل مع كل

المركبات الطبيعية للنباتات واللحوم كالسابق، حتى تعطلت وظائفها، بل تلاشت، ولتسأل نفسك، كيف عاش الإنسان القديم قبل اكتشافه للنار؟

إجاباتي كثيرة، لكن رهبتي أمام هذا الرجل لا تنفك تخنقني، وذهولي من حججه ومعلوماته يسبب لي صدمة حقيقية، تخرسني بحق.

بعد أن أكلنا اللحم، والخضار، رُفعت الآنية، وفي تلك الأثناء كانت آنية أخرى توضع من جديد، فكانت آنية الحبوب في سنابلها، ولا شواء ولا سلق، فتعاملتُ معها بطريقتهم، ثم رفعت الآنية، وتوزع السقاؤون على امتداد المائدة، فسكبوا لنا أكواب الحليب، وبعده أطباق صغيرة، في كل طبق قطعة من الشمع المملوء بالعسل غير المصفى. نأكل الشمع والعسل معا، ونبلع الشمع أيضا.

انتظرني الجميع حتى فرغت، فسألني الجمل:

ـ هل ترغب بالمزيد؟

أجبته بالنفي، فأشار إلي أن أقوم، فأجلسني بجواره على مقاعد خشبية مغطاة بالجلد الوثير لمكان الجلوس فقط. جلس الجميع، ثم بدؤوا بالخروج تباعا دون أن أشعر، حتى خَلَتِ الصالة من الجميع، لم يبقَ إلا أنا والجمل، فالتفتَ إليّ قائلا:

ـ هؤلاء الرجال كنهُ أمتي، وشُعَلُ الضوء في إعتام البصائر. هل عرفتهم؟

ـ كلا، أظنهم أبناء قريتكم.

ـ هم كذلك، لكنهم يعيشون معي هنا، يعملون ليل نهار، بلا كلل أو ملل، هم الألبّاء الذين حدثتك عنهم، سينام جزءٌ منهم الآن، ليكون الليلُ متقدا بهم، والجزء الآخر سيتواثبون على أسنمة المعرفة، يطوّعونها لخدمتنا.

ـ هل تسمح لي بالذهاب سيدي؟

ـ هل مللت المقام؟

شعرتُ بحرج بالغ من كرمه واهتمامه، فقلت:

ـ كلا سيدي، لكن شؤون في المدينة، وغدا أعود، وبعد انتهاء دوامي من المستوصف، أزورك بإذن الله.

هزّ رأسه ببطء:

ـ لا بأس، لكن ضع في حسبانك أننا لسنا بحاجة إلى دوامك في المستوصف.

ـ لقد زارني اليوم رجلٌ أحمر، كثيف الشعر في المستوصف.

ـ أعرفه، ولن يزورك غيره، ولا أريد أن تلبي رغباته، أو تتعامل معه، فهو مارقٌ، خرج عن سَنَن القرى، وابتغى سبيل الغواية، ولو أردت محوه لفعلت، لكنني أبقي عليه، كي يكون مثالا للمارقين، يتعظ به الجميع، وأنا أجعله يعيش في ضنك وألم دائم، وسيزورك، لكن أرجوك لا تتعامل معه، لأنه مارق.

ـ حسنا سيدي، قد حذرني منه أحد الحراس.

ـ يمكنك الذهاب الآن، رغم أنني تمنيت أن ترى الليل بأعيننا، فأنا مؤمنٌ بأنك لم ترَ الليل أبدا. أنهِ كل أعمالك اليوم، لأنك لن تغادرني خلال الأيام القادمة إلا قليلا، وقبل ذهابك، عِدني أن يكون كل ما رأيت سرا.

ـ أعدك بذلك.

ـ أرجو ألا يكون كوعدكم لبعضكم البعض، فلا تظن أنك بمنأى.

اقلقني وعيده، وخشيته أكثر، فأقسمت له أن يكون كذلك.

ـ حسنا يمكنك أن تذهب.

خرجتُ برفقة الحارس الوسيم، الذي وضعني على اللوح الخشبي، فاستقبلني الحارس الآخر حتى أخرجوني من القصر، فاستغربتُ وجود الحارسين في انتظاري هناك، وقد أعلماني بأنهما للتو وصلا. نركب سيارة الإسعاف، ويوصلانني إلى المستوصف، وهناك أجدُ سائق المديرية بانتظاري، ويعلمني أيضا أنه للتو وصل.

أدركتُ والصمتُ يجلّلني أني أمام سرّ خطير وعميق، وأنّ كل تلك الأحداث ليست عادية، ولا يمكن أن يتصوّرها العقل على تلك السيرورة التي تتشيأ من خلالها بكل غرابة.

٢

" قفل الباب لا يعني دائما أن وراءه شيئا ثمينا "

*ورقة على منضدة مدير الشؤون الصحية

- ٢-

تفكيري وأنا برفقة سائق المديرية مركّز على أن نعبر تلك الطريق الوعرة بسلام، لن ألهيه بأسئلتي؛ كيلا ألقي في غدير سكونه حصاة فزع، فيكفي الفزع الذي يسري في روحي وجسدي وعقلي من ذلك المخلوق المختلف عن كل شيء، من يكون يا تُرى؟ وماذا يملك؟ وأنى له كل هذا الملك؟ وكل هذه الثقة بذاته في هذه الأرض المقطوعة عن كل شيء؟

كل سؤال يمخر أجزائي، يمزقني أشلاء إنسانٍ تبعثر في الفضاء، ووالده يرى أشلاءه، يود جمعها، ويخشى السقوط، هذا حالي أمام هذه الأُحجية، التي أخشى أن يكون ثمنها عقلي أو روحي أو وطنيتي.

معتقدي يهتف في أعماقي أن أقف في وجه أمثال هذا الرجل من السحرة والكُهان، لكن الحائل دون ذلك أني لا أملك دليلا دامغا على انحرافه. ووطنيتي تحتم عليّ أن أمحو خطر هذا الكائن عن وطني، لكن لم أرَ بعد تلك الخطورة التي توجب سلوك هذا المسلك، كيف لهؤلاء الناس أن يحيوا بيننا و لا نشعر بهم، ولا ندري عنهم شيئا، كيف لهم أن يأكلوا اللحم النيء، ومع ذلك يصلّون؟

إني سقيمٌ، إني سقيمٌ، وكل تلك الاستفهامات تجوبني، وتجوس خلالي، وتفتك بي حيرةً وخوفا، أما الفضول فيؤزني توقا إلى معرفة كل صغيرة وكبيرة، لقد نجح حقا في استثارة فضولي، والاستحواذ على ذرات تفكيري، الذي لم يقطعه إلا صوت السيارات تعبر الطريق السريعة؛ لأسأل السائق:

- هل يمكن مقابلة مدير الشؤون الصحية الآن؟

- نعم، هو يريد مقابلتك.

رياح تعصف بسكوني المضطرب، مدٌّ يأمرني بإخبار المدير عن الجمل، وجزر يثنيني؛ فربما يفوّتُ عليّ إخباره الكثيرَ من المعلومات، فقلت في نفسي من الأفضل أن أتريث، ربما أسأله أسئلة عامة عن المستوصف فقط. بدأ خيالي يصوغ أسئلتي حتى أوصلني السائق إلى منزله بعد صلاة المغرب. استقبلني باهتمام بالغ، وأجلسني في حديقة منزله، جلس معي على

طاولة بلاستيكية بيضاء، وأخذ يسألني:

ـ كيف حالك د. يحيى؟

ـ الحمد لله بخير.

ـ يبدو أنك منزعج بعض الشيء من تعيينك في القرية.

ـ كلا أستاذي، خدمة وطني دينٌ ما حييت.

ـ بارك الله فيك.

ـ كيف وجدت المستوصف؟

ـ حالته مزرية، مهجور، وليست به مقومات المركز الصحي.

ـ كيف ذلك؟

ـ الأجهزة الطبية معدومة، والمولد الكهربائي لا يعمل، أما المبنى فمتهالك جدا، ولا حركة للمراجعين.

ـ طبيعي ذلك، فالمستوصف مغلق منذ خمس سنوات، بعدما أصيب الطبيب المكلف بالعمل فيه آنذاك بلوثة عقلية.

هنا طار عقلي، أحسست بدمائي تسير عكس طبيعتها، تسير من القلب إلى الأوردة، وتصب من الشرايين في القلب، تسارعت نبضاتي، وسرت رجفة خفية في جسدي:

ـ لوثة عقلية؟! كيف حدث ذلك؟

ـ لا تخف يا يحيى، ربما تخيل الطبيب بعض الأشياء، أثناء نومه في المستوصف، وهرب من المبنى في الليل وسلك الطريق الموصلة إلى المدينة، لكنه كان عريانا من ملابسه عندما وجده رجال الأمن، في الحقيقة أفزعنا جميعا، وسرعان ما انتشر خبره بين الأطباء، فلم نجد أحدا يقبل بالتكليف بعدما علموا بحالته، إلى أن جئتنا.

ـ وما الذي يجعلك واثقا بعدما عرفت الآن؟ فلو علمت بهذا الأمر من قبل ما وافقت.

ـ أنت رجل عاقل ومؤمن، من عائلة طيبة مؤمنة حسبما عرفت، وتعلم أن هذه الأمور والتخيلات لا تعدو كونها خرافات. وربما كان الطبيب يعبث، خصوصا أنه من بلد عربي شقيق، يؤمنون كثيرا بالخرافات والسحر وهذه الأمور، ويظنون أنهم قادرون على استحضار

الأرواح، واستجلاء الغيب أحيانا.

ـ من السودان؟

ـ نعم.

ـ أين هو الآن؟

ـ بقي في مستشفى الأمراض العقلية في الطائف زهاء شهرين، حتى خفّت وطأة الحالة عليه، فأصر ذووه أن ينقلوه إلى بلده، وانقطعت أخباره بعد سفره. هل تُشعرك هذه المعلومات بالخوف د. يحيى؟

ـ كلا، لكن ثمة غرابة.

ـ مثل؟

ـ سرعة الرجال في تنظيف المركز الصحي، فلم يستغرقوا إلا ثلاث دقائق على الأرجح في تنظيفه من تراكمات خمس سنوات، وكذلك تنظيف سيارة الإسعاف؟

ـ أبناء القرى مشهورون بالسرعة، والصرامة في التعامل.

ـ والأفعى؟

ـ أية أفعى؟

ـ المعلقة على باب غرفة الطبيب؟

ـ لا أعلم عنها شيئا.

ـ هي الآن معلقة هناك، وعلى رأسها جلد مزخرف بالودع.

ـ أزلها.

ـ كيف أجرؤ على لمسها؟!

ـ مُر الحراس بإزالتها.

ـ سأحاول. ما اسم القرية التي فيها مستوصفي؟

ـ اسمها قرية (تاوه).

ـ هل سبق وزرتها أستاذي.؟

ـ نعم، زرتها إبان حادثة الطبيب، وأغلقنا المستوصف وعينّا له حارسَين.

ـ أرأيت الطريق؟

ـ نعم وعرة جدا. لكن ستكون لك علاوة في مرتبك. وقد وعدتنا وزارة النقل بصيانتها قريبا، فلا تهتم لأمرها.

ـ إلى متى سأبقى هناك؟

ـ ربما شهرين أو ثلاثة، وأعدك أن أرسل غيرك إن لم تعجبك المنطقة.

في داخلي الكثير والكثير للسؤال عنه، لكني كبتُّ استفهاماتي، أو أجّلتها بالأصح، وحاولت أن أبقي قناة الاتصال معه مفتوحة:

ـ أستاذي، إن سمحت لي أريد رقم هاتفك، فإن استجدّ أمر هاتفتك.

أملاني رقمه ثم ودعته وخرجت على عجل بعدما اعتذرت عن تناول العشاء، أسئلتي تحاصرني، ونظراته، وإجاباته تتعاكسان، فكأنه يخبئ شيئا، لكنه في ذات الوقت يجيب بجرأة وثقة عجيبة، وخصوصا قصة الطبيب السوداني، فلو أراد أن أبقى فقط من أجل البقاء؛ لما أخبرني بمثل تلك الحادثة الأليمة للطبيب، وأبعدت شكوكي التي حامت حول المدير.

نزلت عند سيارتي مهيض الجناح، الحيرة تأكل تفكيري، لماذا لم أخبر المدير بكل شيء؟ وماذا سيجري إن أخبرته؟ ماذا في وسع الجمل أن يفعل؟. تجولت قليلا على الطريق الرئيسية وكل شيء يتصوّر أمامي؛ يتقمّص الغرابة، طرأت لي فكرة، فدخلتُ مقهى الإنترنت، أبحثُ عن أسماء القرى الثلاث، فلم يكن لها وجود على الشبكة. فتحت موقع الشؤون الصحية، أبحثُ في المراكز الصحية فلم أجدُ في المحافظة إلا تسعة مستوصفات. وليس لمستوصف تاوه أثر. زادت حيرتي، أدركتُ حتما أنني أمام سرٍّ غامض، وكلمات الجمل ترن في رأسي، وغرائبه تطوف بفكري، ووعيده يدمدم رعدا في أرجاء روحي.

خرجتُ حائرا، لا أعلم أين أسير، من أهاتف؟ هل أهاتف والدتي؟. أم أهاتف أصدقائي الأطباء الجدد؟ لكنهم لا يعلمون شيئا، ولا أود أن أقلق والدتي، خصوصا وأنا لم أتبين شيئا بعد. فاستوقفتني لوحة (شرطة المحافظة)، نزلت على الفور، عرّفت الحارس بنفسي، وطلبت مقابلة الضابط المناوب، فكانت سعادتي غامرة بتعاملهم معي، أدخلوني مكتبَ الضابط المناوب، واستقبلني استقبالا حافلا عندما عرّف بي الجندي:

ـ كيف أستطيع خدمتك يا دكتور؟

ـ سلِمت، فقط أريد معلومات عن ثلاث قرى تابعة للمحافظة؟

ـ أي قرى؟

ـ قرية (تاوه) و (رتال) و (قصوى)؟

ـ لم أسمع بها، وليست لدينا على الخريطة.

ـ ألديكم خريطة؟

ـ نعم ها هي خلفك.

وقفت أمام الخريطة، أخذت أتتبع الطريق العام، فلم أظفر بشيء يدلني على الطريق المؤدية إلى تلك القرى الثلاث. فسألني:

ـ ماذا تريد بمعرفة تلك القرى؟

حفّز سؤاله، دمدمة وعيد الجمل، فحاولت التملّص من إجابةٍ قد تجعله يشكّ في الأمر، أو يتابعني لمعرفة السر كعادة رجال الأمن:

ـ أحد أصدقائي ذكر لي أنها من أهم قرى المحافظة، وأنا طبيب جديد، أود التعيين في إحداها؛ لا أحب صخب المستشفى العام، و أخشى أن يعينوني فيه.

ـ لا فكرة لديّ عن هذه القرى، ربما تكون في محافظة أخرى، أو أن زميلك أخطأ في المسميات.

ـ ربما.

استأذنته وخرجت، وقد تعزز إيماني أني أمام لغز ليس من اليسير بلوغ كنهه، ومعرفة تمفصلاته المرعبة من بدايتها، في غمرة تفكيري وحيرتي ما شعرت بنفسي إلا واقفا أمام النزل الذي استأجرته، نزلت وصعدتُ إلى غرفتي، وكل شيء فيها وحولها يذكرني بالجمل، وقصره المرعب العجيب.

استلقيتُ على السرير بملابسي، وأغمضت عينيّ، أرى كل شيء يسير أمامي، والأفعى الضخمة تتدلى من السقف، وكلماته المتفلسفة عن الخوف، وعن الرجل المارق، والوعيد، وتأجيل الإجابات في معظم الأسئلة، وماذا يخبئ لي الغد في تلك القرية الافتراضية التي لا

وجود لها على خارطة العلم في المحافظة.

ربما دخلت في غيبوبة، أو نوم عميق، جعلني لا أشعر حتى بضيقي من ملابسي المتلئة بأشيائي، ولا حذائي التي لملمت أمشاط قدميّ من صباح الأمس، حتى صارت إصبعا واحدة عريضة، فأفقت على طَرَقات عامل الخدمة في النزل بالإفطار الصباحي، أهبّ مذعورا، وأستحم، وأبدل ملابسي سريعا، وأخرج دون تفكير إلى سيارتي، أسير على الطريق الرئيسية حتى وقفت بجوار سيارة المديرية الواقفة على بداية الطريق المؤدية إلى القرية.

وصلنا المستوصف بجهد ورعب أقل من الأمس؛ أجد كل شيء كما تركته. وما أن جلست على الكرسي، وتناولت كأس الشاي من يد (عنبر)، وصل مندوب الجمل، فقال عنبر: أما أنا فلا حاجة لكم بي اليوم.

خرجت مع المندوب، فسار بي نحو عمق القرية على قدمينا مسافة لا تزيد عن المئة متر، تبعتُه بحذر عندما دخل من باب صغير، وهبط سبع درجات، ونقر على لوح خشبي، فانفتح بابٌ مخفي، الظلام خلفه ينجلي بأضواء الشموس عبر المرايا، وخمسة جياد تقف أمام عربة خشبية فخمة، متقنة الصنع، ركبناها، فانطلقت بها الجياد في سرعة عجيبة، وفي أقل من دقيقة توقفت بنا العربة جوار المسجد في أعلى القصر، فاستقبلني الحارس الوسيم مباشرة، وقطعة القماش الحريري في يده، لفها على يدي، ثم مسح بها وجهي، وأدخلني مجلس الجمل.

كان الجمل بزيه المختلف، وقناعه المحكم ينتظرني، وكأني أهم شخصية في التاريخ، أشار أن أجلس بالقرب من الركن الأيسر لفك الأسد الذي يجلس داخله على كرسيه المذهّب، فجلست، فألقى سؤاله:

ـ كيف أصبح الدكتور اليوم؟

ـ الحمد لله بخير وعافية يا سيدي.

ـ أنت بخير، لو تدع الخوف، والقلق. فهما يفتكان بك حقا.

زادني خوفا بكلماته هذه وشعرت بأنه يعبث بي، وأن وراء هذا الرجل أشياء عظيمة. فبادرني:

ـ لا تسأل عني أحدا غيري، فأنا لم أمنعك من سؤالي، أو عن أي أمرٍ يستحق المعرفة والعلم.

أربكني الآن أكثر، فكيف عرف أنني سألت غيره، وتذكرتُ موقف الرجل المسن الذي أعرض عني في صالة الطعام عندما سألته عن الجمل، فأدركت أنه أعلمه بذلك.فاعتذرت منه:

ـ أسفي العميق سيدي، لكنني لا أريد تعكير صفوك بكثرة أسئلتي.

ـ لن تكون كذلك يا يحيى، إسأل ما بدا لك الآن.

ـ لم أجدُ أهل المدينة قد سمعوا بأسماء القرى الثلاث سيدي، فما السبب؟

ضحك بسخرية، وحرك ظهره إلى الأمام بعد استرخائه:

ـ العلمُ بالشيء حتميةٌ واجبة على كل ذات طامحة، فهل وجدتَ في أهل المدينة طموح؟ أحببتك أنت؛ لأنك شابٌّ طموحٌ فضوليٌّ، دائب التفكير في كل شيء، وذكاؤك الحاد جعلك مقدما لدى الألباء بالأمس.

أدركت بأنه تهرّب وراغ عن إجابتي. فكررت السؤال بصيغة أخرى:

ـ الأطباء في المستشفى لم يسمعوا بهذه القرى أيضا.

ـ نحن نعمل في صمت لا تحسُّ به إلا الطبيعة، وأولئك البشر من خارج الطبيعة يا يحيى.

ـ وكيف لمديرية الشؤون الصحية أن تفتتح مستوصفا وتعين له الأطباء والموظفين وترسل إليه الأدوية، والعاملون في المديرية ذاتها لا يعلمون شيئا عن هذه القرى؟

ـ نحن نعمل بسرية مع الدولة، لا يطلع على سيرورة أعمالنا إلا شخصيتين أنت ثالثهما.

صعقتني إجابته، وزادت خوفي إلى درجة الرعب، لكنني لم أحبذ التراجع:

ـ ومن الشخصية الثالثة غيري ومدير الشؤون الصحية؟

ـ يعجبني ذكاؤك. أما الشخصية الثالثة فهي شخصية سرية، ولا تُعدُّ مهمةً في حساباتكم، فدعها ليوم نلتقي بها أنا وأنت فقط. وسأقول لك سرا مهما، لم يفكّر فيه ذكاؤك، كيف وصلت إلينا بالأمس؟

ـ أوصلني سائق مديرية الشؤون الصحية عبر طريق القرية الوعرة.

ـ تلك الطريق افتراضية.

هنا ارتعدتُ من الخوف جدا، وشعرتُ بدوار، وتذكرت الخريطة التي لم أجد عليها علامة تشير إلى القرى الثلاث، فأومأ إلى الحارس الوسيم، فجاءني بمشروب في قاع الكأس برتقالي حلو الطعم، أراحني من الدوار. فسألني:

ـ كيف وجدت الطريق الجديدة إلى القصر اليوم؟

ـ مريحة جدا ومختصرة.

ـ تلك القرية بالأسفل يسكنها العبيد من البشر فقط، ولا يعبرون تلك الطريق الخاصة أبدا، بل يركبون الدواب أو سيارة الإسعاف للوصول إلي بوابة النخلة، ومن هناك يتم التعامل مع مطالبهم. والحارسان اللذان أوصلاك بالأمس هما من العبيد.

زلة لسانه بقوله (من البشر) فضحت عدم بشرية هذا الكائن، إذن أنت في عالم الجن يايحيى، أمام ملك الجن مباشرة، وأفضل تعامل معهم ألا أشعره بتلك الزلة، ولا يشم رائحة الخوف المتعاظم في أعماقي. أشد أزر قلبي المرتعد، وأحاول السيطرة على لغتي:

ـ عبيد في عصرنا؟

ـ ليسوا عبيدا بمفهومك عن العبودية، بل هم أناسٌ محجوبون عن النور تماما، تصدّق بهم الظلام على النور بفاقتهم، فأصبحوا خدما للنور، لا يجرؤ بهم المقام إلى عبوره، ولا تتجلد كينونتهم على اصطلاء دفئه، فكانوا كذلك.

ـ والذين حضروا مأدبة الغداء بالأمس؟

ـ أخبرتك بأنهم الألبّاء، يسكنون في قلب العلم، ينبض بهم شُعَلا على هامته، تحرق أروقة الظلام، فتتجلى لنا تدابير الإله الأعلى، في كونه الفسيح المحكم.

ـ هل أسألك من تكون؟

ـ سيجيبك فعلي، لكن تحلّ بالصبر.

ـ هيا بنا الآن، هل تتوق إلى رؤية النور؟

ـ بالتأكيد.

تراجع شعوري بالخوف بعد تلك الجرعة البرتقالية اللذيذة، وكأنها وصفة سحرية، كأنها اغتالت من أعماقي كل شعور بالخوف والقلق. فخرجت مع الحارس الوسيم من خلال بابٍ لم

أكن أراه قبل أن ينبلج وهج الشمس من خلاله. لأقف بجوار المسجد من الخارج، لا أرى شيئا مختلفا، حتى وقف الجمل بجواري، فقال انظر أمامك، فنظرت ولم أرَ شيئا فقلت:

ـ أرى جبلا قاتم اللون، به بعض الأشجار الشوكية.

ـ ضع يدك في يدي وانظر الآن.

ذهلتُ مما رأيتُ حقا، وعلمتُ أنني في صحبة ملك الجن حقا، لكن الخوف لم يأخذني هذه المرة، ذلك الجبل البني القاتم تحول إلى واجهة ضخمة من الزجاج اللامع المموه باللون الأخضر كزجاج كشافات غرفة العمليات، كل الجبل قطعة واحدة من الزجاج، لا مفاصل فيها، يحيط بها ويثبتها، سلسة كبيرة متراصة من الأحجار الضخمة المصقولة، على هيئة إطار. ركبتُ العربة معه، لتتوقف قبل الباب الزجاجي بأمتار، فينزل عن العربة ويجذب يدي، فينحرف بي عن الباب الزجاجي ونقف بجواره على حافة عالية، مسورةٌ بأخشاب مرصوفة بطريقة جميلة ومتينة، أنظر إلى الأسفل وأرى عوالم من الجمال المتخيّل. التفتَ الجمل إليّ مزهوّا بما نرى:

ـ ماذا ترى الآن؟

ـ أرى سحرا.

ـ بل ترى واقعا من نور. هذه إحدى قرانا الثلاث التي أخبرتك عنها. علمٌ وتقدمٌ وحضارةٌ، لم تشهدها الأرض بعد.

ـ هل ننزل إلى أسفل.

ـ لستَ مهيأ بعد للنزول، كل الذي أردته أن أجلو إعتامك، وأزيل فضولك.

ـ لماذا أنا بالذات؟

ـ ستعلم هذا لاحقا.

ـ معظم الأشياء تكون لاحقا؟

ـ أجبتك عن كثير، وقليلٌ ما أجّلت للأيام. فتحلّ بالصبر، هل تودُّ النزول إلى هناك حقا؟

ـ نعم، أتوق إلى ذلك.

ـ هذا مؤشر ممتاز، سيساعد في سرعة تأهيلك لذلك.

عدنا إلى القصر، وهناك أخذني إلى قاعة الدرس. وأخبرني أنه سيقوم بإلقاء درس على الألِبّاء بعد دقائق في تلك القاعة، وبإمكاني الاستماع إلى الدرس، لكن ليس بإمكاني الاختلاط بهم، فأشار إلى الحارس أن يأخذني إلى مكان مجاور، أستمع من خلاله فقط، أتلهف إلى سماع الدرس، تموضعت بجوار فتحة في الجدار يأتي الصوت عبرها. وتسمّعتُ إليه بحرص وهو يخطب فيهم:

ـ شعلُ النور، الظلام يفرُّ أمامكم مذعورا، تنازلاته تتوالى، وخيوله تبور. أنتم العالمون، الزّاهون، السابحون على سُرج الوضوح، العابرون إلى مكامن الروح.

فضجّت قاعة الدرس، بصوت ترديد جماعي:

ـ ألبّاء / سابحون / عابرون / مضيؤون. للنور طائعون.

ثم عمّ الصمتُ قليلا، فهتف الجمل:

ـ أَلِبّاء. أَلِبّاء. أَلِبّاء. الضواري تُمورُ في أعنتها الطوال، تتخطّف العصافير المسبحة بحمد الظلام، رُدّوا على مناقيرها النور، وقلّصوا أعنة الضواري، ولا تأخذكم رهافة الحرير، ولا نضارة البلور، ولا لجج الثلج، عن وهج الضياء، ورقصة النور. أسبلوا أردية العلم على سوءات الجهل، وحوّروا أنساق العمى، ولا يجرمنّكم خواء المتفيهقين، نحن كوّرنا الشموس، وأذبنا معاقل العبوس، وهدينا إلى الخلود النفوس.

ألبّاء. ألبّاء. ألبّاء.، السيوف تذوب أقلاما، والدماء تسيل مدادا، والكفرة بالضياء يتوجسون السطعة، أخرجوهم من رفوف التراث، وانفضوا أفئدتهم من عناكب الرجوع، لا تعدو الجياد إلى الوراء إلا فرا، فأتبعوه كرا، ولا يجمدُ الماء في عينٍ حمئة، والملحُ طعام العرق، والسكر داء، وسمرةُ الشمس نضارة، والعيش على حجر مشرشر، خيرٌ من الحياة في بطن حوت.

أَلِبّاء. أَلِبّاء. أَلِبّاء. حار الأريب، وزل الأديب، وبَلِتَ الطبيب. وتبرجم الورم، وتعاظم الألم، فسلُّوا إبرة القلم، وافقؤوا عين الجهالة. وامخروا السجف بالسدف. ولات حين ملاذ للدجى، نحن الأولون والآخرون، والظاهرون بالنور على الديجور، القارئون في السقف المنشور؛ بشائر العبور، بالنور إلى النور.

أَلِبّاء. ألِبّاء. أَلِبّاء. (بذرة القمح) في بؤرة الضياء، أقلّب بصري في السماء، أبحث لها عن قدسية ماء، ولا حيرة وأنتم الألبّاء.

فضجت القاعة بعد سكون:

ـ ألبّاء / سابحون / عابرون / مضيؤون. للنور طائعون.

سمعت خشخشة ملابسهم وحفيفها وهم يتواثبون، طال المقام وهم يخرجون من قاعة الدرس، فإذا بنقرات ثلاث، قفز على إثرها الحارس الوسيم، وفتح بابا ينفذ بنا إلى قاعة الدرس، القاعة الضخمة، المليئة بخرائط جلدية تمتد الواحدة منها من السقف إلى أرضية القاعة. والجمل يجلس على منبرٍ على هيئة شعلة. المقاعد الخشبية متدرجة بأنساق بديعة على هيئة أقواس، الإضاءة الساطعة تُولَجُ من فتحات متعددة في الجدران، تنعكس على مرايا، تعكس النور إلى السقف على مرآة محدبة، تنشر الضوء على أرجاء القاعة.

رحّب بي الجمل، فسألته عن سرعة إنهاء الدرس. فرد بعد ضحكة طويلة:

ـ هذا الدرس الذي سمعته، يفوق ما دوّنه الجاحظ في كتبه كلها، فكل كلمة فيه بمجلد، لكنك لا تعيها لأنك لست على علم بكل كلمة منها، وسياقاتها الدلالية المتعددة.

ـ هل كنت تقرأ من كتاب؟

ـ أنا الكتاب.

ـ وما هذه الخرائط المتدلية على طول القاعة؟

ـ شموس.

ـ لا أستطيع قراءتها.

ـ ستقرؤها عمّا قريب.

أشار إلى الحارس، ففتح بابا خشبيا ضخما، فأخذ الجمل بيدي، دخلنا إلى قاعة متسعة جدا، ترفعها أربعة أعمدة، فجلس، وجلست بجواره، جالت عيناي خلالها، قال لي:

ـ بعد العصر، ستراها على غير هذه الحال.

لم أبدِ أية ممانعة في ذلك، فخرجنا من تلك القاعة، وعدنا إلى مجلسه، فسألني:

ـ هل تشعر بالراحة؟

ـ نعم سيدي، أشعر بها في حضرتك.

ـ العالم يايحيى جسدٌ محسوس في نظر الكثيرين، وقلةٌ أولئك الذين يتجردون من محسوسيته، وينعتقون من سطوة فكرته، فيتخيّلون غير ذلك. ثم رفع كأسا في يده واستطرد، هذه الكأس مثلا، لها جسم، ولها وجود، وتشغل حيزا، هل تستطيع أن تثبت لي وجودها الحسي، خارج التصوّر العقلي؟

أدهشني سؤاله جدا، ولم أجد إجابة، إلا تحريك رأسي بالنفي. فقال:

ـ أنا لا أستطيع إثبات ذلك أيضا، ولم أستطع ذلك بعد، لكن تراودني أفكارٌ، أننا في كونٍ متخيل، وأن كل ما حولنا لا يعدو افتراضيته من التصوّر العقلي، وقد استطعنا صنع أشياء افتراضية، تؤيد هذه الحجة، لكنها ليست متاحة لكل العقول، بل تكون عدمية للكثيرين، ولا يحس بوجودها الافتراضي إلا قليلون جدا. فتلك الطريق التي سلكتها بالأمس إلى قريتنا كانت افتراضية، وهي أكثر منجزاتنا التي استطعنا تحقيقها، لكن افتراضيتها لم تنجح إلا مع القلة القليلة من البشر، فالذين من خارج قريتنا واستطاعوا عبورها لا يتجاوزون خمسة عشر شخصا، أما البقية فهي عدمية لا يرونها ولا تتشيأ افتراضيتها أمامهم. والمعضلة التي وقعنا فيها، أن العقول التي أحست بوجودها رغم افتراضيتها متفاوتة في كل شيء، وكنت أخشى ألا تكون من تلك العقول، لكنك نجحت وهذا أسعدني كثيرا.

ـ هل جبل الزجاج افتراضي أيضا؟

ـ كلا ليس افتراضيا، بل حقيقيا. لكنه محجوب عن الظلاميين.

ـ وهل أنا ظلاميّ؟

ـ لست ظلاميا بالكامل الآن، لكنك كنت، وها أنت تتحول إلى النور.

ـ هل أستطيع رؤيته الآن، دون أن أمس يدك؟

ـ ليس كثيرا، لكن الغد يبشّر بذلك.

ـ ما مشروعكم يا سيدي؟

ـ مشروعنا النور والضياء الكامل لكل الكون.

ـ كيف ذلك؟

ـ سأجيبك بسؤال: هل تؤمن بالنور والظلام؟

ـ نعم أؤمن بهما.

ـ ماذا يمثل لك النور وماذا يمثل الظلام؟

ـ النور يمثل الهدى والبصيرة، والظلام يمثل الضياع والضلال.

ـ تصوّرك سليم. ولتزد عليه، أن النور والظلام في حرب دائمة، كل منهما يحاول أن يكتسح الآخر، فالظلام هو أصل الكون، وهو الأقدم والأكبر، نبت النور في زاوية من الكون وأخذ يمزق سطوة الظلام، لأنه ينير للمخلوقات. وما يزال الصراع بينهما، ونحن من القديم أرادنا الله جنودا للنور نكتسح سطوة الظلام، لأن الإنسان أقوى كائنٍ خلقه الله في هذا الكون، وأرشده إلى حمل المشعل، وبعد أن أيده بالعقل تركه يسير في مقارعة جحافل الديجور، بعض بني الإنسان انهزموا وابتلعهم الظلام، وقليل منكم مازال يكافح، أما نحنُ فلم نفلت المشعل ولن يكون ذلك.

ـ هناك مخلوقات تعيش في الظلام وقد تكيفت معه، وكأنها تعيش في النور. بل يفزعها النور فتختبئ منه.

ـ هي أمم الضلال.

ـ ليست أمم ضلال، بل مخلوقات خلقها الله لتعيش كذلك.

ـ لم تفهم نظرية الافتراضية بعد.

ـ وكيف ذلك؟

ـ ألم أقل لك أن كثير من الناس يعيشون في الظلام؟ واتهمتكم بالظلامية؟

ـ بلى.

ـ هي الافتراضية يايحيى، أنتم كائنات حية، تعيش في النور المحسوس بالإبصار، لكن بصائرها مغلفة بالظلام، تقتاتون نسق واحد، لا تخرجون منه إلى غيره، فلا تدعون فسحة للنور كي يشرق في ذواتكم.

ـ أنت تقصد الحق والباطل بقولك هذا.

ـ كلا، فبينهما بون شاسع.

ـ كيف لي أن أفهمك إذن؟

ـ إن تغيّيت فهمي فستبلغه يابني. الآن هيا بنا إلى البستان.

قمتُ معه وخرج بي إلى باحة خلف القصر، كل مخلوقات الدنيا فيها، مسالمها وضاريها، عتاقها وبغاثها، وكل أنواع النبت والزروع والشجر، والمياه بين متجدول ومنسكب، في لوحة ساحرة جدا. سرنا خلال تلك الجنة، فسألته:

ـ هذه جنة افتراضية؟

ـ كلا ليست افتراضية، بل لها أَلِبّاء يقومون على تطويرها وملاحظتها ليلا ونهارا. الأهم ألا تقطف منها شيئا، وألا تدوس على نبتة منها، بل سر على الطرق المرصوفة بينها كيفما شئت، وشم أية زهرة تريد، وإن أردت فاكهة، فستجدها تحت الشجرة في سلال خاصة للناضج من الثمر.

ـ وهذه السباع والمخلوقات ألا تؤذينا، أو تؤذي الجنة؟

ـ كلا، بل كل مخلوق منها لا يجرؤ على الاعتداء على شيء، إلا بالجدولة التي وضعها الألباء لها، وفي أحوال وأوقات خاصة ودقيقة؛ من أجل التوازن.

ـ عالمكم غريب وفريد.

ـ هو كذلك، إن نظر له إنسان قادمٌ من غيره.

ـ ماذا تريدون مني، ولمَ تطلعني على هذه الأمور.؟

ـ سأقول لك ذلك في حينه.

ـ ومتى يحين؟

ـ تجلّد بالصبر يا فضولي.

ابتعدَ عني الجمل قليلا، وجلس على حجرٍ مربع، كأنه معدٌّ لجلوسه، وأشار إليّ فجلستُ على كرسي من الخشب جوار المر، أراقبه والظباء تمرّ من بين يديه، والصقر يقع على كتفه، والضباع تتحلّق حوله. ثم يومئ لها فتتفرق عنه، يقلّب بصره في السماء، والشمس تكاد تتعامد على الأرض، فسرى خلالي تفكير أنّ هذه تصرفات ساحر، ليس ملك الجن وهو يتحدث عن الإنسان والإنسانية، من يستطيع تطويع كل هذه المخلوقات؟. وما هي إلا

لحظات تفكيري، فأرى الحجر خاليا من الجمل، أتلفت مرعوبا في كل الاتجاهات، لم أظفر به، أصمتُ ولا أفكر إلا في قدراته العجيبة، أنتظر عودته، فأبصره خارجا من تحت الشلال، يسير باتجاهي، حتى اقترب مني، فسألني:

ـ هل توضأت؟

ـ كلا ليس بعد.

ـ اذهب فتوضأ، لنصلي مع الألباء تحت الشجرة المسبحة.

توضأت من عذوبة الشلال، وسرت معه إلى أعلى الرابية، وفي المنحدر أرى الألباء وقد احتشدوا للصلاة تحت شجرة ضخمة جدا، فصلينا معهم، وبعد الصلاة تفرقوا كالآلات المبرمجة، دون أن أسمع منهم كلمة.

عدنا إلى القصر، الغداء في انتظارنا، فاكهة فقط، وبعد الغداء، أشار إلى الحارس، فأدخلني غرفة للنوم، جعلوها مظلمة، لأنام نوما عميقا، له لذة نوم يومٍ كامل. فأفقت على الحليب الدافئ بجواري، تعجبت من هذه الدقة، وكأنهم يعلمون الدقيقة التي سأصحو فيها.

بعد صلاة العصر، أخذني إلى القاعة التي رأيتها الصباح، رأيت العجائب حقا، صبية تتراوح أعمارهم بين الثالثة إلى السادسة، يجتمعون في بهو القاعة الكبيرة التي خرجتْ من مؤخرتها ثلاثة قواطع خشبية بطول القاعة، فقسمت القاعة إلى أربعة أجزاء وقف مجموعة من الرجال أمام كل جزء، وبخفة تواثب الصبية حتى توزعوا على الأجزاء الأربعة، على هيئة ثلاثة صفوف طولية في كل جزء، مشى الجمل وأنا إلى يمينه، ارتقى حتى جلس على الشعلة وأشار إلى الخادم فأحضر لي كرسيا عاليا من الخشب، لكنه لا يحاذي مجلسه، أصيخ إلى شرحه:

ـ هذه وزارة التعليم خاصتنا، بكل مراحلها، الجزء الأول للأطفال في سن الثالثة، يمثلون المرحلة الابتدائية عندكم. والجزء الثاني لسن الرابعة يمثلون المتوسطة، والجزء الثالث لسن الخامسة يمثلون الثانوية، والجزء الرابع، في سن السادسة يمثلون الجامعة.

وقفت مشدوها أمام هذه العجيبة، أيفهم الطفل في سن الثالثة؟، ويحصل على الجامعة في سن السادسة؟، يا إلهي ما هذا؟، فإذا بالرجال يجوسون خلال الأجزاء، كل رجل قد أُوكِل

بعمود داخل الجزء الممثل للمرحلة، وكل ما يقوم بعمله، لا يتجاوز وضع يده أو كلتيهما على رأس الطفل، ثم تحريك أصابعه على جمجمته بأنماط مختلفة، وبعد فراغهم من كل التلاميذ، يجلس الرجال على كراسيهم أمام المجموعات، فيقوم الطفل ويضع يده على رأس الرجل، فيحرك يده على رأسه بطريقة عجيبة، ثم يسمح له بالخروج، أما بعضهم فيأمره بالعودة إلى مكانه.

استمر الحال زهاء الساعة، فانصرف الجميع، فالتفت إليّ الجمل وقال، هؤلاء الرجال هم الألباء. فسألته:

ـ أين طلاب الدراسات العلا؟

فضحك كثيرا، وقال، لدينا قسم خاص لهذا، لكنه لا يأتي إلا بعد أن يتجاوز الطفل سن العاشرة، ويكون التعليم فيه ليليا، السنة القادمة سيكون لدينا هذا النوع من التعليم، لأن الألباء يعكفون على تطويره.

ـ كيف يقوم المعلم بتدريس الطفل من خلال جمجمته؟

ـ يجيب بزهو وابتسامة ساطعة: أنتم نسقيون، تظنون أن الإدخال إلى عقل الإنسان لا يتم إلا من خلال ما تعارفتم عليه، لا تلتفتون إلى تجربة الممكن واللاممكن، هل تعلم أن اللاممكن يفتح لنا آفاقا في الممكن لم نكن نتصورها.

ـ كيف ذلك؟

ـ عندما فكرنا في طريقة إدخال العلوم إلى الدماغ، كنا لا نملك إلا طريقتكم، التلقين والحفظ، فكّر الألباء في طريقة أنجع وأسرع، فلم يجدوا إلا طريقة التجريب، فاقترح أحدهم أن نقوم بإذابة العلم في عصارات، ندخلها إلى جسد الطفل عن طريق الدم، لكن تكثيف العلم بعد الإحاطة به كله على هيئة عصارة لم تكن ممكنة، فكرنا فيها بشكل أعمق، وقلنا سنجرب قدر ما يسعنا التجريب، فقمنا بعصر الكثير من المعارف الحسية، ومزجها، وتكثيفها وتبخيرها، لكنها لم تكن إلا جزء أقل من اليسير، ففكرنا في الحواس الخمس، ووجدنا أن الإنسان يتعلم عن طريقها كل شيء، ثم تبحّرنا فيها، حتى وجدنا التعليم باللمس هو أول وأقوى وسيلة إدخال للعلم إلى دماغ الإنسان، فتعمقنا في دراسة خلايا الحس، وكان العجيب

أن خدّ الإنسان أكثر مناطق الجسد استجابة للمس، وصعدنا من خلاله إلى مقدمة الرأس، ثم قمنا بإزالة الشعر، وتفحصنا فروة الرأس، فوجدنا فيها مخططا متكاملا يستجيب لكل حركة تتم هناك، فعكفنا على تشريح ذلك المخطط، حتى وصلنا إلى المكن الذي رأيته اليوم، فاستطعنا إدخال كل العلوم ـ أيا كانت ـ عن طريق هذا المخطط إلى الدماغ.

ـ عجيبة هذه الطريقة جدا. هل يمكنني الاستفادة منها في هذا السن؟

ـ العجيب يا يحيى أن كل إنسان لا يمكنه التعلم إلا في أوقات محددة، فكل الأطفال الذين رأيتهم اليوم، ولدوا في نفس هذا اليوم، وفي نفس هذه الساعة التي دخلوا بها قاعة الدرس، ولا يمكن أن يظهر المخطط في فروات رؤوسهم بتفاصيله إلا في هذا الوقت من الأسبوع، فيستطيع المعلمون من خلال ظهوره إدخال المعلومات التي يريدونها.

ـ هل هذا المخطط عصبي؟

ـ نعم بالتأكيد هو عصبي، تسري المعلومات من خلاله، فيصنفها ويرسلها إلى الأماكن المخصصة لها من الدماغ، ثم تنعكس على التصرفات والجوارح.

ـ إذن فهي أشبه بالبرمجة؟

ـ كلا، ليست برمجة بمعناها المعلوم لديكم، وإلا لما كان لدينا ألباء يفكرون ويخترعون ويبدعون.

ـ إذن ماذا تسميها.

ـ يسميها كبير الألباء التعليميين (التعليم التحفيزي)، فكل المناهج التي تدخل إلى دماغ الصبي، تحفيزية، تستهدف الكوامن الإيجابية في الصبي، أما الكوامن السلبية، فتحفزها على الخمول.

ـ أريد أن أتعلم بهذه الطريقة.

ـ يعكف الألباء على دراستك حاليا.

ـ كيف ذلك؟

ـ هل تذكر السائل الأحمر / والسائل الأخضر؟

ـ نعم أتذكرهما، ما بهما؟

ـ كلاهما أخذا من شخصيتك الكثير من المعلومات، يعكف الألباء على تحليلها.

شعرت بالخوف مجددا، آمنت بانغماسي أكثر في هذا العالم العجائبي، وأنني لا أستطيع حقا التراجع، أمام هؤلاء العباقرة المدفونين أو المندفنين في هذه القرية الجبلية. قمتُ من مكاني، وتجولت في القاعة الخاوية من الدارسين، ثم عدتُ إلى الجمل متسائلا:

ـ ما العلوم التي تعلمونها لأبنائكم؟

ـ كل علم يمكنك تخيله. وما لا تتخيله كثير.

خرجنا من القاعة، جلس الجمل على شرفة عالية، يتأمل غروب الشمس، وأنا إلى جواره صامتا، حتى خيم الظلام، صلينا المغرب، وارتقيت معه إلى سطح القصر حيث القبة الكبيرة فجلسنا على الأرض على بساطين لا يفصل بينهما إلا مترٌ واحد تقريبا، فاستلقى على ظهره، وأمرني أن أستلقي أيضا، وأن أمدّد كل أطرافي باستقامة، وبينا نحن كذلك نظرتُ إلى تلك القبة المعتمة، أخذت تنفرج من منتصفها شيئا فشيئا؛ حتى أصبحت الجدران واقفة دون سقف، فارتفعت بنا أرضية الغرفة تدريجيا، لم أشعر بارتفاعها إلا من تقاصُر الجدران، صرنا على ما يشبه سطح المنزل دون حواف، فانكشفت لنا صفحة السماء بأكملها، وضع الحارس دائرة شفافة من الزجاج، على شكل طاولة صغيرة لها أربع قوائم نحيلة فوق وجهي وأنا مستلقٍ على ظهري، وذات الدائرة وضعها للجمل، وكان يقيس المسافة بين رأسي والزجاجة، ليساويها بما لدى الجمل، لا أجرؤ على الحركة، نظرت من خلال الزجاجة لأجد فيها دوائر بيضاء كثيرة تزيد على عشر دوائر، ولكل دائرة رقمٌ خاص، وأحد عشر خطا مستقيما تتقاطع مع الدوائر، مرقمة أيضا، فيقطع الخط الدائرة من نقطتين؛ الأولى أ والثانية ب، فأخذ الجمل يختبر دائرتي ومدى توافقها مع دائرته، فقال حدد عدد النجوم التي تراها في تقاطع دائرة ٧ مع مستقيم ٧ نقطة ب، فعددت النجوم، فأدرك صحة دائرتي، ودقتها.

٣

" نشعر بالنقص لأننا نعرف أنفسنا، فندّرع بالأسرار،
حتى لا يعرى نقصنا أمام الآخرين "

*كلمات نسي أن يقولها يحيى في مجلس الجمل

- ٣ -

أمرني الجمل أن أبقى مستلقيا، أحاول قراءة السماء، لم يرشدني إلى أية طريقة أستطيع بها القراءة، إلا أن أخرج من ذاتي، وأتجرد من كل شيء، وأهرول عبر اللاممكن إلى الممكن، أو العكس، فلم أستطع التجرد من كونه منجّما، و الدليل بين يديّ الآن، رجل يدّعي العلم، ولا يتكلف في طلبه إلا أن يستلقي مساء، ويقرأ في تشكّلات النجوم، فكيف أثق بمنجم كل ما يقوله كذب وافتراء، لا يصدقه إلا قليل إيمان، أو ناقص عقل. استطاع هذا الجمل أن يكبح جِماح الطبيب المتوثّب، وأن يحيط عقله بغلالة من خرسانة، بل بسدٍّ من أحجار مبناه الفارِه العجيب، والأسى يعتصر نهد الذكرى، فيحلبُ قطراتٍ لا طعم لها ولا لون ولا رائحة، في تلك الأيام التي كنت أباهي بها أقراني، وأحدّثُ نفسي في خلواتي أنني الأميَز. أفي يومين تتهاوى قمم أمجادي على سطوة أفكار هذا المختل؟ الذي لا يراني إلا مِزقة ظلام اقتطعها ممن يصفهم بالظلاميين، فيجذبُني جذبَ الصياد للسمكة العالقة متسائلا:

ـ ماذا وجدتَ يا يحيى؟

ـ نجوما منثورةً لا ترابط بينها.

ـ أنت أميٌّ جدا.

ـ وأنت منجمٌ يا سيدي.

هنا، سمعتُ حركة الطاولة التي تعتلي رأسه بطريقة سريعة، ومريبة، فالتفتُّ لأجده جالسا، ومنظره في الظلام ولفائف أرديته المتكومة يستحضر في ذاكرتي الأشباح التي تتراءى في ظلام أفلام الرعب، أو شخصية المصارع الحانوتي (أندر تيكر) ينظر إليّ كما ينظر الأب إلى ابنه المراهق، بعدما سرق سيارته وحطمها عبثا في عمود إنارة، مددت يدي في تثاقل وهدوء لأبعد الطاولة الجاثمة فوق رأسي، أبالغ في هدوئي حتى جلستُ مقابلا له، ورأسي الثقيلة تتدلى على صدري، يخالني الرائي من بعيد جثة دون رأس، لا أرفعها إلا لأتأكد أنه مازال يصوّب فوهة نظره إلي، فأجده أطال النظر هذه المرة على غير المعتاد، كمن يبحث عن حبة دخنٍ سقطت على الطريق السريعة، وما يزال ينظر وعيناه لا ترمشان، وحتى سواد العين لا

يتحرك خلال وجهي، بل يركزه على عيني، فقد تصلّب الرجل، وأوغل في تصلُّبه، أشعر بتمساح الخوف يجدّف خلال سكوني، وأسماك فكري تتقافز هلعا، من نظرته الطويلة المؤلمة، تحشرجت بسؤال بالكاد تباعدت فكاي ليحلق إلى مسمع رحمته عصفورا صغيرا أنهكته شمس الظهيرة، وأطفال الحي الأشقياء:

ـ ماذا هناك سيدي؟

ـ لا شيء يا يحيى، إلا أنني أخطأت.

ـ فيمَ؟

ـ أن أطلبَ منك قراءة السقف المنشور، وأنت جاهل بها جدا.

ـ أي سقف منشور؟ هل تقصد القبة، أم الدائرة الزجاجية؟

ـ كلا، أقصد السماء، ألم تسمع بالأمس قولي في الدرس (السقف المنشور)؟

ـ بلى سمعت ذلك، لكن لم أنتبه له.

ـ قلت لك بأن كل كلمة من درسنا تفوق مجلد من كتبكم.

ـ الذي أعرفه يا سيدي، أن التنجيم حرام.

ـ نحن لا ننجّم.

ـ ماذا تفعلون إذن؟

ـ نحن نقرأ السماء، التي يأتينا النور منها.

ـ لكنكم تتكهنون بالنجوم.

ـ ألم يقل الله تعالى: " وعلاماتٍ، وبالنجم هم يهتدون ".

ـ بلى. لكنها للاهتداء في الطريق.

ـ أتظنُّ أن كلمة (علامات) لا تكفي؟

ـ لستُ عالما بالتفسير ياسيدي.

ـ قال الله في الآية (يهتدون)، وكل علمٍ يستجليه الإنسان من النجوم هو هداية، واهتداء ينفعه في حياته.

ـ وما العلوم التي تسطيع استجلاءها من النجوم؟

ـ كل ما يمكنك تخيله، وما لا يمكنك.

ـ ولمَ لم تسأل النجوم عن معلوماتي ـ مثلا ـ بدلا من تحليل السوائل؟

ـ أستطيع ذلك حتما، وأستطيع أن آتي بمعلوماتك بالتفاصيل الآن من خلال النجوم. هل تريد أن أثبت لك ذلك؟

ـ نعم أريد.

ـ ألا تخاف؟

ـ ولم الخوف، وأنت تسميها علما؟

ـ عندما أعرف كل شيء عنك، فأنت تصبح مكشوفا بالكامل أمامي.

ـ لا آبه.

ـ حسنا، لنعد إلى ما كنا عليه إذن، وتذكر أنك وافقت، وهذا يبعد الحرج القانوني الذي يحظر سبر أسرار الشخصية دون علم الألباء المختصين.

استلقى تحت الدائرة الزجاجية، روائح الخبث تنتشر دخانا من عينيه، تلوّن الفراغ بين سقفنا المرفوع والسقف المنشور، وفعلت مثله تماما، وكأني طفل الثانية الذي يقلد حركات أبيه، لكنني أختلف عنه بامتلائي بالخوف والاضطراب، بجوار هذا الإنسان المنحوت من المستحيل، وتلك الدائرة البسيطة المعقدة، التي قام الحارس بضبطها والتأكد من دقتها، فأستلقي تحتها لا أرى من خلالها إلا أيامي القديمة البيضاء، وبراءتي من كل ما يتهم به الإنسان، وتظل بقع زيت داكنة على شيفون حياته الأبيض، فيصيح بي الجمل، وذرات الهواء الناقلة لصوته تنقر زجاج روحي، كذرات العواصف الرملية:

ـ أنظر إلى الدائرة ١٠ ـ مستقيم ٢ نقطة ب، ماذا ترى؟

ـ أرى نجما ضخما.

ـ حاول أن تتأمله مليا، وتعدَّ زوايا الشعاع المنبثقة منه.

لا يدع للشك مصرفا عنه، هو منجمٌ صِرفٌ، يحاول أن يغسل مخي بمحاليل حِيَله، لكن هيهات، سأتجلد وأجاريه، وليكن ما يكون، وبينا أنا أحاول عدّ زوايا السّنا النجمي، يطيش نظري، حتى صرت أرى النجم دائرة مصمتة من الضوء، كالنقطة البيضاء المستديرة، في قطيفة

سوداء ناعمة، مرة يحركها الهواء، ومرة تسكن فتثبت أو تتدلى، انهمرت معلوماتي من خلال الجمل:

ـ أمك: سميّة، وأبوك: منصور، وإخوتك: أحمد وياسر وهيثم، وأخواتك: شيماء وآمنة وهيا، ولدتَ يوم الأربعاء من عام ١٩٨٥م، الساعة الواحدة ظهرا. هل تكفي هذه المعلومات؟

انتفض الخَدَر من كبد الجمادات كلها، فاستولى على جوارحي، وصلّب مفاصلي كفراشة علق جناحاها في إناء عسل، تلبّسني الذهول بالمقلوب، وحشرني في زاوية مقفرة من الحركة، أشعر بدوار عنيف جعل النجوم دوائر تجوب السماء لا ينقطع خط دورانها المضيء، بالكاد وجدت قوة تخوّل وَهْني أن يُغْمِض عينيّ، في هذا البحر اللجي لم أعد أنظر إلى النجم الذي حدّده لي، آملاً توقف الانهمارات المعلوماتية التي يقرؤها عني، فتفرُّ من فمي حمائم الاستسلام والتوسلات المقهورة:

ـ أرجوك توقف سيدي.

ـ لن أتوقف يا يحيى؛ لأنك قلت: لا آبه. ها هو شريط حياتك بكل ما فيه يتحرك أمامي الآن. وأنت طفلٌ تلعب مع الأطفال في زقاق الحارة، وتكسر لعبة ابن جاركم حسدا، وتسرق البيض من قن دجاج خالك عثمان، وتسرق النقود من حافظة والدك، وتصلي في المسجد مع أبيك يوم الجمعة، وها أنت في المتوسطة تتحالف مع زملائك وتضربون صديقك رمزي، وتكسر شباك الصف، وتحلف أمام مدير المدرسة بعدم علمك وأنت الطالب المثالي.

ـ أرجوك توقف سيدي.

ـ ها أنت وقد كبرت، تنظر من نافذة منزلكم العالية، وترى ابنة جاركم، وتتلصص عليها كل يوم، حتى أحست بك، وأغلقت النافذة، لكنك تتلصص كل يوم، وهي تعلم بتلصصك فتفتح النافذة مجددا، وتغازلها، هل أقول ماذا فعلت أيضا، مع فتاة على السطح ليلة ملكة أختك شيماء؟

ـ أرجوك توقف سيدي، أرجوك.

ـ هذه فقط وأتوقف حتى لا تشكك في علميّة ما نزاوله هنا، ماذا فعلت مع زملائك في الشاليه، هل أقول؟

فتكتْ بي كواسر الغثيان، عصفورا لتوّه راح بطينا، ملأ حوصلته الصغيرة بحبيبات غذاء، زاوجها بحصىً؛ تنوب عن قلة القمح في حوصلته، فتقيأت، أتمنى لو أتقيأ روحي في تلك اللحظة، الرعب منه مازال يستوطنني، يتفنن في مد نفوذه في لا شعوري، بالكاد استطعت إزاحة الدائرة الزجاجية عن وجهي؛ خشيةَ أن أكسرها فيعاقبني هذا الرجل المجنون الغريب. جلس على الفور، والحارس يمسح قيئي النتن، ويجلب لي الماء الدافئ المزوج بروح الورد النفاذ، يمسح به وجهي الشاحب، ثم جاءني بجرعة مركزة حلوة المذاق، لا أدري ما هي، لكنها أراحتني من الغثيان والدوار، وسكّنت كبدي المثلومة المكلومة، جلست منكّسا رأسي، أمام رجل مختلف الآن، مخيف إلى درجة الرعب، وهو يعلم كل الماضي الذي اقترفته، وربما تحاشى ذكر النقاط الأكثر سوادا في حياتي، نظر إليّ نظرة المنتصر، رغم كرهي له؛ أتمنى رؤية وجهه كاملا؛ لأعرف من ملامحه كنه تلك النظرة، وأقرأ تعابيرها كما يجب.

ـ يايحيى، هذا السقف المنشور، نعكف على قراءته كل ليلة، ولو تتأمل ألباء الليل لعجبت لحالهم الآن وهم يقرؤون، كل واحد متخصص في نجم من النجوم، أو مجموعة يسيرة منها، يستخرج منها على مدار العام ما لا يمكنك تخيله من العلوم والمعلومات.

ـ سيدي، أنا الآن أؤمن بمقدرتك إيمان أبو بكر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، لكن أرجوك، أتوسل إليك أن تعفيني من أية مهمة لك، فقط دعني أذهب، وأعاهدك أن يكون كل هذا سرا لا يطّلع عليه إنسان، وأن يبقى طي الكتمان ما حييت.

قهقه عاليا، ثم صمتَ، ثم اتكأ، ونظر إلى السماء، وكأنه يفكر، وأنا أغرق في التفكير والخوف والرعب الذي ألقيت بنفسي فيه، وكيف لهذا الرجل أن يسيطر عليّ، كل هذه السيطرة بجبروته وقوته، شعرتُ بالغضب على ذاتي، وأنا أسلّم له قيادي، مسلوب الإرادة، وقد تمكن من اجتثاث كل مبادئي، كما تفعل الحاجة بالوافد من بلد فقيرة للعمل في بلد غنية، ينزّ سؤال مقهور من أعماقي:

ـ لماذا لم تقرأ سوى الأشياء التي لا أحب حتى تذكرها؟

ـ لأنها أقل من البياض الذي يكوّن شخصيتك المميزة.

شعرتُ حقا بخبثه في هذه الإجابة، وكأنه يتغيّى الوصول إلى طمأنينتي لتحقيق مآربه،

كشاب يتعمد إغواء الفتيات، يثج على جدب عواطفهن أمطار الإطراء والإعجاب، حتى تغتر الفتاة، يُخيّل إليها أنها أجمل نساء الأرض، لن أكون تلك الفتاة يا جمل، ولن أكون لقمةً سائغة لك، فيعيد نظره البغيض:

ـ هل تعلم ماذا تعني لنا يا يحيى؟

ـ ماذا أعني لكم؟

ـ أنت قلبٌ نابضٌ في هذا الكيان، ونحن ننتظرك من سنين وسنين بعيدة، قبل ولادتك حتى.

ـ يا الله، ولم كل هذا؟ ألا يوجد طبيبٌ في الدنيا غيري؟

ـ ليست المسألة مسألة طب يا بني. المسألة مختلفة تماما عن هذا، ستعرفها لاحقا.

ـ أرجوك أرحني، أريد معرفة كل شيء اليوم.

ـ سيكون هذا في القريب جدا.

ـ مللت هذه الوعود والتسويفات وربك.

ـ أعدك بالتعجيل. أريد الآن أن أعرّفك بما نجنيه من قراءة السقف المنشور.

ـ أها.

ـ نحن من آلاف السنين نقرأ السقف المنشور.

ـ ماذا تقصدُ بنحن؟

ـ أقصد ألباء النور. جماعتنا النورانية.

ـ كم أعماركم؟

ـ لن تصدق.

ـ كم؟

ـ نعيش من ٣٠٠ ـ ٣٥٠ سنة.

ـ أووووه! أنت تمزح بلا شك.

ـ بل أقول الحقيقة.

ـ يا الله. وأنى لكم هذا العمر، ونحن لا نتجاوز السبعين إلا فيما ندر؟

ـ بالعلم.

ـ وهل وصل العلم إلى زيادة عمر الإنسان ومحدودية القدر؟

ـ ألم تقرأ ذلك في علومكم الطبية، عن محاولات بعض العلماء للعثور على الجينات التي تحدد العمر، والهرم؟

ـ بلى، لكنها أشبه باللاممكن.

ـ لا تعزُ اللاممكن إلى شيء في الحياة. فكل شيء ممكن.

ـ ولمَ لا تنشرون هذا العلم على البشر؟

ـ هل تظنهم سيصدقون علومنا؟

ـ بالدليل والبرهان سيصدقون حتما.

ـ لازلنا نحاول تبسيط الأدلة كي نصل بها إلى المستوى الذي تستوعبه عقولكم الصغيرة. كذلك ربما تزيد معاناتكم خصوصا فيما يسمّى بالعالم الثالث، فيصبح الحكام أطول عمرا وتطول المعاناة مئات السنين.

ـ ولمَ تظنهم لا يصدقونكم؟

ـ لأن أسلافنا قد عانوا كثيرا مع الظلاميين، ثم يجب أن نغير ألوان بشرتنا إلى اللون الأبيض المشرب بحمرة، ونغير لون شعرنا إلى الأشقر، كي يصدقنا العرب.

ـ ولمَ إلى هذه الألوان بالتحديد.؟ ولم العرب فقط؟

ـ لا أحد يستطيع قراءة السقف المنشور في بقعة من العالم كما في بلادكم، فكل القراءات التي قمنا بها من أماكن أخرى، كانت ناقصة. أما الألوان التي تحدثت عنها، فأنتم لا تصدقون إلا الغربيين، ولا تثقون إلا فيما يتوصلون إليه. حتى ذواتكم لا تصدقونها كما تصدقونهم.

ـ هذه مسألة أخرى.

ـ قراءة السقف المنشور يا يحيى، قراءة مهمة لكل عاقل، يستطيع من خلالها سبر أغوار الكون بكل تفرعاتها المضاءة والمظلمة، الممكنة واللاممكنة، والوقوف على حقائق جعلتها البشرية في حكم الغيبي أو المستحيل، وهي في عالمنا ممكنات، بل أصبحت مسلّمات.

ـ مثل ماذا؟

ـ مثل نزول المطر، وحدوث الزلازل والبراكين، والخسوف والكسوف، وانهمارات النيازك، والسديم الذي يشق السماء، والظواهر الكونية العديدة، التي مازالت خرافاتكم حتى في المجتمعات المتحضرة، تتقافز بها. لتعلمْ أن الإنسان مذ خلقه الله، يحاول تفسير كل شيء يحيط به، يظل يلهث خلف تفسير ما يجري حوله، إلى أن يجد له تفسيرا، أيا كان نوع هذا التفسير، يتشبث به، حتى يجعله مُسَلَّمَةً من الْمُسَلّمات في حياته، فتتناقله الأجيال والحضارات، وقليلون الذين يتوقفون أمام تلك الْمُسَلّمات، ويعيدون النظر فيها، لديكم ثورة علمية الآن تخرج من شرنقتها، بدأت تضيء بعض مجاهل الكون لكم وتفسر بعضه، لكنكم في الظلام، تخشون الاقتراب من وهجها، تتشبثون بأعنة الظلام، تستفتون الأموات عن مستقبلكم، وتنغمسون في بحار الدجى العتيقة صما وعميانا.

ـ كلامك هذا خطيرٌ جدا، لو سمعه عاقلٌ لاتهمك بالزندقة، والتعدي على الثوابت.

ـ إذا كان هذا حكم العقلاء منكم، فكيف من هم دونهم؟

ـ لن يصدقوك، ولن يؤمنوا بهرطقاتك.

ـ وهذا الذي حجَبَنا عنكم مرتين، وجعلنا نواصل الاحتجاب الآن.

ـ ولمَ لم يحجبكم عني؟

ـ أنت حلمٌ لنا، ننتظره من سنين بعيدة كما أخبرتك.

هنا بالتحديد فار التنور، فانهمرت ثقالي بالبكاء الشديد، وعلا نشيج الأم المكلومة في أعماقي، على عذرية حياتي التي مزقها هذا الآبق، وأهرق شرف أفكاري التي يصفها بالنسقية الظلامية، وقد استدرج فضولي وغرّر به من أجل قطعة حلوى غريبة، لن تسمن ولا تغني من جوع، حتى أشفقت على ذاتي، وشعرتُ بصداعٍ شديد يقتلع غطاء جمجمتي، والمجرم لا يحرك ساكنا، ربما يطربه نشيجي الذي يعلو باطّراد، يجدُ فيه تمرةً رطِبة لشبقه المتنامي بالسيطرة على كينونتي، وبرمجتي وِفق إرادته، لم يقطع نشيجي إلا صوتٌ ناعمٌ لذيذ الرنة، كأعذب صوت يسمعه الإنسان، رفعت رأسي إلى غانية كأجمل ما تكون الأنثى، طولها المتوسط على جسدها البضُّ يغريان عصافير نظري بتلاوة اللحن على كتفيها، وتأمل نعومة

خديها وجيدها، والشعر المتقوس نزولا على جبينها، ينسدل على كتفيها قطعا من ليلٍ بهيم، وصدرٌ جامحٌ يضيق ذرعا بالحرير الأحمر، المموج بالكتان، يكاد يتفطر من عتوّ التفاحتين، نظرتُ إلى عينيها ففقدت الجمل بما حمّلني من آلام ونشيج، فابتسمتْ وقد تورّد خداها، فأشاحت بنظرها إلى الجمل، وهي تسأله:

ـ ما به؟

ـ أهيئه للنور.

ـ ولمَ يبكِ؟

ـ يخشى أنني أقوض عقله.

ـ سيدي، لقد وجدنا شائبة في السائل الأحمر، لن تجعله مجديا لنا ربما.

قفز الجمل من مكانه، حتى أحسست أن المبنى قد اضطرب، فاحتشد الحراس على الفور، وصاح بها:

ـ ماذا تقولين؟

ـ هذا ما وجدناه سيدي.

ـ قفي مكانك ولا تتحركي.

فاستلقى على الأرض هائجا يزمجر، فقدَ رزانته التي ما انفك يتصنّعها أمامي في كل لقاء، جذب المرآة الزجاجية بخفة، أخذ يتفحص السماء، بل ربما يذْرَعُها، ويأتي بأقيستها، بقي على هذه الحال زهاء ساعة، ساكنا لا يرف له رمش، والفتاة واقفة لا يتحرك منها شيء، وأنا في ذهولي وسكرتي التي سلبتني إرادتي حتى في النظر إلى تلك الفاتنة وصوتها العذب الدفيء، ضِباع الرعب تفترسني، تتقافز على فكري من كل ظلام سحيق، لن يتركني الجمل أبدا، حتى لو لم أكن حلمهم، سيقضي عليّ وقد اطّلعتُ على كل أسراره، لن يتركني أبرح قراه الثلاث، أنا الآن مصدر خطرٍ عليه ربما، سيحلُّ بي ما حلّ بالرجل الأحمر الذي جاء إلى المستوصف أمس. سأحيا شريدا طريدا كالذئب المنبوذ في هذه الأرض، أو مقيدا بالأصفاد العقلية والحقيقية ضمن العبيد، أو سيقتلني.

أخذت أدعو ربي (يا إلهي، أنا عبدك المسكين البسيط، أعف عني يارب، وتجاوز عن

فضولي الغبي، كن معي أمام هذا الزنديق المجرم. هذا المنجم الكاذب. والكاهن الأشر. ربّ احمني منه، واجعل كيده في نحره، رب احمني منه).

يقض خشوعي وتوسلاتي عندما هبّ واقفا، وصاح بالحارس:

ـ نادِ ألبّاء الليل والنهار جميعا، بكل تخصصاتهم، واتجاهاتهم، لا يتخلّف منهم أحد.

فاكتظ بهم المكان في دقائق معدودات وكأن الحراس قد أخرجوهم من كراتين خاصة. وكل واحد منهم يحمل شكلا زجاجيا مختلفا عن الآخر، ليسوا كالذين رأيتهم بالأمس، بل أرى ضمنهم من لا يتجاوز العاشرة أو كان فوقها بقليل، وفيهم الشُبّان، والرجال، والكهول، رجالا ونساء، وتلك الفتاة ماتزال واقفة جوار الجمل، بينما استلقى الجميع على الأرض كأنهم أعجاز النخل كبارا وصغارا، يتفحّصون السقف المنشور، كالباحث عن إبرة في السماء، والجمل يهدر بهم واقفا:

أَلِبّاء. أَلِبّاء. أَلِبّاء. يومكم المنتظر بين أيديكم، وفيض البشائر يفيض، حوموا في السقف المنشور، وانبشوا أكنان القبور، وفتّقوا قطرة الماء للظِماء، وتذكروا أنكم الأعلون ولا غالب لكم.

ثم التفتَ إلى الفتاة الجميلة، وأمرها بإحضار السوائل كلها، وتفحُّصِها على مرأى جميع الألبّاء، والانتهاء من التحليلات في أقل من ساعة. وما إن أحضرت الآنية بسوائلها، حتى جلس الجميع وتحلّقوا في دوائر، كنت أنا الفقير إلى الإرادة مركزها المحموم بارتكاز الأنظار عليه، بجوار الجمل والفتاة، فأمر الجمل بالقبة، فأعادها الحراسُ سيرتها الأولى، تتابعت أجزاؤها حتى أغلقوها بالكامل، أزالوا عنها ستارها، فتحوّلت شمسا مضيئة، جمعتْ كل شعاع في السماء، وأضاءتْ به تلك القاعة بوهج كساعة الضحى، أخذت الفتاة المخطوفة فزعا تغمِس أناملي واحدة تلو الأخرى في سوائلها، أشعر برعشة أناملها، وأتمنى لو أنني في مزاج صافٍ، كي أتحسس نعومة تلك الأنامل، وكلما بلّت إصبعا، مسحته بقطعة من حرير خاص، وتناقله كهول الألباء، والجمل ينتظر النتيجة. أما أنا فبين أمرين أحلاهما علقم:

الأول: إن لم أكن حلمهم؛ سيكون مصيري أشد سوادا من خافية الغراب.

الثاني: إن كنت أنا المطلوب، فماذا سيفعلون بي.

تمنّيت أن أكون المطلوب، أن أكون حلمهم المنشود المنتظر، ولا أدري لِمَ تمنيت ذلك، ربما

خشية الموت، أو ربما فضولي الذي أعاني منه كثيرا. مازال لساني يلهث بالدعاء أن يحميني الله من تدبير هذا الجمل المجنون، وأن أعود إلى أهلي سالما من شر هذه البلوى. فاستلقى الجمل على الأرض يراقب السقف المنشور، زهاء ربع ساعة، ثم وقف هاتفا:

البشرى البشرى، هو هو، حلمُنا حلمُنا. فوقف الألباء مهنئين مستبشرين، وبعده بدقيقة هتفت الفتاة الجميلة أيضا، نعم إنه هو، لم يتفاجأ الحاضرون، فاستغربت اكتشاف الجمل، وعدم تفاعلهم بعد تعب الفتاة والجميع في إجراء التحليلات، لكن في ذات اللحظة شعرتُ بارتياح نوعا ما، وقد تبخرت بعض سحائب الخوف التي لبّدت سمائي، بعدما عدتُ شمسا في بؤرة الحدث والاهتمام الجملي.

اقترب الجمل مني، صافحني بيده الساخنة، التي أكره حسها، أشعر بها تكهربني، فهي يدٌ آثمة، تقتلعني من تربتي، وتغرسني في الهواء، ربما أجف أو أموت، ثم مر بي الألباء جميعا، وكل من مر بجواري لمس كتفي بيده، كأنني الحجر الأسود، ثم انصرف إلى شأنه، لم يبق إلا أنا والجمل والفتاة والحارس الوسيم، فأمر الجمل الحارس أن ينادي متصرف القصر، فحضر على عجل، وملابسه المشدودة على جسده توحي بسلطويته، فأمره أن يحتجز الفتاة إلى أن يعقد محكمة تنظر في خطئها الاستراتيجي. الفتاة الملائكية تتوسله، تعتذر إليه وتحاول التبرير، تسيل لآلئ دمعها على أنعم من القطن، لكنه يعرِض عنها بجلافة ممقوتة، تمنيت لو أن لي عليه سلطة لحظتها. ذهب بها المتصرف وقد ذوت نضارة عينيها الباسمتين. لأسأل الجمل:

ـ هل عندكم محاكم ـ أيضا ـ؟

ـ نعم لدينا محكمة القسطاس.

ـ هل ستعاقبونها على هذا الخطأ البسيط؟

ـ نعم يجب أن تعاقب، وستعمل في السجن، وهناك لبيبات أخريات يقمن بعملها، ومنهن من هي أعلى منها.

ـ ماذا لو لم أكن حلمكم؟

ـ لا شيء.

ـ أصدقني القول سيدي.

ـ لا أدري، ولم أفكر في ذلك لقناعتي أنك حلمنا في هذا الزمان.

ـ علام سأحصل مادمت أنا الحلم؟

ـ على كل شيء.

ـ ماذا ستجعلني؟

ـ ستكون مثلي.

ـ جملا آخر؟

ـ أكثر من جمل.

ـ وكيف يكون ذلك؟

ـ ستعلم لاحقا يا يحيى.

ـ كل شيء سأعلمه لا حقا.

ـ تجلّد بالصبر يا يحيى.

ـ قلتَ سابقا بأنكم ظهرتم للظلاميين مرتين. هل تعلمني بها؟

ـ نعم لك ذلك، لكني أرى في السقف المنشور أنباء سيئة، لابد أن أستطلعها الآن.

ـ وهل بإمكانك معرفة كل ما يدور على سطح الأرض.

ـ سترى ذلك الآن.

يلتفت إلى الحارس، ويطلب منه إحضار متصرف الأخبار، فيحضر على الفور، وهذا الحضور السريع منهم، يربكني، ويعجبني جدا، لا مجال لهدر الوقت عندهم، يجلس متصرف الأخبار على مكتب معد له، وخلفه يقف عشرة شبان وفتاتين، فيومئ له الجمل بقراءة الأخبار، فيبدأ:

* الحوثيون يعلنون انسحابهم من جبل دخان، ويعودون إلى الأراضي اليمينية، ويأملون في محادثات هدنة مع القوات اليمنية.

* شرطة دبي تكشف عن مخطط اغتيال المبحوح بمعلومات أوسع مما أعلنته.

* الرئيس السوداني يوافق على إجراء الانتخابات مع حركات الحرية في بلاده.

* العراقيون يستعدون لبدء انتخاباتهم الرئاسية قريبا.

* قمة الرباعية ستنعقد قريبا في موسكو لبحث ملف إيران النووي، وقضايا المستوطنات الإسرائيلية في القدس.

* زلزال عنيف يضرب جزر أندونيسيا الشرقية، ويخلف عشرات القتلى ومئات الجرحى والمشردين.

* العاصمة السعودية تستعد قريبا لاحتضان معرض الكتاب الدولي، ومهرجان الجنادرية.

* الرئيس أوباما لا يرى حكمةً في سحب القوات الأمريكية من أفغانستان، وحركة طالبان تعلن عن مسؤوليتها عن تفجيرات كراتشي.

* أطباء ألمان، يعلنون عن محاولات جادة، لإيجاد علاج للسرطان، عن طريق المورثات الجينية.

* الاتحاد الأوروبي يحاول توحيد الرؤى بين دوله الأعضاء، لمساعدة اليونان التي تمر بأزمة اقتصادية حادة.

* مدينة سرت الليبية، ستكون مقرا لاجتماع قمة الجامعة العربية قريبا.

يرفع الجمل يده في هذه الأثناء، فيتوقف المتصرف عن قراءة الأنباء، ويومئ إليه أن ينظر إلى السماء، فينظر المتصرف، ويلتفت إلى الشبان الواقفين خلفه، فيهمس في أذن أحدهم، وينطلق سريعا، وخلال لحظات يعود وفي يده ورقة خضراء، يسلّمها إلى المتصرف، فيرفع نظره إلى الجمل، ثم يقرأ:

يثور فجأة بركان (سادور) الخامد في جزيرة (يابوتا)، وتتدفق الحمم باتجاه المدينة بسرعة عالية، ستكون كارثة إنسانية مروّعة، ربما تطمر المدينة بأكملها.

يقوم الجمل من مكانه كالمرعوب، ويتأمل السماء، ثم ينظر إلى المتصرف ومعاونيه، ويأمرهم بالانصراف ومتابعة الحدث، وموافاتنا بالتفاصيل بعد ساعة. نظر إليّ، وقال:

ـ أرأيت ما تعطينا النجوم؟

ـ هل كل هذه المعلومات من النجوم، أم لديكم أجهزة تلتقط البث من وسائل الإعلام العالمية؟

ـ كلا، نحن لا نثق بأية معلومة إن لم تكن من السقف المنشور.

ـ الذي أتمناه يا يحيى، لو أنني أملك ما يغير عالمكم المضطرب؛ لأعيده إلى الصواب والإخاء، والعيش بسلام. أخباركم ترهقنا كثيرا، وكلها قتل وتدمير، وجشع مادي يطغى على كل شيء، حتى على ثوابتكم الشرعية والعرفية والإنسانية، والمحزن أنكم تضعون القواعد الصارمة، ثم تفلجونها سريعا إن لم تتوافق ومطامع البعض منكم، هاهي القضية الفلسطينية وأممكم المتحدة ومجلس الأمن، لم تستطع حل هذه القضية من خمسين سنة، ولا يمر يوم إلا وقد مات إنسان على الأقل من الطرفين، وكل عام تنشب مجزرة تودي بحياة المئات.

ـ هل تستطيع حل هذه القضية سيدي؟

ـ لو كنت في موقف الحل، لما وجدت قضية أيسر من حلها. مصيبتكم يا يحيى، أن كل أمة منكم، تريد أن تكون الأمة المطاعة، الأمة المهيمنة دينيا واقتصاديا وسياسيا وثقافيا، فكيف يكون التعايش في ظل هذه النظرة الضيقة جدا؟. أنتم امتداد للعصور القديمة، وما الحضارة الزائفة الآن إلا كموظف التجميل الذي يغير معالم الوجوه البشعة، بأنضر الألوان والأشكال المستحبة أو على الأقل المقبولة، فمن خلال هذه الحضارة يستمر الفكر الاستعماري، وتعود العبودية إلى الشعوب، وتكون العبودية من خلال فكر التجويع، ومن خلال التجويع تنشأ الطبقية.

أما أنتم في العالم الإسلامي خصوصا، فتتعاقب عليكم الكثير من معاول الهدم الذاتية، تهدمون أنفسكم بأنفسكم، لديكم تاريخ زاخر بالمجد في نظركم، انهدم هذا المجد في العصر الحديث بانهزام الدولة العثمانية وتلاشيها، وجدكم الغزاة والمستعمرون غنائم هذه الدولة المتلاشية، فعاثوا خلالكم سلبا ونهبا للثروات والعقول، ثم أيقظوكم، لتنالوا حرياتكم على أنقاض ثرواتكم، وقد زرعوا فيكم ثلاث قضايا:

الأولى: الطائفية والمذهبية. وعندما رأوها لا تثمر كثيرا لتوافق بعضكم مذهبيا. عمدوا إلى الثانية: القطرية، فرسموا الحدود بينكم بالمسطرة وجعلوكم أشتاتا. ثم الثالثة: أقنعوكم بعجزكم، وعدم تمكنكم من اللحاق بالركب الحضاري، فاستسلمتم جميعا لتسمية (دول العالم الثالث)، وانظر إلى عالمكم الإسلامي اليوم؛ تجده من أفقر الشعوب علما ومالا.

ـ لا أؤيد الأحكام التعميمية سيدي.

ـ لا تكابر يا يحيى، ودعني أكمل حديثي.

هذه القضايا الثلاث المركزية أفرزت إفرازاتها الثانوية داخل نسيج المجتمع الإسلامي، فنشأت الطائفية، وهي الآن في أوج عنفها، ثم نشأ الفكر المتشدد العائد بشدة إلى أحضان التاريخ البعيدة، عله يجد شيئا أبيض يرفعه في حلك السواد، فغالوا كثيرا، وأفرز هذا التوجه الدموية والعنف، ومحاولة إعادة الأمة برمتها إلى تلك العصور، وكل دمويتهم من أجل الوصول إلى السلطة، والتحكم بالأمة من أجل تلك العودة.

أما الفريق الآخر، فقد سلّم أمره للفكرة الغربية، وربط أنفه في حبلها وسار مغمض العينين، بلا هوية، وبلا انتماء، حتى غرق ذوبانا، وفوق ذلك مايزال يحاول أن يربط كل الأنوف بحبل الفكرة الغربية، ويسيّرها في ركابها. والمرُّ في الفريقين أن كل واحد منهما محفزٌ للآخر في الإيغال والمغالاة في التوجه.

ـ وماذا أيضا؟

ـ الكثير يا يحيى، لكن الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة، سننتظر تقرير خبر البركان وبعدها سننام.

ـ والعشاء سيدي؟

ـ نحن لا نتعشى يا يحيى، هل أنت جائع؟

ـ نعم.

ـ سيكون عشاؤك كأس من الحليب المكثف تجده في حجرة نومك.

يحضر متصرف الأخبار سريعا، ويقرأ التفاصيل واقفا: وقد غمر البركان جزءا واسعا من المدينة، وهلك الآلاف من البشر هناك، لم تعلم السلطات بنشاط البركان، ولا عن ثورانه المفاجئ، الذي لم يطلق الدخان والأبخرة كعادة البراكين العائدة من الخمود إلى النشاط

. فيهز الجمل رأسه:

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون.

٤

" الخوف مولود الظلام، يرضع من أثداء الظلم
والقسوة والعنصرية والانتقام، لا يقتله إلا النور "

*مقتطف من كلمة الجمل في قرية قصوى

- ٤ -

دخلتُ الغرفة المعدّة لنومي، وهيهات لسجينٍ لا يعرف مصيره أن يكتحل جفنه بالنوم بيسر. منهك القوى، رث الحال، ينوء بهمّي العصبة أولو الابتسامات العِراض، يسير في جسدي جيش وهن، كأنني عامل أسودَ يتدربُ في مركز صيانة السيارات، وكل العاملين القدامى ينعقون به، فلما جاء المساء، لم يصدق أن يتموضع ظهره على الأرض؛ ليغمى عليه إلى صباح الشقاء الجديد، جيوش من غربان الأرق تنقر عيون نومي، تقلّبت كثيرا، لكن دفتري الأمين لا يأبى البكاء على صدر بياضه، الذي يعشق الصباحات برونقها، ويأنف من وحشة الظلام، بخاصة إن كان في عالم الجمل المقنع، تركت قلمي ينزلق بأنامل روحي المتعبة من مسائي الدميم:

ذا المساءُ قتيلْ..
والحرابُ المربعةُ القبحِ في وجهِهِ شامةٌ..
لا يسُنُّ شباها سوى وجهُ نبضي الأَليم..

، ،

ذا المساءُ ثقيلْ..
وقتما يلتقطْني على كفّهِ..
قابضاً..
عاصرًا..
لا يُفرِّجُ عن زفرةٍ هاربةْ..
لا يخلّي سبيلَ أنيني..
ولا يسجهرُّ إلى دمعةٍ يابسة..

بعدما حلبت أثداء الأرق على بياض الورق، تذكرتُ الحليب الكثيف، وخواصّه

السحرية، لأشرب منه وأغيب عني.

هدوء الغرفة غريب جدا، أخالني وحيداً، في صحراء مقطوعة عن كل المخلوقات، حتى الرياح لا تهبها، تأتيني نسائم عليلة، ولا عِلم يضيء جهلي عن نُظُم التهوية عند هؤلاء القوم الغريبين في كل شيء، والعجيب أن كل الحجرات والقاعات التي دخلتها بكل أصنافها وأحجامها معتدلة التهوية، حتى في وقت الظهيرة، والاعتدال في نظري، فلا أفكر في الهواء، أو التبريد لأنني لم أفتقده ولم أحتَجْ إليه. لم يتركني عقلي الباطن أنام دون أنيس، وتلك الفتاة الجميلة (فازرا) تدير أقراصي المرنة والصلبة على مشغلات ومشعلات فتنتها، ترقص في فناء الغرفة، وقد حشدت جيوش مفاتنها، تغزو قرى الوقار المتصنَّع، تزعزع أسوار ممالكي الخجلى، تعبث ريحها الصرصر بأفئدة صبري، تحرك خلايا أمانيّ المكبوتة، بل المربوطة في قمقم عقلي، أو خوفي، أو تقاي، لا أدري أين تتسمر حبالها، لكنها بدأت تتمزق واحدا تلو الآخر، وهي بسحرها المبين تتراقص عليها، تذيبها بحرارة جسدها البض المحشوّ فتنة، تستفز شياطين التقى، وملائكة العذاب في أعماق كينونتي، فأنسكب ضعفا، وجنونا يستفز أنوثة الجدران والنوافذ، يقزّم أنامل الليل المسجى في أوداج عقلي، المنحور على مفرق نهديها، وغواية تتعملق في غوري المتلظي، تقلّم أظفار ملائكتي الباكين على ضحالة تقاي، فتفزع سكون الليل، تتقافز النجوم إلى نوافذ الحجرة، تراقب أجندة الغرائز تنسدل على بسط الظلام، تنزف شفتاها التوت الناضج على شقوق شفتيّ الذائبتين كمدا، وقد انشقتا عن سابلة لخيول ثناياي العاضة بشراهة، مع كل هزة وغمزة، ولسان حالي لا يكف عن التحايل إلى استدراج غدد العسل تحت قلم روحها الأحمر، تجمح راقصة، تتهاوى أرفف عقلي على تدحرج عجيزتها في الهواء، وتتعلق أنفاسي تعلق الماء بنواعير نهديها، لأصحو وقد مزقت الوسائد التي تحميني من برودة الجدار، ضمّا وتقبيلا. تأملت الأمر مليا، وذاكرتي مخلصة في تسجيل أحلامي بأمانة، لم أشكرها عليها إلا هذا الصباح، الذي تنفسته هائما بفازرا، فتاتي الجميلة العذبة، فأتشيأ قلما، أعانقها ونرقص فوق بياض دفتري:

أنثى تُغرِقُ نصفَ العالم..

في لُجَجٍ من سِحرٍ ناعِمْ..
وأنوثتُها تغمسُ عقلي..
في دَنٍّ سكاكرَ ورديةْ..
فتذيبُ جداراً يحجُبُني..
عن فتنةِ أنثى شهْديةْ..
تتقافزُ ضخّا أوردَتي..
تحمَى الرعشاتُ على جسدِي..
أشعرُ بالقيظِ يلمْلِمُني..
من حضنٍ شتائي، يسلبُني..
أتقاطرُ لحناً..
أو ماءً..
أو شعراً..
أو لونَ ضياءٍ..
يُجلو إعْتاماً في كبدي..
..

أخرج من غرفتي، أتذكر خبث الجمل، فأجر وجهي على الأرض خجلا من الملتهب جنونا، لفرط شغفه بالسيطرة على صيده الثمين.

هذا اليوم المكتظ بخطايا العقل الباطن، بدأ بنوع جديد من التعامل، لم يعد الحارس يرافقني في تجوالي خلال القصر، بل سرتُ بمفردي إلى مجلس الجمل، ولم يعد للتعقيم أهمية بسوائلهم الحمر والخضر، كان الإفطار الطبيعي الطازج ينتظرني على المائدة، والجمل كذلك لتوّه دخل، وكأن التوقيت يحمل أسرارا لم أعلم عنها شيئا بعد، وكم أخشى أن أتصبّح بعينيه البغيضتين لروحي، أخشى أن يتهكم بحلمي، فما أقسى الشعور عندما تكون أسرارك بكل أصنافها المستديرة والمربعة وشبه المنحرفة مكشوفة، لا يحجبها حجاب عن إنسان مثلك، مهما كانت صلة قرابتك به، حتى أبوك وأمك، بل حتى زوجتك وابنك، لك أسرار خبيئة

تتمنى ألا يطلع عليها أحد، بودك أن تمسحها من ذاكرتك لو استطعت، حتى في نومك بجوار زوجتك تخشى أن يبوح بها عقلك الباطن، وما أكثر هذياننا في النوم؛ لمرارة الواقع الذي نعيشه، وكثرة المكبوتات في ظل مقولة (الجدران لها آذان).

أخذ تفكيري المرتجف خوفا، يجدّف خلال روحي المترقبة، يتوجّس تماسيح الجمل الافتراضية، يخيّل إليه أنها بعشرة أفواه، لكل فم فكّان قاطعان شرسان، لم تنتشر أسنانهما كمناشير تماسيح أفريقيا؛ بل شفرات حادة متصلة على امتداد كل فك، ربما ارتسمت في عقلي من صورة التمساح على علبة الشفرات الخمس، التي كنت أسرقها من شنطة أدوات الحلاقة المخبأة في خزانة أبي. يجول في خلدي كل شيء، وبالأخص برنامج تفسير الأحلام، وأولئك المشايخ المغرمين بتفسير كل شيء، ربما كان معنى فازرا عندهم شيئا آخر، أظل أترقبه دائما، وربما كان رقصها موتا، أو حادث سيارة، أو صدقة جارية، ويمر بي صراخ زميلي ناصر، أو الشيخ ناصر كما يسميه أستاذنا في الجامعة، وأشعر بارتياحه وزهوه بهذه التسمية، وهو يسفّه أحلام فرويد وكتاب تفاسيره للأحلام، وكلما جادلته هزِئ بي، ورماني بحجارة سجّيله المسومة للعلمانيين والليبراليين وأذناب الغرب.

بدأنا تناول الإفطار الشهي، والجمل لا ينظر إليّ، فكأن ذلك الازورار من جانبه يُنبؤني بعلمه بأحلامي، فيحاول من خلال الازورار أن يبين عدم علمه، وفي ذات الوقت أخشى أن يكون منشغلا بمحاكمة الفتاة ويومه الجديد الحافل بالعديد من الأحداث كعادته، ولم يجد الفرصة بعد لكشف خبايا نومي الآثم.

في أعماقي توقٌ إلى الوقوف مع الفتاة الفاتنة، وإخراجها من مأزق المحاكمة، لكن الحلم اللعين، وعين الجمل الشيطانية، تمنعانني من الحديث عن الأمر، وقعت في صراع مرير، كطالب يحاول الغش في الامتحان، وقد تهيأ له في حضرة أستاذ منشغل بجواله، لكنه لا يأمن تلك الكاميرا المعلقة في الجدار. آثرت الصمتَ؛ لعل الساعات القادمة تبين لي الضمائر المستترة عني، في تأويلات الجمل الإعرابية والأعرابية. عندما فرغنا من الإفطار، رمقني الجمل بنظرة تذيب جلاميد الجمال الجائلة في (أم رقيبة)، لتتضاءل كباشا صغيرة لا تساوي الخمسمئة ريال، ولا تحفل ملكات جمال النوق بها. أطال تلك النظرة المسمومة، لأشعر أنني أقل حالا

وضآلة وفقرا من فأر المسجد في قرية حجازية باردة، ثم قال بصوته الغليظ:

ـ ستدخل عند الواحدة ظهرا قاعة الدرس؛ ليتأكد الألِباء من المرحلة التي تستحقها.

ـ ولمَ الواحدة ظهرا بالتحديد؟

ـ لأنها ساعة مولدك.

ـ إذن أجّلها إلى يوم الأربعاء.

ـ يوم الأربعاء ستكون بداية درسك الفعلية، أما اليوم فمن أجل تحديد المرحلة.

ـ أنا أحمل شهادة عليا.

ـ شهادتك ربما لا تتجاوز المتوسطة في تعليمنا. هل ستحضر المحاكمة معي بعد قليل، أم تريد الذهاب إلى الحديقة.

ـ نعم سأرافقك.

كدتُ أتوسلُ إليه أن يصفح عن الفتاة، لكني آثرت أن أرى المحاكمة، وأطّلع على جوهر قضائهم، سرتُ برفقته إلى محكمة القسطاس الواقعة في طرف المرج الأخضر خلف القصر، دخلنا جميعا، ووقف الجميع في القاعة، فارتقى الجمل إلى مقر أعلى من مقر القضاة الستة الذين يعتلون منصة بيضاء ويجلسون بانتظام، ثلاثة رجال وثلاث نساء، رجل بجواره امرأة وهكذا، لم أرَ ملابس خاصة، ولا مشالح أو لِحى، ولا ذلك الصوف الذي يضعه قضاة المحاكم الغربية قديما، بل في ملابسهم العادية، لكن ملامحهم تشي ببلوغهم من العمر عِتيّا، أشار إليّ الجمل أن أجلس في الصف الأمامي.

للمكان إجلال عظيم في نفوسهم، وكذلك شعرتُ فورَ دخولي، وذاك الشّعار المزدان به صدر القاعة، شمسان متوازيتان يربط بينهما عمود من نور، تحت منتصفه مثلث من ضوء، كأنها لعبة الأطفال الخشبية، التي يجلس طفلان على طرفيها فترتفع بالأخف وزنا وتهبط بالآخر. أما الفتاة فكانت تجلس على منصة موازية لمنصة القضاة، لم تظهر على المنصة كما زارتني في الليلة الساخنة، ربما لو أتتني على تلك الحال لاتصلت بأحد مفسري الأحلام فلن تكون إلا مصيبة، في مقابلها يجلس المتصرف على منصة أيضا، لا يبدو عدوانيا، والقاعة تغص بالألباء ذكورا وإناثا.

بدأت المحاكمة بسماع أقوال الفتاة أولا، التي بررت عن خطأها، بتراكب جزيئين من المحلول، ولم تنتبه إلى فصلهما، فشوشا عليها في المعلومات، حتى ظهرت النتائج بغير ما تتوقع. وحكمت من خلال تلك النتائج.

هدوءها في سرد التفاصيل، وإصغاؤهم الحفي بتلك التفاصيل، لفتا إعجابي، فلم يتجرأ المتصرف على التكلم حتى أشارت إليه القاضية، فأخذ يسرد ادعاءه، ويوهن حجتها، ويرى أن الأجدر بها أن تعيد الاختبار إذا ظهرت النتيجة غير المرجوة. وأن هذا الخطأ استراتيجي يتعلق بالأمة، وليس خطأ عاديا.

زجره القاضي مباشرة، فليس من حقه تقييم نوعية الخطأ، فالفرد يساوي أمة في القانون، ولم يذكر النظام خطأ استراتيجي أم عادي، فالخطأ خطأ أيا كان، وعلى القاضي تقييم العقوبة التي يستحقها، وفق الضرر الحاصل.

لم يطل القضاة التشاور، حتى نطقت القاضية الوسطى بالحكم:

(دستور القرى الثلاث، أحسّ ذنبا من اللبيبة (فازرا). نصف سنة نجميّة، تقضيها في قرية قصوى، تُعفى من نصفها إن جاءت بعمل عظيم).

نكّست الفتاة المكسورة رأسها وسقطت دمعتها، واشتعلت ابتسامة المتصرف، فرفعت يدي، فأشار إليّ القاضي أن أتكلم، شعرت برعدة خوف وخجل أمام أولئك القوم الذين يخيّل إلي أنهم يحدقون إليّ أكثر من أي شيء آخر، فقلت:

ـ أتوسل إلى مقام القضاء العادل، وأتوسم من شخص الجمل، العفو عنها.

لم يلتفت إلى توسلي أحد، حتى الفتاة لم تنظر إلي، انفضت المحكمة سريعا، وخرج الجميع إلى شؤونهم، حتى الجمل لم يأخذني برفقته أثناء خروجه. بقيت وحيدا في القاعة، أستغرب تهميشهم لي، وكأنني لم أتكلم، أو كأنني نطقت كفرا. بالكاد قمتُ من مكاني خطاي واهنة، وجسدي لم يعد فيه ذلك النشاط، سرتُ من خلال المرج الأخضر إلى القصر، الحيرة من تهميشهم وتصرفهم تعصر فؤادي، كنت أراني مهما جدا بالنسبة إليهم، لم أجد الجمل هناك، جلست في المجلس أنتظره، تأخر فسألت الحارس، أجاب بعدم علمه، فتك بي القلق، وأخذت أراجع مقالي، وأشك في عدم فهم القضاة قولي، أو أن الذبذبات لم تنقل

صوتي إلى مسامعهم، لكن القاضي بنفسه أشار إليّ بالكلام، كذلك خروج الجمل بدوني يعني أن هناك أمرٌ مزعج، فإذا بالجمل يدخل إلى عرشه بين فكي الأسد، يسلم ويجلس:

ـ أنا عاتب عليك.

ـ لمَ يا سيدي؟

ـ لم تكن مؤدبا في المحكمة، وأحرجتني وأحرجت القانون والقضاء.

لم تكن عبارات ينطقها؛ بل كانت مرازب يضرب بها مفرق عقلي، فتتناثر جزيئاته شظايا، تهشم زجاج روحي، وتدمي جبين قلبي الحائر.

ـ يا الله، أنا فعلت كل هذا؟

ـ أنت لستَ في العالم الظلامي يا بني، هنا في عالم النور، النور فوق كل شيء، فوق الرحمة والشفقة والمكانة وفوق كل العواطف، كلمة القاضي في عالمنا أقوى من كلمتي، ومن كلمة أي أحد.

ـ كنت ألتمس العفو لها.

ـ أهنت المحكمة عندما توسلت، واتهمتها بعدم الرحمة والعدل.

ـ كنت أشفع فقط.

ـ أعلمُ أنك كنتَ كذلك، ولم أتأخر إلا لأني اجتمعتُ بالألباء، وشرحت لهم وجهة نظرك، وبالكاد اقتنعوا بها، لقد غضبوا من تصرفك كثيرا.

ـ وهل أرضاهم شرحك لوجهة نظري؟

ـ نعم، قلت لهم: أنك من مجتمع أشبه بالهمجي؛ أقوى السلطات فيه سلطة الواسطة والشفاعات، في كل شيء، ربما قتل أحدهم ابنك، ثم جاءك الشفعاء من كل حدب وصوب، ودم ابنك لم يجف بعد، ربما اغتصب متنفّذٌ أرضك، فجاءك الشفعاء والوسطاء من أجل أن تتقبل الأمر بروح صابرة محتسبة، يعدونك بأرض في الجنة على أربعة أنهار من ألذ المشروبات وأنفعها، فلا قوانين عندهم تقف في وجه الواسطة أبدا، حتى الدين يمكن توسيعه ليحتوي الموقف وفق إرادتهم وتوجهاتهم المطاطية، التي تضيق بالبعض وتتسع شاسعة للبعض الآخر، ومن فرط تقديسهم لها، اشتقوا لها مصطلح (الشفاعة) الأبيض الذي يستقي وقعه المريح في

النفس من الشفاعة الأخروية، فيوحي بتحبيبها إلى النفس المؤمنة.

ـ وكيف تسبني وأنت تطلب رضاهم عني؟ ألا يرضيهم إلا التعريض بمجتمعي؟

ـ لست أسبك، بل أشرح لهم نسقك الاجتماعي.

ـ وهل نسقي الاجتماعي بهذا السوء في نظرك؟

ـ دعك من هذا، فقد عالجت أيضا خطأك الآخر.

ـ أي خطأ؟

ـ في محكمتنا لا يذكر اسمي في أيّة قضية، وقد أحرجتني، وأحرجت القضاة عندما ذكرت اسمي هناك، وأهنت استقلالية المحكمة، أنا حاضر لأنني طلبتُ المحاكمة، ولا أستطيع التدخل في أي قرار تصدره هيئة القضاة الألباء.

ـ وماذا قلت لهم في اعتذارك عن هذا الخطأ؟ أتتبعتَ مثالب العالم كلها لترضيَهم أيضا؟

ـ اهدأ. ودع عنك التعصب والتعامي والعنصرية.

ـ ليست عنصرية، لكنك تسيء لي ولمجتمعي، وتتهكم بنا في كل مناسبة.

ـ لم آت بحديث الإفك، بل أشرح واقع مجتمعكم.

ـ وهل تعيش بيننا، وتعرف كل خبيئنا؟

ـ أعرف مجتمعك أكثر منك. تأمل تقديسكم للشخوص، واختزالكم لكل شيء في شخصية واحدة، قلت لهم: أنكم تختزلون الدين في شخص فقيه، والوطن في شخص حاكم، والشعر في شاعر واحد، والطب في شخصية طبيب، والعلم في عالم أو فقيه، ولا تنفكون تقدسون هذه الشخوص، حتى تصبح أقدس مما تمثله في نظركم، وكل من ينتمي للمجال الذي قدّستم فيه شخصية يصبح ثانويا، لا يعتدّ به إن لم يصادق المقدّسُ على نتاجه، ولتلك الشخصية المقدسة الحق في تسفيه أحلام تابعيها وقتما وكيفما شاءت.

ـ أنت تصوّرنا بأبشع ما يمكن، نحن لا نقدس أحدا.

ـ لست أنا، بل الوقائع يا يحيى.، ولست أعني التقديس الكهنوتي، بل ترفعون الشخص مقاما؛ يحجب كل شيء خلفه. ولعلّي أزيدك من الشعر أبيات.

ـ ماذا بعد؟

ـ في معرِض استرضائي لهم، شرحتُ للألباء، أنكم شخصيات تحب الدفاع عن الأنثى، وتشعر بالحمية في الدفاع عنها، وربما تكون الدوافع الغريزية أوحت إلى يحيى بالاستعطاف والصفح عن فازرا، طمعا في استمالتها.

هنا غمز بعينه، فشعرت بتضاؤلي، وأحسست بتفاهتي حقا، وتمنيت لو أنني عرضت عليه الأمر أثناء جلوسنا على مائدة الإفطار، أحسست من غمزته الأخيرة أنه قد لاحظ نظراتي الشيقة إلى فازرا بالأمس، أو علمَ بحلمي الليلي المجنون.

ـ سيدي، ماذا تقصد؟

ـ أقصد أنك معجب بالفتاة جدا.

ـ وكيف عرفتَ ذلك؟

ـ نظراتك بالأمس بعد نوبة البكاء الذي انقطع فجأة بحضورها؛ كانت معبرة ودافئة.

تنهدتُ الصعداء، وظني يكبر أنه لم يرَ حلمي، وليتني أملك إزالته من شريط حياتي، حتى لا يقرؤه هذا الهادر على قوارع خوفي.

ـ سيدي، لا أشعر بالأمان بينكم.

امتعض بشدة من تصريحي المبتذل في نظره، عدّل جلسة المستكبر، فاستقام عموده الفقري، سأل في نبرة عالية مستغربة، لم تزعزع ثبات خوفي:

ـ ولمَ؟

ـ هل تستطيع أن تدخل مجلس الألباء وأنت عريان؟

ـ كلا، مستحيل هذا.

ـ أنا كذلك أعيش بينكم، أراني عريانا من كل خصوصياتي.

ـ لا، أبدا، بل لك خصوصيتك التي يكفلها القانون، لا يستطيع إنسان إن يتعدى عليها، أو يخترقها، حتى أنا.

ـ وكيف أعرف أنكم لا تخترقون خصوصياتي، وأنت البارحة تقرأ شريط حياتي من خلال النجوم.؟!

ـ سأشرح لك؛ البارحة كانت حالة استثنائية، لأثبتَ لك أننا نقرأ المعلومات الصحيحة

والأخبار التي نريدها من خلال النجوم، لا يفوتنا شيء وقتما نريده. لكن نظامنا العام يخضع لحماية صارمة لخصوصيات الناس وأسرارهم، وثمة خمسة من كبار الألباء، مختصون فقط في تتبع الخروقات التي يقوم بها بعض الألباء جهلا أو عن غير قصد، أو من أجل معلومة محددة، تكشف لنا مجهولا مُهمّا. هؤلاء الألباء الخمسة، لهم مجموعة نجمية خاصة، تسجل كل خرق، وقد سجلت خرقي الذي قمت به أمس في معلوماتك، وحادثني الألباء في هذا الأمر البارحة بعدما افترقنا.

ـ ألم تنم؟

ـ نحن لا ننام إلا مرة في اليوم، وهذه المرة لا تتجاوز ثلاث ساعات فقط.

ـ يا الله. هل سأصبح مثلكم؟

ـ نعم.

ـ متى؟

ـ بعدما تجتاز كل عمليات التهيئة الضرورية.

ـ هل مدير الشؤون الصحية مثلكم؟ هل هو من الألباء؟

ـ كلا، ليس كذلك أبدا. بل هو شخص عادي، فتحنا له العبور الافتراضي فقط.

ـ لمَ.؟

ـ من أجلك.

ـ لا أصدق ذلك.

ـ والجمل لا يكذب، ولا مبرر للكذب عنده.

شعرت أنني تجاوزت حدودي، خشيت غضبه، قناعه بفكرته المستوحاة من السور العظيم، يحول بيني وبين قراءة تعابير وجهه، الذي أجزم أنه أبغض من صورة إبليس متكئا على جثة خنزير بري.

ـ أسفي سيدي لم أقصد، لكن عالمكم غريب، وليتني أدرك ما أمثّله لكم.

ـ أقدر فضولك، وتلهّفك إلى معرفة كل شيء دفعة واحدة.

ـ صدقت.

ـ علاقتنا بمدير الشؤون الصحية بدأت عندما تمّ قبولك في كلية الطب، كنا نفكّر في طريقة حضورك إلينا. لم نجد وسيلة نقترب بها منك على الواقع؛ إلا عن طريق مجتمعك، إما بالبحث عن وسيلة آمنة، أو باختطافك، وهذا سيكون أثره سلبيا على عائلتك. فبحث الألباء الأمر، حتى توصلنا إلى فتح نافذة مع مدير الشؤون الصحية في المحافظة هنا، ومن خلال تقديم خدمة جليلة له.

ـ ما الخدمة؟

ـ كانت زوجته تعاني من سرطان الكبد، تدهورت صحتها، ونحن نملك الدواء.

ـ تملكون دواء السرطان الذي دوّخ العالم؟

ـ نعم، نملكه من سنين طويلة، لكن عالمكم لا يريد إلا الخرافات أو الركض طويلا.

ـ ثم ماذا؟

ـ فتحنا النافذة الافتراضية، وأحضرنا الرجل إلى هنا، قابلته وأعطيته الدواء بعدما تعهد بفتح مستوصف هنا في القرية؛ يكون نواةً لاستقدامك عليه؛ كي تدخل في الأمر معنا بالتدريج، بأقل درجة من درجات الفزع، لأن عالمنا يشكّل لكم صدمة عقلية، إلى الآن وعقلك لا يصدق ما يحدث حولك. أخذ الدواء كما وصفناه له، وتعافت زوجته، فافتتح المستوصف، وعيّن فيه طبيبا سودانيا.

ـ أها، وما قصة الطبيب السوداني.

ـ هو السبب في إغواء الرجل الأحمر الذي شكّل خطرا عظيما.

ـ كيف ذلك؟

ـ قصة طويلة، سأحكيها لك يوما، الآن يجب أن تتهيأ للدرس.

ـ وكيف أتهيأ.

ـ ستذهب مع الحارس إلى رواق إزالة الشعر.

ـ هل سأحلق شعري؟

ـ نعم، هذا ضروري؛ للكشف عن المخطط التفصيلي لجمجمتك.

ـ لا أريد حلق شعري، ابحثوا عن طريقة أخرى، أنتم الأذكى.

ـ لا حل للشعر إلا إزالته. ونريدك أن تفكر في طريقة أذكى عندما تكون لبيبا عظيما.
ـ أمري لله.

خرجتُ رغمَ حنقي على حلاقة شعري؛ إلا أنني أشعر براحة عميقة، ربما لأن هذا الجمل ذكي، ويعلم أن المتنفّذين في مجتمعاتنا لا يفسرون أوامرهم للسائلين، أو يجيبون بطلاسم مبهمة، تزيد توقد استفهاماتهم، فتحرقهم حتى تتهشم أرواحهم عطشا، ويتعرّش الإحباط طموحاتهم.

في رواق الحلاقة عوالم من الجمال، جعلتني أتمنى أن يحلقوا كل نوابت الشعر في جسدي. الوجوهُ المستوحاة من إبداع متقن لا أجرؤ على وصفه، الأجساد التي لم يعتلِ الجمال عناوين تعبر عنه أبلغ منها، أجلسنني على كرسي خشبي فخم، ولأول مرة أشعر بليونة الخشب، بللنَ شعري بسائل خفيف، ثم لففنه بقماش ناعم، وتركنه زهاء دقيقتين، أتأملهن في المرآة، و لا ينظرن إلي عينيّ البتة، ولا يشعرنني بامتعاضهن من نظراتي الفاحصة، التي ترتكز في مواطن شتى، فكل جزء من إحداهن، يقول أنا الأجدر بالنظر، وتلك الابتسامات تعلو شفاههن المتوردات على فروع أمانيّ الدفيئة. عندما أمرّت إحداهن نرجسة يدها البيضاء من محيط استنشاقي، تمنيت لو تبقيها معلقة أبدا. انتزعت القماش الناعم، فإذا رأسي صفاة بيضاء، كأن لم تغنَ بالأمس، ومسحت عليها إحداهنّ بمادة لزجة، وأشارت بيدها باحترام جم كي أنصرف، فانصرفت أصلع أسرُّ نظر الألباء والجمل.

أتحسس جمجمتي الملساء، وأسير عبر ممرات القصر المضاءة بوهج الشمس، وأشطان الأسئلة في أعماقي تجر دلاءها الثقال، أتوق إلى سؤال الجمل عن أشياء كثيرة، فإذا جالسته ضاع النصف، وامتلأتُ بأضعاف المخزون سابقا. دخلت المجلس، وكأنني في بيتي الآن، لا أشعر بتلك الغربة، وتلك البروتوكولات الأولى، أصبحت أحدهم، واطّلعت على الكثير، وبقي الأكثر في صفحات مستقبلي المجهول. وجدت الجمل بانتظاري:

ـ الآن أصبحت طالبا في تعليمنا، وغدا ستكون لبيبا، كل أسبوع يجب أن تمر على ذات الرواق.

لم أتضجر، ففي الرواق ما يشجع على ارتياده كل يوم، وليس كل أسبوع، وتذكرت

النقيض، الحلاق البنقالي (نور مياه) الذي إذا أمرّ يده من محيط أنفي، عفتُ الوجبة التي تعقب زيارتي له، أو الحلاق التركي (أورهان)، وروائح الثوم في يده الضخمة، حتى أدركتُ اهتمام والدي بشراء شفرات الحلاقة الجاهزة، فقلدته.

تذكرت بعض أسئلتي، فسألته:

ـ ما السنة النجمية؟

ـ السنة النجميّة تعادل خمس سنوات من سِنيِّ الشمس.

أدركتُ تلك الدمعة المتحدرة كاللؤلؤة على خد فازرا، ستمضي سنتين ونصف، وإن خففت فلن تقل عن سنة وثلاثة أشهر، تقضيها حبيسة قرية قصوى.

ـ ولماذا لم تسجن فازرا في قريتنا هنا؟

ـ قرية قصوى هي مقر العلوم المتقدمة، ومن يُرسل إليها من الألباء، يجد نفسه في قلب الأحداث والمبتكرات اليومية، فتكون محفزاته على الابتكار أقوى، وقرار المحكمة بإرسال فازرا إلى هناك حكيم؛ لأننا لا نحب التفريط في ثانية من وقت الألباء، وفي قرية قصوى نضمن المحافظة على أوقاتهم دون هدر، لأن الكل هناك مشتغل بما لديه.

ـ هل الكل هناك يقضون عقوبات؟

ـ كلا، قلة الذين يقضون عقوبات، لكنهم أنجزوا الكثير من الأعمال الجليلة للأمة.

ـ أفهمُ أن فازرا لن تكون خلف القضبان، مقيدة الحركة.

ـ نعم، ستكون بكامل حريتها، لكن قرية قصوى في سياق التقييد، ليست مثل قريتنا هنا، وليست كلتا القريتين بمستوى رفاهية قرية (رتال).

ـ وماذا فيها رتال؟

ـ سنزورها الخميس.

ـ الخميس سأكون في جدة.

ـ ليس بعد أن حلقت شعرك.

ـ لماذا؟

ـ بعد جلسة الألباء اليوم، سأشرح لك هذا.

قمنا إلى الصلاة، ثم أخذني إلى قاعة الدرس الكبرى، والتّوق والخوف كاسران يتصارعان في كهف روحي، يدفع أحدهما خطاي حثيثا، ويقيدها الآخر كلما تذكرت خروجي من عالمي الذي لا ينفك الجمل يتلذذ بوصفه بـ(المجتمع الظلامي)، وفي صالة الدرس، سلّمني الجمل كالبضاعة المزجاة لخمسة ألباء، واعتلى الشعلة.

أخذني الأول برفق، وأجلسني على الكرسي الخشبي الأول، الذي أتذكره للمرحلة المتوسطة، وهناك جلس أمامي، نظر إليّ صامتا، وأنا كالطفل الذي يسجله والده للتو في المدرسة الابتدائية، ينظر إلى هذا المجتمع الجديد والغريب، ويشعر بالخوف والفضول لمعرفة كل شيء، أمسك بيدي وكأنه يجس نبضي، ثم استوى واقفا، وأخذ، يتفحص بعينيه سطح جمجمتي، فإذا بلسعة أشبه بإستاتيكية أقمشة البولستر عندما تلمسها وقت البرد، وحس أنامله الدافئة تتلمّس جمجمتي الملساء، لا ينطق كلمة واحدة، أشعر بأنامله تجوب رأسي برفق، وبتعرجات تشبه المتاهة، فأقول في نفسي لقد وجد المخطط المزعوم، وإذا بلبيب آخر يقف إلى جواره، وأسمع صوت فتح غطاء، يخيل إلي أنهما يفتحان قارورة، وسرعان ما أكد انسكاب السائل ذي الرائحة النفاذة على رأسي صدق الحدس، أشعر ببرودته تسيل على جمجمتي، وأحدهما يفرك براحة يده، ثم سكنت حركتهما، أدركت أنهما وجدا بغيتهما الافتراضية، ومايزال الصراع بين التوق إلى معرفة كنه هذا العالم الغريب، والخوف من مجاهله، يستعر جمرا، يأكل من صحتي، ومن قرار روحي، أخشى أن يتلاعب هؤلاء الغرباء في عقلي، أن يطمسوا شخصيتي، يمسحوا انتمائي الحقيقي، فهل سأقضي ما تبقى من عمري مبرمجا في افتراضيتهم، وكأنهم الإرهابيون؛ الذين تركوا حياة الناس، وارتضت أنفسهم حياة الجرذان والثعالب. أوقظ خوفي التماع صورة أمي في مخيلتي، تلك الصورة التي غارت في كهوف غيّهم، واشتغال لبي بتقصي غرابتهم، فلماذا في هذه اللحظة بالذات تأتي؟ هل هو توارُد أرواح بيني وبين أمي، حيث الخطر يحدق بي، وقد بدأ المجانين لَمْس خلايا كينونتي؟ أتذكر المسلسلات العربية وهي تصوّر شعور الأم بالخطر الداهم لفلذة كبدها، وأراه سببا حقيقيا لاتخاذ قرار يخرجني من عقد حبالهم الشيطانية، التي ما انفكوا يفتلونها حولي مذ أُولِجْتُ افتراضيتهم، يتبخر تفكيري من تحسس أحدهما جمجمتي، أشعر بتزايد حساسية

فروة رأسي، وكأن مسام الجلد قد تفتحت أكثر بفعل ذلك السائل، الذي ترك أثر مادة المانثولين على سطح رأسي، ما إن يضع يده مرة أخرى، حتى يضطرب جسدي، فيثبّت أحدهما كتفيّ بقوة، والآخر يحرك نعومة أنملته الآثمة على رأسي، كل شيء أمامي يدور، وتتسارع الأشياء أكثر، تتزايد سرعة الدوران، كل شيء استحال يتحرك سريعا، وتعلو السرعة أكثر، لا أرى مؤخرة الأشياء بوضوح، تتداخل الألوان والأضواء في بعضها، يزيد اللون في تلك الدوامة السريعة تفتحا، أحاول النهوض، وهيهات أن أقوى على الحراك، كل شيء بدأ يختفي في تداخل الألوان العجيب، حتى استحال الكون هالة بيضاء اللون، مصمتة لا تخضع لأية تفاصيل لونية أو شكلية، مايزال شعوري بحركة الدوران يتضاعف، أشعر وكأن أحدهم أخذ مادة هلامية وطلى بها جدار كبدي، أود التقيؤ بحق في تلك اللحظة، وليتني أستطيع، أفقد السيطرة، أغيب في ذلك البياض، خدرٌ يحيط بجسدي وفكري، حتى تلك الحساسية في جلدة جمجمتي تلاشت تدريجيا.

أفتح عينيّ، الظلام يغلّف كل الأشياء، خيول حيرتي تتواثب في حلك الديجور، أين أنا؟ ماذا حل بي؟ أحاول النهوض، لا أقوى عليه، الوهن جاثم على مفاصلي، ما الأمر؟ هل أنا مريض؟ هل فعلوا بي شيئا؟ أتحسس كل شيء في جسدي، وحدسي يقول أنهم أوغلوا في جسدي عبثا، أبحث عن ألم جرحٍ، أو آثار خياط بعد جراحة.

ينفتح باب الغرفة برفق، يدخل النور بهدوء، ألمح جدران غرفة نومي، يزداد النور تدريجيا، أرى الجمل والألباء الخمسة، أحاول الجلوس، يشير إليّ الجمل بيده الغليظة أن أبقى، ورغم أنف كل شيء سأبقى، الفتور المريب يتوطن أنسجتي وعظامي، يجلسون كلهم، عدا (جابار) كبير الألباء التعليميين، الذي يذكرني قول النابغة كلما رأيت جسده الضئيل:

فبتُّ كأني ساورتني ضئيلة من الرّقش في أنيابها السم ناقع.

وكان سم ذلك الضئيل أو سحره أو علمه ناقعا، هو الذي أوصلني إلى هذه الحال المتردية من الوهن، تحسس رأسي برفق، فعادت إليّ تلك الرعشة، رجع إليهم وجلس، كلهم صامتون، وذلك الصمت السرمدي في مجتمع الألباء يفزعني، لا يتحدثون إلا في النادر، كالآلات يتحركون في صمت، ويعملون بصمت، حتى الجلبة لا يحدثونها، وكأنهم مخلوقون

من الهدوء، يعود جابار ويلمس جمجمتي، فأضطرب أيضا، فيجلسني، يحرك يده على رأسي برفق، تبدأ الأشياء بالاضطراب، تبدأ حركة الجمادات، يسبح السقف في فلك الدوران، ويأخذ الجدران وكل شيء معه، يتسارع الدوران، فأغمض عينيّ، والقيء يتراكض على مضمار كبدي الحائمة، فأغيب مجددا.

أفقتُ والجميع حولي، لا أعلم كم غبت، أنظر إليهم؛ أجد عددهم أكثر، تبسم الألباء، ووقف الجمل، سلّم علي، جلس بقربي، أحاول النهوض، أشعر بألم في عمودي الفقري، جذب يدي وساعدني على النهوض، جلستُ بعنتٍ شديدٍ وكأن أربطة مفاصلي قد تيبستْ، كلما حاولت تحريك رأسي أشعر بحركة الأشياء، فأوحى تفكيري ألا أحرك رأسي، ناولني الجمل كأسا صغيرة، في قاعها سائل لزج شفاف، تجرّعتُه، لا طعم له، ولا رائحة، شعرت على الفور باستقرار من ذلك الحوَمان المرهق، سألت الجمل على الفور:

ـ ماذا حل بي؟

ـ اطمئن لا شيء.

ـ أشعر بإنهاك شديد في جسدي، ماذا فعلتم بي؟

ـ لم نفعل شيئا، كل ما في الأمر، أن الألباء قد وجدوا عنتا، في إخضاع جمجمتك لإظهار مخططها التفصيلي.

ـ لم يجدوا المخطط؟

ـ نعم لم يجدوه، لكن هذه الحالة ليست مستغربة، وسيظهر المخطط.

ـ أريد المغادرة إلى عائلتي.

فور قولي لهذه الجملة، هبّ الجميع والجمل قياما، خرجوا من الغرفة، كان خروجهم كرصاصة تخترق لبّي، أدركتُ أنهم فعلوا بي شيئا، وَمَضَت صورة أمي مجددا، رابني ارتسامها في تلك اللحظة، أحسستُ بالخطر من كل الجهات يطوقني، شعرتُ بشيء من النشاط، ربما لا يعدو ثورة أدرينالية ولّدها الخوف، فخرجت أيضا، لم أجد أحدا في طريقي منهم، لا أدري أين اختفوا، لم أطل غسل وجهي في دورة المياه، تشيّأ جنين فكرة الهروب في رأسي، واكتست عظام الفكرة لحمَ المضي في تنفيذها، لابد أن أنقذ نفسي من هذا العالم

المريب. سرتُ عبر الممرات كالوسواس في رأس المراهق، أرمل في بدائية اللاعلم بالوقت، سرتُ على شعيرات الحذر حتى وصلت مجلس الجمل، أدرت رأسي برفق لأجدَ بابا أتذكره يوصل إلى الفناء الخارجي، فتحشد الشمس الممسكة بكبد السماء كل طاقتها الضوئية في عينيّ المتلبدتين وهنا، فأغمضهما، وأبدأ في تحرير عناق رمشيهما بالتدريج؛ كي أتبين صحة مساري، فرحتُ كثيرا وأنا ألمح سكة العبور باتجاه عربات الأحصنة، وجدتُ الحارس هناك، قلت له أوصلني بسرعة إلى منفذ القرية، لم يتلكأ؛ لظنه أن الجمل قد أذن لي بالمضي إلى حيث أشاء، أوصلني سريعا عبر نفق اللازمن، خرجتُ من منفذ القرية متوجسا، أجول بين منازل العبيد، لم أرَ أحدا منهم، ولم يخطر ببالي أني سأصل إلى هنا بكل هذه السهولة، فأرتطم بجلافة الواقع: أين السيارة التي ستقلني إلى المحافظة؟.

جلتُ بين المنازل الخاوية من كل مظاهر الحياة، حتى روائح الطعام وقت الغداء لا تنبعث منها، ولا روائح مياه الصرف، أو البواليع الطافحة، ولا حركة للأطفال، أو المواشي، أو حتى اللصوص، تذكرت الرجل الأحمر، تمنيت أن أجده في تلك اللحظة، تمنيت لو أن لديّ علبة سجائر، ربما شمّ رائحتها واستجاب لها، الحيرة تستاكني كأنني عود الأراك في يد ملتزم مُراءٍ، عزمي على مواصلة الهروب والخلاص يركل مؤخرة نيتي بقسوة، سأحرر نفسي من عبثية الفضول، سأطمس اسمي من أجندة الجمل المجنون وجلاوزته، واصلتُ السير باتجاه المستوصف، ربما أجد الرجل الأحمر هناك، أو يراني فيأتي، وأتدبر من خلاله وسيلة هروبي، وصلتُ إلى المستوصف الخاوي من كل شيء، أتلفت خلفي ربما يلاحقني رجال الجمل، فلم أرَ منهم أحدا، درتُ حول المستوصف، تفحصتُ الجبال المحيطة؛ علّي أظفر برؤية الرجل الأحمر، أو أحدا من الرعاة، أو حارس المستوصف، ينقلب نظري خاسئا حسيرا، تذكرت الرعاة على الطريق قرب الينابيع، أطلقت ساقيّ باتجاههم، أسير حثيثا تحت شمس الظهيرة الحارقة، ظهرتْ لي أغصان أشجار السدر، أدركتْ برؤيتها اقترابي من الوادي، تسارعت خطاي، حتى بلغت الوادي، وكأن لم يسرْ به بشرٌ أبدا، واصلت مسيري والخوف يتقافز في غددي، والرجاء يجوس خلال أمانيّ " تبا للحظة تترقب فيها أيًّا من الناس، وتهرب في ذات اللحظة من كل الناس" بلغت الينابيع، جلست على ركبتي ويديّ،

وشربتُ بفمي من النبع كما تشرب البهائم، ثم عدتُ إلى السدرة كثيفة الظل، تمددت قليلا تحتها، ضقت ذرعا بالعرق المتصبب على جسدي، فساورتني فكرة الاغتسال لأبرد قليلا، سرتُ مع مجرى النبع حتى غائطٍ من الأرض، يسترني إن مر أحدهم، تجردت من ملابسي، وأخذت أبلل جسدي بالماء البارد، فمن صِغري لا أحب الاغتسال إلا بالماء الدافئ، حتى في أوج الصيف، وبعد أن تعود جسمي على الماء البارد، غمست جسدي في الماء بكامله، ثم أخذت أبلل جمجمتي، شعرتُ بما يشبه الصعقة الكهربائية فور ملامسة الماء لرأسي، ودوار يعصف بي، خرجت سريعا من الماء، وتردّيت ملابسي، وكل شيء يدور بسرعة مذهلة، بالكاد استطعت بلوغ شجرة السدر، وهناك لم أعد أعي شيئا، حتى لم أتمدد على الأرض بعد، آخر ما أتذكره أنني أهوي كالبعير للبروك على ركبتي.

٥

" السؤال عجينة مبعثرة، إن لم تغطِّ
الإجابة الحقيقية نتوءاتها، جرح العقل "

*اللبيب جابار

أصحو على صوتِ أمي، بابتسامتها الحنون، تلاطفني على المائدة، تدفع الطبق الذي أحبه إلى جهتي، فأتلفتُ حولي، أتحسس كل شيء، والظلام الكثيف يطبق أجفانه على إبصاري، أين أنا؟ هل عدتُ إلى بيتنا وأمي كانت تجلس بجواري، ربما نامت بعد سهرها تنتظر إفاقتي، أحاول النهوض لإشعال الإضاءة، لا أقوى، أحاول تحريك يديّ فأجدهما مكبلتين، وقدماي كذلك، وظهري كأنه مغروس في الأرض الصلبة، ماذا يجري؟ أحاول تحريك أي جزء من جسدي؛ للاطمئنان أنني مازلت قادرا، فيعصيني الجهاز العصبي، السيالات العصبية أمست كامنة متصلبة في مراكز التحكم، أرهِفُ سمعي فيسأم الإنصات للاشيء، فيضطلع لساني بدور رسول الاطمئنان، أجده يتحرك، أصرخ بأعلى صوتي، لكن لا أسمعني، فأغيب عني مرة أخرى.

أفيق من جديد، هذه المرة على صوت الجمل، واقفا كقطعة الصخر على رأسي، والمكان يغص بالألباء بكل أشكالهم وأعمارهم وأجناسهم، أجدني لازلت تحت شجرة السدر، أتأمل الشمس من خلال الأغصان، أتذكر ما قالته أمي بالأمس، لا أستطيع تذكر شيء، آلامٌ شديدة تتحرك بحرية في تجاويف أضلاعي ومفاصلي وظهري ورأسي، كل جزء من جسمي يشتكي الألم وحده، يحملون جثتي المتهالكة، يضعونها برفق في عربة أمامها خمسة أحصنة، فتنطلق بكومة فشل لم تحقق أمنية تحررها؛ لتعود إلى مشرحة الجمل وجلاوزته، ربّاه ماذا جنيت، وماذا في يدي؟

أجدُ الجملَ منتصبا في موقف العربات كتمثال صدام حسين، يحملون رفاتي إلى اللامكان، إلى ما أسموها زورا حجرتي، أراها سجني، هذا المكان الذي سأفارق فيه كينونتي، لأصبحَ آلة تخدم مصالحهم، وتحقق مآربهم التنجيمية، أتوجس خيفة، بل أشعر برجفان الخوف يسبر كل خلية في جسدي المسجى بالوهن، ِبمَ سيحكم عليّ هذا الجمل اللعين؟ برفق يضعون جسدي المتهالك على السرير ويخرجون، تدخل المرأة العجوز التي عمّدتني أول يوم بالسائل الأحمر، فتجرّدني من كل ملابسي وأنا لا أستطيع دفعها عمّا تقوم به، تقلّبني كالطفل ذات

اليمين وذات الشمال، وقلبي عصفور في كفوف الظنون، يعتصره الخوف ليمونة على مائدة بخيل، ربما ستعقمني وسيأتي المجانين يعيثون في جسدي، تقطيعا وعبثا، أو يعذبني الجمل على فعلتي الشنيعة، والمرأة منهمكة تبلل قطع القماش واحدة تلو الأخرى، وتمرّها برفق وانتظام على جسدي، حتى أجزائي السرية، لم يردع المرأة العجوز عنها جدار خصوصية، أو احمرار وجنتين، لكنها لم تلمس رأسي ولم تتجاوز جبيني إلى منابت الشعر في جمجمتي، ثم تعيد كَرّة التطهير من جديد بسائل آخر، وقطع قماش أخرى، ولم تقترب من رأسي، لا تنبسّ بكلمة، لتطرق الباب، فتتناول ملابس جديدة، قامت على الفور بإقحام جسدي فيها، ثم خرجتْ بما حملتْ، ولم تتبخر حرارة جسدها من الغرفة إلا بحرارة جسد الجمل المنحوت من لظى، والألباء الخمسة الذين زاد عددهم إلى سبعة، ساعدَني جابار على الجلوس، وناولني أحدهم جرعة، لم أتردد في ابتلاعها، أحسست بهدوء في روحي، وزال الثقل المزري من رأسي، وتحركت مفاصلي إثر تجرّعها، فانصرف الجميع إلا الجمل، الذي أخذ ينظر إليّ، أرى في عينيه نظرة المشفق، وأرى فيها كذلك نظرة المغدور المنتقم، بتّ الآن أخشاه أكثر من ذي قبل، أراه مصدر تهديد يضع حدا لحياتي، وتصورا خاصا لمستقبلي، وقطيعة صلتي بالدنيا كلها، فمن سِواه يحرمني وطني وعائلتي ومهنتي؟ ويحتجزني لتحقيق مآربه الافتراضية؟. فقاطع أفكاري بتفلسفه:

ـ لتعلم يا بني أنك تؤذي نفسك، كالحيوان الذي يمسك به عالم الأحياء، ليخرج الشوكة من قدمه، فيعضّه خوفا على حياته، وطمعا في النجاة، يشعر بالخطر، ونية العالم تخليصه من ألمه ومعاناته. أحاول أن أخرجك من الظلمات إلى النور، فتأبى وتهرب، تسعى حثيثا بكل قواك الفكرية والجسدية إلى الظلام، فماذا ستجد في الظلام، وماذا أعطاك؟!

ـ ألم تجدْ مثلا إلا الحيوان؟ هل هذا قدْري في نظرك؟ ربما أنا كبش تروم ذبحه قربانا لأباطيلك في عالمك الغبي. لا أريد البقاء عندكم، ولا معكم. دعني وشأني، وابحث عن كبش غيري.

ـ مجتمعك ينظر للإنسان بمعزل عن كل شيء، وينظر للحيوان نظرة ازدراء غير مهذبة، مع أن الإنسان حيوان متطوّر، لا يعدو كونَهُ مجموعة كبيرة من الحيوانات، وليس للإنسان

استقلال عن كينونة الحيوان إلا بالعقل، وليت هذا العقل ينيركم، ويبصّركم بأسرار الكون والوجود.

ـ لديك نرجسية بعالمك الافتراضي، وبُعْدٌ عن الواقعية، نحن نملك كل الأنوار، وأنت تعيش في غيّك وظلامك في الجبال، تمارس السحر والتنجيم والشعوذة، وتستعبد المخلوقات وتخرجها من واقعها وطبيعتها بإفكك المفترى.

ـ لا ألوم حدتك يايحيى، أنت لا تفهم شيئا.

ـ وأنت لا تملك شيئا كي أفهمه.

ـ أنا أملك كل شيء، لكن آنية الخوف التي حدثتك عنها تعبث بك، وتثير في جسدك دفاعات عجيبة، هي التي جعلت الأمر يتعسّر في قاعة التعليم، وهذا الخلل نعترف بأن منشأه خطأ الألباء، وعدم رعايتهم لك من وقت مبكر، بما يكفي لتخليصك من عقد الخوف. أنت بخوفك بل برعبك ورهبتك تعقّد الأمور.

ـ أنا أخاف هذا المصير الذي تدفعني إليه، ولا أفهم ما تريده مني بالضبط، كل كلماتك وأفعالك طلاسم، تذكي خوفي وريبتي، تجعلني أسير في دوامة من الشكوك لا طرف لها، أتخبط كالغريق، والمنقذ يدفعني إلى القاع لأموت شكا مؤلما.

ـ أقدّر هذا، وسؤالي ماذا تريد أن تفهم يايحيى؟

ـ كل شيء، كل شيء في عالمك الرهيب هذا.

ـ لن تقوى، ولو كنت تقوى لفعلتُ ذلك من أول يوم التقيتك فيه.

ـ وما المانع؟

ـ عالمنا لن يستوعبه عقلك الصغير؛ حتى تتهيأ خلاياه لذلك. وخوفك العميق يحول دون التهيئة.

ـ أرحني من هذه المعاناة أرجوك.

ـ أعدك بالراحة.

ـ أية وعود بالراحة، وأنت تريد مسحي، وإلغائي من العالم، لأبقى حبيس افتراضيتك؟

ـ معك حق في هذا، وسأريحك الآن من هذه النقطة بالتحديد.

ـ ليتك تفعل.

ـ لن نلغي وجودك من العالم، بل ستعود إلى وطنك، وأسرتك، وتزاول حياتك الطبيعية هناك، لكنك تنتمي إلينا، وتعمل على تقديمنا لعالمك كما يجب.

ـ أحقا ما تقول؟

ـ نعم، نسعى بأن تكون الآصرة التي تشِجُنا بعالمك، وهذا ما خططنا له من زمن، وأعلمتك به.

ـ ولماذا أنا بالتحديد؟ لماذا لم يكن شخصا آخرا؟

ـ ليس ثمة غيرك يصلح لهذه المهمة العظيمة.

ـ وما المميزات التي أتفرد بها عن الآخرين؟

ـ قبل أن أجيبك عن هذا السؤال، سأذكر لك معلومات تاريخية مهمة حول الصِلات التي حاول أسلافنا القيام بها مع عالمك. نحنُ أمةٌ بعيدةٌ في التاريخ لنا علمنا الذي اختص بنا، لم يكن لبشر أن يأخذه منّا، رغم تكالب الأمم القديمة علينا، لكن ألباءنا القدماء، نافحوا بقوة، ودافعوا عن علمنا، فخبؤوا كتبنا، ولم يستطع الأعداء العثور عليها، على الرغم مما كالوه لهم من العذابات والابتلاءات، فصمدوا واستمرّوا في علومهم سرّا، حتى استطاعوا ابتداع نظرية الاحتجاب عن أعدائهم، فاحتجبوا بهذه الحجب التي لازالت تحول بيننا وبين عالمكم، وبعد أن كوّنوا قوّتهم العظيمة، لم يظهروا للبشر إلا مرتين، الأولى كانت في زمن النبي سليمان والرجل الذي تتلون ذكره في سورة النمل، عندما استخدم علمنا، وتحدى به عفاريت الجن، فأحضر عرش بلقيس في طرفة عين. أما الثانية فكانت في زمن موسى، من خلال الخضر وما آتاه الله من علم عظيم احتفظ أسلافنا بالكثير منه، أما بعض أسرار علمه فلم تدوّن، وقد حاول أسلافنا تلمّسها. وها نحن الآن نواصل طموحاتهم تلك، وستتحقق من خلالك، لنتعايش مع البشر دون حُجُب ولا خوف.

ـ قلت بأن أجدادك يملكون قوة عظيمة من عصور سحيقة، فلماذا لم يستخدموا هذه القوة آنذاك؟

ـ نحن مجبولون على النور، والنور أمنٌ وسلام ومنفعة، لدينا القوة الكافية لاجتياح العالم

في أقل من عشر دقائق، والسيطرة على كل شيء، لكننا لا نستخدم هذه القوة إلا فيما ينفع الكون، لا قتل ولا تدمير.

ـ وما هذه القوة الرهيبة لديكم؟

ـ ستعرفها لاحقا.

ـ لم تجب على سؤالي: لماذا أنا بالتحديد؟

ـ أصولك يا يحيى، الممتدة إلى عصور سحيقة، أنت الشخصية الوحيدة التي انتظرناها، لأنك نواة التقاء عائلتين يهوديتين، افترقتا من زمن بعيد من فلسطين، فعائلة والدك بقيت في فلسطين إلى عهدٍ قريب، أما عائلة أمك فاستقرت في المدينة المنورة ثم انتقلت إلى نجران ثم إلى اليمن، فانظر كيف هاجر والدك إلى السعودية بحثا عن الرزق والأمن، ليلتقي عائلة أمك فيها، و يعمل لدى جدك لأمك، ويسكن بجوارهم مع أهله وإخوته، قبل أن يتزوج بأمك، ثم تزداد الثقة بين الرجلين ويحققان نجاحا مبهرا، فيزيدان ترابط العائلتين بزواج والديك، فكنت نتاج هاتين العائلتين. أفهمت السر الآن؟

ـ نعم فهمته، لكن ما سر هاتين العائلتين، ولم هي بالذات؟

ـ لهذه قصة طويلة بعد أن اكتشف أسلافنا نظرية الحجاب الفاصل بين عالمنا وعالم الأعداء، كان (إيزافل) في تجارة بعيدا عنهم، ولم يكن وقتئذ قد تلقى العلوم كلها، فأسَرَهُ الأعداء، وحاول الأسلاف تخليصه فلم يستطيعوا ذلك؛ لأن فيه مخاطرة على نظرية الحجاب التي للتو استطاعوا الوصول إليها، فاجتمع الألباء آنذاك وقرروا تقديم مصلحة الأمة على خلاص إيزافل. رأى الأعداء في عِلم إيزافل قوة تفيدهم في نيل بعض أطماعهم، فاستبْقَوه؛ كي يكشف لهم السر عن علومنا، لكن ذكاءه جنّبه أذاهم، وأغراهم بالانتظار، وانشغلوا عنه بالحروب والحيل التي يقدمها لهم، ثم صار مقرّبا في الأجيال التالية، فتزوج منهم وتناسل منه الأبناء حتى توالت العوائل التي حدثتك عنها إلى عائلتك، فأصولك تعود إلى إيزافل، وأنت أكثرهم قربا به، لأن أمك وأباك من نسله. بعد وفاة إيزافل؛ لأنه لم يعمر طويلا بسبب بعده عنا، افترقت العائلتان كما أخبرتك، وبقي الألباء على مر الأزمان يفكّرون في منفذ سلمي للاتصال بالبشر، ولم يجدوا إلا هذا الأمل الذي انتظرناه كل تلك السنين.

ـ ولمَ لم يتم هذا الاتصال عن طريق أي إنسان آخر، ما المانع؟

ـ لا بد أن تكون قناة اتصالنا بالعالم قناة آمنة نقية، والبشر العاديون لن يكونوا كذلك، فكل شخص له مآرب وغايات يسعى من أجلها، وهذا سيعرّض الأمة للخطر.

ـ وأنا، أليست لي مآرب وغايات؟

ـ بلى، لكنك منّا، وأمتنا واحدة.

ـ وهويتي ووطنيتي؟

ـ أنت منا يا، دماؤك من دماؤنا وانتماؤك لنا، ولن نمس وطنك وأهلك بسوء.

ـ كيف أصبح منكم وأنا مشتت كل هذا التشتت، بلدي ومنشئي السعودية، وأعمامي في فلسطين، وأخوالي في اليمن، ثم أجد أجدادي في عالم افتراضي.

ـ يبدو أن لديك حساسية من (افتراضي)، لم أحبذ أن أقول لك من البدء، أننا عالم (محجوب)، ولن تكون مشتتا، بل ستكون وفيا لكل العالم. أتمنى أن خوفك بدأ الانحسار الآن، فلدينا أعمال يجب إنجازها.

ـ لماذا هذه الجبال بالتحديد، ألكم أوطانٌ أخرى؟

ـ أرضُ الجزيرة يا يحيى هي قلب كوكب الأرض، وهذه الجبال التي تراها مليئة بالكنوز التي لا تخطر على بال، عندما أحس أسلافنا بالخطر الذي يتهدّد علومهم، أرسلوا كتب العلم وألواحه إلى مأمن، فخشيوا عِلم ملوك اليمن، أو غيرهم، فخبؤوها في هذه الجبال، وبعد اكتشاف نظرية الحجاب، أرادوا العودة إلى فلسطين، واقترح بعض الألباء أن نستوطن جبل قاسيون، لكن عندما نظروا إلى السماء من هنا، وجدوا أن قطر السماء أرحب لقرب هذه المناطق من خط الاستواء، فمن أجل النجوم والسماء، بقيت الأمة هنا.

ـ وهل تسعكم هذه الأرض، وتكفيكم؟

ـ نعم تسعنا وتكفينا. رغم كثرة أعدادنا، لكننا نكتفي بالقرى الثلاث، والكثيرون منّا يجوبون العالم محتجبين، يبتعثهم الألباء لأغراض علمية.

ـ أنتم محجوبون عن الناس، فلنفترض أن أحدهم أراد ابتناء مسكن في هذه الجبال، أو شقّ طريقٍ، فماذا تفعلون؟

ـ حدثَ هذا كثيرا. لكننا نبعده بطرق سلمية.

ـ عن طريق إخافته؟

ـ نعم، فجشَعُ عالمكم محموم إلى درجة الهوس، وتلاشي كل المبادئ أمام ثوران غريزة التملك، ولا عجب وأنتم اللاهثون وراء الخلود. قبل مدة جاء محافظ المحافظة المجاورة لنا، له مزرعة ضخمة أسفل الينابيع ربما استحوذ عليها، أو أُقطِعت له بمنحة سمينة، لكنه جشع لو أُقطِع الكرة الأرضية لتطلع إلى زُحل، أراد ابتناء منتجعاتٍ، ومرافق خاصة له، يسمّيها زورا دعم السياحة الوطنية، فأكثر ما يُضاعِف الثروات عندكم؛ إلباس المشروعات الفردية الجشعة لباس العمل الوطني، واعتصار أثداء الوطن بُغيةَ تحقيق هذا الحلم؛ ليكتفي الوطن بانتساب المشروع الفردي إليه، وليته يجد لفقرائه من هذا المشروع فتات خبز يابس، حتى التشغيل والتأجير محصوران على الوافدين. لم نعلمْ إلا باقتراب قوافل المعدات الضخمة لهدم الجبل، وشق الطريق المؤدية إلى رغبات معاليه، وعلى الفور اجتمع الألباء، وفكروا عميقا، لنصل إلى رأيين؛ منهم من قال: نعطّل المعدات فتبقى عبرة لغيره، وآخرون قالوا: لن تجدي هذه الفكرة مع محاولات الإصلاح، أو جلب معدات أخرى، بل إخافته ستوفر علينا تكرار محاولاته هو على الأقل، فاعتمدنا إخافته. بدأنا بسائقي المعدات، فجعلنا بعضهم يرانا، والبعض الآخر لا يستطيع، حتى يشكك بعضهم في قدرات الآخر العقلية وأوهامه. فكذّبهم الأمير، فاقتربتُ منه وهو ينزل من سيارته، أمسكتُ بيده، فانتزعها مفزوعا، ثم همستُ في أذنه: كفاك جشعا وعد إلى مزرعتك. ارتجف بشدة حتى كادت أن تتخالف قدماه، عاد إلى سيارته سريعا وقال للسائق: تحرك بسرعة (جاءني اتصال مهم)، و لم يمضِ أكثر من شهر، ولك أن تتخيّل المفاجأة، وقاضي المحكمة الكبرى بالمحافظة، قد سمع بالأمر، وسوّلت له النفس الطمّاعة بالأرض، لأنه ـ في نظره ـ بمحل من التقى مبني على أهلية طرد الساكنين من الجن، فثابر يأتي كل جمعة خلسةً بمفرده، وقد تسلّح بماء زمزم، وتعاويذ كثيرة، فبدأ يحدد الأرض، ثم يقرأ ويسكب ماء القراءة على الحدود التي وضعها، ويعود في الجمعة التالية، فينظر إلى الحدود الأولى فيراها أصغر من تعب المشوار وعناء القراءة، والسير عبرها بجسده المطبّق شحوما، وخدوش شجيرات الشبرق، والقَطَف، والسّحى في ساقيه

المتورمتين، وقدميه الجاحظة أطرافها، فيوسع الحدود أكثر، ويكثف القراءة ليكون المفعول أقوى، فكلما كبرت المساحة؛ تمدّدت القراءة وتكثفت، فتوصل الألبّاء إلى تركه يتوسع أكثر، وبعد أن توقّف عن توسيع الحدود، بدأنا في التلاعب به، فصمد وكثّف القراءة، وجهر وتضرع، فزدناه تخويفا، حتى هرب وشمس الغروب تسطع في مرآة صلعته بعدما سقطت شماغه، وقدماه تنزان دما وقد تخلّى عن حذائه، وبالكاد استطاع قيادة السيارة، ولم يعد ذو الوقار والرزانة إلا بعد شهر تقريبا، عاد برفقة أربعة من المشايخ الوقورين، لو نظرتَ إليهم من بعيد؛ لقلتَ لا فروق بين هذه الأجسام المتخمة، وكان القاضي كريما حين منحهم النصف، واستأثر هو بالنصف الآخر من جهة الينابيع، فالتزم كل واحدٍ منهم رُكنا من تحديدات فضيلته، واعتكف يقرأ بكل ما أوتي من قوة التركيز والحفظ، ولا أستطيع أن أتهم أحدا منهم بالبكاء، لكن أصواتهم جميلة، وليت قلوبهم تعي ما يقرؤون، ويعلمون على مَن يتحايلون. لم نحرك ساكنا، فعادوا في الجمعة التالية جميعا، وأخذوا في التلاوة بصوت عالٍ، والدعاء بضراعة وتحفٍ، وكأن الأرض قد ضاقت عليهم إلا سفوح هذه الجبال، والمصيبة أن كل الرجال الخمسة، ليسوا من أبناء المحافظة الأصليين، فاثنان فقط يعملان في المحافظة، أما البقية فيعملون في محافظات أخرى، ثم وضعوا علاماتٍ في زعمهم إن لم تتغير في الأسبوع القادم، فالقراءات المكثفة قد آتت أُكُلها، وهذه العلامات جعلتنا نتريث في تأديبهم، وما إن عادوا، واستبشروا ببقاء العلامات واطمئنوا إلى حيازة الأرض، فقرؤوا قليلا، ولم يجهدوا أنفسهم بالدعاء أو الشكر؛ بل اجتمعوا على بساطهم، وبدؤوا في تناول القهوة والمثلجات بجوار النبع، ضحكاتهم رنانة، وكل واحد منهم يخطط مستقبل أرضه، فتركناهم في أمنهم، وراحة بالهم، وقد أضمرنا في أنفسنا؛ أن سنلقنهم درسا لن ينسوه أبد الدهر والجشع.

قبل صلاة المغرب بدؤوا في تجميع أثاثهم، وضعوا كل شيء في محله؛ فتفاجؤوا بإحدى العجلات مثقوبة، شعروا بالضيق، لكنهم تعاونوا وأصلحوها، فعمدنا إلى عجلة أخرى وثقبناها، هذه المرة فزعوا، لكنهم ساروا بالسيارة مثقوبة العجلة، فعمدنا إلى العجلة المخالفة لها من الخلف فثقبناها، فأصبحت السيارة غير متوازنة، العجلة الأمامية اليسرى مثقوبة، والعجلة الخلفية اليمنى أيضا، توقفوا ولجئوا إلى بارئهم يقرؤون المعوذات، ثم صلوا المغرب

بخشوع مغاير، وهرعوا إلى سيارتهم، واستعجالهم يفضح الارتجافات المقنعة في أعماق كل واحد منهم، فثقبنا الثالثة من الأمام، فوجد السائق عنتا في قيادة السيارة بعجلتين مثقوبتين من الأمام، فأجهزنا على العجلة الرابعة، لكن الخوف يولد طاقة عجيبة فلم يستسلموا، ثمّ عَمَد أحدُ الشباب إلى اعتلاء سقف سيارتهم، وأخذ يطبل بيديه وقدميه، وقد أغلقوا كل النوافذ وأخذوا في التلاوة والبكاء خشوعا لله، وأخذوا يقسمون بعدم العودة إلى هذه الأرض، عندما سمعنا القسم، تركناهم في حالهم.

ـ الحمد لله إذ اقتنعوا دون أذى، لمَ لم تعاقبوهم عقابا أشد وأنكأ؟

ـ نستطيع أن نفعل بهم الأفاعيل، لكن ليس من عاداتنا الإضرار بأحد، كل ما نريده أن نخيفهم ويبتعدوا عن أرضنا. لكن ثالثة الأثافي من القاضي، كانت في عودته مجددا، فتصوّر أن يعود هذا الشيخ الجشع، بصحبة رجل عجوز، اشتهر في محافظة بعيدة بممارسة السحر والشعوذة، فأخذ يشرح له الأمر، ويقص له القصة بأمانة علميّة، مع تحرّي الدقة في كل معلومة، والسّاحر يتمتم بكلمات ليست مفهومة، ثم أخذ الساحر يتجوّل بمفرده على حدود الأرض، فعمدنا إلى إيهامهم بجدوى عملهم، فأخذ الصبية يحثون التراب تحت أقدام الساحر، وفكاه يرتجفان، حتى جثا المسكين على ركبتيه، وأخذ يقول: يا أهل هذه الجبال أنا خادم (حمروش) فأعطوني طلبي، وخذوا ما تريدون. فكتفنا يديه خلف ظهره، ودفعناه باتجاه القاضي، فعاد إليه مكتوفا، فأخذ القاضي يقرأ من المصحف حتى وصله الساحر، ففك وثاقه، وأمره أن يعود ويلح في التواصل والتفاوض مع الجن، فأبى الساحر، فقال إن لم تفعل سأحاكمك في المحكمة غدا، فعاد الساحر تحت التهديد، حتى وصل إلى مكانه، وجثا على ركبتيه، ووضع جبهته على التراب، وأخذ يبتهل بأسماء الجن، وكل اسم منها ينتهي بـ (ووش)، فكبلنا يديه وقدميه هذه المرة، وحملناه إلى سيارة القاضي، الساحر يصيح بأعلى صوته، أتركوني والله لن أعود إليكم، أتركوني أرجوكم، أما القاضي فقد جحظت عيناه، وتدلى فكه الأسفل، وهو يرى الرجل محمولا في الهواء، ثم وضعنا الساحر على غطاء محرك سيارته، وقد أغمي عليه من الخوف، فنزل القاضي مفزوعا، تجمدت دماؤه في عروقه، صار لونه عَلَقة، فك وثاق الساحر، وجنّ جنونه عندما لم يجد المفتاح في مكان التشغيل، أخذ

يبحث عنه في كل شيء، فأطبق الليل فكيه الأسودين عليهما، ليتخذا قرارهما بالعودة مشيا، وعندما سارا قليلا على ضوء كشافٍ صغير، نزعناه من يده، فطار عقله، وأخذ ينتحب من شدة الهلع، أما الساحر العجوز فبالكاد يحرك قدميه، لا يستطيع أن يتفوه بحرف، وقد تصاكت أسنانه، أخذ الشباب يصدرون الأصوات حولهما، والقاضي ينتحب بشدة، بالكاد نفهم منه بعض الآيات. ومن ذلك اليوم لم يعد إلينا أبدا، يأتي بعض الرعاة بأغنامهم، أو أصحاب النحل بخلاياهم، وبعض المتنزهين، لكنهم لا يمكثون إلا وقتا يسيرا ويرحلون فلا نخيفهم.

ـ إذن فأنتم تهيمنون على هذه الأرض.

ـ هي لنا، ولم نؤذ أحدا بامتلاكنا لها، ولم تضق الأرض بالناس حتى لا يجدوا عنها محيصا.

ـ لا أدري حقيقة ماذا أقول.

ـ لا تقل شيئا، فقط تخلص من عقدك، فقد أخبرتك بكل ما أستطيع إخبارك به الآن، ولابد أن تكون اليوم في قاعة الدرس مع الألباء، عند تمام الساعة الواحدة. أنا مضطر للخروج إلى قرية قصوى لأمر مهم.

ـ أريد مرافقتك إلى هناك.

ـ سترافقني كثيرا إليها وإلى كل مكان، لكن الدرس اليوم أهم، ولو لم يكن الأمر مهما جدا لما غادرت. وفي الليل غدا سترافقني إلى قرية رتال.

خرج الجمل وفور خروجه، تقافزت الأسئلة في ذهني، لأبتسم، أين كانت تكمن عندما كان عندي، لكنه يملك أسلوبا ساحرا في تهدئتي، أشعر بصدقه، وفي ذات الوقت أخشى كذبه وتحايله، فتبا لهذه الحيرة المقيتة المضنية.

أخرج للصلاة، ومن هناك إلى قاعة الدرس، يستقبلني جابار الضئيل باسما، يجلسني على كرسي غير الأول، ويركز مصطبة الضوء على جمجمتي، ويبدأ بتفحصها وتحسسها بنفسه، ثم يسكب السائل، فينادي على الألباء ويجتمع الخمسة فوق رأسي، كأنهم ينظرون إلى بئر عميقة، سحب الضئيل كرسيا وجلس أمامي مبتسما:

ـ مبارك ظهر المخطط، بعد أن تخلصت من عقدة الخوف.

ـ حقا؟

ـ نعم، هل تشعر بدوار أو شيء غير معتاد.

ـ كلا.

ابتسم أكثر وقال:

ـ سيحرك اللبيب إصبعه على المخطط، ومع تحريكه سترى أشياء، أريد أن تخبرني قولا عنها، واستمر بالكلام كلما رأيت شيئا.

ـ حسنا.

وضع اللبيب أنملته على جمجمتي، وفور أن وضعها التمعت أمامي الأعداد، فبدأت أقرأ الأعداد التي تظهر سريعا، والضئيل يستمع، ثم حرّك الأنملة قليلا، فظهرت الحروف، وإذا الكلمات، وإذا كتاب ضخم ينفتح أمامي عينيّ، واقرأ منه بصوتٍ عالٍ:

" الأرض تابوت الحياة، ومسكن الموت، وقرار الغني والفقير، والإنسان شرٌ محضٌ إن كمّم الظلام بصائره، وأرضعه حليب المنايا الأسود، فمزّق سُجف الظلمات، واتقد شهابا يخشاه الموت، ويستجيب على هداه القدر، ولا تشرب النور على ضفاف الوحدة، بل وزّع كأسك أفواها، ورذه في وكنات العصافير المظلمة غذاء، وغنِّ للأمن بمعازف النور، وخذ من السلام جسورا، توفِدُ إليك أسئلة الجياع، وتسوق إليك أعناق الشجعان، وتُقيتُ الحياة بتقليم مخالب الموت، فأنت الإنسان المجبول على النور...".

قام الضئيل، فوقفت معه ومد يده مصافحا، صافحته وهو يهز يدي قائلا:

ـ أهلا بك في النور. سيأخذك الألباء الآن إلى مقاعد الدرس، ليحددوا المرحلة التي ستبدأ منها، ومن المهم أن تفكر جيدا فيما تراه، وتناقش اللبيب فيما يُشكل أو يشق عليك، وتذكر أن التفكّر وصفاء الذهن جوهر حفظ العلم والنور.

قمتُ مع الألباء، فأخذ كلُّ واحدٍ منهم يجلسني على مقعد ويجري اختباراته عليّ، وهكذا، حتى استقروا على إبقائي في المقام الثالث من المرحلة الثانية، أي ما يعادل الثالث المتوسط في تعليمنا، ثم أخرجوني بعدما سلّمني الضئيل إلى لبيب المرحلة المختص (آران)،

الذي احتفى بي كثيرا، وشعرتُ بنشوته، وهو أول لبيب يتولّى مهمة تعليمي، فضرب لي موعدا في الواحدة ظهرا من كل يوم، كي أنتقل إلى المرحلة المتقدمة بعد شهر من بدئي فيها، فخرجت من قاعة الدرس، بعد نصف ساعة من دخولي إليها؛ لأجلس في مجلس الجمل، أنتظر عودته كي أفهم منه كل شيء.

تلحُّ عليّ صورة أمي هذه الأيام، في نومي ويقظتي، أود الاطمئنان عليها، وعلى عائلتي، اشتقت إليهم، وإلى مدينتي الحالمة الجميلة، مرّ أسبوع، ولم أعتد البعد عن أهلي كل هذه المدة، ليت الجمل يسمح لي بالمغادرة يومين فقط، أتذكر الصفاء المرتسم كل أربعاء على وجوه زملائي الآتين من مدن أخرى، والنشوة المخبأة إلى ذلك اليوم، وحرصهم على توديعنا بعد خروجنا من المعامل، وليت هذا الأربعاء يحاكي تلك الأربعاءات البيضاء، وسمر الخميس الذي كان والدي ـ رحمه الله ـ يحرص أن يكون على سطح منزلنا، بعدما توفي جدي، واجتماع أعمامي الصاخب، بمزحهم المجنون، بخاصة عمي سامي، وبساطته في كل شيء، حتى في حياته وعمله في ورشة السيارات خاصته، تأخذني الذكرى إليه وهو يخاتل عمي محمود الوسيم، المبالغ في عنايته بأناقته وشعره، ربما لأن احتكاكه بالأجناس اللطيفة في البوتيك يفرض عليه التنعُّم والتدهُّن والتزيُّت، فيجدُّ عمي سامي بالمقص الحاد نصف الشعر المتدلي من مؤخرة (القبّوع)، وما تلا تلك المزحة الثقيلة من أحداث عنيفة ومضحكة، وما لقيه عمي سامي من عتاب.

أتذكر صخب الكورنيش مع أصدقائي، والسباحة في شواطئ أبحر، وشغبنا البريء مع بعضنا البعض، ومع المارة، والتباهي بتحدي دوريات الأمن، أو استفزازها لملاحقتنا، كي نملأ خواء أوقاتنا بالحكايات والمطاردات، وتضحكني اهتمامات متعب، الدائب في عكس صورة الشاب الملكي المترف، وتزويره لبطاقات المرافقات الخاصة للشخصيات الملكية، وإبرازها لرجال الشرطة، والتباهي بها أمام أصدقائنا الجدد الذين لا يعرفونه، وتفننه في طباعة كروت التعريف الشخصية، وتوزيعها بكل جرأة على الفتيات المشاكسات، وتمكنه من إخفاء اللهجة الجداوية تحت غطاء لهجة القادم من الرياض، بتضخيم صوته وتمديد الكلمات. فتفر ابتسامتي إلى (القرد) عمّار، وشغفه بالحركات البهلوانية الملفتة لأنظار المارة، وهو يقفز على

السيارات، أو يتشقلب على رمال الشاطئ الناعمة. ليتني الآن في جدة برفقتهم.

سئمت هذه الجبال، وهذه العقول العاملة بكد على مدار الساعة، سئمت تفلسف الجمل واتهامه لمجتمعي بالسواد، ربما سينسيني أبجديات الطب. يقطع الحارس الوسيم خيط العسل المتدلي من ثغر الذكرى المحببة إلى نفسي، وقد أحضر لي كأس الحليب المحبب، أنتظر الجمل الذي لم يعد إلا بعد صلاة المغرب، لكن على غير عادته، بدا لطيفا أكثر من ذي قبل، وثناءاته عليّ وقد تخلصت من عقد الخوف، واستطاع الألباء بلوغ المخطط المحبوب، لكن هذه اللطافة لم تجعله يتعاطف مع استعار الشوق لأهلي، بل أوغل في المنع لأربعة أسابيع قادمة، ربما يريد تكبيلي، وترسيخ انتمائي، خشية ألا أعود إليهم، يبحر بي في السقف المرفوع تحت تلك المنضدة الزجاجية، نقرأ عوالم السماء، وتشابكات النجوم العجيبة. ثم نجلس للعشاء بحضور جابار الضئيل و آران، والابتسامة تعلو محياي كتلميذ الصف الأول الابتدائي، عندما يجلس في غرفة المعلمين، والكل يداعبه، أو يحفزه بالكلمات المحببة إلى نفسه، وجابار يغرقني ثناء، والدفء ينثال من عيني آران. وهم يهيئونني للغد الجميل في نظرهم، الذي سيملأ رأسي بالعلوم والنور، ثم يعدني الجمل بمرافقته بعد الدرس إلى قرية (رتال) المترفة ليشعل فضولي وحماسي.

ازددتُ حماسة لتلقي العلوم، والتوق إلى مفردات العلوم التي سأتلقفها في خميسي الأول المرتقب، لأتساءل:

ـ ماذا سأتلقى خلال الشهر الأول؟

فيجيب جابار: كل العلوم الأساسية لمرحلتك ستتلقاها.

فيثنّي الجمل: ما ستتلقاه خلال هذا الشهر من العلوم، يفوق ما تتعلمه في مرحلة الماجستير عندكم.

ـ هل سأتعلم اللغات أيضا؟

ـ نعم ستتلقى تعليم العديد من اللغات المعتبرة، لكن في الشهر الثالث الذي يعادل مرحلة الثاني الثانوي، فهناك لغات قديمة يجب أن تتعلمها، ولغات العالم المعاصر، خصوصا لغات الحضارات الأم، أما اللغات المتفرعة، أو لغات الأمم الخاملة، فلا يحتاجها إلا المتخصصون،

وحسب التخصص تتعلمها.

ـ ما أهم لغة يجب أن أتعلمها؟

ـ لغة قراءة النجوم.

ـ ماتفتأ تعتبر النجوم أساس العلم.

ـ قلت لك في أول ليلة هنا، أن النجوم هي العلم كله، كل شيء يأتي منها، ومن النجوم الشمس والقمر وكل الكواكب، المشكلة لديكم أنكم لا تقرؤون جيدا، ألا ترى ارتباط القمر بحركتي المد والجزر؟ وارتباط الشمس بتحديد الفصول الأربعة؟ ألم تقرأ الأحاديث الصحيحة عن الأوقات المعتبرة للحجامة؟ والأوقات المنهي عنها فيها؟ وعلاقة النجوم بالزراعة؟. كل هذه الأمور لديكم، لكن لا تتأملونها.

ـ ماذا تقول في علم الأبراج والسعادة والشقاء من خلال تلك الشعوذات والأباطيل؟

ـ هذا السؤال مهم، وقد أُنسيتُ توضيح هذا في الليلة التي شرحت لك الاهتداء بالنجوم. جلُّ ما يقوله المنجمون عندكم، والمشتغلون بالشعوذة والكهانة، ماهي إلا معلومات صغيرة، تسربت من أسلافنا في القديم، وهذه المعلومات تناقلها الناس كالمسلمات، وشابها بعض الخلط والتشويش للتناقل البعيد، فترى أن معظم اعتمادهم على علم النجوم خبط عشواء، تصيب أحيانا، وتخطئ كثيرا، فلأن المعلومات مشوشة، صارت النتائج لا تعدو التخرصات والتكهنات، واللجوء إلى أساليب مائعة. وقليلون أولئك الذين يصيبون الهدف من خلال علم النجوم العظيم.

ـ متى سأتعلم لغة النجوم؟

ـ ستتعلمها بإذن الله، لكن بعد أن تنتهي من الإعداد الأولي، وتلج النور الحقيقي الذي سيفتح لك مغاليق السقف المرفوع، بكل حركات نجومه وكواكبه. حتى السديم له معانٍ يستنبطها الألباء.

ـ هل تستطيعون من خلال النجوم أن تعلموا شيئا عن المستقبل؟

ـ ليس كثيرا، لأن المستقبل لا يتضح لأحد، والكلام فيه كالتخرصات، بل أراه ضربا من الكهانة،لكننا لم نيأس وقد توجّهنا إلى هذا في الثلاثين سنة الأخيرة، واستطعنا استشراف

المستقبل بما يعادل دقيقة ونصف، من خلال قراءة السياقات التي تفضي إلى هذا المستقبل، ولم نستطع التقدم أكثر من ذلك. والفضل يعود للبيب (وادان)، في توجيهنا إلى هذا الاستشراف، وأجزم بأن علم قراءة سياقات الأحداث سيترقى أكثر، لنستشرف المستقبل لمدة أطول مما بلغنا.

- ولمَ لمْ تعلموا بهروبي أول أمس؟

- يقهقه الجمل عاليا، أو تظنك هربت حقا؟

- لا تحاول إقناعي بأنه هروب افتراضي!

- كلا، لكنك لم تهرب بل حاولت الهروب، وكنا نعلم بهروبك، وأمرت الجميع أن يتركوك تحاول الهرب، وأنا والألباء الخمسة كنا نتابعك دون أن تعلم، وكل الخطوات التي قمت بها كانت تحت مرأى منا.

شعرت بالخجل الشديد، وأنا أتجرد من ملابسي، لأنغمس في النبع، لكن خجلي لم يمنعني من السؤال:

- أرأيتموني وقد تجردت من ثيابي؟

- رأيناك وأنت تخلع ثيابك، ثم أشحنا عنك حتى خرجت من النبع ولبست ملابسك واستلقيت تحت شجرة السدر، ويجب أن تعلم أننا لا يمكن أن نتلصص خصوصيات الآخرين كما قلت لك سابقا.

استأذنتهم للنوم والتهيؤ ليوم الغد، لأن الجمل طلب مني أن أصحو مبكرا، وأتجول في الرابية الخضراء، وأتأمل كل المخلوقات هناك، دون المساس بها، محاولة منه لترفيهي، وكذلك استئصال عقد خوفي من الأحياء المشهورة بالتوحش كالسباع والحيات.

صحوت مبكرا، وإفطاري كما أريده أمامي، لأخرج بعد ذلك إلى الرابية الخضراء، وعجائب مخلوقاتها، الماشية على اثنتين أو أربع أو ست أرجل، والزاحفة، والطائرة، أتنقل من شجرة إلى أخرى، وأرقب كل المخلوقات بحذر، لم يخطر في بالي أن المنقرضات في عالمنا ماتزال تعيش وتتكاثر في عالم الجمل، حتى ظهرت لي أسفل الرابية الديناصورات العملاقة، والماموثات ومخلوقات أخرى لا أعرف أسماءها في عالمنا، يجب أن أسأل عنها الجمل أو

أستاذي آران. جلتُ ساعات في الرابية الخضراء، ولمحت من بعيد بحيرات الماء، لكني لم أستطع بلوغها، وقد اقتربت صلاة الظهر، لأعود، وقد تهيأت للدرس بعد فراغي من الصلاة، وأستاذي آران يستقبلني بابتسام محبب.

في قاعة الدرس لم يعد الأمر شاقا، ولم يحضر الضئيل جابار، ولا الجمل كذلك، كنت بمفردي مع أستاذي، الذي وقف على رأسي، واخذ يحرك أنملته على المخطط التفصيلي، يجوب بي كل العلوم، وقد بدأ من تكوّن الكون، ونشأت الخليقة، وتاريخ الإنسان، وأخذ يسير بي إلى عصرنا الحديث، ليوغل في تاريخ أمتهم، ويعيد كلام الجمل الذي أخبرني به عن علمهم القديم. يعرض أمامي صور الكرة الأرضية، واكتشافهم القديم لكرويتها قبل أن يصل إليها العلماء حديثا. وصلاتِ أمتهم القديمة بهاروت وماروت وحضارات كل الدنيا، ويصوّرهم بأنهم صفوة الخلق التي يجب أن تحيي الإنسان الأعلى في كل ذات تعيش على كوكب الأرض. أما الفضاء فكل كوكب في الكون عامر بالحياة، ولكل حياة ظروفٌ مختلفة، ثم يذهلني بأن كوكب الأرض يُعدُّ كوكب الحياة المختلطة لكل الكائنات؛ لأن الله كرّم الإنسان، وسخّر كل الكون لخدمته ورفاهيته، فكأن الكواكب الأخرى مستودعات لهذه المخلوقات، وكلما نقصت هذه الأحياء على الأرض، أمدتنا الكواكب بما يعوّض ذلك النقص، لكن وفق قوانين وأحوال خاصة ومؤقتة بمواقيت لم يصل الإنسان إلى كنهها.

يتطرق إلى بعض الأحياء التي تسقط مع المطر، كالثعابين التي يراها أهل القرى، ويعزوها البعض إلى السقوط من مخالب الطيور الجارحة، لأنها زلقة وقد تبللت بماء المطر، لكن الصور التي يعرضها أمامي، تصوّر الكثير من المخلوقات الكبيرة والصغيرة، والمرئية واللامرئية بعين الإنسان المجردة.

ويتعمّق في الطبيعة، وخجل الإنسان من استغلال مواردها، وتفريطه في الكثير من طاقاتها، وخدماتها الجليلة التي تقدمها للإنسان، وضعف الإنسان العادي أمام الكوارث، بل وفتور علمه وقصوره أمامها، وكيف تعزوها بعض الشعوب إلى قوى غيبية، أو غضب الله على خلقه، في حين أنها منحة سماوية لو أحسن الإنسان استخدامها كما يجب. فالبراكين طاقة حرارية لو أحسن الإنسان تخزين طاقتها الحرارية، والزلازل طاقة حركية متدفقة، لها دلائل

وعلامات تنذر بوقوعها، لكن علم الإنسان العادي لم يتوصل إليها بعد، ولو توصل إليها واستخدمها الاستخدام الأمثل، لولد منها طاقة حركية نافعة، تفيده في شق الأنفاق، أو دك الجبال التي تعيق حركته أو تمدده العمراني. والبرق والصواعق، تعد طاقة كهربائية عالية، تكفي ومضة واحدة منه لإضاءة مدينة كبيرة لمدة ساعة كاملة.

مضت الساعة من الدرس وكأنها دقيقة أو أقل، معارف مذهلة يملكها هؤلاء الناس، وتغيب عن عالمي البئيس، على الرغم من انبهاري بما يحققه الغربيون والشرقيون من كشوف وطرائق علمية حديثة، إلا أن إزاحة الحجر الذي ألقاه الألباء في محيط انبهاري بالغرب، لم يُبقِ إلا قطرات بسيطة. وهذا من المحاضرة الحقيقية الأولى. خرجت من قاعة الدرس وتمنيت على الأستاذ تمديد الوقت لي، لكنه اعتذر بسبب غياب المخطط التفصيلي، وأن كل ساعة لها معلومات محددة يجب ألا تتجاوزها معللا ذلك بأهمية التصنيف العلمي من خلال نوع العلم، وكميته، وتأريخه، وحيثيات استدعائه لعلوم من حقول علمية أخرى.

وجدتُ الجمل في انتظاري على المائدة العجيبة، وأستاذي آران برفقتي، أصبح يلازمني أكثر من ملازمة الجمل، وأجد ارتياحا لمرافقته لي، بعدما تناولنا الوجبة، واطمأن الجمل على سيرورة الدرس، أخذني معه إلى قرية (رتال) والتوق يأخذني إلى هذه القرية التي لا أعرف عنها غير الترف، وفضولي يستعر لرؤية هذا الترف، هل ستكون كالقصور الملكية مثلا، أم كالملاهي الليلية، أم كيف ستكون هذه القرية المترفة؟!

٦

" العدل تنازلات متزامنة عن الهوى والتملك والاستئثار والفردية،
العدل أن يتسع الفضاء لكل الأجنحة والأصوات،
العدل أن تكون أنت القاضي والمدعي والمتهم،
العدل هدية النور للنبلاء "

*من خطبة الجمعة للإمام الجمل

- ٦ -

برفقة الجمل وأستاذي آران، أشعر بسعادة الطفل في مرافقة والده إلى الحديقة، أو السفر إلى مدينة قريبة لزيارة الأقارب، بي نشوة عارمة لم أشعر بها كاليوم تحديدا، أضحك وأتقافز نشيطا، توقي مستعر إلى رتال، حيث خرجنا من مجلس الجمل، من باب لم أرَه إلا هذه المرة، ندخل إلى غرفة زجاجية بالكامل، ونجلس على كراسٍ خشبية لينة ومريحة، تتحرك بنا الغرفة إلى الأسفل ربما أو الأعلى، شعرت بحركة خفيفة، لم أتبين اتجاهها، أخذ الجمل يتحدث إلى آران، وأنا غارق في تأمل الغرفة التي تغير لونها إلى الأبيض، فسألت:

ـ لماذا تغير لون الغرفة؟

ـ نحن الآن في طريقنا إلى رتال.

ـ لمَ لمْ نمتطي عربة الأحصنة؟

ـ يقهقه الجمل عاليا، وهل تظن قرية (رتال) قريبة؟

ـ كم تبعد؟

ـ آلاف الكيلومترات، هل سمعت بجبال الروكي؟

ـ قرأت أنها في قارة أمريكا الشمالية.

ـ نعم هي هناك، تقع في قمم الجبال في دولة كندا، في منطقة ريفلستوك.

ـ يا الله، هل نحن في طريقنا إلى كندا؟

ـ نعم، سنصل إليها بعد ثلاثين دقيقة من الآن.

ـ ظننتها بجوار قرية (تاوه).

لفّني الصمتُ، وغرقت في ذهولي، يغمسني هذا الجمل دائما في أعماق الدهشة، ويخرجني مبتلا بالاستفهامات المرهِقة، أنسافر إلى كندا في نصف ساعة، وفي هذه الغرفة الزجاجية؟

ـ ما هذه الغرفة، أهي طائرة؟

ـ هي شبيهة بالطائرة إلى حد كبير، لكنها تعمل بطاقة ضوئية، تعمل خلاياها على جمع الطاقة من ضوء الشمس، وما يزال الألباء في تفكير مستمر في تطوير سرعة هذه الطاقة، لنصل

إلى أعلى السرعات، فسرعتها الآن مأخوذة جزء من مئة جزء من سرعة ضوء الشمس، وهي آمنة جدا.

ـ أود رؤية شكلها الخارجي.

ـ ستراه عندما نصل إلى رتال.

ـ هل تطير في الهواء أم تحت الأرض؟

ـ نطير في الفضاء الخارجي مثل المكوك الفضائي.

ـ والجاذبية والأكسجين؟

ـ تحتفظ بكل خصائص الحياة المعروفة على كوكب الأرض لمدة شهر كامل على الأقل.

تعجبتُ جدا من هذه الغرفة السحرية، وتذكرت كتب التفسير التي فسرت انتقال عرش بلقيس من فلسطين إلى اليمن عبر مجاري المياه تحت الأرض، لم ينتبهوا إلى صعوبة ذلك، أو أن المفسرين لم يتخيلوا إمكانية نقله عبر الهواء، ورأوا أن يكون تحت الأرض، ربما لأنه الأحرز في إخفائه عن أعين اللصوص. فالتفتَ الجمل وسألني:

ـ هل تشعر بالخوف؟

ـ معك لا أشعر بالخوف مطلقا.

ـ هذا ما أرجوه.

ـ كم تستوعب من المسافرين طائرتنا؟

ـ افتح النافذة التي وراءنا وأخبرني بما تراه خلفها.

يا للعجب، لا أصدق عيني وجمعٌ غفير من الألباء وأسرهم يفوقون الإحصاء العجول، أغلق النافذة وأعود على أجنحة الذهول إلى مقعدي:

ـ تحمل هذا العدد؟

ـ نعم تحمل الكثير، ولدينا أكبر منها كذلك. لكن لا نستخدمها إلا في المناسبات الكبرى التي تتزايد فيها أعداد المسافرين من الألباء وأسرهم. أما هذه فنسافر عليها كل خميس لحضور مهرجان رتال الكبير، ونعود فجر الجمعة.

ـ ولمَ يسافر الألباء أيضا؟

ـ ليس كل الألباء ـ بالطبع ـ مسافرين معنا، بل جزء منهم، وافقت إجازته هذا الخميس وله حق المتعة هو وأسرته، مرة كل شهر.

وصلنا إلى رتال، تفتح الأبواب ونخرج إلى ردهة زجاجية ملونة، تتحرك تحتها مرايا مضيئة، وفي طرفها الآخر يقفُ رجلٌ مسنٌ، قوي البنية، شعره أبيض لامع، أدركت من ابتسامته أنه في استقبال الجمل، يسلم عليه ويسير إلى جوار الجمل و نسير خلفهما، إلى ردهة كبيرة أخرى مكتظة بالناس من كل لون وشكل وجنس وعمر، يسير الجمل ومضيفه في وسط الجموع، لا حرس، ولا أناشيد ملكية أو دولية، نسير طويلا إلى أن نصل إلى مكان شاسع جدا، اكتسى بالخضرة وأجمل النباتات والأشجار، عبق الورود يملأ صدورنا، ونشوة المكان تأخذ بمجامع الروح، يتوسط ذلك المرج الأخضر بحيرة صافية رقراقة، يجلس الجمل على مقعده المخصص، ويشير إليّ فأجلس عن يساره، أما آران فجلس عن يمينه، وبقي المضيف واقفا، إلى أن تحرك ماء البحيرة على هيئة دوائر، فانصرف لا أدري إلى أين، بصري مشدوه في تلك الحركات الدائرية في ماء البحيرة.

ظهرت من بعيد فتاة ممشوقة القوام، تعلوها سمرة خفيفة، وسارت بحركات راقصة باتجاه البحيرة، وقف الجمل، وهتفت الجماهير الغفيرة، وهي تتراقص في سيرها، حتى تبينت تفاصيلها الفاتنة، بدءًا بانثيال شعرها الليلي على كتفيها، ووسامة قسماتها، وقوامها المشوق بليونة ونعومة مذهلة، وتفاحتين تفتقان مكامن الشبق بنفورهما المستفز، لباسها الحريري يغطي كامل جسدها، أرقبها بعناية، وتلك البسمات الساطعات تبعث في الروح الأمل والبهجة، ونضارة الحياة ولذتها، تدور على حوافّ البحيرة والعصافير تطير من خطوها وتهجع، وكأنها تداعبها، أو تكمل منظر العجب، الذي يتلاشى وهي تضع خطوتها الأولى بثبات على صفحة الماء، وسط هتاف الجماهير المجنونة وصخبهم، فتسير بخطوات أخريات على سطح الماء، وسط اتقاد ذهولي، وتكذيبي لما أراه، ألتفت إلى الجمل فأجده مشدوها برؤيتها عني، توقفت الفتاة في منتصف البحيرة، وكأنها تقف على بلاطة لامعة. يهتف الناس من جديد، لأجوب المرج بنظري، فتشدهني حركة شبان وفتيات ينسلون من خلف الأشجار، كل واحد منهم يحمل آلة موسيقية. يتوزعون على ضفاف البحيرة، يدورون

حولها، ويبدؤون العزف العذب، تتمايل الغانية، أو تتراقص على سطح الماء، والعزف يستمر، على آلات وترية مختلفة، وأصوات تتماهى بين الأصوات الطبيعية والترددات الوترية العذبة، يكاد يموت اللحن، ثم يتعالى إلى ما دون الصخب، والجمع منصتون.

منظر الشمس من خلف القمة الجليدية خلاب آسر، كل الألوان الجميلة تراها، مفرق المطربة (زنوف) وزرقة الماء، مرورا بالعشب الأخضر، وتفاوت درجات الاخضرار بينه وبين الأشجار، إلى دكنة جبال روكي، إلى بياض الجليد، المكتسي احمرار الشفق، إلى السماء الملبدة بالسحب المحمرة الجميلة، ثم تصدح زنوف بأغنيتها:

إنسان..

إنسان..

لكَ السماء..

لكَ الضياء..

كل الوجود في ضياك شمس.

وهذه الأرواح من رؤاك همس.

وأنت بسمة الإله.

وقلبه الحنون.

في كوكب السلام والأمان.

إنسان..

إنسان..

تثور الآلات الموسيقية بعد هدوءها الفيروزي العذب، والمقطوعة الشعرية المعبرة، تتعالى وكأنها متفرقة صاخبة، ثم تبلغ قمة اللحن الذي يحرك الأرواح من أعماقها، وزنوف تسير بخطوات مدروسة تشبه الرقص الهادئ على الماء الرقراق، لتدخل بعذوبة صوتها بين الأصوات الموسيقية، وتفرض علينا الطرب فرض عين:

يا إنسان الله الأعلى..... عن أحبابك لا تتخلى..

أروِ الأرض بنا في دعةٍ... فترى الزهر بنا يتجلى..

خذنا في عينيك ضياء..
وامنحنا خير الأسماء..
واسكن في أعماق فؤادٍ..
وجد الأرض لديك سماء..

نحن العقل لهذا الكون...... نحن الآيات العظمى..
نحن الإنسان وأكرمنا...... من يتسامى للأسمى..
من يتسامى للأسمى..
للأسمى..
للأسمى..

تخفت كل الآلات الموسيقية بعد هذا المقطع، يضج الجماهير بالتصفيق والهتاف، ينفتق صدر الهدوء عن آلة منسابة اللحن، غاية في العذوبة، تشبه الناي في صفيرها لكنها أعذب منه كثيرا، والعازفة بها تتفنّن في لفت أرواحنا إليها، وتأمل حركاتها على محيط البحيرة، فيلتقيها شابٌّ وسيم من الجهة الأخرى، ويدخل في موجة لحنها، بآلة أخرى تشبه (الكمان)، حتى خُيّل لي أن الأشجار في المرج الأخضر تتمايل مع اللحن، وزنوف تسير بهدوء على صفحة الماء، يقف الشاب جوار العازفة الأولى، ويستمران في العزف، وشابة أخرى تخرج بآلة صفير لتدخل الموجة أيضا، ويخرج في موازاتها شاب بآلة مغايرة، حتى تواشجت الآلات في مقطوعة مذهلة فاخرة، لتتهادى زنوف على سطح الماء باتجاههم، وقد وقفوا بشكل مستقيمين متقابلين، ليسا متوازيين، بل يقتربان عند القطب زنوف، على شكل مثلث دون قاعدة، فتناغي زنوف برقتها أرواحنا الذائبة في اللذة:
يا إنسان الله..
يا إنسان الكون..
يا واقف فوق الأسرار..

يا راسم عطر الأزهار..
خذ من وردي أجمل لون..
خذ من روحي أنفذ عطر..
واترك ساقي..
اترك ساقي..
مهما اعوجّت..
سيقوّمها ثجُّ الماء..
، ،
أترك أوراقي سابحة.. في أرض الله..
ودعِ النحلة تشرب شهدي.. طبا ورفاه..
لا تقصيني..
لا تسحقني..
لا تقطفني، وتجففني..
شاركني في الكون عطاءً..
أو دعني في كنف الله..

فيموت اللحن هنا وسط هتافهم وصمتي المتفكر، ويعود بعذوبة نغمته الأولى، وزنوف تردد في هدوء وإحساس عالٍ جدا:

يا إنسان..
يا إنسان..
وأنت بسمة الإله.
وقلبه الحنون.
في كوكب السلام والأمان.
إنسان..
إنسان..

تعود زنوف للخلف، والجميع يهتفون باسمها وأسماء فرقتها المبدعة، تنحني انحناءة امتنان وحب، تتقدم إلينا، بخطاها الرشيقة، وسحر أنوثتها، لكن الجلال يغشاها، ومسحة الخجل الجميلة تزيد موهة جمالها الأصيل، تتقدم وتشير بالسلام على الجمل الذي وقف احتراما لها، تدخل في عمق الجماهير وتغيب عنا، يستمر الجمل واقفا، ثم يمشي برفقتي وأستاذي آران، ندخل من بين الجماهير، كأننا لسنا برفقة شخصية مهمة كالجمل، صقور الأسئلة تحوم في صدري، أيأمن الرئيس على نفسه هكذا؟ ألا يعتدي عليه أحد؟ اخترقنا الجموع بهدوء، عبر ممرات شاسعة الاتساع، حتى أشرفنا على منحدر، جعلوا بيننا وبينه سياجا أنيقا، للحماية من السقوط إلى أسفل، وهناك نشاهد العروض الضوئية بعد صلاة المغرب، التي لم يؤدها سوانا وبعض الألباء القريبين منا ساعتئذٍ، فحامت عقبان الأسئلة في كبدي أيضا، لكني قررت تأجيلها.

بدأت العروض الضوئية الساحرة، واستعراض مهارات الشبان والفتيات والشيوخ كذلك، لم أصدق أن تكون في الضوء تلك الطاقات، وأن يستخدمه الإنسان بتلك الصفات، يطوعونه وكأن للضوء جسم، ينبثق من مصدره مستقيما، فيعمد إليه المستعرض، فيطوّعه كيفما شاء، مرة يقوّسه وأخرى يدوّره، ومرة يكتب به كلمة، أو يرسم به رسمه، وبعضهم يخرم الضوء بأشكال مختلفة، فكأن الضوء ورقة يرسمون عليها ما يشاؤون. ولم يقف الأمر عند ذلك، بل تجاوزه إلى أن صار الضوء كالمنضدة، يضعون على سطحه الأشياء الخفيفة والمتوسطة الحجم.

ذهولي يغرقني أمام هذه المناظر غير المألوفة أبدا، يشير الجمل إلى رجل مسن، ضمن المستعرضين، بدأ في اقتطاع الضوء، كما يقتطع الخزّاف الصلصال، ثم يشكله حتى أكمل شكل كرسي ثابت، فجلس على الكراسي بطريقة استعراضية، لم أصدق أنه جالس على الكرسي حتى رفع قدميه عاليا. لم أستطع صبرا على وخز الاستفهامات لأسأل الجمل، لكنه لم يجب.

توالت العروض بكل الأشكال، ثم استوقفني عرض الألعاب النارية، التي كنت أخالها نارية، لكنها كانت ضوئية، لا صوت مرفقعات ولا روائح بارود كريهة، بل أصوت الآلات الخشبية التي تحمل الضوء الانفجاري بكل ألوانه وأشكاله البديعة، وكيف تفننوا في صنع

ثقوب في الآلات الخشبية الصغيرة؛ حتى تطلق أصواتا موسيقية أثناء انطلاقها، لتنفجر في الأعلى وتشكل لوحات فنية بديعة، بعضها على صورة إنسان بكامل تفاصيله، أو منظر طبيعي، أو كلمة مكتوبة، أو أي شكل يريده مبدعوها.

سرت من ذلك المكان برفقة الجمل وآران بابتسامته المعهودة، عدنا للمرج الأخضر من جديد، جسنا خلاله، حتى جاوزنا البحيرة، تأملت ماءها فوجدته ماء حقيقيا، وخلف الرابية بدت الأضواء، وارتفع صخب الأطفال، على ساحة شاسعة للهو الأطفال والكبار، كل الألعاب التي فيها ضوئية متحركة بأشكال وأحجام مختلفة، لم أجرؤ على ركوب واحدة منها، بالكاد ركبت الأرجوحة الضوئية تحت إصرار الجمل الذي ركب إلى جواري، جلست على لوحٍ ضوئي دافئ، لين مطواع، تشكل على هيئة جسمي، وأمسكت بطرفيه المتدلين من عارضة الضوء كالأرجوحة الحديدية تماما، أخذت تتأرجح بي في هدوء، لكني لم أطل الجلوس عليها؛ لأن الحومان يحضن كبدي دائما من حركة الأراجيح. تأملت الألعاب، فوجدت الضوء يخرج من ثقب أحمر مخبأ تحت العشب، كما تُخبأ النوافير في الحدائق عندنا، ويخرج من ذلك الثقب بالشكل المراد. تجولنا زهاء الساعتين في المرج الجميل الصاخب بالفرح وابتسامات الجميع في صخب الأطفال. لم أرَ طفلا ألقى بحبة لب على الأرض، أو عائلة تركت مخلفاتها. ولا عمال نظافة منتشرون، حتى أشياءهم الثمينة يتركونها على الأرض دون خوف. كل شيء في هذه القرية عجيب ولافت للنظر. يستحق الوقوف والتأمل. لكن ليس لهم، بل للقادم من خارج عالمهم العجيب الجميل.

خرجنا من نطاق الملاعب الترفيهية، إلى قرب البحيرة، وكأن الجمل على علمٍ بكل ترتيب وتوقيته بالتمام، حتى وصلنا إلى أكبر مائدة حضرتها في حياتي تمتد على مدّ النظر في جمال المكان وهدوئه، لم تستحضر ذاكرتي من واقعنا إلا مائدة مدّها أصحاب قرية جنوبية لأمير زائر، كانت عامرة بكل مالذ وطاب من المآكل والمشارب، لكنها ليست بضخامة هذه المائدة وتنوعها، جلس الجميع على تلك المائدة العامة، لم يحظ بتمييز ولا مرافقوه، بل كالجميع نجلس في وسط العوائل والأطفال والأشخاص، حتى فرغنا من المائدة وقمنا، سار بنا الجمل إلى أسفل المرج، وهناك العروض الرياضية بأنواعها، سهرنا نراقبها عرضا تلو الآخر إلى الساعة

الثالثة فجرا، قام الجمل، لا يلوي على شيء، حتى بلغنا الغرفة الزجاجية، فجلسنا على مقاعدنا، ولم يأخذ الأمر أكثر من دقيقتين حتى أحسست بحركتها الخفيفة، ونحن نغادر رتال إلى تاوه.

تاهت كل أسئلتي، ولم أشعر إلا بحركة النزول في تاوه، توجهت إلى حجرتي الخاصة، وغبت في نومي العميق. لأصحو متأخرا، تدفعني أسئلتي إلى الجمل، سلمت عليه، فنزل وجلسنا على بساط ناعم مدّه الحارس على الأرض. نظر إلي الجمل وفي عينيه ابتسامة رضا وسأل:

ـ كيف وجدتَ رتال؟

ـ أواااه يا سيدي، قرية ساحرة جدا. كل شيء فيها يأخذ بمجامع اللب والفؤاد.

ـ أخبرني عن أغنية زنوف؟

ـ هل تصدقني إن قلت لك أنها أعذب صوت سمعته في حياتي، أحب الموسيقى، لكنها جعلتني أعشقها البارحة، كنت أحس حركتها في قلبي، تحرك وجداني، وتتدفق أنهار حسي على إيقاعاتها العذبة، لقد أنستني زنوف مطربتنا العذبة فيروز.

ـ زنوف يا يحيى مطربة حقيقية. أحب سماعها، وأحرص على الأسابيع التي تكون لها أغنية فيها. فكل أسبوع له عروضه ومطربوه وبرامجه الخاصة.

ـ إذن لقد فاتت عذوبة زنوف على من ظلوا في تاوه؟

ـ كلا، بل سيتلذذون بها اليوم، ويرونها في المسرح المائي في الرابية الخضراء. فترة استراحتهم.

ـ لمَ لمْ يكن لك استقبالٌ حاشدٌ في رتال؟ ولم تخفْ من الجماهير، وكأنك شخصية عادية؟

ـ الأمن عقيدة في عالمنا، لا يجرؤ أحدٌ على اختراقه أبدا، ولسنا منزهين عن الأخطاء، ولا ندعي الكمال، لكن لا يمكن أن يبلغ الأذى بأي شخص إلى درجة الهلاك الجزئي أو الكلي من أي شخص في عالمنا، ربما تنشأ خصومات واعتداء يدوية أحيانا، لكنها ليست مخيفة ولا مفزعة، ولا تشكل خطرا، ولا أخاف مادمت لم أضر أو أظلم أحدا، أو أتدخل في شؤونه الخاصة، أو أقيّد حريته دون سبب يقتنع بقانونيته من ألباء القضاء. أما الاستقبال الحاشد

الذي قلت عنه، فقد استقبلني أمير رتال في الردهة ورافقني إلى أن جلست، وهذا أقصى ما يمكن من الاحتفاء، والاحتفاء الأكبر أن أعيش بحريتي دون بروتوكولات تقيّد حياتي، لأنني في زيارة ترويحية.

ـ لم أرَ مظاهر للإسلام في رتال، ولم يصلّ معنا كثير من الناس؟

ـ لسنا جميعا على دينٍ واحدٍ، ولو تعمقت في أغنية زنوف، في مقطعها الأخير عن الوردة، لأدركت مبدأ الحرية عندنا في كل شيء، نحن لا نقيّد أحدا، له أن يعتقد ما يشاء، ويفعل ما يشاء، دون المساس بمصالح الأمة العامة، أو التعدي على حريات الآخرين، ومنا المسلمون واليهود والنصارى واللادينيون وغيرهم، لكن هناك عقيدة واحدة تجمعنا جميعا.

ـ ما هي؟

ـ أن الإنسان أعلى من كل فكر واعتقاد، وكل شيء في الكون مسخّر لخدمته.

ـ ألا تخشون مكائد أصحاب المعتقدات الأخرى؟

ـ إطلاقا، لا يمكن أن تخشى من إنسان لم تؤذه يوما.

ـ ربما يودّ بعضهم أن ينشر معتقده، ويجعل الغلبة له.

ـ ليست هذه الأفكار في عالمنا، لأننا نتبنى نظام الحرية العام.

ـ لنفرض أن مسلما تحول إلى ديانة أخرى، بمَ تحكمون عليه؟

ـ سؤالك غريب، لم يحدث وارتد أحدٌ عندنا.

ـ وما الغرابة؟ هناك من يرتد عن الإسلام.

ـ قبل البحث عن أحكام للمرتدين، يجب العمل على إصلاح الثغرات التي جعلت مكلفا يخرج من نور الإسلام إلى ظلمات الردة، الردة يابني تبين أن هذا الإنسان واجه عائقا، والواجب على العلماء تبيانه، فما حاجتنا بمسلم يحافظ على إسلامه الظاهري خوفا من القتل ويضمر غير ما يعلن، وكم من مسلم مرتد عن الإسلام، لا يعلن ردته خوفا من القتل فقط.

أرسل الله الرسل، فبلّغونا ما يريد الله منا، ولا نريد أن يكون الدين مشكلة تعيق الحركة الإنسانية، أو مصدر رعبٍ للإنسان، فالله في بلاغه لنا، قد بشرنا بالثواب، وأنذرنا من العقاب، فهل نستبق عذاب الله. ثم إن قلت أنه يجب أن نعاقب المرتد، أو نقيد حريته،

وهذا العقاب يصل أحيانا إلى إعدامه، فهل نملك له الثواب إن ثاب إلى رشده وتاب.

ـ نعم، نملك الثواب.

ـ أي ثواب؟

ـ نزيل عنه الأحكام التي استحقها بجنوحه عن الطريق وردته.

ـ هذا ليس ثوابا، لأننا نحن من فرض العقاب عليه، وإزالته لا تعتبر ثوابا. وإذا كنا نملك العقاب للمذنب، فهل سمعت يوما بأننا منحنا الثواب للمحسنين؟

ـ لكم تفكيركم الخاص في هذه القضايا، لكن دعني أسألك: هل لكم نشاطات دعوية؟

ـ نشاطاتنا الدعوية سلمية، لا تتعرض بالأذى للديانات والمعتقدات الأخرى، سوى بشرحها المعتدل، ومطابقتها للعقل والفطرة، ولكل إنسان ما يريد. تأمل حالكم، وكيف صارت الديانات تتصادم صدامات عنيفة، وكل فريق يريد إكراه الآخر بما يعتقده، ويحذّر أتباعه من خطر أصحاب تلك الديانة، ويوهمهم بأن الجميع يتربص بهم الدوائر، ويبحثون عن المعابر التي يقوضون بها معتقداتهم، فاحتد الصراع بين معتنقي الديانات فكريا وسياسيا واقتصاديا، حتى سُفكت الدماء، وأزهقت الأرواح باسم (الله)، والله بريء مما يزعمون وقد قال " لا إكراه في الدين ".

من ينظر لحالكم، يرى مهانة الإنسان، الدين يمتهن لتحقيق المآرب الدنيوية، حتى أصبحت الديانة الواحدة تنقسم على ذاتها، وتنشأ الطوائف والمذاهب والأفهام الخاصة، فينزلق أتباع الديانة الواحدة إلى مهاوي العقل، وتتقمص الأرواح أردية التعصب، فتعمى الأبصار، وينتشر الموت والقتل والفقر والحصار، ويتلاشى الإنسان، ويموت في ضمير الأمة مبدأ استخلاف الإنسان في الكون، وكل فريق يجزم أنه الأجدر بهذا الاستخلاف، وأن الكون سيفسد إن لم يكن هو القائد المدبر، وعلى صعيد مجتمعك الإسلامي الكبير فقط، وأنتم تتوقون إلى قيادة العالم، ماذا لديكم كي تضطلعوا بهذا الدور الكبير، يجب أن تسألوا أنفسكم ماذا قدمتم؟ وما الذي تستطيعون تقديمه؟ ثم عودوا إلى أنفسكم وفتشوا عمّا تقدمونه للإنسانية.

الميدان مفتوح أمامكم، ها هي قضية الاحتباس الحراري، تتهدد الكوكب الآن في زعم علماء العالم، هل لكم مساهمة فاعلة في حلّها، أم تنتظرون ما يأتي من الغرب، أو الشرق؟. لو

فكّر الإنسان بالفكر الإنساني الجمعي، والقضايا الكلية للإنسانية، لتعايش مع غيره، وأدّى واجبه المنوط به، فذوبان جليد القطبين، أو ذوبان قارة أنتركتيكا، سيحمل الويلات والدمار على الكرة الأرضية بأسرها، وليس أحدٌ بمنأى عنها، حتى سكان الجبال العالية، ستضيق بهم جبالهم بعد هروب سكان السهول من الطوفان العظيم، ودرجة حرارة الكوكب ستكفي لازدحام الغلاف الجوي بروائح الجلود البشرية المشوية والمسلوقة.

تحلّ الكوارث الطبيعية في البلدان الإسلامية، ويكون حضوركم خجولا، متأخرا عن الحراك الإنساني العالمي، فضلا عن كوارث العالم من غير الدول الإسلامية، التي لا دور لكم فيها، فأي رسالة تحملونها، كي تقدموها إلى الإنسان؟ رسالة التدين؟. قبل التدين أريد أن أحيا، أن أجد لقمة العيش بكرامة، ثم بعد ذلك أبحثُ عن الدين الذي أقتنع به، وأجده الدين المثالي للحياة التي أطمح إليها.

ـ سيدي، أنا لست متخصصا في هذه الأمور الكبيرة، والرؤية العميقة التي تتكلم بها، فهذا خوض لا أحبذه.

ـ لأن صوت العقل عندكم مكبوت، والنص مقدمٌ على العقل في كل شيء، ولا يجب أن تناقش قول إنسان تقدمك، خلعت مكانته الدينية أو العصرية على قوله القداسة التي تنزهه عن المراجعة والتدقيق، وتأمل الظروف التي نشأ فيها ذلك القول، أو ذلك الفهم، مع أن القرآن الكريم مبنيٌّ في معظمه على مخاطبة العقل وبالأدلة العقلية، وهو مرجع مهم للتحفيز العقلي، أكثر من كونه نصوص تعبدية أو تشريع إلزامي، ولك في سؤال البعث من خليل الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ أقوى حجة، وأكبر دليل على ضرورة الاقتناع للوصول إلى مراتب الإيمان، فهل نشكك في إيمان إبراهيم؟ الرجل الذي رأى في المنام أنه يذبح ابنه، فامتثل لأمر ربه وصدّق الرؤيا. فأي إيمان أقوى من هذا الإيمان بربك يا يحيى؟

بلتُّ أمام كلامه، أشعر برعدة في جسدي، لم أعتد أن أخوض في هذا الكلام الكبير جدا، والذي أراه فوق مستواي العقلي والعلمي، أتذكر زميلنا الشيخ ناصر وهو يحرّم علينا النقاش والجدل في هذه الأمور، وينصحنا بالابتعاد عن الخوض في المسائل الدينية، حتى وإن كانت خلافية أو محل نظر؛ فهذا اختصاص العلماء، والتعرض للعلماء يعني الهلاك بلوك لحومهم

المسمومة، وهذا الجمل لا يفتأ يخوض لا يخشى سمّا ولا هلاكا. فيستطرد:

ـ نبي الله إبراهيم، سأل ربه عن إحياء الموتى، فلم يعنّفه الله على سؤاله، بل استفهم منه وهو العالم بما في نفسه، (أو لم تؤمن؟)، فأجابه بالإثبات أنه مؤمن، لكنه يبحث عن درجة الإيمان العليا، درجة الاطمئنان، فلم يدعه الله يعْمَه معلَّقا في استفهاماته، أو يقطع عنه الحياة، أو يبتر عنه شرف الرسالة والنبوة؛ لأنه سأل سؤالا لا يليق بالمؤمن، وسأل مسؤولا لا شيء بعده ولا فوقه، بل أجابه الله إجابة عملية، جعلته يصل إلى تلك المرتبة المنشودة من الإيمان. هل تجرؤ أن تناقش عالما أو نصف عالم، أو متعالم الآن في أمور تحيّرك؟. حتى وإن كان متواضعا ونزل في زعمه إلى مستواك، سيرى فيك شرا وخطرا، وسيظن بك الظنون، وربما أصدر حكما عليك بأنك مبلبل، أو متصيّد شبهات، أو مدسوس على الدين، أو تعرضت لغسيل جمجمة، يجب الأخذ على يدك. وأتحداك أن تجد إجابة شافية.

أنتم تخشون المنهج العقلي كثيرا، وتؤمنون بالنص فقط، ولا اعتراض على النص، لكن تحصرون النص في فهم فلان، فلا قول بعد قوله، ومن تكلم بالعقل؛ يستطيع أصغر متعالم نعته بـ (زنديق)، كما أطلق على الكثير من علمائكم الذين وضعوا بصماتهم على جبين العلم، واشتهرت أسماؤهم في جامعات الغرب أكثر من اشتهارها عندكم.

ـ سيدي أتفهّم ما تقوله، لكنني لا أملك أمام قولك قولا، وأتمنى عليك أن تناظر بعض علمائنا، فتظهر له حججك، وسترى إجابته عندئذٍ.

ـ لا عليك يا يحيى، لستُ مضطرا إلى ذلك، ولستَ مجبرا على قبول قولي، ما أود قوله أن الإسلام غير الإيمان، ومنهجكم الدعوي منصبٌ على الإسلام، وغافل عن ترسيخ الإيمان في قلوب من أسلموا.

ـ دعنا من هذا، وأخبرني عن عجائب الضوء التي رأيتها في رتال؟

ـ ألبّاء رتال مغرمون بالعجائبية في كل شيء، ألم ترَ زنوف وهي تقف على سطح الماء؟. فهذه المقدرة موجودة لدينا من الزمان القديم، وربما مرّت بك قصة الخضر وموسى عليهما السلام، فقد استفاد الألباء من تلك القصة، ولم يعتبروها معجزة خاصة، بل ساروا في بحثها والمحاولات فيها حتى استطاعوا بلوغ السر، الذي مكّن البعض من السير على الماء دون

الغوص فيه، والسر مختلط بين أنواع شتى من التوازنات، لا تتأتى لكل إنسان، أولها التوازن الروحي، والعقلي، ثم الجسمي، وتوازن الجو المحيط بالماء، وخصائص خلقية في القدمين، وتركيب الأعضاء الجسمية عليها، وكل هذا يحتاج إلى تركيز ودقة عالية. ولعلمك لا يستطيع السير على الماء في عالمنا إلا أشخاص قليلون، لا يتجاوزون الثلاثين، زنوف واحدة منهم.

أما الضوئيات، وكيف استطاع الألباء تجسيم الضوء، فهناك تقنية خاصة استحدثها الألباء قريبا، تُدعى (كثافة الضوء)، بعد أن يخزّن ضوء الشمس في حافظات من مادة الراجول، تطول مدة التخزين إلى أكثر من أسبوع، وفي ساعة معينة من الليل، وبكيفية خاصة تسكب على الضوء سوائل هلامية مخصوصة تدعى (التاشيفا)، ثم تحرك الحوافظ بطريقة دائرية، تسمح لجزيئات الهلام بتشرب الضوء حتى يصبح أساسيا في تكوينها الجزيئي، فيصبح الهلام مشعا، لكنه ثقيل جدا، يقتطع منه قطع مشعة تضيء المنازل في الليل، بعد هذه المحاولة الناجحة، توصّل الألباء إلى تخفيف تلك المادة، وتدرجوا في تخفيفها حتى استطاعوا تحرير الضوء من الهلام الثقيل، فاستبقوا من الهلام خاصية التماسك، العالقة في جزيء الضوء، فكان بالصورة التي رأيتها في رتال.

ـ ألا تستخدمونها هنا؟

ـ بلى نستخدمها، لكن على نطاقات بسيطة، لأن تقنيتنا الضوئية ممتازة، كما ترى فلسنا بحاجة إلى تلك الابتكارات، لأن الأجواء هنا صحوة في أغلب أيام السنة، أما في جبال الروكي فالضباب والأمطار والسحب على مدار السنة.

ـ كيف استطاعوا جعل الضوء جسما يتحمل وزن الأجسام الأخرى عليه؟

ـ ليس عسيرا هذا.

ـ بعد تمكنهم من مزج الضوء مع الهلام، وجدوا أن جزيئات الضوء قابلة للامتزاج بالعديد من السوائل، وتعلم بأن الأجسام الصلبة، يمكن إذابتها، فاستطاعوا مزج الحديد بالضوء، والكثير من المعادن، حتى مزجوه مع البلاستيك والمطاط، فكانت الألعاب التي رأيتها البارحة، تأخذ من المادة صلابتها، ومن الضوء إشعاعه، لكن عنصرا مشتركا بين الضوء وهذه المعادن أو البلاستك، هل عرفته؟

ـ ربما أحسستُ بها أثناء جلوسي على الأرجوحة. هل تعني الحرارة؟

ـ ماشاء اللّه، بدأت تدخل عالمنا، وتستخدم عقلك جيدا، نعم هي الحرارة، لكن الألباء استطاعوا تخفيفها إلى أقل درجة.

ـ لا أعلم واللّه كيف سأرى عالمي بعدما رأيت ما لديكم.

ـ ستراه أقل مما يجب أن يكون. لكن وطّن نفسك على ألا تتحرق. والآن يجب أن نخرج إلى الرابية الخضراء، فصلاة الجمعة وشيكة.

سرتُ معه إلى الرابية الخضراء فالتفّ بي خلال المروج، حتى بلغنا منطقة القباب البيضاء، وهناك رأيت الناس يجتمعون، تحت تلك القباب التي أظنها ضُربت فقط للصلاة وستزول، لا أعمدة لها إلا جذوع الشجر الأخضر، فبين كل شجرة وأخرى قبة ضخمة كأنها المرو الأبيض، لكن عندما اقتربت منها، رأيتها قابلة للطي. الجميع يرتصون في الصفوف، لا عشوائية في الجلوس، ولا اتكاء على جذوع الشجر، ولا فراغات في الصفوف الأمامية، بل يجب أن تجلس حيث تجد آخر الجالسين، ولا يمكن بدء صف، حتى يكتمل الصف الذي قبله، صلّى الجمل بجواري، لم يترك له فراغ في مقدمة المسجد، ثم قام من جواري وأجلس شخصا آخر، وانطلق يسير حتى خرج من المصلى، فاتجه إلى مقدمته، واعتلى المنبر، وأخذ يخطب فينا خطبة تخلب اللب، لا ورقة، ولا تأتأة ولا تلفّت للحصول على لفظ، فكان خطيبا مفوّها، كانت الخطبة تدور حول (العدل)، أخذ يناقش فيها نصوصا دينية، ولم يأتِ بقول فلان ولا علّان، بل يناقش بأسلوب علمي، وكأننا في محاضرة علمية لا خطبة روتينية تعبدية، كل الأبصار شاخصة إليه، والملفت للنظر، عندما جلس الجمل بين الخطبتين، وقف شخص من الصف الثالث، فسأله عن مسألة علمية في الخطبة الأولى، وكأن الرجل يعترض على كلام الجمل، فنادى باسم اللبيب (زاود) فوقف شيخ كبير السن، والتفت إلينا وأخذ يفصّل في تلك المسألة، حتى اقتنع الرجل، فأتم الجمل موضوعه ثم أخذ يدعو بدعاء ليته لم يتوقف، كل دعواته نورٌ وهداية للإنسانية، لم أسمعه يدعو على أحد، ولا يتعرض لذكر مخلوق بالأذى، ولم يخصص الدعاء لبلده ولا لسلطانه. ثم صلينا وعدنا إلى القصر، وبعد الغداء الكبير في مجلس الجمل لجمع غفير من الألباء، نادى الجمل على اللبيب

(إناف) فأشار إليّ بمرافقته، فرافقته لا أعلم إلى أين.

خرجنا من القصر وسلك بي طريقا لا أعرفها، ركبنا عربة الأحصنة، وصلنا إلى باب زجاجي، خلفه حارسان، تجاوزناهما، فأدخلني حجرة بيضاء، تكاد تضيء من شدة البياض، شعرتُ ببرد قليل فيها، أجلسني هناك، لا يكلمني، كأنه أخرس، بعد دقائق عاد، أمرني بخلع ملابسي، فشعرت بحرج شديد، لكنه أعطاني محرمة بيضاء فضفاضة، وضعتها على جسدي وتجردت من كل ملابسي، قام بلفلفتها عليّ بطريقة خاصة، فتبعته إلى حجرة مليئة بالبخار، تجردت من المحرمة وجلست على كرسي خشبي، وبعد زهاء خمس دقائق نقر الباب، فخرجت، أخذني إلى حجرة أخرى، دهنني بسائل أبيض كالحليب، حتى تلونت باللون الأبيض كأنني قطعة جبس ناصعة، فأزاح الستارة عن بركة خشبية فارغة، تمددت فيها على ظهري، أشعر بتيار هواء يأتيني من كل الجهات، أدركت من تيبس حركتي أنه قد جفف السائل الأبيض، ثم أخذ يغمرني بسائل أزرق فاتح اللون، حتى غمرني كلي، فتحركت وقد زال التيبس من مفاصلي، أشار بالوقوف، وأخذ يتفحص بدني، وسط خجلي الشديد، وضع ٧ إشارات على النقط الزرقاء الغامقة على بدني، ثم أجلسني على كرسي وأخذ يسألني:

ـ بمَ تشعر في خاصرتك اليسرى؟

ـ قديما شعرت بما يشبه المغص، لكنه لم يعاودني.

ـ في كليتك حجرٌ صغير تجب إزالته.

أدركت أن النقاط الداكنة، مواقع أمراض في بدني، شعرتُ بالقلق من نقطة داكنة على صدري، فسألته:

ـ ماذا بعد؟ ما كل هذه الإشارات على بدني؟ أهي أمراض خطيرة؟

ـ لا تخف، تعرضت رئتاك لغازات ضارة، وسيتم تنظيفها، وفي بدنك ٣ خلايا سرطانية كامنة، الأولى في العنق، والثانية في الإثنى عشر، والثالثة في الفخذ اليسرى. ولديك التواء في رباط ركبتك اليسرى أيضا. ووظائف البنكرياس لديك ليست ممتازة.

ـ هل يمكن علاج هذه الأخطار؟

ـ نعم، وهي سهلة جدا، سنتدبر حلها الآن، لا تقلق، فالقلق والخوف يؤثر على العلاج.

كيف لا أخاف وفي جسدي ثلاث خلايا سرطانية، والبنكرياس لا يؤدي وظائفه بشكل ممتاز، أتذكر أمي ومرض السكري الذي أنهكها، أشعر بالقلق، لكن إناف واسع الحيلة في تهدئتي، أخذني إلى غرفة ضيقة، جلست فيها، شعرت بانتعاش عميق، ثم أخرجني منها، وأجلسني على كرسي، فدهن ركبتي بهلام بارد. ثم أدخلني إلى غرفة ثالثة حمراء اللون، كأنها لجة من نار، ناولني شرابا أخضر مر الطعم، أخذ ينظر إلى عنقي، فشعرت ببرودة في عنقي، سرعان ما تحولت إلى حرارة، وألم لذيذ لا يؤذيني، تحسس عنقي، حتى شعرت بما يشبه النتوء الحاد فيه، فوخزه بخفة وقد وضع زجاجة صغيرة مكان الوخزة، سحبها ونظر إليها، بها قطرة دمٍ ضئيلة جدا، ناولني عدسة متوسطة الحجم، رأيت نقطة سوداء في قطرة الدم، قال: هذه الخلية السرطانية الكامنة، كانت تنتظر مهيجا، فتفتك بعنقك.

ثم نزل إلى فخذي، وفعل بها مثل عنقي، ثم أشار الوقوف، شعرت بأنه نسي الثالثة، لكنه بدد ظني عندما أعطاني وعاء وأمرني بدخول الحمام والعودة بالوعاء إليه ليتفحص نتيجة الدواء وتأثيره على خلية السرطان الكامنة في الاثني عشر، فكان كما قال، فأخبرته، فعاد بي إلى غرفة البخار الأولى، جلست فيها زهاء الخمس دقائق، ثم أخرجني وغمرني بالسائل الأبيض، وأعاد الاختبار كله من جديد، فلم تظهر بعد ذلك أية بقعة داكنة. رافقني إلى مجلس الجمل، وكان إناف في العودة أكثر بشاشة ومرحا، وهو يطمئنني عن خلو بدني من كافة الأمراض. فسأله الجمل:

ـ كيف وجدته؟

ـ جيد جدا، سبع نقاط فقط، وتمت معالجتها.

ـ ومتى يستحق التجديد الخلوي؟

ـ بعد الستين.

هنا قفز مؤشر الخوف إلى أعلى مستوياته، ولم أستطع الصمت.

ـ ما التجديد الخلوي؟

يودع الجمل الطبيب إناف، ويلتفت إليّ، فأعلم أنه سيشرح، لكنه يقوم من المجلس،

فأقوم معه إلى الصلاة، وهناك تنشأ حوارات بينه وبين الألباء، لا أعلم فيمَ يتحدثون، الهلع يطوف بكل أرجاء فكري، ما الستين؟ وما التجديد الخلوي هذا؟ لكنني أتذكر كلامه عن طول أعمارهم، فأقول في نفسي ربما يقصد ذلك ـ لكنني أستغفر الله ـ أن أفكر كذلك وأنا في المسجد.

٧

" اليد جندي العقل، إن كُبّل شُلّت "

*يحيى

لم يعُد الجملُ يتفرّغ كثيرا لمجالستي، أو حتى مرافقتي كالسابق، ربما أدرك أنني علقتُ، واستطاع دمجي في عالمهم، وهذا الإحساس له وجهٌ دميمٌ، إذا تذكرتُ بعدي عن أهلي، وغيابي عن وطني وأنا أقفُ على ترابه، فأشد الغربة ما تكون في القرب الأقصى من البعد، أجدني في أوج النشوة إذا استطاعت مخيلتي استحضار الشخوص والأمكنة التي أحبها، كأنني عدتُ إلى بشريتي التي أعرفها، وخرجت عن ديناميكية عالم الجمل وألبائه. الشعور المقزز جدا أنني أرملُ إلى التحوّل إلى شيء شبيه الآلة، لا تكلُّ عن العمل والإنتاجية بكدّ، فأين سيكون مقام العاطفة في حضرة سلطان العقل المتقد، خاصة في قرية تاوه، الـ تغص بالمعامل والمصانع ومشاغل العقل، وربما لا توازن بين حصتها وحصة الروح، فبالكاد نجد وقت للصلاة، أو الأكل أو النوم خلال الأيام المنصرمة، وكلٌّ في شغلٍ يرملون، فكم أرى حياة الألباء تعيسة في هذا العالم، وهم لا يجدون إلا فرصة واحدة في الشهر بأكمله للترفيه عن ذواتهم وعوائلهم في قرية رتال، لكن أتذكر كلمات د. ممدوح الذي عملتُ معه بداية تخرجي، وكان يقول لنا إذا شعر بتذمرنا، " الإنسان يرى العمل شاقا حتى ينغمس فيه، فيتذمر لفترة قصيرة، ثم يصبح هذا العمل روتينيا وقد تكيّف معه عقليا ونفسيا واجتماعيا".

هل ستنطبق كلمات د. ممدوح على عالم الجمل؟ هل سأتكيّف مع هذا العالم؟ آآآآه متى ينقضي هذا الشهر، وأجد فرصة أشم فيها الهواء المختلط بأنفاس أهلي وأبناء مدينتي، أخشى أن يكون القلق قد استبدّ بهم في غيابي، وفي ذات الوقت أخاف أنني قد ذبتُ في ذاكرتهم كما ذاب ذكر أبي، الذي كان يُؤثِر الجميع على ذاته، ويجود عليهم بكل ما يملك من مالٍ أو وقتٍ أو جهد، تحت تعجبات عمي سامي الدافئة الساخرة من صبر أبي على فضاضة الناس، وقلة وفائهم، وأشهر جملة يرددها أبي " اصنع المعروف، وارمِهِ في البحر". أحب مجتمعي، أشتاقه كثيرا، أراني إصبعا مبتورة؛ لا تقوم بذاتها في غياب الكف الفاعلة، والإرادة المتحكمة، ومحالٌ أن أكون تلك الإصبع القائمة بدورها في كفين منفصلتين، بإرادتين مختلفتين. يجب أن أسير بتبصرٍ، لا أنقطع فيه عن عالمي لأذوب في عالم الجمل، ولا أُخرِجُ

ذاتي من عالم الجمل حتى أتقصى كنه هذا العالم ومراده، فربما دفعت خطره عن وطني، من خلال إحاطتي به، لربما جنيت فوائد يترقّى بها مجتمعي الأصلي. أشعر أنّي أسير في الطريق الصحيحة، أضطلع بدور عظيم في هذين العالَمين، لا بد أن أُبقيَ عقلي متقدا؛ لأؤدي دوري كما يجب.

هل عالمي الأصلي ظلاميٌ كما يقول الجمل؟ وكيف يكون ظلاميا، ونحن مشعل النور في العالم كله، ودول العالم الإسلامي ترانا الحاملين للواء النور والأمة، لم أسمع بمصطلح الظلام والخفافيش والجرذان والبوم؛ إلا عندما هبّ الإرهابيون تقتيلا وتدميرا للحرث والنسل، لكن الجمل جعله وصفا كاملا يشمل العالم بكل درجاته، حتى ذلك العالم الذي وصفه جورج بوش بـ (العالم الحر) أدخله الجمل في الظلام، جعله جارا لصيقا لدول العالم الثالث، التي يصفونها بين الفينة والأخرى بـ (الدول المتخلّفة)، ولا أدري أنوافقهم ونقول (المتخلّفة) أم نتخذ لهذا العالم الثالث وصفا أقل حدة ونقول (المخلّفة)، فإن اعتمدنا الأولى فيعني أنها تغيّت التخلّف بإرادتها، فاختارته مسلكا لمآرب خاصة، وإن أردنا الثانية (المُخلّفة)، فقد غدر بها العالم الحر، وأخذ بأسباب الترقي والنور، وخلّفها وراءه تعْمَه في ظلمات الجهل والفاقة، لا تعلم أين الباب، وكيف اللباب.

أشعر بتأثير الجمل وعقلانيته في تفكيري أحيانا، فهو الذي جعلني أمزج مصطلحي (المتخلّفة / والمخلّفة) في بوتقة واحدة، فأرى عالمنا المتأخر عن ركب الحضارة قد تخلّف وقد خُلِّف، وأرى كذلك أن العالم الثالث هو مَن أعطى الفرصة للعالم المتقدم أن يهيمن عليه ثم يخلّفه، وفي اللحظة ذاتها هو الذي أراد التخلّف فركن إلى الكسل فكبّل العقل وأطلق للعواطف العنان. كيف لي التفكير بهذه الطريقة، ونحن نفتح الجامعات، ونستقطب الكفاءات التعليمية، ونرصد أعلى ميزانية للتعليم، ونفتتح دورا للموهوبين، وأندية للأدب، ومؤتمرات علمية وطبية واقتصادية ورياضية؟!

أراني جحودا كنودا، وكأن الجمل نجح في غسل دماغي بمحاليله المرئية واللامرئية، هل أنا من الهشاشة إلى درجة التحطم في أسبوع واحد؟ ألم يزرع فيّ مجتمعي قواعد راسخة، من الصعب اقتلاعها مهما كانت المغريات، أو الحجج؟ ربما انبهاري بهذا العالم خلخل بنائي

المتماسك، كَمَن يغادرون بلداننا العربية إلى العالم العلمي المتحضر، فيعودون وقد تراجعت الكثير من قناعاتهم وتزعزعت إلى درجة الاندثار، وقد كانوا يعدّونها من الثوابت الراسخة، لكن حقيقتها مبنية من حجارة هشة، تربطها ببعضها خلطة هلامية من الوجدان والعاطفة المؤججة بالترغيب والترهيب، ولم تمزج بماء العقل، كي يمنحها التماسك الإيماني الراسخ فكانت سطوة العقل والعلم والهوى، أقوى من ذلك البناء الصوري الواهن، كوهن بيت العنكبوت، قلة قليلة الذين عادوا بنصف ثوابت اجتماعية أو دينية لم تطلها يدُ التقويض العقلاني، والهدم العلمي المنطقي، ربما لأن عقاقير التحذير، وجرعات التخويف المرعب كانت سياجا أقوى من البناء المحمي بها، كقبة السلحفاة الصلبة، وضعف جسم السلحفاة ورخاوته داخلها، فهل تماسك بنائي كان وهميا صوريّا هشّا، يتداعى أمام سطوة علوم الجمل وعقله؟.

خرجتُ من ضجيج هذه الدوامة السوداء عندما جاء أستاذي آران، واصطحبني إلى قاعة الدرس للمرة الثانية من مسيرتي التعليمية في صرحهم المذهل، فأدى واجبه التعليمي مزهوا بابتسامته التي أشعر ببرودتها من مسافة خمسمئة إحساس، أكثر من دفئها وحميميتها، أخذ في تحريك أنامله، وصبّ الكثير من العلوم المفزعة في دماغي، عوالم كثيرة كالديدان البيضاء أراها تتحرك، بعضها فوق بعض خلال جمجمتي الصغيرة، فكيف لصغرها أن تستوعب كل هذا الثج من المعلومات، فما بالك بشهر ثم سنة أو سنين من التعليم بهذه الطريقة الثجاجة، وكيف لذاكرتي أن تستخرج المعلومة في أقل من جزء من الثانية في كل هذا المحيط المتلاطم. أكثر ما شدّني في محاضرة اليوم، التعريف بأنظمتهم الفارهة جدا؛ التي بنوها في ظل نسق اجتماعي محكوم بِمُثل عليا تحدد لكل فرد مكانته ومسلكه الطبيعي، وحجم الإنصاف والعدل والمساواة بين أفراد المجتمع، إلى درجة يخالها الإنسان البدائي مملة وقاتلة للطموح. العجيب أيضا أن الجمل ليس المتحكم الوحيد في هذا العالم الافتراضي، فلا يملك الحكم وحده، بل ما تزال خمس شخصيات توازيه في الأهمية والمكانة لا يستطيع أن يحكمها، ولا يستطيع البت في أمر إلا بالتشاور معها. وبهذه المعلومة تنتهي الساعة المقررة اليوم، فيصطحبني أستاذي آران إلى مجلس الجمل، الذي كان بانتظارنا على المائدة، وفور جلوسنا يسأل آرانَ عني،

فتوحي إليّ إجابته بالرضا، لكن اختبار نهاية الأسبوع يتيح له صياغة إجابة علمية دقيقة. كأن هذا الجمل والدي، الذي كان حريصا على التسآل عن سيرورة أدائي الدراسي في المدرسة بانتظام وحرص، فيفرح به المعلمون، أما المرشد الطلابي فيراه عبئا يوميا عليه.

يستأذن أستاذي، أما أنا فأبقى بين عيني الجمل الذي لا يمل لثامه، أخاله قد وُلدَ به، يُقلّب بين يديه أوراقا لا أدري عمّا تحويه شيئا، ثم يرفع نظره:

ـ هل تعلم أن الألباء يقترحون إيقاف صناعة القوة، بعد الإنجازات الهائلة التي حققناها في هذا المجال. وأن نُبقيَ جميع مكتشفات هذا العام والمستقبليات قيد الحفظ الاستراتيجي المدوّن نظريا باعتماده على التجارب الحقيقية، ووقف الأنشطة التصنيعية.

ـ ولمَ يقترحون هذا الآن؟

ـ يرون أن الطاقات العلمية، والقوى البشرية التي تعمل في التصنيع، يمكن الإفادة منها في مجالات أخرى؛ لأننا بلغنا بكشوفنا العلمية أعلى ما يمكنك تصوّره من التقنية القوية جدا.

ـ هل بلغتم فوق قدرات السلاح النووي؟

ـ يبتسم مجيبا: القوة النووية التي ترعبكم، لا تعدو في ميزان قوتنا المفرقعات التي يلعب بها أطفالكم في الأعياد، فلدينا الطاقة الضوئية، والطاقة المغناطيسية، والطاقة الكهربائية، والكهرومغناطيسية، وغيرها مما لن تستوعبه، أو تتخيّله.

ـ هذه الطاقات عندنا ونعرفها، وقد بدأ العلماء في الإفادة منها عمليا.

ـ يقهقه عاليا: ربما تكون عندكم بالمُسميات فقط، أو ببذورها الخامة، ولم تستخدموها بعد في الإنبات.

يصمتُ قليلا وهيأته تدل على مواصلة الحديث:

ـ الطاقة الشمسية يا يحيى، فيها العديد من القوى التي استطعنا التحكم بها، ومازالت المحاولات مستمرة لاستنفاد كل تلك القوى، وتجييرها لصالح الإنسان، فقد أنتجنا من الشمس الكثير والكثير، من خلال تجميع الضوء النافع الساحر، ثم إعادة استخدامه بعد التصنيع والتصنيف والتكرير لنستخرج منه على سبيل المثال الطاقة الضوئية، والطاقة الحرارية، والطاقة الإشعاعية، وكل طاقة من هذه الطاقات لها تدرج في الاستخدامات من

السلمية صعودا إلى المدمرة دمارا عنيفا، ولعل من استخدامات الطاقة الضوئية ما رأيته في القبة العظيمة التي تعمل بأشعة النجوم، فما بالك إذا كانت في وهج الشمس، وعندنا العديد من التقنيات للحصول على هذه الطاقة الضوئية، وتركيزها كيفما نريد.

أما الطاقة الحرارية، فلا أظن في الكون مصدراً للحرارة أقوى من الشمس، وقد استطاع الألباء الإفادة من هذا المصدر الحراري الطبيعي المتجدد يوميا، وتخزين حرارته، وضغطها وتركيزها حتى تبلغ أعلى مستوياتها، فتصهر كل شيء، نستخدم هذه الحرارة في التصنيع بشتى أشكاله وصوره، ونستخدمها كذلك سلاحا فاعلا في التدمير على نطاقات واسعة إن احتجنا إلى ذلك. أما الطاقة الإشعاعية، فقد عُنينا بتجميع الإشعاعات الشمسية الخطرة على صحة الإنسان والبيئة، والتي تنعكس من خلال طبقة الأوزون المشهورة، المثقوبة بجهلكم، وتلك الأشعة لها قدرات عجيبة في العديد من الاستخدامات السلمية والعسكرية، لا تقف قوة عرفها الإنسان في مواجهتها.

ـ هذا فقط من الشمس؟

ـ نعم، الشمس مصدر الحياة يا يحيى.

ـ وما الطاقة المغناطيسية سيدي؟

ـ هذه طاقة عجيبة، وقوة دفاعية قبل أن تكون هجومية، تمكن الألباء من خلالها ارتياد الفضاء، واكتشاف حقولا مغناطيسية ضخمة بين الكواكب، يعدّها الألباء دعائم البناء الكوني، من خلال تجاذب الكواكب وتنافرها بدقة وانتظام، ومن هذه الحقول استطاعوا الحصول على القوة المغناطيسية، والتحكم بها، وتركيزها، وتوجيهها وفق ما تقتضي الحاجة. حتى استطاعوا جعل تلك الطاقة موجهة باتجاه قطبي واحد، لتكون دافعة، أو جاذبة.

ـ هذه القوى مذهلة جدا، التحكم فيها لا أخاله بالسهولة التي تسردها، ولا أظن أنني سأفقه تفصيلاتك أيضا، لكن السؤال: كيف تستخدمونها في الدفاع والهجوم.؟

ـ المعارك المعروفة تعتمد دائما على الصناعات الحربية الثقيلة، وكل تلك الصناعات تحتوي على عنصر الحديد، والمعادن التي تتأثر بالمجالات المغناطيسية، فإن نزلنا معركة، وأردنا أن نشل حركة العدو، حركنا القوة الجاذبة، فتختل ساحة المعركة تماما، وتنجذب

كل المعدات باتجاه مصدر الجذب المغناطيسي دون انتظام، حتى الطائرات المحلقة تهوي باتجاه هذا الحقل المغناطيسي الذي أحدث خلخلة في المحيط الجوي بأكمله.

ـ كم يبلغ مداه؟

ـ لا تسل عن المدى، فلو أردنا تمديد المدى إلى آلاف الأميال لاستطعناه بيسر، وإن أردنا تقليصه فعلنا.

ـ وهل حجم الآلة المنتجة لهذه الطاقة ضخم؟

ـ ليس كثيرا، فهي لا تتجاوز شاحنة بمقطورة صهريج. نستطيع من خلالها تدمير مدينة أو دولة بأكملها، بإصدار الحقل المغناطيسي الدافع أو الجاذب. لكن هناك استخدام دفاعي ضد الطبيعة، لم تسأل عنه؛ لأنك قادم من الظلام المهووس بالحروب والنزاعات وسفك الدماء، والسيطرة بالقوة.

ـ ضد الطبيعة؟

ـ نعم، نستطيع من خلال المجالات المغناطيسية التحكم في الكوارث الأرضية كالزلازل والبراكين وسحبها على نطاقات أوسع من الأرض، حتى تتحول إلى هزّات بالكاد تشعر بها أجهزة الرصد.

ـ والبراكين؟

ـ البراكين نجذب حرارتها بالقوة المغناطيسية الجاذبة، فنخزنها، وكذلك رمادها البركاني، وعندما تبدأ اللافا بالتصاعد نكبت تلك الحمم بالقوة المغناطيسية الدافعة، بحيث ندع الغليان يستمر في اللافا البركانية المكبوتة، وهناك مجال مغناطيسي صاعد يسمح بامتصاص الحرارة وتخزينها، حتى تستقر قوى الاتقاد الباطنة فتبرد الصهارة، فتجمد فتكون سدّا طبيعيا متحجرا في فوهة البركان، يمنع الثوران غير المتوقع، فنعلم بقربه ونكرّس طاقاتنا لاستخلاص الحرارة وتخزينها، إن لم تجد الحرارة والمصهورات قشرة أرق تنفذ من خلالها، وإن وجدت فباستطاعتنا إعادة العمل السابق بانتظام، وكأننا نتعامل مع بركان جديد.

ـ ماذا تفعلون بالرماد البركاني؟

ـ سؤالك وجيه، الرماد البركاني لا يثور عبثا، بل تدفع وتختلط به مجموعة من الغازات

المهمة، ودورنا يكمن في احتوائه، ثم استخلاص تلك الغازات، وأخيرا فرز الرماد إلى مكوناته التي يجد فيها الألباء المختصون بغيتهم، لاستخدامها في مجالات زراعية وصناعية شتى.

ـ ولم لا تنشرون هذا العلم بين الناس كلهم، فالعديد من البراكين تُهدَر، فتدمِّر؟

ـ نحن الآن في طور بناء وشائجنا مع عالمكم المظلم، لكن لابد من الحكمة.

ـ ربما تتدمّر الكرة الأرضية، ويقضي عليها ثقب الأوزون والاحتباسات الحرارية قبل أن تنتشلها حكمتكم المسوِّفة، فنهلك وتهلكون.

ـ يا يحيى، الكرة الأرضية كائن حي في الكون، وهي كوكب من الكواكب، يراه البعيدون عنا نجما صغيرا في الفضاء، كما نرى نحن الأنجم البعيدة، لا تعتقد أن الكوكب جسمٌ جامدٌ خاوٍ من الروح، ولا تظنه كذلك خالٍ من العقل المدبّر، فكيف تلتزم الأرض بدورتيها حول الشمس وحول نفسها، دون أن تسقط؟ رغم أنكم لم تكتشفوا بعد حركة الأرض التذبذبية الصاعدة والهابطة، لأنها حركة طفيفة تحتاجون إلى سنين طويلة قبل اكتشافها، ومن خلال هذه الحركة التذبذبية، يكون التوازن في حركة المصهورات المتقدة في لب مركز الأرض، فلو أمسكتَ إناءً كرويا وبداخله سائل وحركته حركتين كحركتي الكرة الأرضية حول نفسها وحول الشمس لتحرك السائل، ومع حركته ستزداد الحرارة في مقدمته، فيندفع لاختراق الكرة الأرضية من الجهة التي يظل تركيزه عليها، لكن حركة الاهتزاز التذبذبية تقلل من نشاط مقدمة السائل، فتمنح الكرة الأرضية الأمان، ومع هذه الحركات الأرضية الثلاث تبقى الحرارة في قلب الأرض تتقد، ويجب أن تتنفس، فتثور البراكين، وتحدث الحركات والهزات الزلزالية.

ـ كيف تكون الأرض كائنا حيا؟

ـ لتسأل نفسك أولا، كيف للأرض أن تحمل الحياة وهي ميتة؟. الأرض يايحيى كائن حي ككل الكواكب، له حياة محددة، يموت بعدها، وكثير من الكواكب تموت أو تنقسم إلى كويكبات أصغر، ويجب على الإنسان أن يسعى إلى استبدال الأرض بكوكب شاب للحياة عليه.

ـ وهل الكواكب مهيأة للحياة عليها؟

ـ كل الكواكب أرض، فلو تأملت تكرار ذكر السماء والأرض في القرآن الكريم، وأدركت حجم السماوات، وقارنت الأرض بها؛ لأدركت أن الكرة الأرضية الصغيرة لا يمكن أن تقارن بالسماوات، بل كل الكواكب في علمنا أرض، تحت قبة السماء التي لم يبلغها علمنا، فما نراه فوقنا ليس إلا فضاء أرضي لكل الكواكب تحت السماء، وربما كان بين الأرض بكواكبها ومجراتها التصاق ففتق الله هذا الالتصاق وصار بيننا وبينها فضاء، وستتعلم في علومنا الأرضية أن الأرض بكل كواكبها ومجراتها سبعة أقسام، هي السبع الأرضين. ولك أن تتخيّل السماء. والفتق الذي بينها وبين الأرض.

ـ هل بلغتم شيئا في هذه الأرض التي صوّرتها لي؟

ـ بلغنا بعضها، والألباء في تسفار دائم بين الكواكب، خصوصا من جزيرة قصوى، لأنها على طرف الكرة الأرضية الشرقي، ومنها لا يصعدون إلى الأعلى، بل يهبطون بمركبات خاصة إلى كواكب تحت مستوى كرتنا الأرضية التي تقع في المستوى الثاني من الطبقات السبع. لا تستعجل يا يحيى ستتعلم كل هذا مع أساتذتك في الدراسة، ما يجب أن تعيه، أن أكبر الفتوح التي أفادتنا في هذا هي الفتح المغناطيسي، وقدراته العجيبة في نقلنا وإعادتنا من خلال قوى التجاذب والتنافر، ولو تتذكر المركبة التي سافرنا عليها إلى رتال، وكيف كانت تسير بنا عموديا إلى خارج الغلاف الجوي خلال حقل مغناطيسي، وكيف هبطت بنا في رتال خلال حقل مغناطيسي آخر.

ـ القوة المغناطيسية مذهلة، واستخلاصكم لها من تعامد الكواكب مبهر، وأتذكر ابتكارا لي، كتبته ولم أرسله إلى دار الموهوبين، حول القوة المغناطيسية وإمكانية الإفادة منها في أعمال النظافة.

ـ وكيف ذلك يا يحيى؟

ـ استيقظتُ في الصباح متأخرا، حرّكت السيارة فشعرتُ بثقل المقود، نزلتُ أتفحص العجلات فوجدتُ الأيمن مثقوبا، خرجتُ أجري لعلّي أجد سيارة أجرة، لكن حصان حظي وثب بعد كبوة الإطار المثقوب؛ عندما شاهدتُ أيمن ابن جارنا ضاوي يخرج من منزلهم، رافقته إلى الجامعة، وبالكاد سبقت الأستاذ إلى القاعة، لأن الحرمان من الاختبار النصفي قدرٌ

محتومٌ للمتأخر دقيقة واحدة بعده، دخلت وكفّي على قلبي، فاختبرت ثم بعد عودتي إلى المنزل، بدّلتُ عجلة السيارة، وذهبتُ بها إلى العجلاتي، فاستخرج منها مسمارا ملولبا يستطيع ثقب الأوزون لو أراد، تفحصتُ المسمار وحنقي عليه يتواثب، إذ كاد يثقب معدلي المتميز، مع غيرتي وحرصي ألا يمسه قدرٌ بسوء، سألتُ العامل عن هذه الحالات فتهلل مجيبا واليشر يعلو محياه بكثرتها؛ لأنه يجني منها رزق يومه، فتكون مصائب العجلات، باب حياته الكريمة. أغلب الأشياء التي تثقب العجلات لا تعدو مسامير ملقاة في الشارع، أو قطعا معدنية منثورة في كل مكان، ورحلتْ بي الذكرى إلى حينا القديم وإحدى القطع المعدنية تنغرس في قدم ابن عمّي طارق، فتدميها ويرعبنا صراخه المستوحى من بوق الاصطفاف العسكري، من هنا بدأت أفكر في طريقة لإزالة هذه القطع المعدنية الخطرة.

ـ وإلامَ توصّلتْ؟

ـ عربات شفط الأتربة من الشوارع بتقنية الهواء، أحيانا لا تستطيع شفط بعض القطع المعدنية إما لثقلها أو لانسيابيتها، أو لأنها مثبتة في الشارع بفعل أي شيء، فرأيت أن تزود هذه العربات بذراع متحركة أسفلها، تكون بها قطعة عريضة من المغناطيس ذات جذب متوسط؛ كيلا تجذب الأغطية الحديدية لفتحات الخدمات العامة، لكنها تستطيع جذب القطع المعدنية، يجب أن يكون للمغناطيس خاصيتي الجذب والدفع، يجذب القطع من الشارع ثم يدفع القطع المجذوبة في مكان تفريغ العربة من الأتربة والعوالق المعدنية، وبإمكاننا الإفادة من هذه القطع بإعادة صهرها وتصنيعها.

ـ فكرة عظيمة يا يحيى، ومفيدة جدا وبسيطة.

ـ علاني الزهو بإطرائه فاستطردت ـ أيضا ـ رأيت أن تُزوّد المكانسُ الكهربائية أو اليدوية المنزلية، بقطع صغيرة من المغناطيس في رأس خرطوم الشفط، تعين على جذب القطع المعدنية العالقة في المفروشات، أو أرضيات المصانع والورش، كيلا تسبب أذىً للأطفال أو العاملين في تلك الأماكن.

ـ لِمَ لم تنفذ الفكرة يا يحيى؟

ـ لأنني لم أجد من يحفزني على إبرازها للضوء، وقد خشيت أن يسرقها أحدهم مني.

ـ ولم شعرت بهذا؟

ـ أسمع كثيرا عن عدم الاهتمام بالمخترعين في عالمنا العربي، وخشيتي هذه حالت بيني وبين تطبيقها. وكذلك أحسست بتفاهتها.

يهزّ الجمل رأسه يمينا ويسارا معبرا عن امتعاضه وخيبة أمله، ليمضي في سخريته بعالمي الظلامي المرتجف خوفا من كل شيء حتى من الأفكار، فيقول:

ـ لا فكرة تافهة على وجه الأرض، حتى الفكرة التافهة ربما تولّدت عنها فكرة عظيمة، ومن أجمل ما علمتُ عنكم، فكرة اختراع المحرك، التي تولّدت عن حركة غطاء إبريق الشاي عند غليانه، ثم لاحظْ ماذا أنجبت تلك الملاحظة التافهة؟!.

ـ صدقت سيدي، لكن هناك معوّقات أخرى.

ـ إيمانكم بالمعوّقات، هو المعوِّق الأضخم في ظلامكم، ما معوّقاتك الأخرى؟

ـ أسمع في المحيط المجتمعي أن المخترعين ملاحقون من الحكومات، وبعضهم يُحجب أو يسجن، أو يغتال، أو تمارس عليه الكثير من الضغوط؛ لأنه ربما يتوصّل إلى اكتشاف يهدّد أو يقوّض دعائم السلطة في بلاده، أو يهدُّ موارد اقتصادية متجذّرة لبعض المتنفذين.

ـ هكذا إذن، وهذا يفسّر هجرة المبدعين من بلدانكم المظلمة.

ـ وما تنفك تصر على الظلام سيدي، نعم الكثير من العقول لا تجد مجتمعاتنا بيئة خصبة لأفكارهم العظيمة، فيبحثون عن بيئات ملائمة تفهم أفكارهم، وتيسر لهم سبل تشيّئها على أديم الواقع، وتتبنى منجزاتهم.

ـ لكنكم تفتخرون بهم بعد أن يبرزوا، كافتخاركم بالمصري أحمد زويل الذي تأمرك ليكون، وعندما كان، حاولتم تمصيره. وتعريبه، وهرولتم إليه زُرافاتٍ ووحدانا.

ـ هل تؤمن الآن بصدق مصطلح (الظلاميين).؟

ـ ليس كثيرا سيدي.

ـ ستؤمن يا يحيى، ولتعلم أن المتقدمين في نظركم علميا وتقنيا، هم في نظرنا كالمستضيء بجمرة سيجارته في الليل البهيم، وهكذا ستراه قريبا؛ لأنك سترى الحقيقة بعين النور، لا بعين الظلام، فمن يرى الظلام بالظلام؟!. هل سمعت بالمخترع السعودي الذي أقدم على

محاولة الانتحار لظروفه المادية؟

ـ نعم قرأت عن ذلك، وشاهدت مقطعا من لقائه على القناة الإخبارية.

ـ لِمَ يقدِم رجلٌ عاقلٌ على الانتحار، وهو يعلم حرمته الشرعية؟. لماذا لم يخترع طريقة يحيا بها حياة كريمة؟ هل تظنه أراد الانتحار حقا، أم أنه كان يحاول لفت الأنظار إليه والاهتمام به كإنسانٍ يقدّم لوطنه عصارة فكره وتأملاته؟

ـ لا علم لي بنواياه.

ـ أيا كان مراده، فقد كشفَ عُريَّ اهتمامكم بالمبدعين، واقتصاركم في فهم الموهبة والإبداع على مجالات الفنون، كالغناء، والإنشاد والشعر، والمسرح، والرسم، فماذا ستقدم لكم هذه المواهب المترفة؟.

ـ سيدي، أرجوك، كفاكَ تهجما بين الحين والآخر على مجتمعي. فلدينا مؤسسة كاملة باسم مؤسس البلاد، كل عنايتها تنصب على الموهوبين، وماذا نفعل إن حجب المبدع نفسه، أو همّشها؟!.

ـ وهل مؤسستكم منتشرة في كل مدينة وقرية، هل تبحث هي عن المبدعين، أم يجب أن يتجشّموا عناء السفر إليها؟ هل تعمل على كسر أطواق الخوف التي تطوّق أفكاركم، كما فعلت أنت وخبأت فكرتك، ولم تجرؤ على نشرها؟!. لا بأس يايحيى، سيأتي اليوم الذي أجدك فيه تهاجم ظلام هذا العالم الذي تتعصب له، ولن تعالجوا الظلام إلا بإصلاح النسق المجتمعي كله، فأكثر ما يزعجني في بلدانكم المتخلفة ندرة الذوات الفاعلة، التي تستطيع توجيه أفكار الناس باتجاه واحد، وخلق نوع من الهم القومي في قضية ما، لا تملكون الفعل أبدا، كل ما لديكم لا يعدو ردود أفعال، ألا يوجد فيكم رجل أستطيع إعرابه فاعلا؟!

ـ بلى، فينا ومنا كل الفاعلين.

ـ هل تعلم من الذوات الفاعلة فيكم؟!، هم أولئك الذين يخمدون كل فكرة تتقد، ويشغلون أفكارهم ليلا ونهارا بحوارات تافهة، أو قضايا هامشية، فتبقى أدمغتكم مكممة عن الهم العالمي الكبير، تنتظرون ما سيقدمه الآخرون لكم، أنتم عوالم تفتقر إلى القدوة الحقيقية، ومع وجود القدوة الحقيقية في النموذج العلمي الغربي، تظهر أصوات تصِم ذلك النموذج بالعدو،

الذي أشغل فكره ليلا ونهارا بالإنجازات من أجل أن يهاجم بها أمة ضعيفة ماتزال تفتخر بالسيف والحصان. وبعضكم ينسب كل هذه التطوّر الغربي إلى أسلافكم، ولا يؤمن بأن المعرفة إرث الأمم، فأصبحتم لا تملكون حتى كيفية الاقتداء بالعالم المتحضر، وجعلتم تركيزكم على توافه الأمور، وأشغلتم أنفسكم بتعلّم ما ينتجونه. والمؤلم في ظلاماتكم المتراكمة أنكم تعيشون الفناء قبل أوانه، فكل تفكيركم منصبٌّ على لحظات الموت، والعمل لما بعد الموت، وكأن ميلاد الطفل بداية موته، وفي الحديث (واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا..)

ـ أرجوك سيدي، يكفي تهجما وإهانة.

ـ لم أهنكَ يا يحيى، ولا أجرؤ على ذلك، لكني أقرأ الواقع، والحقيقة أَمَرُّ من العلقم، وهيهات لكم أن تتذوقوا هذه المرارة، وأنتم مسلوبو الحواس والمدركات، لا يستطيع كائن منكم أن ينشئ ثقافة الاعتراف بالخطأ، وأهمية الإصلاح، ترملون خلف ثقافة تلميع المصطلحات، وتمييع القضايا، وتهرولون في تعليق أخطائكم على مقولات (من لا يعمل لا يخطئ، والخطأ وارد، وجلّ من لا يخطئ). عبارات جميلة رنانة، وربما تشي بنوع من التواضع، أو التنازل للاعتراف بالخطأ، لكنها نابعة من نسقكم الرازح تحت الازدواج في كل شيء، والأفعال النمطية الصورية، التي همّها الأوحد أن تغلق كل نوافذ النقد والتوجيه، فهي كالحجاب على وجه رشيقة القد، ممشوقة القوام، تغريك بالهرولة خلفها حتى إذا كشفت وجهها وجدت تضاريس الكون كله تتناقض في محياها المخيف. عندما يخطئ مسؤول منكم فملجؤه الأول تلك العبارات؛ لأنه لم يجد المساحيق التي تخفي سوءة هذا الخطأ، لكن النموذج حاضرا في عبارة (هذا الخطأ يقع حتى في أميركا وأوروبا). وعندما يتضجر الناس من فحش أو غلاء أو تقصير في أمر ما، فالنموذج المضاد يتدحرج بخفة على لسان المسؤول: (نحن أفضل من غيرنا في دول الجوار). ففي حالة الأخطاء تعلقونها على الأعلى، وفي حالة السوء تنظرون للأدنى. لو استطعتم التوازن في الاقتداء لكان هذا فتحا من الله ونصرا عظيما.

لا تتحججون بالفقر المالي أو المعرفي، فالأمة الطامحة تبدأ من الصفر، وتصنع نفسها بنفسها، لا تنتظر أن يعطف عليها أحد، ويمدها بالعون مجانا لوجه الله. لم أجد زعيما عربيا واحدا يتبنّى مشروعا أمميا عملاقا، تجني الأمة من دالياته درجات السؤدد والمجد، بل كل

الأفكار منصبة على توافه الأمور، وعلى قضايا تنصلح بانصلاح النسق المجتمعي، المؤلم حقا أنكم تفتقرون إلى عقول فلسفية واسعة النظرة، تنبئ عن غد واعد، وتصنع استراتيجية فكرية لتوجيه الأمة إلى هذا الغد المشرق، هل سمعت بما فعلته أمريكا في اليابان، وجرمها التاريخي حينما دمرت جزيرتين بالسلاح النووي؟ وانظر كيف حولت الأمة اليابانية طاقات الغضب والألم إلى حضارة من أعظم حضارات عالمكم، لم تتوقف عند هذا الحدث، وتبكي ليلا ونهارا، كما تبكون عند قضية احتلال اليهود لفلسطين، بل انطلقت في البحث عن أسباب ترقي الغرب، حتى وجدت السر، فاقتنصته، لتصبح اليوم دولة محسوبة رغما عن أنف الغرب وغيره، وربما لن تنسى اليابان تلك الكارثة النووية، لكن لم يئن الأوان بعد. وأنتم مازلتم تستعيدون الماضي الاستعماري المؤلم، ومفكروكم ينوحون ليلا ونهارا من أجل أن تفتح دولكم الشوارع للتنفيس عن الغضب الأممي. أمركم مضحك جدا، لأنكم لا تملكون الاستراتيجية القطبية التي توجه غضب الأمة إلى الارتقاء بالأمة.

ـ سيدي، أرجوك يكفي، لا أحب الخوض في هذا الأمر، وأنت تعلم أن رمزنا يحمل تلك الهموم التي تكلمت عنها، لكنك تتجاهل المصابيح البيضاء في مجتمعي.

ـ ليس الأمر كذلك، وليس النقاش مفتوحا لـ (أحب / ولا أحب)، بل هذا جزء من تأهيلك لتحمل مشعل النور، وبتعصبك للظلام لن تكون مؤهلا لحمله، فكيف ستصلح عالما تراه منزّها عن العيوب الواقعية، مقدّسا يخلو من الأخطاء، أما رمزكم فأجد فيه النور، والهم الإنساني، لكنكم خانعون لا تعينونه، فلو خرجتم عن النسق الذي مايزال يعشعش في عقولكم، ووجّه الفاعلون منكم أفكارهم مع أفكاره لتبدل بعض حالكم، لكن الفاعلين منكم ـ إن كانوا يستحقون هذا اللقب ـ يوجهون أفكارهم إلى مصالحهم الشخصية من خلال ثقافة التلميع والتزلف، دون العمل الجاد الذي يحمل ذات الهم الإنساني الذي يحمله.

ـ هنا أجدك تلمس بعض الحقيقة لكن المؤلم يا سيدي أنك لا تبدي احتراما لي ولا لمجتمعي.

ـ ألم تسمع بمقولة (الصديق مرآة صديقه).؟

ـ بلى، لكنها ليست كمرآتك السكينية الحادة.

ـ أعجبني وصفك هذا، لكن يجب أن تدرك أن النقد أساس النجاح، وهو المقوّم الأول لأدائك، ثم هناك أداة لا تكذب أبدا، أداة الزمن، مهما خبأنا فهي تفضح كل ما نخبئ، وتكشف سوءاتنا دون أن نعلم، فأين منجزاتكم في دول الخليج على الأقل؟ فهي دول تملك موارد الطاقة والمال، فماذا أنجزت؟ وماذا سترث أجيالكم القادمة؟

ـ لدينا الكثير من المنجزات الحضارية.

ـ كن دقيقا في القول يا يحيى، ولا تقل (الكثير) بل قل (بعض). وما هذه المنجزات؟

ـ لدينا شركات النفط، والغاز التي تصدر لكل العالم، ولدينا أيضا أطول نافورة في العالم، وأعلى برج في العالم، وأتذكر أكبر استاد رياضي في العالم، العديد من المعالم المميزة.

ـ وكذلك برنامج شاعر المليون، وأجمل ناقة عرفها البشر، وماذا أيضا لديكم؟

ـ، وتعود للتهكم سيدي من جديد، لدينا الكثير وهذا بعض ما أعرفه.

ـ جيدٌ أن تعرف هذا، لكن تأكد بأنها ليست منجزاتٍ يا يحيى. أريد أن تفكر لماذا يسافر الأثرياء منكم إلى أوروبا وأمريكا، للعلاج أو لقضاء الإجازات، أو للإقامة، أو حتى للعمل الاقتصادي.؟ أليست لديكم أوطان تستحق أن يكون فيها كل ما لدى الآخرين، فيأتيكم الآخرون كما تأتونهم؟

ـ بلى.

ـ لم تذكر شيئا من هذا.

ـ سيدي لا أعلم إلامَ تروم الوصول؟

ـ إلى عقلك. أريد أن يستوعب عقلك أنكم هامشيون، لا تملكون شيئا، وسأسألك، ماذا لو قطع العالم عنكم السيارات فقط؟

ـ سنقطع عنهم النفط.

ـ وإن حاربوكم لأخذ النفط؟

ـ سنحاربهم.

ـ بماذا تحاربونهم؟

ـ سنحاربهم بالأسلحة المتطورة التي نمتلكها.

ـ هل صنعتموها، أم استوردتموها منهم؟

ـ أدركت الآن سيدي، أنك تقصد الصناعة.

ـ نعم يا يحيى، أقصد الصناعة، وأي صناعة لا تقوم إلا على المعرفة، والمعرفة ملقاة على الطريق، فقط تريد منكم انحناءة وتبصرا لالتقاطها.

ـ بهذه السهولة تلتقط.؟

ـ نعم تلتقط كحبات التمر من تحت النخلة، وإن لم تجد ما يكفيك، فكل ما عليك أن تتسلق النخلة، أو تهز جذعها.

ـ وإن لم أستطع التسلق، وليست لي قوة كافية لهز الجذع.

ـ هذا ما أرغب الوصول إليه، أن تجيّشوا كل طاقاتكم، لتوجيه الناس إلى هذه النخلة، وبلوغ هذا الرطب اللذيذ، فتتشيأ الفكرة دافعا قويا تُري الناس كم من النخل في بلدانهم، وكم من الرطب، فتخلع عن أعين الناس تلك العصائب البالية المغبرّة القاتمة، التي تحجب عنهم النور، فصاروا يعيشون في ظلمات اللا ممكن، والاستسلام للعجز والفقر حتى الفناء المرتقب. فأغلبكم يذهب إلى سوق الفاكهة لشراء التمر، أما من يذهبون إلى النخلة ذاتها فقلة لا تذكر.

ـ كلامك منطقي سيدي، لكنه شاعري أكثر من واقعيته.

ـ أنتم العرب أكثر الأمم استخداما لكلمة (مستحيل)، حتى أصبحتم تطلقونها على توافه الأمور، فلو قال لك أحدهم، تخيّل لقد وصل فلان، فأقرب كلمة في قاموسك الانفعالي المعبر عن اندهاشك (مستحيل). لن تجد كلمة أقرب منها.

ـ تذكرتُ سيدي، هل أنت عربي مثلنا؟ وهل عالمكم عربي؟

ـ كلا لست عربيا، لكن لغتكم أقوى لغة على وجه الأرض الآن، وكما ترى هي اللغة الرسمية لنا جميعا في تاوه وكذلك في رتال وقصوى. هي لغة العلوم والفن والأدب، لأنها أوفى وأوسع اللغات، وهي اللغة الكونية الوحيدة التي ما تزال تحتفظ بكل مقوّمات حياتها، في علم اللغة الكوني. والمؤسف أن أغلبكم لا يعلم ذلك.

ـ صدقت، فقد درستُ الطب كله باللغة الإنجليزية، ومحرم عليّ أن استخدم غيرها.

ـ أنتم أغرب الأمم حقا، والمدهش في مستشفياتكم، أن الطبيب عربي والمريض عربي،

والمكان عربي، والصيدلاني عربي، لكن اللغة إنجليزية.

شعرتُ بالخجل الشديد أمام ضحكاته التهكمية، وتلطفه بوضع الراء بين الغين والباء في قوله (أغرب) فمايزال حياؤه يحاول الحفاظ على قشرة الاحترام بيني وبينه. فسألته:

ـ وما السبب في نظرك سيدي؟

ـ السبب قوي جدا، هو أن المعرفة والدواء باللغة الإنجليزية. فالطبيب والمريض والصيدلاني والمكان كله، لم تنشأ العلاقة بينهم إلا لأن المعرفة والدواء قد وصلتا.

ثم يستمر قائلا:

أحيانا أتعاطف معكم في حضرة الألباء، ونقاشاتهم لقضاياكم، لأننا ندرس كل تفاصيلكم، وهذا لأننا ننتظرك، لكن الآخرين يدرسون كل تفاصيلكم، لفهمكم، لتبقوا تحت الهيمنة التي يريدونها دائما.

ـ ألم تقل سيدي ذات حديث، أننا لا يجب أن نخضع لنظرية المؤامرة؟

ـ نعم أقول ذلك ومازلت أقوله، وسبب هذا اللبس عندك، أنك لم تتأمل كلامي جيدا، ففحوى قولي الأول أن البعض أشعل في قلوبكم الرعب والخوف والحقد على العالم الغربي بتضخيم نظرية المؤامرة. واختلاق أسباب عقدية في ذلك، والغرب العلماني لا يرى ذلك، بل يؤمن بأنه يجب أن يكون المسيطر على العالم فكريا واقتصاديا وعلميا؛ لأن صحوتكم ستفقده الكثير من الموارد التي يتمتع بها، لكن بقاءكم في خَدَرِ الاستهلاكية، سيجعله مسرورا بوجود سوق تستوعب كل ما ينتجه. فهذه ليست مؤامرة يا يحيى بقدر ما هي استراتيجية تنافسيه يجب أن يعمل بها الغرب كي يحيا مسيطرا، وهذا الهدف الاستراتيجي لا يُجابه بالمواجهة ولا بالكره، بل تجب مواجهته بطريقة من جنسه، والقانون الذي أراه مجديا هو قانون منطقي: (الغرب يعمل لنبقى متخلّفين، ونحن نعمل لنتحرر من هذا التخلف). أرأيت كم الأمر ميسورا؟ لكنه معقدٌ يحتاج إلى تضافر الجهود والصبر على صعوبات تنفيذه، فلن يكون التاجر مسرورا، أن يفتتح زبونه متجرا بجواره.

ـ مللت تفلسفه، مللت نقده اللاذع، ولابد أن أغير الحديث وأسأله: سيدي متى أستطيع السفر إلى أهلي؟

ـ بعد أن تتم هذا الشهر يا يحيى الهارب من ظلام أمته.

ـ أريد مهاتفة أمي على الأقل.

ـ لك ذلك، ستهاتفها يوم الجمعة القادم بإذن الله.

ـ ولماذا الجمعة بالتحديد؟

ـ لأنك تدرس الآن، ولا أريد تشتيتك، والخميس سنكون في رتال.

استأذنت الجمل للخروج إلى الرابية الخضراء وحدي، أنهكني بكثرة كلامه الذي أشعر بخبثه، وكأنه يعبئ صدري على مجتمعي، وينفث سموما سوداء في فكري، أخاله أناكوندا الأمازون الطويلة تلتف حولي، وتعصرني حتى أجف، ثم تثقب رأسي وتملؤه بما تشاء، عاد القلق يمضغني بشراهة طفل قرية أهداه والده علبة علك، يقتلع تلك الكتب البيضاء التي قرأتها عن أمتي، يصف بياضها ببياض الهيروين المخدر، هل يتعب هؤلاء الناس من أجل تخديرنا؟ من أجل إبقائنا تحت وطأة التأخُّر في ذيل العالم؟. أَكُلُّ هذه المنجزات التي تظهرها قنوات الإعلام كالفتوح الإسلامية قديما، لا تساوي قشّة في عين هذا الجمل؟ وكيف تساوي، والحضارة الغربية كلها لا تعدو جمرة سيجارة في الظلام في نظره، ويتوعدني أن تكون كذلك في نظري قريبا؟.

أردت الهروب من هذا الجمل إلى أحضان طيفك يا فازرا، أخرجت دفتري لأدس فيه عطرا من خلجات روحي كلما خلوت إلى أطيافك المشتهاة، لكن الجمل أبى أن يتركني حتى في خلوتي، لوى عنق قصيدتي إليه وإلى عوالمه:

ويفر من قدمي الطريق
أرى على جنبيه أحداقي
وماء الشعر في كفيك ياوطني
لغتي
وصوت القمح
والعين العجيبة

كلها أنتم

يامن تهيب بهم صلاة النجم

كي يهموا علينا

من يد الأمجاد خضرا

يسكبون الشعر في رئتي

ولا يسّاءلون..

مرهقٌ هذا المساء الذي تنفس فيه الجمل بغضه لعالمنا، وازدراءه لفكرنا. أغلقت دفتري، وسجيت روحي أتوسل الظلام أن يمنحني مناما لا تقضه الأسئلة، لكنه عنيد لئيم، وقد حررها لتأتيني عاديات، توقظ سنابكها منام السنين القادمات، فأخالني عدت إلى وطني، ماذا أقول لأساتذتي الأطباء عن الجمل؟. وما أدلتي للمشايخ المبرّزين، والعلماء الأجلاء في شتى العلوم؟. أتخيل جلوسي أمام بعضهم وأنا أشرح نظريات الجمل عن تفكيك النسق وإعادة تركيبه، وتَبنّي فكرة الهم الأممي. هل سأكون بليغا مفوها قوي الحجة كالجمل، ألن تصيبني الرعدة كالتي أصابتني أمام عميد الكلية وأنا ألقي كلمة الخريجين؟. كيف لي أن أقنعهم برؤى عالم افتراضي لا وجود حقيقي ملموس له؟ لا شك سيكون ذلك ضربا من الجنون، إلا إن تدبّر الجمل المسألة ورسم لي الطرق الموصلة إلى عقولهم، والحجج اللازمة للإقناع.

٨

" الابتسامة قناع ثلجي؛ يقيك جمر الكلام "

* اللبيب آران

- ٨ -

لم أصدق أني هاتفتُ أمي بعد أسبوعٍ شاقٍ من التحصيل العلمي، والسفر إلى رتال الجميلة، شعرتُ بالأمان وصوتها الحنون يتدفق عبر روحي، كشلال هادئ يتدلى من جناح جبريل على قلب نبي أبيض، يغسل من روحي كل أدران الخوف، تمسح نعومته من أذني همهمات الجمل، وأحاديثه الخشنة، يجوب وعثاء خلاياي، يرتّبها، فتنتظم نبضاتي المطمئنة، أتحسس النور يسيل على عقلي، يهمس أن الظلام بين عيني الجمل، فالنور كله في عالمي، كل النور أمي، كل الجمال والأمان في وطني.

أتقلب على سريري الوثير اللين، وصوت أمي يملأ كل الأرجاء، فرحتها وهي تسمع صوتي، ترفع صوتها عاليا، كأنني سأسمعها من دون الهاتف، تسألني كثيرا وكثيرا، بالكاد أجد بين عرمرم أسئلتها فرصة لأقول كلمة، فتنهمر أسئلة وأسئلة، وتتابع جملها الحنونة على روحي غيثا هنيئا طيبا غدقا، يحيي أنفاس الطفل الغارق الصغير في أعماقي، أشعر به يتضاحك ويتقافز ويتجوّل باسما في رئتيّ المعشوشبتين بأنفاس أمي البعيدة، أتأمله في قلبي الجذل راقصا على دقات قلبها الفَرِح، يهدأ طوفان لهفتها نوعا ما، وأرضي تنز أعذارا مختلقات وغير مختلقات، فأخبرتها ـ زورا ـ أني أناوب في المستشفى الكبيرة لقلة الأطباء، وانفصال شريحة جوالي، وـ صدقا ـ ببعدي عن مناطق التغطية، وأنا في سري أستغفر الله كثيرا، فقط لأطمئنها وأهدئ من روعها أنني بعد شهر سأحصل على إجازة، أراها فيها وأجتمع بعائلتي وأصدقائي جميعا. تخبرني عن إخوتي وأخواتي وتهيئهم للدراسة الأسبوع القادم، وأعمامي وأخوالي واجتماعهم في منزلنا العامر بذكر أبي، وافتقادهم جميعا لي، وسؤالهم المستمر عني، ثم تصب حمم الفاجعة المؤلمة التي آلمتني إلى درجة الصمت؛ نبأ اختفاء زميلي وصديقي د.أيمن، ابن جارنا ضاوي، أين تراه ذهب؟ هل اختطفه الجمل كما اختطفني أيضا؟ هل قدر الأطباء المتميزين أن يزوروا العوالم الافتراضية؟ بحق، اختفاء أيمن فتح لي نافذة مشؤومة، حزنا عليه، وخوفا عليّ كذلك، وكأنني وإياه نسير في سياق مأساوي واحد. لن أجرؤ على سؤال الجمل عنه، سيعتبرها تهمة ربما، أو يبدأ في فحوصاته الطبية من

جديد؛ كيلا يعود شبح الخوف ويتوطن كهوف روحي الحائرة.

أتذكر أيمن، الشاب المتقد ذكاء، المليء بالنشاط والحيوية، وأسلوبه في إدارة وإنجاز واجباته بطريقة منتظمة، لا تقبل التسويف ولا المحاباة، وشغفه بالكمبيوتر والبرمجيات، لولا إصرار والده لما تخصص في الطب. لم أسأل أمي: أين تم تعيينه، فأخشى ما أخشاه أنه معي في عالم الجمل، أو في إحدى قراه العجائبية، أو ربما هناك جمال افتراضية أخرى تهيم على الأرض تتلقط المبدعين، لغايات لم تتضح بعد.

اختفاء أيمن جعلني أعيد النظر في وجودي في هذا العالم، أخذني في تهويمات لأيامي الخوالي في هذا العالم، يحوم في فضائي تسويف الجمل في تواصلي مع أهلي وعالمي، وتردده في الموافقة على المكالمة، وحرصه ألا أغادرهم قبل الشهر التعليمي الأول، ومحاولاته الدؤوبة في تشويه عالمي، وإضفاء الظلام على كل مشعل تتمشعل به أمة غير أمة الجمل. خلصتُ إلى أن للجمل علاقة باختفاء أيمن، ويالغبائي لم أسأل أمي عن وقت اختفائه لهول الصدمة التي شلت تفكيري، وللأجواء الحميمة التي كانت تسربلني دفئا وحنانا. هذا الخبر حرّك في أعماقي طوفانا من الاستفهامات السوداء المقيتة، تتسنّم أمواجه قمم تفكيري، ولابد أن أعمل على فرضية ارتباط الجمل باختفاء أيمن.

أصحو صباحا على جلبة في الممر الذي فيه حجرتي، أتسلل لاستكشاف الأمر، فأجد الخدم يجرّون منضدة كبيرة، فأعود إلى الحجرة، أتناول إفطاري، وذهني لا ينفك يلاحق أيمن المختفي، حتى في مجلس الجمل أجد أيمن لا يفارق تفكيري، وهاجس الخوف يعتصر فؤادي، هل أسأل الجمل عنه، أم أتريّث قليلا، لربما وجدتُ دليلا يقوي موقفي، لأن سؤالي سيفتح عليّ أبوابا من ريبة الجمل، فآثرت الصمت الذي بدده الجمل:

ـ هل اطمأننت على أهلك؟

ـ نعم سيدي، هم بخير وعافية، ولا يخفي عليك شوقي المشتعل إليهم كثيرا، أنتظر انقضاء الشهر التعليمي الذي يحبو بتثاقل المسن.

ـ لك ذلك، أما الآن فهيئ نفسك لنستقبل وفدا من ألباء جزيرة قصوى.

ـ أهي جزيرة؟

ـ نعم هي جزيرة ساحرة هادئة، ستعجبك عندما نزورها.

تتفتق أكمام ذكرى فازرا الجميلة كلما سمعت اسم قصوى، أشعر بالأسى لذلك المصير الذي لقيته بسببي، وفي أعماقي توق للسؤال عنها، لكن التحدث إلى الجمل في شأن مثل هذا يعتبر مجازفة ليست محسوبة، دائما أخشى تعليقاته السمجة، ونظراته الخبيثة، لأن التذاكي سمة لا تنفك عن هذا الجمل، وهذه السمة تشيأت لتكون حاجزا بيني وبينه. حضر الوفد، يتقدمنا الجمل لاستقبالهم، حتى أجلسهم قريبا منه، كانوا خمسة رجال وامرأتين، تعلوهم علامات الوقار، وبعد تناول المشروبات، خرج أحدهم ثم عاد مع الحراس يحملون كيسا ضخما، وضعوه على المنضدة التي كان الخدم يجرّونها صباحا في الممر، نظرت إلى الكيس بعين الريبة، هل يعقل أن تكون جثة أيمن؟ فكأنني أرى الكيس ملطّخا ببقع الدماء البشرية، وانتفاخه يوحي بجسم مرنٍ لين في داخله. قام الجمل إلى الكيس ومعه الألباء الضيوف ومجموعة من ألبائه، فوقفتُ أشاهد ما يخرجه من الكيس. فتح الجملُ الكيس باهتمام وعناية، فكان في داخله رداءً جلديا سميكا، أشبه بجلد الفقمة، فتحه أيضا فكان مليئا بمادة تشبه القش أو الليف، ثم بدأ الالتماع من خلال ثقوب تلك المادة الواقية، وما أن أزاله عنها، حتى بدت جوهرة عملاقة شديدة النقاء واللمعان، كالبلور أو الألماس، والكل باسمون ومنبهرون أمام الجوهرة اللامعة. نظر إليّ الجمل، وأشار أن اقترب أكثر فاقتربت، شعرتُ في اقترابي وكأنني أدخل في محيط أبرد من محيط موقفي الأول، لمس الجمل الجوهرة، وكذلك فعل الألباء، فلمستها لأجدها قطعة جليد، باردة جدا. وما تزال برودتها عالقة في يدي. جلس الجميع بعدما غطى الحراس القطعة العجيبة اللامعة، فقام أحد الألباء الضيوف وخاطب الجمل:

ـ سيدي، دنا النور منا، وتراءت لنا في السقف المنشور، الضياء وهيج، والحس بهيج، تكامل النظر حتى بزغ اللب على قدم الحكاية، فانبرى اللبيب أوزير، فحماها من الاحتراق، وجمع منها سبعا وعشرين، هذه أصغرها.

ـ أسقتموها في النور؟

ـ نعم، وما زالت تحت الشعاع، قادمة من نبتون، خصيصتها الخلود، وروحها النور والبرد.

ثم التفتَ إليّ الجمل وقال:

ـ أرأيت، هذه الصخرة اللامعة، قطعة جليدية كانت تجول في الفضاء فاقتنصها اللبيب أوزير، وثبتها بتقنية القوة المغناطيسية الدافعة، قبل أن تحترق في اختراقها للغلاف الجوي للأرض، جمع منها ٢٧ قطعة، خالدة البرودة واللمعان، مهما قسمتها فلن تفقد جزءا واحدا من درجة حرارتها، وهذا فتح جديد كعادة أهل قصوى. سنستخدمها لأغراض التبريد والتجميد.

ـ نحن نعرف التبريد والتجميد من قبلكم إذن.

ـ كلا، لا تعرفوه إلا عن طريق طاقة الكهرباء، أما نحن فاستخدمناه بعدة طرق، ولعلك أحسست ببرودة القصر والقاعات هنا، دون أن ترى تقنية التبريد، فلم نجعلها ظاهرة إلا في المسجد الذي استخدمنا فيه تقنية التبريد المائي المخطط، أما هذه القطعة اللامعة، فتُعدُّ مصدرا طبيعيا، لا تتفاعل إلا مع النور كي تعطيك درجة البرودة التي تريدها، وكلما زاد الوهج زادت برودتها. وقد شاهدتَ سماكة الغلاف الجلدي القاتم الذي كان يحجبها عن النور، وإلا لتجمد الألباء قبل وصولهم إلينا.

خرج الجمل والألباء، ولم يشر إليّ لمرافقتهم، فعدتُ إلى حجرتي، أتضور مللا، وأتقاطر إجهادا فكريا، أراني طفلا خرج لأول مرة إلى شارع الحي، يدخل البقالة، ثم يخرج من الباب الآخر، ويفقد المعالم التي سجلها للعودة، يهيم على وجهه في أزقة الحي، يبحث عن البيت، تتراءى له كل الأبواب كباب منزلهم، وعندما يهم بطرقها، يجدها مختلفة، فيسير حتى يخرج من المدينة بأسرها، يخيّم عليه الظلام، فيبكي كثيرا بعدما فقد نوابت الضوء في خواء العراء.

أتخبط في مهمه قفرٍ من الإجابات، كل القائمات على أسنتها أسئلة، مدببة كالرماح، ومفلطحة كأوراق التين الشوكي، ومشرشرة كسيوف الجن في فيلم ملك الخواتم، لا تنفك أسئلتي العتيدة بكل ألوانها وأشكالها، تجزٌّ إيماني بذاتي، وإسلامي بل استسلامي لمسلّمات الكون والطبيعة، بعد أن امتلأت بتلك المسلّمات مُذ عرفت مقاعد الدرس، مُذ شاهدتُ قنيّ الإعلام بكافة شكولها وتوجهاتها، فالإنسان قد عرف الأرض، وأدرك كل ما فيها وما عليها

من مخلوقات وأسرار، ويتجه الآن بالعلم إلى خارج الأرض، إلى عوالم جديدة يتكشّفها، كيف لهذه المسلّمات جميعا أن تتهاوى أمام عالم الجمل، وأن علومنا لا تعدو إضاءة جمرة السيجارة.

أتذكّر فلسفة الجمل في زيارتنا الأخيرة لقرية رتال عندما كنا في طريقنا من منطقة العروض الضوئية إلى مكان الملاعب الليلية في المرج الأخضر، وثقته بنفسه أثناء التفاتاته إلي وإلى أستاذي آران، الذي فتح باب الحديث للجمل عندما رأى القمر بدرا ساطعا يظهر ويحتجب بين سحب رتال الكثيفة، ليجد الجمل ضالته في ثج انتقاداته اللاذعة لمجتمعي، وعرض فهمه المفزع، ونظرته المرعبة لمستقبلنا، عندما قال:

ـ الخسوف والكسوف ظاهرتان كونيتان، فَهِمَ علمُكم جزءا يسيرا منها، وهي كيفية الحدوث، وأمدكم الله بعلمٍ غزير مبهم حولهما، لم تفطنوا إليه ولم تثقبوا الغشاوة لتصلوا إلى كنه الحقيقة المرعبة، التي علمتم الخوف منها في الحديث النبوي، فالمسألة أن علمكم بالخوف جاء قبل علمكم بكيفية الحدوث، وعندما علمتم كيفية الحدوث، لم تحاولوا البحث وراء المترتبات التخويفية لهما، وهذا مأزق عقدي عظيم، فأجيالكم لا تشعر حقيقةً بالخوف، الذي أضحى مصطنعا لضرورة الإيمان بالنص النبوي؛ عندما فقهوا سر حدوث الظاهرة، فكان الحدث الكوني اعتياديّا مسلّما به. وعلماء الفلك في عالمكم يعلنون ميقات حدوث الظاهرة الكونية بدقة بالغة تصل إلى أجزاء الثانية، فكانت نتائج فقه حدوث الظاهرة، أن تلاشى حكم النص الديني، وتبدد تأثير الفعل (يخوّف بهما عباده). حقيقةُ الأمر أنكم استسلمتم للعجز والجهل، حتى صار الخوف شكلانيا، وربما يتلاشى هذا الخوف المصطنع بعد مدة، ساعتئذٍ لن يقيم صلاة الخسوف أو الكسوف إلا موظف المسجد. فهل سألتم أنفسكم يوما: ما المخيف في الأمر؟ هل بحثتم فيما وراء النص، وفيما وراء كيفية الحدوث، عن الأسرار والمترتبات على حدوث هذه الظاهرة؟ عن حكمة تجعل التخويف مستساغا مع المسلّمة العلمية؟ لربما توصلتم إلى ما يقنع أجيالكم ويقوّي إيمانهم بالنص الديني. أنتم يا يحيى، ضرر على الدين ذاته.

انفعلت كثيرا عندما قال هذه العبارة السوداء، فاستغفرت الله كثيرا، وحاججته بما نبذله

من أجل الدين، وأسهبت في ذكر جهودنا المبذولة لنشر الدين في كل بقاع الأرض، وجهود علمائنا وساستنا في ذلك. فلم يُعِرْ كلامي اهتماما أكثر من تأدبه في الحوار الذي يلتزم به، صمت حتى أنهيت تبريراتي التي لا تعدو تبريرات طفلٍ كسر مزهرية الورد أمام والده، فرد على براءتي:

ـ لا أشك في حسن نواياكم في خدمة الدين، لكن النوايا الحسنة لا تكفي، جهلكم الفاضح في عصر الفتوح العلمية يربكني، يؤلمني، فلو تأملت عجزكم فقط أمام النص النبوي وفقه الظاهرة في الخسوف والكسوف، لأدركت أنني لم أورده عبثا، فمازال الفضاء يكتظ بالمنجزات العلمية، التي ستتصادم مع الكثير من النصوص، ولن تستطيعوا عند كل كشف علمي أن تلووا عنق النص ليوافقها، أو تنفوا صحة الكشف العلمي لعدم موافقته للنص، أو تجعلوا النص بمعزل عن العلم والكون فتناقِضوا أنفسكم، يجب أن تسايروا الترقّي العلمي في عالمكم الحديث، وأن تشاركوا العالم بمنجزات علمية تخدم الكون والبشرية، وتحقق مبدأ الاستخلاف في الأرض. أنتم تحملون آخر تشريعات السماء إلى الناس كافة، ماذا ستقولون أمام كشف اختيار جنس المولود؟ أو أمام جينات الشيخوخة والهرم؟ وما خفي أعظم، وهذه الكشوف التي ستفتح عليكم بابا يصعب سدّه مع الجهل، ومع جموح مجتمعاتكم إلى منجزات الحضارة المنتجة المؤثرة.

أحاديث الجمل هذه تفتح في عقلي الموصد أبوابا أرحب، وتوصد في عقلي أبوابا أخرى، فلا أدري أهداي في الفتح أم في الإيصاد؟!

حيرة تكتنفني في حجرتي الهادئة، التي تساعدني على استبطان كل فكرة إلى جذورها، حتى وإن كانت تافهة، فأنا مغرم بتتبع الأفكار من صغري، لكن تتبع أفكار الجمل مرهق حد الخروج من الجلد، وتحتاج كل فكرة إلى عمر كامل كي أستبطنها دون الغوص في غيرها. وأيمن الغائب يكفيني اليوم ضجيجا، يبدد من روحي هدوء المتأمل المفكر.

حاولت في قاعة الدرس استدراج أستاذي آران؛ كي ألتقطَ منه إجابات تخضد شوك الاستفهامات الحادة، لكنه دبلوماسي بتلك الابتسامة البلهاء، ولا أجد منه إلا تفانيا في خدمة طالبه، في حدود المنوط به علميا، يتهرب عن إجابتي بتحريك أنامله على جمجمتي، وملأها

بما يختزنه من علوم ومعارف غزيرة، وقبل نهاية الدرس، يجلس على كرسي بجواري، ويخلع قبّعته البيضاء عن رأسه، ثم يسألني، ويأمر أن أجيب من خلال تحريك أناملي على رأسه، لقيتُ الأمر صعبا في البداية، لكنه يسّره لي وأراني مناطق إدخال الإجابات، مع الارتباط بالتفكير في ذات الإجابة أثناء تحريك إصبعي على المكان المخصص للإجابة، وبعدما فرغنا من كل هذا العمل الدقيق المجهد، هنأني مبتسما بمستوى تحصيلي العلمي، وسلامة حواسي في اختزان المعلومات وترتيبها، وإخراجها كما يجب، لأن بعض الطلاب يفشل معلمه في تعليمه كيفية ترتيب المعلومات المختزنة، كي يسهل استخراجها في أسرع ومضات التذكر، وكعادته اصطحبني إلى مجلس الجمل، المنشغل عنا بضيوفه من قصوى، ولم نندهش عندما وجدنا الموائد العامرة قد مُدّت للضيوف وجموع الألبّاء.

أسترِق بعض الأحاديث التي تدور بين الجمل، وكبير ألبّاء قصوى، الذي يطلب من الجمل النظر في كشف اللبيب أوزير، عندما استطاع توفير مصدر جديد من مصادر الحرارة لعالمهم، والذي تبقى على إنهائه نصف مدة سجنه في قصوى أسبوع واحد فقط، فرفض الجمل بأدب ذلك المطلب قبل انتهاء نصف المدة، لأن الأمر كله بيد القضاة.

لم نقم من صالة الطعام إلا لصلاة العصر، بعدها أخذني أستاذي آران إلى الرابية الخضراء، جرينا على أرصفة جميلة تتلوى بانسيابية بين الأشجار الكبيرة الخضراء، وجدت الاستراحة من الجري فرصة لسؤال أستاذي عن صديقي أيمن، وحاولت في نفيه أن أقنعه بما يعنيه هذا الصديق لي، فأشار إليّ بعد مراوغة مكشوفة أن أسأل الجمل في المساء، فربما يستطيع أن يستشف لنا إجابة من مصادره المطلعة على كل شيء. شعرتُ بخيبة أمل، وندمت على سؤالي له، وفي ذات اللحظة شعرت أنه جرّأني على سؤال الجمل.

في المساء الهادئ على سطح القصر الجملي، المزدحم بالمقاريب المختلفة، واحتشاد عدد من الألباء لمشاهدة السقف المنشور، وجهلي المطبق بسبب ذلك الاحتشاد، وذكاء قراءة الجمل لوجهي محيرة إلى درجة الخوف المبرر من هذا الرجل، فكأنه قريني الذي يعلم سرائر روحي حينما قال:

ـ يحيى، لك مقرابك الخاص لمشاهدة سديم الخير.

ـ وما سديم الخير؟

ـ سديم ينتشر في هذا الوقت من كل عقد، نقرأ فيه الكثير من الأحوال، ونتنبأ من خلاله بالعديد من الوقائع صعبة التحليل إلا على ألباء معينين. ومن خلاله نسعى إلى محاولة الوصول إلى خلود النوع البشري.

أحسست بضيق تنفسي عندما قال عبارة (خلود النوع البشري)، أي خلودٍ يقصد؟ هل سيمحق الموت ويعطل وظيفته في البشر؛ ليكون مختصا فقط بالأحياء الأخرى؟ هل ستتطاول أرواحنا إلى مالا نهاية أو حد؟ فاستغفرت الله من جُرأة هذا المتعالم المنجم. فقاطعني:

ـ لمَ تصمت؟

ـ سيدي، كلامك مخيفٌ جدا.

ـ ألم أقل لك يوما، لن تستوعب الكثير مما لدينا؟

ـ ألا تجد قضية (خلود البشر) منافية لسنن الحياة والكون؟ فلو كان الخلود للإنسان لما مات الأنبياء، ولما مات الصالحون من البشر بعدهم، فكيف يكون لنا الخلود ونحن آخر الناس، وليس فينا صلاح الأولين.

ـ لا أدري ما أقوله لك الآن، لكن أعدك بأنني سأشرح لك هذا لاحقا.

ـ أرجوك اشرح لي الآن، فقد سئمت التسويفات المرهقة، والأسئلة تنهشني نهش الضباع لفرائسها، وهذا الأمر بالذات يجب أن أفهمه الآن، فلم أصدق أنكم وصلتم إلى مضاعفة أعماركم، وتجديد أجسادكم بعد السبعين.

ـ حسنا، خلق الله الإنسان، ثم جعل له كل هذا الكون الفسيح، الذي لم يكن يعرف منه إلا السماء والأرض والشمس والقمر، وبعض النجوم التي يراها في السماء، وقسم هذا الكون إلى ما يعرف بالمجرة التي تضم الكثير من الكواكب والأجرام الفضائية، ثم هذه المجرة تسبح في كون عظيم مكتظ بآلاف المجرات، أتظنّ أن هذا الكون خالٍ من الحياة في غير الأرض؟

ـ كلا لا أظن ذلك، وعلماؤنا يؤمنون بهذا، ويسعون باحثين وفق ما لديهم من تقنيات، يعملون دائبين على تطويرها لبلوغ آفاق جديدة في الكون المحيط بالأرض، وخيال الإنسان لا يحده حد في هذا.

ـ الجميل أننا متفقون إلى الآن، فما بالك بالرأي الذي يخالف ما تسعون إليه.

ـ وما الرأي المخالف؟

ـ الكون برمته، وبكل ما فيه من أحياء ومجرات، جعله الله تحت إمرة الإنسان، الكائن الوحيد المسلّح بالعقل، ولا نؤمن بوجود مخلوقات قريبة في كواكب أخرى، وعلى الأخص في مجرتنا التي تسمونها غباء درب التبانة، أما نحن فنسمّيها الفردوس، الفردوس الذي ينتظر الإنسان بشغف كشغف أمك بعودتك إلى البيت، وعلى الإنسان أن يسعى في اكتشاف ما حوله في هذه المجرة حتى يظفر بالحصول على الخلود والنعيم الدائم.

ـ والقدر أين يذهب؟

ـ سيكون للقدر مجالات يعتاش منها ما أمكنه ذلك.

ـ أتستهزئ بالقدر؟

ـ لا أستهزئ بالقدر، لكن بلوغ الخلود يعني اقتصار القدر على مجالات أخرى في الحياة وربما يحتل مرتبة الحظ.

ـ وماذا وصلتم في بحثكم للخلود سيدي على مدى مراقبة سديم الخير؟

ـ من هذا السديم، نفذنا إلى محددات العمر البشري، والخلايا المسؤولة عن تجدد الجسد البشري، حتى وصلنا إلى مضاعفة العمر البشري ثلاث مرات، ولم نستطع التقدم لعقد كامل، لكن ظهور هذا السديم سيتيح لنا تقدما ننتظره بإذن الله.

ـ ألا تجد هذا العمر الطويل باعثا على الملل؟ والسأم من الحياة؟

ـ الحياة لا تأتي بالملل أبدا، فالملل مُفرزٌ من كيفية الحياة، وليس من الحياة ذاتها.

ـ وكيف أحيا حياة لا يشوبها ملل؟

ـ إن عشت في أمن وعدل وشعرت بكينونتك إنسانا، وأهميتك لمن خلقك عندما جعلك خليفة له في الأرض. فما معنى أن تخلف الله؟

ـ أن أعبده وأسبح بحمده.

ـ لو أرادك الله للعبادة والتسبيح فقط، لأبقاك في الجنة هناك. أو لاكتفى بالملائكة؛ لكنه يريدك أن تعمر هذا الكون بالحياة ثم بالعبادة.

ـ وكيف لا يغزوني الملل وكل الذين أحيا معهم خالدون، لا يتغيّر شيء حولي.

ـ التغيير سننٌ كونيٌ لا بد أن يكون، ولا مناص منه، وألمس في كلامك تلميحا، أن العرب ودول العالم الثالث، سيبقون تحت وصاية أنظمة الحكم الوراثية، ولن تبرحوا مقاعدكم، وهذا لن يكون، أتدري لماذا؟

ـ لماذا؟

ـ لأن هذه الأنظمة قد تغيرت بالعلم الذي أوصلكم إلى الخلود والنعيم. عد معي إلى بداية الأمة الإسلامية التي لو بقيَت كما سنّ الله ورسوله في العصر الأول، في آلية انتقال الخلافة للأفضل والأجدر، لا بالقربى والنسب؛ لما كانت حالكم كما تراها الآن. خلاف أسلافكم على الحكم وحب الدنيا والسلطة هي نقطة تحولكم، حيث خرج أسلافكم عن نظام الخلافة الحقيقي في زمن الرسول وأبي بكر وعمر حتى اختلاف عثمان وعلي، وظهور العوائل الوراثية، التي بددتكم وجعلتكم شيعا وطوائف قددا، كل فريق يدعي حب هذا والآخر يدعي حب ذاك، وهذا يقدس، وذاك ينزه، ولم تحبوا أنفسكم، ولا دينكم، ولا الرسالة السامية التي وضعها الله فيكم، فأضعتم بادعاء حب الشخوص والدفاع عن فلان وآل فلان إرث الإنسانية.

ـ لكن أسلافنا أنجبوا حضارة، مازال العلم ينهل منها حتى اليوم.

ـ وهل أنكرتُ ذلك؟. لكن ما بالك لو سارت تلك الأمة كما تركها النبي الأمين، تسير حاملة هم الأمم والإنسان أينما كان. والدرس الذي أريد أن تعيه يا يحيى، لا تنظر للشيء بهيأته ولا بكيفيته، ولا ببدايته، ولا بمن قام عليه، بل انظر إلى نتائجه، فالنتائج هي علامات النجاح ومداه الصادق.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أنتم عرب اليوم، نتيجة تلك الأمة العظيمة، فهل تراكم نتيجة مُرضية؟

ـ نعم، فنحن نسير على درب الترقي والعلو والعلم.

ـ أنت تناقض نفسك، ومبدأ إجابتك ليس إلا ظنك السيء في شخصي. فكأنك تراني أتلذذ بالتهجم على أمتك. لتصحُ يا بني من غيبوبتك، واقرأ حالكم المتناقض، تكابرون بأنكم أفضل الأمم، وتلهثون خلف العلوم والحضارة الغربية، تفرحون إن ذكرت إحدى وسائلهم الإعلامية

شخصية من قوّادكم، فتصدّرون بالنبأ نشرات أخباركم، وتحتفلون سنين إن ظهرت جامعة أو فريق كروي، أو مستشفى أو شركة أو رجل أعمال ضمن إحصائياتهم العالمية، وفي ذات الوقت تذمّونهم وتسفّهون أحلامهم، مع أن كل شيء في حياتكم ليس إلا تقليدا لحياتهم، أكلكم، وشربكم، ولبسكم، وعماراتكم، وشركاتكم، وفنكم، وأدبكم، حتى وإن تظاهرتم بتمسككم بعادات لا تسمن ولا تغني من جوع. لاحظْ تأثركم بهم حتى في المشية، وكيفية الحلاقة، حتى الكلب الذي يُعدُّ من أحقر المخلوقات في ثقافتكم، صار ضجيع أطفالكم وفتياتكم وشبانكم، ولا تظن أي شخصية في مجتمعاتكم بمنأىً عن هذا التقليد، كلكم متأثرون مائعون في أحضان ثقافتهم الأقوى، لكن المؤلم أنكم لم تقلدوهم في العلم، لم تقلدوهم في البحث، ترسلون أبناءكم إلى الغرب ليعودوا مليئين بالعلم والمعرفة، ثم تُقصونهم حتى يعودوا إلى نمطيّتكم البغيضة، لينسى ما تعلمه عن الطب، حينما صار مديرا للكهرباء، وما تعمله عن الهندسة، عندما يكون مستشارا في وزارة الخارجية. أو رئيس قسم في جامعة ضعيفة.

يجب أن أرسم منهاجا خاصا بي في الحياة، فإن وجدتُ إنسانا تفوق في الطب، فلا يجب أن أُقلّده كي أكون نسخة ثانية منه، بل يجب أن أبحث عن مجال أبرز فيه دون منازع، بمجرد أن يُذكر هذا المجال يبرز اسمي فيه عاليا. ألمانيا تشتهر بطبها و بصناعاتها الميكانيكية، واليابان برزت في الإلكترونيات، وفرنسا في الفن والأدب، وأمريكا في علوم الفضاء والنفط، وهكذا.. على الرغم من أن هذه الدول تصنع كل شيء، لكنها تبرز في المجال الذي تفوقت فيه. ففيمَ تفوقتم؟. كدتُ أن أقول تفوقتم في الأكل، لكنكم لا تستطيعون تأميم أكلة أو مطعم، فأرقى مطاعمكم الآن، ما هي إلا وكالات لمطاعمهم.

ـ سيدي سكينك اليوم مشرشرة الحد، مؤلمة القطع؟

ـ وهل يمكن تنظيف الجرح دون ألم يا يحيى!! قلت لك سابقا، إن لم تعترفوا بأخطائكم ستبقون في المؤخرة أبدا.

ـ أريد أن أسألك عن صديقي د. أيمن ضاوي، فقد اختفى، ولا أحد يعلم عنه شيئا.

ـ وأين سيختفي يا يحيى، ربما يكون مع صديقته، أو في وكر مخدرات، أو في جبال أفغانستان، أو في سجن المباحث العامة!

ـ أسألك جادّا سيدي.

ـ ما اهتماماته؟

ـ طبيب اختصاصي في جراحة الأوعية الدموية. وله اهتمامات وخبرة واسعة في الكمبيوتر والبرمجيات المعقدة جدا.

ـ عقلية دقيقة ما شاء الله.

ـ نعم، وهو الأول على دفعته السابقة لنا بعام واحد، وقد عُيّن في مستشفى كبيرة في جدة.

ـ أريد تاريخ ميلاده، فهو مهم جدا في البحث النجمي، حتى نحدد الوقت الذي نبحث عنه فيه.

ـ لابد أن أهاتف أمي حتى آتي بتاريخ ميلاده بدقة.

ـ نهاية الأسبوع تستطيع مهاتفتها.

ـ بعيدة نهاية الأسبوع سيدي. والقلق يعتمل في فكري من اختفائه.

ـ ليست بعيدة، فمهاتفة أحدٍ خارج مجالنا في مرحلتك هذه خطرة عليك، ولو تتذكر فحص أستاذك آران اليوم لمعلوماتك لأدركت حجم الخطر، وقد خاطرنا من أجل أن تطمئن، وسنخاطر نهاية الأسبوع إذا شعرنا باستقرارك العلمي. الآن لا تناقشني فقد اقتربت ساعة قراءة السديم. فخذ مقرابا وتأمله، حتى لو لم تستطع القراءة فيه تأمله، وستجد فرقا عن المشاهدة الأولى بواسطة الدوائر النجمية.

هل هذا الرجل صادقا في إجابته عن أيمن؟ ربما ليس كذلك؟ ربما يحاول مراوغتي فقط؟ لكن من أنا حتى يراوغني الجمل؟ وما الذي أستطيع فعله حتى لو رأيته يقطع أيمن إربا؟. اعتادني القلق، وأصبح لا يجد في عالمهم إلا أنا، كي يعتاش مني ويُقيتُ امرأته الحيرة، التي ما تنفك تضاجع أفكاري وتبني على كل فكرة سورا من آجر صلب.

أقلّب بصري في سديم الخير المزعوم، و المقراب يجعل السماء قريبة جدا مني، لم أرها بهذا القرب أبدا، أرى العديد من الأجرام السماوية المزدحمة، وكأن السماء فستان مطربة أسود لامع، مزدحم بحبات الكريستال المتشابكة، أرى السديم كخيط إضاءة مصباح متناهي الضآلة في ظلام حالك، على شكل موزة دون رأس، تأملته كثيرا ولم أجد فيه شيئا يلفت

انتباهي، وبعد إطالة النظر رأيت جسيمات صغيرة كأنها تتحرك خلاله، لكن لم توحِ لجهلي بشيء أستطيع قراءته، وبعدما جلس الجميع، جلست أتسمّع إلى أحاديثهم لكنني لا أفقه من مجملها إلا بعض حديثهم عن استمرار السديم أربعين يوما، بعدها يغيب عقدا من الزمان.

مضتْ أيامي رتيبةً بين قاعة الدرس وحجرتي ومجلس الجمل، لم يكن فيها أي حدثٍ مميّز، سوى رحلتنا التي اعتدتها إلى رتال المتعة والترفيه والفن. شوقي في طريق عودتنا منها يستعر إلى مهاتفة أمي، ولم يبخل الجمل بالسماح لي، لكن تلك المهاتفة لم تفدني في الحصول على تاريخ ميلاد أيمن، فأمي تجهله بالتحديد، ولم تستطع سوى تذكر السنة، أما الشهر فهي مترددة فيه، وما زاد الأمر تعقيدا خبرُ مغادرة العم ضاوي مع عائلته إلى قريته النجدية البعيدة. يئست وكدتُ أعود بالتاريخ السنوي فقط، حتى اهتديت إلى الاتصال بزميل آخر لي، كان أميز الأصدقاء المقربين من أيمن، وبعد سيل الأسئلة التي أوحت لي بعدم معرفته عن أمر اختفاء أيمن، بالكاد وجدتُ حيلة تسوّغ السؤال عن تاريخ ميلاد أيمن، وهذا المسوّغ يجب أن يحفزه على إعطائي تاريخ الميلاد دون تردد، فلم أجد إلا الزعم بأن بيني وبين أيمن تحدٍ في الحصول على تاريخ ميلاده بدقة؛ لأن الشباب مغرمون بالتحديات في الحصول على معلومات الآخرين بأي طريقة كانت، فتطوّع شريطة ألا أذكر لأيمن مصدري، وأبدى استعداده للتعاون في أي معلومة تجعل أيمن في حيرة وارتباك من قوة مصدري، أتذكر في هذا الموقف امتعاض أيمن الشديد من الضعف الذي يكتنف أمن المعلومات الشخصية، فلو رام أحدهم معرفة معلومات سرية عن عنوانك أو رقم هاتفك أو حتى محتويات حسابك البنكي، فما عليه إلا أن يسلك طريق (العنعنة) وأنا (مُرسَلٌ إليك من فلان كي توصّي فلان أن يعطيني معلومة علان)، وبكل يسر ستحصل عليها من أعقد دائرة، لأن العنعنة سهم ناري لا يمكن لأي جدار حماية إيقاف تقدمه عن إصابة ما تغيّاه إذا تواتر السند، واتصلت السلسلة.

عدتُ إلى قريتنا تاوه، ولم يكن الجمل ضمن المقيدين في قاطنيها تلك الليلة، ولا التي تليها، حتى شارف الأسبوع الدراسي الثالث على الانتهاء، فعاد الجمل من رحلته إلى جزيرة قصوى، بعدما كرّم اللبيب أوزير، ورافقه إلى قريته رتال فاحتفلوا به هناك وكرّموه تكريما مشرفا بعد كشفه العلمي الكبير، وانتهاء نصف مدة سجنه. مازلتُ بين أنامل حيرتي وقلقي

وأنامل أستاذي آران، حتى عاد الجمل يوم الخميس، وقد عرض عليّ السفر مع الألباء إلى رتال للاستجمام الذي لن يحضره؛ لأنه عائد للتو منها، لكنني رفضت العرض، وأعطيته تاريخ ميلاد أيمن، فوعدني خيرا.

انتظرت خير الجمل ذلك اليوم، والذي يليه أيضا، فسألته في اليوم الثالث، فأجاب أن أدق معلومة عنه لا يمكن إيجادها بدقة إلا في يوم مولده، وفي الساعة تكون أدق، ومولده يوم الثلاثاء، فلابد من الانتظار، وطمأنني أنه بخير، لكن كيف لي أن أطمئن على ذاتي وأنا في خير مجهول المستقبل. لم أجد بدا من الانتظار إلى الثلاثاء، والدهشة أن الجمل في غمرة اهتمامه ومشاغله يجيء إليّ في حجرتي، فيوقظني ويقول:

ـ اطمئن، صديقك بخير وعافية على المستوى الجسدي.

ـ فقط المستوى الجسدي؟ ماذا تعني؟

ـ صديقك وقع في مأزق فكري عميق، يجب انتشاله منه بسرعة.

ـ ما هذا المأزق؟

ـ ستعرفه عندما تجده، الآن مهمتك أن تجده.

ـ أين أجده وأنا هنا في عالمك.

ـ بقيت لك ثلاثة أيام ستغادرنا بعدها في إجازتك الدراسية إلى جدة، وقبل مغادرتك سأخبرك بالمكان الذي يقيم فيه صديقك أيمن، وعليك إيجاده وإقناعه بالعودة عمّا أوقع نفسه فيه.

ـ أأنتظر كل هذه المدة؟ نعم يجب أن تنتظر، لأنها الأيام المهمة من الشهر التعليمي بأكمله، وأرجو أن تبعد عن ذهنك كل العوائق التي قد تؤثر على نتائجك، فها هي مشاكل عالمك بدأت تغزو عالمنا ونحن في شهرنا الأول.

شعرتُ بضيقه من الموضوع، لكنني شكرته كثيرا وقد تعاون معي إلى هذا الحد، حاولت أن تسير الأيام الثلاثة المتبقية بيسر، وأن أبذل فيها كل ما أستطيع من قوة التركيز، والبعد عن التفكير في أي شيء، لكن شبح أيمن يلحّ علي كثيرا، وخبر ارتحال العم ضاوي الحزين إلى قريته النائية يرتسم أمامي، فأحاول أن أكثف تفكيري في ألا أفكر، حتى وجدت ذاتي في

فراغ من الكثافة الرتيبة، ونسبية آينشتاين تجوس خلال أوعيتي الدموية واللادموية.

الخميس الأخير لم يكد يأتي، وكأنه أمنية اليتيم الذي أخبروه زورا أن والده سافر وسيعود، لم أصدق أن ذلك الصباح الذي أفقت عليه كان صباح الخميس، والجمل في شغله الدائم مع ألبائه الذين لا يتوانون ولا يكلّون من العمل الدؤوب، كالنحل تماما، قيمة اليوم عندهم يقيسونها بما أنجزوه فيه. يأخذني أستاذي آران إلى قاعة الدرس بعد صلاة الظهر، فأجد الضئيل والجمل في صدر القاعة ينتظروننا، تبدأ الحصة الأخيرة في هذه الشهر حصة عادية كسابقاتها، حتى قبل نهايتها، ينزل الضئيل والجمل، فيتنحى أستاذي آران، فيبدآن بتحريك أناملهما على جمجمتي، ثم يجلس الضئيل، وقد كشف عن جمجمته، لأحرك أناملي عليها مجيبا على تساؤلاته العميقة. وبعد الانتهاء، يضع الضئيل على رأسي قبّعة من القماش صفراء، لها رأس مدبب، فيبارك لي الجمل اجتياز الشهر التعليمي الأول بنجاح. ويمنحني إجازة لمدة أسبوع أستطيع فيه الذهاب إلى أهلي وعالمي.

نخرج من قاعة الدرس، وبعد الغداء، ينصرف الألباء، أذهب إلى حجرتي لأخذ بعض متعلقاتي الشخصية، لكن الجمل يلحق بي هناك، فيدخل ويجلس، أحسست بأن سرّا يتشيّأ سيحرمني السفر، شعرتُ بالخوف والقلق، لماذا يلحق بي الجمل إلى حجرتي، لابد أن في الأمر عقبة جديدة، اللهم استر، فيبدأ الجمل:

ـ يجب أن تكون حذرا في سفرك يا بني، ألا تفتح موضوع عالمنا مع أي شخص في الدنيا، حتى والدتك والمقربين من عائلتك وأصدقائك، أخشى أن يصيبك مكروه أو أن تتهم بضعف قدراتك العقلية في عالمك الذي لن يستوعب كلمة مما تقول، وسيكون مصيرك تلك المستشفى المشهورة في الطائف.

ـ أعدك سيدي.

ـ يجب أن تدرك أنك سترى عالمك مختلفا بعدما تلقيت من علوم، ستجدها حاضرة في ذهنك مع كل مشاهداتك، لأن ذاكرتك نشطة جدا، وفي عالمك الكثير من المثيرات التي ستستدعي ما يختزنه عقلك من علوم، فكن صبورا حليما، ولا تحاول أن تغير شيئا من الآن.

ـ أعدك سيدي.

ـ صديقك أيمن مكمم العقل في مدينة جازان، يؤدي صلواته في مسجد كبير بالقرب من الميدان المركزي للمدينة، مدينة جازان ليست بعيدة عنا، وأفضّل أن تذهب لملاقاته قبل سفرك إلى جدة، كن حليما حكيما معه، فهو مغلوبٌ على أمره.

ـ هل في اقترابي منه خطورة علي؟

ـ كلا لا خطورة عليك، لكن الخطورة إن استمر على ما هو عليه.

ودّعني الجمل، وقد بدلتُ ملابسي التي أرتديها في عالمهم، ولبست ملابسي التي اشتقت لبسها من زمن، وخرجت إلى موقف العربات، لأجد سائق المديرية في انتظاري عند باب المستوصف المهجور، ومن هناك توجهنا إلى المحافظة.

٩

ـ " عندما نختنق جدا،
نبحث عن ثقوب التنفس أياً كان لونها "

* أيمن ضاوي

- ٩ -

المحافظة هادئة رغم مساء الخميس، معظم الأهالي يسافرون إلى المدن الكبيرة، في الإجازة الأسبوعية، فكثير من مستلزماتهم يجلبونها بأنفسهم من المدن الكبرى مثل جدة و مكة، لغلاء الأسعار، وقلة جودة البضائع التي يجلبها الوافدون، المتحكّمون بمعظم المحالّ التجارية والفنية، وليتهم على هذه النعمة يرعون في الأهالي إلاً أو ذمة، بل تحوّلوا كمكانس الشفط العاتية، بكل طرق الكسب المشروعة واللامشروعة، لم يخطر ببال غفلتي أنّني سأصطدم بهم في النزل الذي استأجرت إحدى غرفه، عندما طلبت مفتاح الغرفة، لتصعقني إجابة العامل أنها مؤجرة لشخص آخر بعد غيابي، شعرتُ بنار جامحة في أوردة غضبي، فكيف تُؤجَّر غرفتي على شخص آخر ومقتنياتي الشخصية فيها، حقيبة ملابسي، وجهاز الكمبيوتر المحمول، وبعض متعلقاتي الشخصية، لم أستوعب الخبر جيدا بداية الأمر، لربما أخرجوا أمتعتي ووضعوها في خزائن النزل الخاصة بالنزلاء المتغيبين، لكن الفاجعة أن هذا الحدس المتذاكي يتبخر وهم لم يحتفظوا بشيء من أمتعتي.

صرخت في وجوههم بحدة، وجادلتهم كثيرا وعميقا وغزيرا، لم أحتمل لا مبالاتهم بي فطلبتُ مقابلة صاحب النزل، لكنه ليس من سكان المحافظة، فالنزل مستأجر باسم امرأة حصلت على الجنسية قريبا، ويستأجر الوافدون من بني جلدتها باسمها أي نشاط يرون مقدرتهم على إدارته وإنجاحه، شريطة أن يدفعوا لها رسوما شهرية أو سنوية يتفقون عليها مقابل الاسم، حاولت الحصول على هاتفها ولم أستطع. علت أصواتنا، تجمّع الوافدون عليّ من كل حدب وصوب، أبحث عن شخص رشيد في الزمرة فلم أجد بغيتي، شعرتُ بالخوف حقا وهم يتحلّقون حولي، يتراطنون بلغتهم الخاصة، لأكتف الفارس الجامح في أعماق حنقي بحبال العقل والخوف، وحساب عواقب التهور أمام الكثرة، خرجت هائما على وجهي إلى مركز الشرطة، وهناك أدليت ببلاغي الشفوي، طلب مني الرقيب المناوب أن أسجل بلاغا خطيّا، وبكل برود أشار أن أعود صباح السبت ليستطيعوا فتح المحضر واستدعاء الخصوم، لم أقتنع بكلماته، بل أصرّيت على مقابلة الضابط المناوب أو مدير الشرطة، أو أي مسؤول

ينصفني من أولئك العادين، فراوغني كثيرا، حتى استسلم واعترف أن الضابط المسؤول في جدة الآن، فليس من سكان المحافظة في الأصل، أما مدير الشرطة فسيسجنه شهرا؛ إن قطع عليه أنسه من أجل شكواي التافهة، رجوته أن يطلب من العاملين في النزل إحضار أمتعتي، فألقى باللائمة عليّ إذ تركت أمتعتي في النزل وغبت طويلا، حاولتُ معه بشتى الوسائل والاستجداءات وكل همّي جهاز الحاسب المحمول الذي فيه الكثير من المعلومات المهمة لي، التي بضياعها سأبذل عمرا آخر في استعادتها، وتنظيمها، أشم في مراوغته أنه ربما أسير ما يقدمه أولئك الوافدون من توافه، وربما لم أكن أوّل مشتكٍ من ذلك التعامل الفج.

بالكاد أرسل معي شرطيا حاد الطباع بعد عنت وتعب، بدت عليه نجابة وحمية، يتأفف من كثرة الوافدين، وما يسببونه من إرباك دائم لهدوء المحافظة. عدنا إليه ومعنا مدير النزل الذي بالكاد يفقه العربية المكسّرة، فلمحت ابتسامته العريضة عندما دخل على الرقيب المبتسم، وظنّي يربط تلك الابتسامتين بطريقة مقززة، سأله الرقيب بلكنة مكسّرة عن أمتعتي، ولم يرتعد خوفا، بل اندلقت اللامبالاة ببرود الإجابة بعدم علمه، التفت الرقيب إليّ مسهبا في وصف أمري بالمعقد، وفي إسهابه الممل تبرئة خجولة للنزل، وإلقاء باللوم عليّ أنا، فأنا من ترك أشياءه عندهم وغاب.

ـ كيف أكون المتسبب وقد تركت أمتعتي في النزل، وعندي عقد إيجار، ولديهم مبلغ تأمين؟

ـ مبلغ التأمين تم احتسابه من فترة غيابك، وعندما لم تحضر من حقهم تأجير الغرفة على غيرك.

ـ يؤجرونها وأمتعتي فيها؟! أين أجد أمتعتي الآن؟ لنفترض أني متُّ، أو أصبتُ بمصيبة، ألا يضعون أمتعتي في مأمن، أو يرسلونها إليكم؟

ـ أرجو ألا ترفع صوتك أولا، ثانيا هو لا يعرف عنها شيئا، والأجدر ألا تترك أشياءك في أي مكان، ثم تأتي وتلقي باللوم على الآخرين.

ـ أريد اسم الرجل الذي استأجر الغرفة بعدي.

ـ يقول: أجروها على ثلاثة أشخاص.

ـ يا رقيب، أرجو أن تتدبر لي طريقة في استعادة جهازي المحمول على الأقل، أما باقي الأمتعة فلا تهمني بقدر ما يهمني الجهاز.

ـ هل تريد أن نطلب الثلاثة المتسأجرين، ونطلب عمال النزل كلهم كي نبحث عن جهاز كمبيوتر؟!

ـ ولِمَ لا؟ الكثير من أشيائي المهمة وأسراري يختزنها هذا الجهاز.

ـ عد إلينا السبت لنرى ماذا يمكننا فعله، أما مدير الفندق فلا أرى ضرورة للتحقيق معه الآن.

شعرتُ بالحنق على هذا الرقيب الذي لا يفقه شيئا، وعلى ذلك الضابط المسافر الذي ترك مناوبته لرجل أجوف لا يجيد التعامل مع القضايا، طلبت رقم هاتف الضابط، ورفض بحجة الخوف من الضابط الذي أمره ألا يعطي رقم هاتفه لأحد لا يعرفه معرفة خاصة.

ـ يا رقيب، أنا لا أستطيع العودة السبت، وها هو ادعائي الخطي بين يديك، وآمل أن أجد نتيجة عند عودتي من سفري، لأنني في عجلة من أمري.

ـ ضع في حسبانك أنه في حال عدم عودتك إلينا، سيطالك عقاب إشغال السلطات بأمور تافهة، وعدم المتابعة.

ـ سأعود، لكن جدوا جهازي أرجوك.

خرجت من عنده، وأنا أراه كشاخص الشيطان في جمرة العقبة الذي يتوق كل مسلم إلى رجمه، أوغر صدري بلا مبالاته، وكأنني أتسلى بالمجيء إليه. توجهت جنوبا على الطريق الساحلي إلى مدينة جازان (جيزان)، الليل خيمةً عملاقة، تمزق أروقتها أضواءُ السيارات المعاكسة، يأخذ سطوعها نصيبه من بصري المجهد، وكأن كل سائق يسير في عالم وحده بمعزل عن الناس، لا يشعر بتأنيب الضمير وهو يسطع إضاءته العالية في وجوه السارين على وجل، والهائمين في مهامه الفِكَر أمثالي، بعضهم لا يبالي بكبير السن أو المرهق، أو ضعيف النظر. توقفتُ مرهقا في إحدى الاستراحات على الطريق، بدا لي الأمر مألوفا في جميع المناطق التي أمر بها، فالمطاعم ذاتها مطعم بخاري أو مطبخ المندي، والعمالة ذاتهم لا تختلف حتى ملامحهم في المطاعم أو المحطات أو البقالات، جلّها من الجنسية البنغالية البدائية جدا في

كل شيء، أكثر ما يلفت النظر نقطة التفتيش المتمترسة خلف حواجز اصطناعية بالكاد ترتقيها السيارة، والمحظوظ من لم يضاجع المطب بطن سيارته، أو يلمس مؤخرتها عنوة، كثرة تلك النقاط على امتداد الطريق بين محافظة و أخرى، يشعرك أنك تخرج من دولة إلى دولة، كأن تلك النقاط منافذ حدودية كما يصفها الجمل، وإن تجاوزت نقطة التفتيش دون أن يتفحصوك فأنت محظوظ، رغم قول أحد الأصدقاء الناصحين وهو يشدد على فترات الظهيرة، أو قبيل صلاة الفجر، لمن يريد أن يجتاز النقطة دون أن يستوقفه الشرطي. لم أجد في طريقي إلى جيزان شيئا مميزا، ربما لليل دوره، ولتركيزي في القيادة مع سطوع الأنوار دور آخر. شعرتُ بجيوش النعاس تغزو أجفاني، تجوس خلال مفاصلي المتباعدة، فاستأجرتُ غرفة في إحدى الاستراحات. لأصحو أهرش جلدي، وأتأفف من رائحتي النتنة، فالمفروشات تحظى بالغسيل سنويا كالعادة.

لم يكن المطعم إلا تظاهرة لجموع الذباب، الذي استيقظ يبحث عن قوته خلال أطباق المستيقظين على الجوع، شعرتُ بالاشمئزاز، فعدتُ إلى البقالة لشراء الأطعمة المغلفة كالفطائر الجاهزة والكيك والمشروبات، ثم واصلت طريقي تحت ضوء الشمس، لم أصدق أني أعبر مناطق من بلادي، وأنا أجرّع روحي كؤوس النظرات المرة إلى أولئك السمر الموشومين بالفقر والفاقة من مبانيهم وهيآتهم ومركباتهم المتهالكة، بعضهم يتلوّى حول سيارتي يمنعه الحياء من مد يده، وطفل ينقر الزجاج رافعا إصبع الشهادة على جحود الريال، وأخرى تجلس عند ركن المطعم بخبزها الرقيق ومولودها شبه العاري الـ يشبع الذباب من أنفه. أحسست بالألم الموغل في عِرق إنسانيتي المتورم ألماً، تفحصتُ ضمير الواجب الوطني، وجدته قد قفز إلى مقعد الراكب عن يميني يراقب لوحات المسافات على الطريق المتخم بالتحويلات، لم تكن لها حسنة سوى تمتعي بمناظر مزارع المانجو، على جنبات الطريق، وتهافت معلومات مادة الجغرافيا القديمة وتذكر الخصوبة العالية لتلك الأراضي، التي أظن الجمل يملك الكثير من الفلسفات والانتقادات حولها، دخلتُ مدينة جازان من خلال الدائرة المركزية الضخمة، وهناك بدأت البحث عن المسجد الكبير حتى وجدته، كان الوقت مبكرا، ولابد أن أمضيه فيما ينفعني، فآثرت التجوال داخل المدينة، وارتدتُ منطقة الكورنيش الجميل المفتوح، الذي

بدا لي أجمل من كورنيش جدة، المحتجب حياءً وتحشّما عن أنظار مرتاديه بالمباني والمدن الترفيهية وقصور المتنفذين، التي زادت جمال الكورنيش وأحيت في البحر خصيصة التعايش مع الإنسان القانع المتعفف، الذي لا ينظر إلى الجمال إلا من وراء جدر.

عدتُ قبيل صلاة الظهر، جلستُ في سيارتي أمام المسجد، أراقب الداخلين إليه، والأزياء الجنوبية بألوانها الزاهية، وهيآتها المدهشة تشدني، وحرص كبار السن على وضع النباتات العطرية على رؤوسهم، أو جيوب ثيابهم العليا، أو على آذانهم، أما عمّال المطعم فرأيت الكثير منهم يتسللون إلى باب خلف المطعم يغربون في ظلمته بخفة، لم تقطع مراقباتي إلا إقامة الصلاة، دخلت المسجد سريعا، فتفحصت معظم الواقفين لكن لم أرَ أيمن، صليتُ وبعد التسليمتين جلتُ بنظري في المصلين، لم تصطدم عينيّ بعيني أيمن أيضا، ولم أخرج إلا مع آخر المصلين في المسجد، وتبريده العالي الذي يطرد ملوحة السبخات، والرطوبة التي شبعت من جلود الماشين، أردتُ سؤال الإمام عنه، لكن ترددت في آخر لحظة وخرجت إلى المطعم الكبير، تفحّصت وجوه الجائعين في المطعم، جلستُ في ركن المطعم وأعين فضولهم تغزل من وجهي حكايات ما قبل المائدة، لم أفك طلاسم أسماء الموائد في قائمة المطعم، حتى دنا منّي العامل اليمني، فسألته عن ألذ وجبة لديهم، فنصحني بوجبة مميزة من السمك المشوي على طريقتهم اللذيذة، مع الخبز الجنوبي المميز، روائح الطعام الشهية أنستني ذِكر أيمن، فعالم الجمل لا يؤمن بهذه الطرائق في الطهي، بل يراها مضرة بالإنسان لأنها تسلب الطعام طبيعيته، تناولت وجبتي بشراهة ومزاج محموم بأكل عالمي رغما عن أنف الجمل وعالمه، ثم طلبت الشاي الأحمر في إبريق صغير بعدما رأيته على طاولة أخرى، أروم انتظار صلاة العصر، لكن المطعم ازدحم بالجائعين، فرأيت من الحكمة إفساح المجال لهم، خرجتُ إلى سيارتي وأخذت أسير في الشوارع على مهل حتى صلاة العصر، لم تكن أميز من شوارع المدن التي أعرفها، ومشارط الخدمات صيّرتها أخاديد، ومهاوٍ لعجلات السيارات وأكعب المشاة.

دخلتُ المسجد مع المؤذن باكرا، جلست في طرف الصف الأول، أسندتُ ظهري على الجدار، أتأمل البابين الكبيرين، وقبيل الإقامة دخل أيمن، تأكدت من ملامحه فإذا هو أيمن حقا رغم اللحية السوداء الكثة التي ازدحم بها وجهه الطويل، وثوبه المنكمش عن ساقيه

اللتين بدأتا في التورم قليلا، ربما بفعل طهاة السمك المجاورين، لم يرني، وآثرت ألا يراني، حفظت المكان الذي وقف فيه للصلاة، وفور فراغنا من الصلاة التفتُ إليه، لم يطل مكوثه بعد التسليمتين بل خرج، فخرجت على إثره، وبالكاد لحقت به، تفاجأ بي كثيرا، ورأيت الحرج بادٍ على محيّاه، سألني عن أحوالي، وسألته كذلك، ثم اختلقتُ فرية تبعد توجسه من قدومي المفاجئ، فأخبرته أنني عُيّنتُ في مستشفى جازان العام، فضحك وقال ألم تجد إلا هذه المستشفى؟. فلم أدقق كثيرا، بل أجبته بخبث، أن أشرف مقام لي أن أزامله فيها. تبسم ابتسامة لم أجد لها تعريفا إلا أنها جدار عازل، فعزمني على كأس شاي في المطعم، لكنني اعتذرت عن المطعم، وأثقلت عليه بطلب الجلوس في شقته التي يسكنها، تمعّر وجهه فأحسست بحرجه الشديد، لكنني ألقيت بحيائي العربي في درج سيارتي وألَحّيت عليه، تحت حجة ضيقي من اكتظاظ المطعم، فاستسلم مرغما، ودخلت وراءه إلى زقاق صغير ضيق، روائحه تطرد القطط ربما، فتح بابا حديديا فدخل إلى فناء مكشوف، اجتزناه إلى غرفة يتيمة متهالكة، وحمّام بالكاد يتسع لجسده المتوسط، ومطبخ في الممر بين الغرفة والحمام.

ذهلتُ مما أرى، وكان الذهول الأكبر عندما دخلت غرفته المزدحمة بخمسة حواسيب كبيرة، سادسها حاسوبٌ محمول، وجهه المحمرُّ ينقط خجلا من وعثاء الغرفة، وعشوائية كل شيء فيها، فأين ترتيب أيمن، وأين نظافته واهتمامه بالتفاصيل؟ جلستُ أحاول كسر حواجز خجله، وأني صديقه، وربما أسكن معه في هذه الغرفة مستقبلا، فتبسم وخرج ليحضر الشاي من المطعم.

تجولت في الغرفة قليلا، فوجدتُها مريبة بتلك الأعداد من الأجهزة، ولم أجد فيها سوى سريرا واحدا للنوم، جعلني أدرك أن أيمن يعيش وحده فيها، وأنه لا يختلط بأحد من الناس ربما، لكن منفضة السجائر غيّرت هذا الحدس، فأيمن لا يدخن حسب علمي. عاد بالشاي في كؤوس ورقية، ثم سألته:

ـ لمَ انتقلت من جدة إلى جيزان؟

ـ جدة مدينة ضخمة، ولم تعد تتسع لكل المهاجرين إليها.

ـ لستَ مهاجرا إليها، بل أنت من أبنائها الأولين، والعم ضاوي سكنها من زمن بعيد،

من قبل أن تولد حتى.

ـ نعم، لكنها لا تصلح لأمثالي من أبناء البدو.

ضحكتُ ضحكا مصطنعا باردا، وأنا أحس أن خلف إجابته امتعاض عميق، لم أعهد أيمن يلتفت إلى مفردة (بدوي)، فقلت له:

ـ لستَ من البدو، فالبدو الذين ما يزالون يحيون بطرائق بدائية، وقد ولّت البداوة عن بلادنا، ولم تعد إلا في أولئك القاطنين أعماق الصحراء ورؤوس الجبال، أما العلم فقد مسح البداوة يا دكتور.

ـ أنت طيّب وعلى نياتك يا يحيى.

ـ كلنا طيبون يا سيدي، وأنت عزيز على قلبي، كنت قدوتي في المثابرة والاجتهاد.

ـ (كنت).

ـ ما بك يا د.أيمن؟

ـ حتى د.أيمن شطبته من سجلاتي، ألقيت به على شاطئ الحمراء، وتركته هناك يصارع الغرق والتلاشي. أنا الآن أيمن فقط، دون ألقاب.

ـ هل تركت الطب؟

ـ نعم تركت الطب، واحترفت عشقي القديم، البرمجيات.

ـ لمَ؟

ـ هذا السؤال يحتاج لساعات وساعات كي أجيب عليه.

ـ لو لم تتفوق في تخصصك الطبي، لقلتُ أن إكراهك على دخوله هو السبب، لكنك الأول على دفعتك.

ـ المسألة ليست في الطب ولا في التفوق، المسألة في المجتمع الذي نحيا فيه، ونكدّ أذهاننا ليل نهار من أجل الارتقاء به، والعمل المتواصل لرفع راية هذا الوطن عاليا في مصاف العالم المتحضر.

ـ بربك ماذا حدث؟

ـ سر أحتفظ به لنفسي، لن تفيدك معرفته.

ـ ألست صديقك؟

ـ الصداقة تفرض أن أبقيك بعيدا عن الاحتراق في أواره.

ـ أتسمح لي أن أقول لك شيئا مهما؟

ـ قل.

ـ هيا قم إلى السيارة نتجول على كورنيشكم الجميل، وهناك سأحكي لك كل شيء وستحكي لي كل شيء.

تردد في الخروج، وأبدى استياءه من الفكرة، لكن إلحاحي جعله يستسلم، فكرمه وصداقته مازالت تنبض في أعماقه. قمنا إلى السيارة رغم تردده، وامتعاضه من مجيئي في الأصل، فأخبرته بعلمي بقضية اختفائه، وهجرة والده إلى قريته حزينا، لكنّ أيمن واصل إحجامه عن إفشاء سره العظيم كما وصفه الجمل، فكثّفت إلحاحي عليه حتى انفعل وهدّد بالنزول من السيارة، لكنني احتويته وحاولتُ أن أرمم حبل التواصل والثقة بيني وبينه. فأخذته في جولة على البحر، وأنا أذكر له جولاتنا مع الأصدقاء، وسمرنا في الشاليهات، وجنونه بركوب الجيت إس كي (الدباب البحري)، فجاراني في الحديث، حتى عرّجنا على الجامعة والدراسة والطب وأيام التطبيق، فانفجر كمحرك نفّاث، يزفر لظاه المحرق، يتطاير الشرر والألم من روحه، يحرقني وهو يقول:

ـ هل تعرف عبير ابنة الدكتور زهير أتناوي؟

ـ نعم أعرفها، والدها عميد الكلية.

ـ نعم هي بذاتها، زاملتها في السنة التطبيقية في المستشفى الجامعي، حتى نشأت بيني وبينها صداقة وطيدة نظيفة، وبعد انتهاء التطبيقية، عُيّنت د. عبير معيدة في الكلية، فافترقنا لكن استمر التواصل بيننا عن طريق الهاتف أو الإنترنت، كنت أثق بها دون سقف، وأستشيرها كما تستشيرني في أمور عملية وشخصية كثيرة، وذات يوم أطلعتها على مشروع علمي ضخم كنت في طور بنائه النظري، فشجعتني كثيرا، كان تشجيعها الصادق يحفزني، وبعد غياب منها ومني وانشغال بالحياة، جاءني اتصال من والدها، د.زهير، كان في غاية الأدب والتواضع، والسؤال المستقصي عن أحوالي وعن عملي وارتياحي في المستشفى التي

أعمل فيها، عرض عليّ أن يسعى في نقلي إلى المستشفى الجامعي إن أردت، فشكرته على تلك اللفتة، لكن لم أتحمس لموضوع النقل، وبعد ثلاثة أيام اتصل بي أيضا وعرض علي الأمر، ثم طلبني في مكتبه في الكلية، ذهبتُ إليه مسرورا منتشيا بهذا الاهتمام الذي برره بصداقتي النظيفة مع عبير، و ثنائها على خلقي ومعدني، وكذلك تفوقي في تخصصي على دفعتي، تناولنا الشاي والضحكات التي لم أعهدها في شخصه أيام الدراسة، لكن ظننتُ خيرا ورأيت أن وقت الدراسة يقتضي الحزم، وإن كثُر ظني فهو لم يتجاوز أن الرجل ربما يلمّح كي أتقدم لخطبة عبير، أنا لا أحب عبير ولا أريد الزواج منها، هي صديقة وزميلة لا أكثر، لكن الذي يريده ذلك الأفعى كان أكبر من زواج عبير، فقد بدأ التلميح عن مشروعي العلمي، والسؤال عنه وعن خصائصه، وهل انتهيت من بنائه أم لا، وعن علم أحدٍ به، ثم طلب مني إحضار مشروعي العلمي عندما أخبرته أنني انتهيت من بنائه نظريا، فأبديت له في أدب جم أنه لم يحن الوقت المناسب كي أخرجه لأحد، لكنه ألحّ في الطلب، فتمنعت متحججا بأعذار يجب أن يفهم منها تكتمي على مشروعي، ثم رفضت إعطاءه المشروع، وليتك ترى ردة فعله الخبيثة، عندما احمرّ وجهه حتى كاد يقطر دما، فأخبرني بخبث طويته أن لديه نسخة مبدئية عن المشروع يستطيع من خلالها إكماله، فتعجبتُ من وقاحته وهو يطلب أن يشاركني مشروعي وتعب أفكاري وأوقاتي المستنزفة في بنائه. أنا في الأساس رفضت تلميحات عبير عن إشراكها معي في المشروع، وقطعت عليها كل السبل التي كانت تفتحها في كل لقاء لنا عبر الماسينجر أو عبر الجوال.

حاول إقناعي بالشراكة ولو تحت بند التوجيه والإشراف، لكنني رفضت لأنه حقا لم يكن معي، فألحّ على ذلك تحت مغريات مادية، وتسهيلات في تسجيل الاختراع، وكي يكون اسمه المشهور وعلاقاته الواسعة بالوسط العلمي، جواز سفر لعبور المشروع العلمي إلى الدوائر العلمية داخليا وخارجيا، لكنني تحجّرت كثيرا ورفضت، وخرجت من مكتبه على هذا الموقف، وبعد يومين اتصل بي، يسألني عن قراري النهائي، فأجبته أن قراري واحد لا يمكن تغييره. فاتصلت بي عبير وعاتبتني على إغضاب والدها، فعاتبتها على إفشاء السر الذي ائتمنتها عليه، لكنها أخذت تهدد وتتوعد باسم والدها الذي يستطيع أن ينهي خدماتي من

الوزارة بمكالمة هاتفية، أو نقلي إلى أبعد مكان أتخيّله، قطعتُ مكالمتها بعد قولها (ستجني شوك عنادك يا بدوي)، لم أرد على كل اتصالاتها واتصالات والدها، فالتفّ لي من طريق أخرى، عندما حرّض مدير المستشفى التي أعمل فيها، وبدأ المدير يفرض قيودا متعنتة ضدي، ويكلفني بمناوبات ليست من تخصصي، ويحاسبني على كل صغيرة وكبيرة، وقد جنّد عيونه في المستشفى على عيادتي، فاحتملت الأمر حتى طفح الكيل، وفار تنور غيضي، دخلت عليه مكتبه، سألته ماذا تريد مني؟، أعلم أنك محرض من د. زهير أتناوي، ولن تلين قناتي لكم. المرارة يا يحيى حرصهم على إطلاق لفظة (بدوي) عندما رفضت إشراكهم معي كلهم متفقون على هذا اللفظ.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ قل ما الذي لم يحدث، جندوا ضدي كل طاقاتهم، حتى الممرضات أصبحت أخشى كثرة توددهن، والمراجعين والمراجعات أخشاهم كذلك، هؤلاء الأشخاص بدؤوا يتكاثرون ضدي، أشعر بمقتٍ من الجميع، وأرى التربص بي من الجميع، وكأن هناك شائعات قبيحة عني تسري في الجهاز الصحي، أو كأني مُرَاقَبٌ في تهمة لا أعلم عنها شيئا. لم أبلغ أحدا عمّا حدث، إلا زميلي السوري د. إياد كورجي، الذي نصحني أن أشتكي إلى المديرية الصحية عمّا يحدث ضدي، فعملتُ بنصيحته وذهبت للشكوى، وهناك كانت أذرع الأخطبوط أتناوي تلتفّ أيضا، أشمّ روائحها فور قراءة الموظفين لاسمي، طلبوا مني نسخة عن المشروع العلمي، لكني رفضتُ خوفا أن تكون أيديهم كَيدِ ذلك العميد الفاسد. سجلتُ شكواي لديهم، وعدتُ إلى عيادتي، خبأت مشروعي في مكانٍ لا يمكن لبشر بلوغه، بعدما وجدتُ باب عيادتي مكسورا، ودوّنت بذلك محضرا لدى الشرطة، ولكن هيهات أن يردهم عن مضايقتي محضرٌ أو شكوى، بل استمروا في مضايقاتهم لي، صمودي وبقائي على موقفي جعلهم يوغلون أكثر، ويبحثون عن تدميري بأية طريقة كانت، غير مبالين بدين أو قيم أو وطن أو أخلاقيات مهنة.

خرجت من عيادتي الرابعة والنصف عصرا، وبينما كنت أشغل سيارتي في مواقف المستشفى، لمحت في المرآة سيارة بيضاء تقف خلف سيارتي مباشرة، وينزل لي منها شابّان يافعان، أبرز لي الأول بطاقة تعريف انتمائه إلى إدارة مكافحة المخدرات، فاستغربت الأمر

جدا وأنا داخل مبنى المستشفى، طلب مني النزول من السيارة، فرفضت، ففتح باب سيارتي فهددته بتصعيد القضية ورفع الأمر إلى جهات عليا، لكنه أصر وادّعى بأن لديه بلاغ عني، طلبت منه إثبات هذا البلاغ، فأصر على نزولي، نزلت من السيارة، ومدّ يده لتفتيشي، فنهرته ورفضت التفتيش، لكنهما أصرّا على ذلك، فتعالت أصواتنا، وتجمع الموظّفون حولنا من شتى الأجناس والأعراق والألوان، وكان المنظر مزريا جدا، فأرغماني على التفتيش ثم وقفت بعيدا عن سيارتي بعدما فتشا ملابسي وجسدي بأكمله، أثق بأنهما لن يجدا شيئا مما يبحثان عنه، لكن الأمور لم تؤيد ثقتي، بل خارت قواي وذلك الجندي يخرج مزهوّا وفي يده كيسٌ بلاستيكي شفاف، يرفعه عاليا بيده، ويسألني ساخرا، لمن هذه يا دكتور يا محترم؟! لم أشعر بنفسي وأنا أجري نحوه بسرعة السهم، أريد لكم وجهه، لأنها والله العظيم ليست لي، فاعترضاني وأمسكاني بقوة، ثم قيّداني، على مرأى من الجميع، أرى كل الأعين تطؤني بأحذية الازدراء والانتقاص، حتى من بقي لي عندهم ذرة احترام، تلاشت جزيئاتها وتبعثرت هباء مَذْرُوًّا على شطبي من قائمة احترامهم، وأنا أقسم بأعلى صوتي لهما ولجميع العيون التي سقطتُ منها أن لا علم لي بما وجداه، لكن لم ينظر إليّ أحدٌ في تلك اللحظة إلا بنظرات مسمومة، والجنديان لم يلتفتا إلى أيماني، بل كانا يتهكمان بي، وبمهنتي وبقبيلتي، حتى أوصلاني إلى إدارتهم، وهناك فتحوا لي محضرا، لم أعترف فيه بحيازتي ثمان حبات من حبوب الكبتاجون المنبهة، وضابطهم يلومني وقد لوّثت أنا وأمثالي سمعة قبيلتنا، أشعر بالنار تغلي في جسدي كله، تمزّق أوردتي، تشوي بطيني قلبي وأذينيه، لو في يدي قتل كل مَن حولي ما ترددت لحظة قهر، حاولت أن أكسب تعاطف الضابط، وأبرر له أنها مكيدة مدبرة، وأعلمته بكامل قصة المشروع، لكنه رد علي هازئا (غيرك أشطر)، رجوته أن يفحص دمائي في المختبر كي يتأكد من خلوي من هذه المادة، فكان الرفض مرزبة تقصم ظهر براءتي لأحيا ملوثا بجرم ساء سبيلا، وقال (الحيازة تكفي).

حُكمتُ بالسجنِ ثلاثة أشهر، وجلدتُ على جرمٍ لم أرتكبه ورب الكعبة، حلفتُ للقاضي، وللمحققين وهيهات أن يلتفت أحدٌ إلى أيماني المنجّسة بالمخدرات، ولأنني بدوي حسب توصيفهم فالتهمة بحيازة هذا النوع الرديء من المخدرات ثابتة. خرجتُ من السجن يا يحيى

جثةً محطمةً، لا أقوى على رفع بصري في نملة تسير على ذراعي، عدتُ إلى عملي، فوجدتُ الجميع يعلمون بقضيتي بحذافيرها، وكل زملائي حتى المتعاطفين معي قد نفروا من شخصي، ولك أن تتخيل رؤية أعز زملائك الذين تثق في نبلهم يشاهدك فيشيح بنظره عنك حتى صديقي إياد.

ـ أهلك هل علموا بأمر السجن؟

ـ كيف لا يعلمون ومدير المستشفى بذاته هاتف والدي يسأل عني بعد يومين من اختطافهم لي، وعندما وجد الخبيث أن أبي لا يعلم عن الأمر شيئا، اتصل به بعد ساعة وأخبره بالتفاصيل كلها، وأنه حاول إخراجي لكن الجرم ثابت علي، لا أنسى وجه أبي المكفهر، الممزق ألما وحسرة، وهو يرى ثمرته التي سهر عليها سنين عددا، خلف القضبان في جريمة مخزية، أقسمت له أنني مظلوم، لكنه أيضا مثلهم، لم يصدقني، قال كلاما مؤلما يا يحيى، وكأن الخبيث قد أثّر على لا شعوره، لم يعلم أبي أنه يقتلني بسيوف قوله الباترة ويمزقني بحراب كلماته: " لقد لاحظت عليك تغيرات في الشهر الماضي، لكن لم أتوقع أن تكون مخدرات، إن خرجت وليتك لا تخرج؛ لا تعد إلى بيتي، يكفي أنك عائق في طريق إخوتك وأخواتك ".

لو كانت في يدي خنجر لحظة حِراب أبي المتتالية على صدري؛ لغرستها في سويداء قلبي، وأوقفت نبضاته، تمنيت أن أموت، أن يحترق السجن الذي وُضعت فيه، جلست هناك مخبولا، أحكي قصتي لكل من هب ودب، أصبحت مصدر السخرية والضحك الأول في السجن، وفوق ذلك جلدوني على ذنب لم أرتكبه، فقط لأنهم لا يملكون أدوات التقصي التي توصلهم إلى الحقيقة، ولا يملكون الصبر والأناة في التثبت، فاختاروا إدانة الحيازة سبيلا أقصر لسير تحقيقاتهم، آه يا يحيى، والله لن أتركها لزهير أتناوي وعصابته المجرمة.

ـ وماذا حدث لاحقا.؟

ـ كان الأسبوع الأول في دوامي مرهقا جدا، والأدهى أنهم أمعنوا في تعذيبي النفسي عندما أرسلوا عبير منتدبة في مستشفانا، كلما رأيتها أرى والدها القذر، وهي تتعمد أن تغيظني، طرأت على بالي فكرة اختطاف الغريرة، وإحراق قلب أبيها وتشويه سمعتهما، لكنني خفت

الله، فرغم أنها السبب، لكن الأفعال الإجرامية كلها من والدها، ذهبت إلى مديرية الشؤون الصحية أريد الانتقال، فرفضوا بحجة ندرة تخصصي، حاولت بشتى الطرق ولم أستطع، فقدمت استقالتي؛ ظانا أنها سترفض ويُلبى طلب نقلي، فإذا قرار استقالتي بعد يومين في مكتب مدير المستشفى المسرور بالنبأ. لم أبدِ ندما أمامه أو استغرابا، بل افتريت أنني حصلت على فرصة وظيفية في مستشفيات وزارة الدفاع، التي أفضّلها على البقاء معهم في وزارة الصحة، قدمتُ أوراقي على مستشفيات أهلية، وحتى مستوصفات صغيرة، فكانت طلباتي تحظى بالموافقة المبدئية، لكن بعد أسبوع واحد، يتغير الموقف ربما لمدير المستشفى التي عملت بها دور في هذا، فكانوا يحتجون بألا تقل الخبرة عن خمس سنوات، أما السفارات الغربية فبمجرد العلم بالحكم القضائي؛ يستبعدون طلبي الذي أدفع رسومه من ضنك الحياة المرة.

صمَتَ أيمن، ودمعته تترقرق على رمشيه الكثيفين، وصوته يؤثر التقطع وتلك العبرة الخانقة تتأرجح في حنجرته، وتعصر قلبه المكلوم، لكنه أذكى جمرة من القهر والألم في أعماقي، وكلي توق إلى سماع ما تبقى من المأساة، لا أدري أهو تعاطفٌ، أم فضولٌ لسماع الفضائحية البشرية، أم أنني سأكون عامل انتشال لحطام هذا الرجل وإعادة بنائه من جديد، لا أدري ما أكونه، لكنني شجعته أن يفضفض:

ـ وماذا بعد؟

ـ أي ماذا يا يحيى، أحداث عصفت بحياتي الهادئة، وشلّت كل الحراك الذي تعرفه في شخص أيمن القديم، تردّت أحوالي المادية إلى حد بعيد، وهويت في قاعٍ سحيق من العجز والفقر والجمود، لم أجد ما أشتري به ساندويش الطعمية، عملتُ حتى مع سائقي الحافلات، كي أجدُ شيئا أقتات منه حتى يبعث الله فرجا ومخرجا، استأجرت غرفة متهالكة في حي قويزة إن كنت تعرفه، الحي الذي غرق في المطر الأخير ـ حمدا لله لم أكن هناك ـ بالكاد دفعت كراء الشهر الأول، وفي قويزة تبدّلت أشياء كثيرة، كل تفكيري صببته على الحصول على شريحة اتصال بالإنترنت، وبالكاد جمعت مبلغ شرائها، فأبحرت خلال الإنترنت، أراسل من خلاله المستشفيات والجامعات، أكتب عن مأساتي عبر المنتديات، وكان التعاطف من الجميع يبعث راحة في أعماقي، لكن لم أستطع استمالة قلب إعلامي واحد، كلّما تقرّبت

من أحدهم، وشرحت له رغبتي في بث مأساتي خلال القناة الإعلامية التي يعمل بها، تهرّب مني واستخفى، أما بعضهم فيقولها علانية لا نستطيع المخاطرة دون إثباتات ووثائق. أجدهم يتهمونني حقا بالكذب، أو بالسوء لأنني سُجنت في قضية مخدرات، لم أستطع نشر مأساتي إلا خلال الإنترنت يا يحيى، وأنت تعلم سوء السمعة التي يصمه بها الجميع، واتهامه بالكذب والمحاباة فأقل ما يقال (كلام منتديات).

ـ هل جاءك ردٌ من جامعة أو مستشفى خارجية؟

ـ لم تردني إلا ردود لا أفرح بها، لكن تعرفت على طبيبة إيرانية، كانت تعمل في الخليج، وتجيد العربية، تشاطرني التخصص في الأوعية الدموية، كبيرة في سنّها لكنها جميلة وودودة، عرضت عليّ السفر إلى إيران، فاعتذرتُ وتحججت بظروف عائلية، والحقيقة أن خوفي من مجتمعي ومجتمعها هو الحائل دون ذلك، لا أستطيع المخاطرة ورمي ذاتي في محرقة الطائفية، فلو افترضت أنني استطعت العيش هناك، فلن أستطيع العودة إلى مجتمعي، فهل أعيش منبوذا طيلة حياتي؟، استمرت علاقتي بها زهاء الشهر، وكانت تقف إلى جواري دائما، حتى أنها تهاتفني لتوقظني من النوم إن كان لديّ موعد في جهة من الجهات. وفي يومٍ عرّفتني إلى كاتبة سعودية تكتب في منتداها، أصلها من القطيف وتقيم في الرياض، شاطرتنا المحادثة عبر برنامج الماسنجر، ، واستمرت اللقاءات، وزاد اهتمام الكاتبة بي عندما علمت بتمكني في الحاسب الآلي، والشبكات والبرمجيات، كانت تعرض عليّ كتاباتها، وتطلب مني إبداء ملاحظاتي، فأجاملها كثيرا، وأشعر بانتشائها لإطراءاتي المنافقة، لم تلبث الظروف أن جعلتها تبدي خلال كتاباتها رمزيا إعجابها بي، وافتقارها العاطفي، فبدأت تغزل نسيج إغوائي إليها، تلاطفني مازحة بعبارات رقيقة، تحاول اقتناص عفويتها، لكنني أشعر بإبر النسيج تعمل، حتى افتقدتني الإيرانية كثيرا، وكنت أتحجج بانقطاع خدمة الإنترنت عني، سبحت عبر تيار الكاتبة (حنين)، وولجت عوالم العاطفة، ربما أفتقد حنان أمي المنقطع فجأة، وأفتقر إلى عطف مجتمعي القاسي، فكان الإنترنت ملجئي الدافق بالحب والحنان والتعاطف، حتى وإن كان وهميا من شخصيات سيكوباتية، لكنه يرفد روحي ببلل العاطفة. صرّحت حنين بالحب الكامن في صدرها، وأسهبت في ثج أنهار ذلك الحب على شخصي

المسكين، وكانت تحاول جاهدة إرضائي، والطبطبة على كتف طفلي اليابس، لم تكن أحوالها المادية تساعدها في رتق فقري المدقع، وإحباطي الذي أنجب الكسل في أوصالي، حتى مراسلة الدوائر العلمية والتوظيفية هجرتُها، كل وقتي على البرمجيات أو الأغاني، أو برفقة حنين عبر المحادثات، كانت تفرح بتصاميمي لكتاباتها وتوقيعها وتتباهى بهداياي لها، حتى ألحّت علي بالتسجيل في المنتدى الذي تكتب فيه، لأن صاحبة المنتدى تريد مصمما متمكنا، رفضتُ الفكرة، لكنّ حنين توصلت إلى حلول عوائقي، فلن تعلم الطبيبة الإيرانية عن هذا الأمر لأني أحمل معرف (الدعم الفني)، وصاحبة المنتدى ستدفع لي مرتبا شهريا على خدماتي لمنتداها وشبكتها، فوجدت الألف وخمسمئة ريال مغرية لكسلي، بدأت مهام وظيفتي الجديدة، وتفننت في إخراج كل طاقاتي الكامنة في التصميم والإبداع كالمحترفين، وحنين تمتدح أعمالي وإبداعاتي، وعلى الجهة المقابلة يتنامى التواصل بيني وبين صاحبة المنتدى، امرأة أربعينية رأسمالية، كل الأوقات التي ألتقيها فيها، تحدثني فيها عن المادة، وما تجنيه من الكاتبات اللائي يردن التميز في العضويات، فتروي أن همّ الفتيات أن يتميزن عن بعضهن البعض، فأقصى ما تحبه الفتاة أن تحصل على لقب مميز، أو مكانة إدارية، أو قلب شاعر أو ريشة مصمم. لم يطل الحال حتى طلبت مني صاحبة المنتدى أن أحجز لها شاليها في مدينة جدة، لأنها ستقابل بعض فتيات المنتدى القاطنات في جدة ومكة، ولا تحب استقبالهن في منزلها، فأرسلت لي المال على حسابي، وحجزت الشاليه على شاطئ أبحر، كنت أمازحها وهي قادمة من مكة، بأنني سأحضر الاجتماع بصفتي إداريا في المنتدى، ولم أصدق جرأتها عندما طلبت مقابلتي على الطريق السريعة التي تمر بحي قويزة. قابلتها حقا وركبت معها في سيارتها الفارهة جوار سائقها، لم تكن جميلة، رغم العناية الفائقة التي أولتها لوجهها الممتلئ، وحواجبها الكثيفة، وشفتاها المنتفختين، ودأبها على التبسّم الخفيف؛ خشية تصدع الأصباغ والمساحيق التي ملأت بها أحافير خديها وتجاعيد محياها، كنت أخجل من النظر إليها، لكنها لا تبالي بنظراتي التي أحركها بتمهل على صدرها المترهل، وإرهاف سمعي لصوتها الآسر الساحر، أما طيبتها وظرافتها فتجعلها لا تبارح صدرا تهب عليه. طلبتْ مني أن أجلس في شق الرجال حماية لهم، والتفاهم مع العمال القائمين بالخدمة، وهي تستمتع

بالجلوس مع الفتيات، اللائي حضرن تترى من بعد صلاة العشاء، بكل أشكالهن وألوانهن المتفاوتة الأناقة، وقد تمردن على قوانين كثيرة، لكن معضلتي أنني لا أعرف من تكون كل واحدة منهن، فلجأت إلى حفظ مميزات معظمهن حتى أسأل نجلاء عنهن في طريق العودة. لم نعد إلا بعد الثالثة فجرا، كانت نجلاء مرهقة جدا، ومنتشية كذلك، فأخذت أسألها عن كل واحدة بما حفظت عنها، وكانت تجيبني، لكنها تحذرني من الاحتكاك بهن في المنتدى. قامت القيامة عندما أخبرت حنين بالمناسبة، وكادت أن تفتك بي، حتى لم أترك قسما عرفته في حياتي إلا واستخدمته، وبالكاد صدّقت بعض كلامي.

ـ قطع رنين الجوال انتشاء أيمن في سرد مغامراته البائسة، وأنا ألاحظ عليه اهتمامه بتفاصيل تلك المغامرات، ورعونته في الانجرار خلف كل شيء، لا لشيء وأنما للخواء الذي يعتمر روحه، وبعد انقضاء المهاتفة، طلبتُ منه الاستمرار في سرد حكاياته، لكنه تحجج بالجوع، وضرورة العودة إلى البيت، فعدنا إلى بيته الخاوي من كل شيء، فتركني هناك وخرج إلى المطعم، ثم عاد محملا بما لذ وطاب، شعرتُ أنني أثقلت عليه، وأنا بعد لم أعرف ظروفه المادية في هذه المنطقة، ولا أدري شيئا عن عمله، لكن انتشاء الرجل يشجعني على تجاهل شعوري بالثقل، وعلى العشاء أخذ يحكي لي عن ارتياحه في مدينة جازان، وطيبة أهلها، وأهم ما في الأمر بساطتهم وقلة فضولهم، أو تعقيداتهم الحياتية مع جيرانهم، كما كان يحدث له من المتطفلين في جدة، ثم يضحك عاليا وهو يستعرض تفاوت الفضول في مناطق المملكة، وخصوصا في القرى والمدن الصغيرة. كان الطعام شهيا، على الطريقة الجنوبية في طهو الإيدامات البحرية اللذيذة، وروح أيمن القديمة بدأت في الظهور بعفويتها ونقائها. فسألته:

ـ لم تخبرني عن مشروعك العلمي.

ـ يحيى، أراك تريد معرفة كل شيء.

ـ لا تخش واستبشر بي الخير الكثير يا صديقي، وأعاهدك بالله ألا أفشي لك سرا.

ـ أخشى أن تدّعي اكتشاف مشروعي هذا، فأنت مثلهم ابن عائلة حضرية، لست من أدغال البادية مثلي.

ضحكت أمام عبارته التي قالها بابتسامة صفراء حذرة، وقلت:

ـ دع الحضارة والبداوة جانبا، فكلنا لآدم وآدم من تراب.

ـ هذا الكلام نظريّ نقوله في خطبنا وكتبنا ومحادثاتنا الجوفاء لكن الواقع لا يؤمن به أبدا.

ـ يؤمن به الأنقياء.

ـ أضحكتني كثيرا يا يحيى وأنت تنتقي هذا اللفظ (الأنقياء)، وهل تظن أن كرتونية عصرنا تحوي أنقياء بالفعل؟

ـ الخير باقٍ في أمتي إلى قيام الساعة.

ـ لا أراني من أمته إلا صوريّا، كلنا منافقون، مزدوجو الشخصية، نقول ما لانفعل، حياتنا كلها شعارات براقة، وواقعنا أسود كئيب، تعيث فينا الطبقية المادية، والطبقية المناطقية، والعنصرية القبلية، حتى أبناء القبيلة الواحدة يتفاخرون ويعيّرون بعضهم بعضا، ألا تجد في مجتمعنا الذي يدّعي الإسلام زورا طبقات عنصرية، فهناك الفيضي والخضيري والصانع وغيرهم من المنبوذين اجتماعيا، الذين لا يزوّجون ولا يتزوّجون من الآخرين، محصورون على أنفسهم، لم ينظر إليهم بعين إسلام ولا وطنية ولا إنسانية، ولن أحدثك عن ذوي الجلد الأسود، الذين لازلنا نسمّيهم العبيد، أتحداك أن تجدهم في مناصب عليا أو أن تراهم على شاشات إعلامنا الكذوب إلا في النادر.

ـ تقول كلاما خطيرا يا أيمن، وأنا لا أفقه منه شيئا.

ـ أحرقوا قلبي يا يحيى عندما احتقروني وقالوا لي بعنجهية (يا بدوي)، أترفع أن أرد عليهم بما يقوله أبناء مجتمعي عندما يعيّرونهم (طرش بحر).

ـ وما الطرش؟

ـ الطرش، الأغنام القادمة في السفن من خارج الجزيرة العربية.

ـ أنت أعلى من هذه الألفاظ الدونية.

ـ ولأنني أعلى منها أجدني ضائعا تائها في مهامه اللاعقل، لمَ لم يكن أعلى من حسد تلميذه على اختراع بسيط؟ لمَ لم يكن ضوءا ينير لي الطريق في خدمة وطني؟ لم لم يترفع هو وابنته عن وصفي احتقارا بالبداوة؟ أأصلي سبةٌ في نظره؟

ـ أنت من يحتقر ذاتك عندما تغضب من هذا الوصف. وأنا لا أراها سبة، فما أكثر ما

يفاخر الشعراء الشعبيون ببداوتهم وأصالتهم. وأتذكر أغنية محمد عبده من قصيدة لبدر بن عبد المحسن:

أنا ابدوي ثوبي على المتن مشقوق...... ومثل الجبال السمر صبري ثباتي

ـ لكنهم يتهكمون بي، وهذه اللفظة تؤلمني كثيرا يا يحيى. درست الطب كي أكون مختلفا عن مجتمع البدو البسطاء، لأتحرر وأحرر مجتمعي وعائلتي من هذا الوصف، لكنه بقي لصيقا بي.

ـ لا تأبه يا رجل، والآن أخبرني عن مشروعك العلمي.

ـ بما أنك عاهدتني يا يحيى فسأخبرك بمجمله لا تفاصيله.

ـ حسنا.

ـ مشروعي يا سيدي يعتمد على الحاسب الآلي بدرجة كبيرة، هو مشروع المستشفى الكبيرة في حجرة واحدة.

ـ كيف هذا؟

ـ أراك تريد تفاصيلا.

ـ أريد استيعاب الفكرة.

ـ غرفة متوسطة بداخلها كمبيوتر عملاق يحوي كل مرافق المستشفى للكشف الفوري على المريض، ففي هذا الكمبيوتر الضخم وحدات الأشعة بكل أنواعها من السينية إلى المغناطيسية، وفيه أيضا وحدة التحاليل المتكاملة لكل أنواع التحاليل الطبية على الجسم من التحليل العادي للسكري أو الحمل، إلى تحاليل الكشف عن السرطان وغيره من الأدواء المعقدة.

ـ أكل هذا في جهاز واحد؟

ـ نعم في جهاز واحد مبرمج على أكثر من ٣٠٠٠ برنامج حاسوبي، ولا يستغرق عمله أكثر من خمس دقائق لإظهار النتائج، ثم طباعتها في مستند يأخذه المريض إلى عيادة الطبيب، وقد جعلته مزدوج اللغة عربية وإنجليزية.

ـ بهذا الجهاز ستقضي على المختبرات وغرف الأشعة، وتنشر البطالة بين الأطباء والفنيين الصحيين.

ـ ليس شرطا أن يكون ذلك، لأن الجهاز باهض التكاليف لا يتوفر في كل المستشفيات.

ـ واحتياطات العدوى؟

ـ وحدات التماس مع الجلد البشري لديها خاصية التعقيم الذاتي، كذلك عينات التحاليل لا تقبل الاستخدام المتكرر، فلا مجال للتلوث والعدوى أبدا.

بعد العشاء فتح أيمن جهاز الكمبيوتر الشخصي، ثم أخرج قرصا من داخل الجدار، وأراني مشروعه العلمي المدهش، وتلك التفاصيل الجبارة، والتصاميم المتحركة ثلاثية الأبعاد، لعيادته المتكاملة دون طبيب، وكأني أشاهد فيلما وثائقيا لمريض يدخل إلى غرفة حقيقية، ويتم فحصه ذاتيا بكل أنواع الفحوصات التي توصل إليها الطب الحديث، فتظهر له نتائج الفحوصات في زمن قياسي عجيب، هنا أدركتُ سر المأساة التي تعرض لها، رغم أنه أخبرني بأني أول شخص يطّلع على المشروع بهذه الطريقة، فداعبته أني لا ألوم كل مَن وقف ضدك، وعاتبته كثيرا في استسلامه، وهروبه من معركته العظيمة، إلى أحضان المجهول. فلم يبالِ بعتباي لأنه يراني جاهلا لا أعلم شيئا بعد. لأنصت إليه مجددا:

ـ هل تعلم، أني تعرفت على الدنيا من خلال هذه المعضلة أكثر من معرفتي بها خلال دراستي وحياتي بأكملها، كنتُ مغيّبا عن كل شيء، لم أرَ الوجه الآخر للناس، ولا للظروف إلا في هذه المحنة، لم أظن أن بعض دراساتي النظرية إلا مجرد هراء لا تنطبق على الواقع الذي يصوره الناس أشد بياضا من الثلج، وكل شخصية تخصف على عريّها محسنات وأصباغ كتلك التي يكتظ بها وجه نجلاء. وعلى ذكرها أين وصلتُ في سرد حكايتها؟

ـ أتذكرك توقفت عند عتاب حنين وأيمانك المغلظات لها.

ـ صدقت، وأراك كالساحر الذي يستل مني الاعترافات دون شعور، ولكن لي شرط عليك يا يحيى، لأنني سأقول أشياء موبقة.

ـ أنت تأمر.

ـ أريد عهدا موثقا أن تكون أسراري حبيسة صدري، كأنك لم تسمعها يوما.

ـ عاهدتك، وأعاهدك بالله العظيم أن تكون كما أردت.

يتنهّد ارتياحا ويبتسم، ثم يصب الشاي، ويرشفه حارا، والفضول يتدافع في أعماقي تدافع

الخيول على خط بداية السباق.

ـ حنين فتاة وفية جدا، أشعر بحبها الصادق لي، لو تعلم كم عاتبتني عندما هاتفتها وأنا في طريقي للعشاء قبل قليل؛ لأنني تركتها تنتظرني من بعد صلاة العصر، وقت قدومك، فشلّ القلق خلايا تفكيرها الهائمة بي، دائما تنصحني بالقرب من الله في هذه الشدة، لكنني أهرب أحيانا من الله، ولا أدري إلى أين الملتجأ، فأعود إليه قليلا، ثم أجدني ابتعد بائسا كئيبا، لم يعطني الله كما أعطى غيري.

ـ هنا نهرته، حسبك يا أيمن، لا تقل هذا، فكل ما يلقاه المسلم خير، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر.

ـ أعلم كل هذا يا يحيى، لكني متعب حائر ضائع، كل شيء تركني، حتى ربي تركني وحيدا، وتركهم يعبثون بكينونتي.

ـ عليك بالصبر، والالتجاء إلى الله، ثم العمل بالأسباب التي ترد إليك حقك، فالمؤمن مُبتلى، وهذا ابتلاء لإيمانك وصبرك.

ـ المهم يا يحيى، بعد أسبوع من مقابلتي نجلاء والفتيات في الشاليه، هاتفتني وطلبت مني زيارتها في منزلها، شعرتُ بالقلق من هذه الزيارة، ماذا تريد هذه المرأة، أخشى الاختلاء بها، أخشى من نواياها، وأتذكر غمزتها وهي تحذرني من التعرض لفتيات المنتدى، هل تريد إغوائي هذه المرأة الكبيرة السمينة؟. كل شيء تتخيله فكرت فيه، لكن لم أجد بدا من زيارتها، وبيتها الفخم الذي يبهر الداخل إليه من الأغنياء فكيف بأيمن البائس، أبهرني حقا وأنا أدخله، واهتمامها المبالغ في إكرامي، أجلستني في مجلسها الخاص، لم يكن في البيت أحدٌ سوى خادمتها الإندونيسية، العصائر والمثلجات أحالت صيف مكة إلى شتاء، وبددت حرارة خوفي وترقبي بابتسامتها العذبة، وأخذت تحكي لي عن معاناتها في حياتها، بعد طلاقها من زوجها، عندما حجبت عنه ثقة التوكيل في إدارة أعمالها وأموالها، وما سببه لها من مشاكل قانونية، وخسائر مالية كبيرة كادت نارها أن تأتي على كل ما ورثته من والدها المختفي من ثلاثين عاما، لم تجد عن سر اختفائه بارقة خبر. شعرتُ بالتعاطف مع شكواها، لكنني أحذر من غراب، في أن أقع في حبائل الارتباط بها. خرجت بي إلى حديقة الفيلا

وأرتني المسبح العام، والمسبح الخاص، والحديقة المرتبة بأساليب مبتكرة تتغيا قمم الإبداع، وكراج السيارات الفخمة متباينة الأنواع والألوان والأحجام، ثم أرتني غرفها في الدور الأعلى، غرفة نوم خاصة، تتسع لعشرين سريرا من أسرة المرضى، لكنها تتنعم بها وحدها، وغرفة المعيشة التي تشغلك عن صحون المائدة الشهية، ومكتبتها الخاصة، وغرفة خاصة للإنترنت، حياتها المرفهة يا يحيى تحرقني، تشعرني بالحرمان من الحياة، فأكره الأغنياء جدا، أشعر بأنهم أعداء الحياة، ومبتدأ التفرقة بين الإنسان والإنسان، مهما تبجحوا بمد أياديهم البيضاء الكاذبة إلينا نحن الفقراء، فهم أكذب من البياض في جبين قطعة الفحم، ألا تراهم يرفعون أسعار مطاعمهم ومشاربهم وأماكن شراء ملابسهم وحليّهم، حتى سكنهم في الفنادق بأغلى الأسعار، إيجارات منازلهم، وغلاء الأراضي في الأحياء التي يقطنونها، يدفعونها عن رضا، وهم أطمع وأبخل الناس، لكن من أجل ألا يدخلنها عليهم فقير، لا يترددون في دفع أبهض الأثمان كيلا يعيشوا مع الفقراء جنبا إلى جنب.

رنّ هاتف نجلاء، فبدّد تفكيري المهيمن منذ دخلت فيلتها، كنت أراها قطعة زبد تذوب تحت وطأة الوحدة الأنثوية، فتحرك مارد الرجولة في أعماقي، و عطر أنوثتها يضوع في كل أرجاء المنزل الذي جلنا خلاله، وضع رنين الهاتف علامة إكس كبيرة على قراءاتي لشبق عينيها، وأنا أسمع صوتا خشنا يهاتفها، فتعده بالاتصال بعد ساعة، ثم تلتفت إلي وتبتسم ابتسامة امرأة العزيز ترقص فوق شفتها السفلى، بقولها:

ـ أيمن، أنت شابٌ ذكيٌّ، وذكاؤك هذا يخدمك كثيرا ـ ما شاء الله ـ وقد حان أن تضيف صفرا خامسا إلى راتبك الشهري.

ـ فغرتُ أمام هذه القفزة: كيف لراتبي أن يصبح خمسة عشر ألفا؟

ـ وسيزيد عن ذلك يا أيمن، أظهِر مهاراتك الدفينة، وسترى الأموال تحج إليك من كل جيب عميق.

ـ أرجو أن توضحي الأمر أكثر.

ـ بالمختصر، نريد إنشاء شبكة على الإنترنت، بقواعد بيانات غاية في السرية، لا تستطيع الجن اختراقها، وليس هناك أقدر منك على هذا.

ـ ما اختصاص هذه الشبكة؟

ـ كل شيء يخطر في بالك، منتديات، غرف محادثات، مدونات، صفحات اجتماعية، وكل شيء.

ـ كثير من الشبكات بها هذه الخدمات.

ـ هذا الذي نريده في الظاهر.

ـ والباطن؟

ـ تجارة رابحة، ريعها في سنة واحدة يغنيك عن الوظيفة ألف سنة.

هنا يا يحيى أحسست بحرارة تغلي في جسدي، لكنني كظمت أزيز حطبي المحترق، وأمسكت نفسي كي أرى ما خلف الأكمة، أجد في وجه هذه السمينة آلاف العبارات المترددة والخائفة، لكنني أريد أن أفتح مغاليقها، فتنهمر بما تكنه، وتفصح عن ذلك الباطن الذي أخاله أسود من كل سواد في الدنيا، فهززت جذع مكيدتها وقلت:

ـ أنا موافق على إنشاء شبكات الشياطين السبعة التي تغوي كل سكان الأرض للمشي على رؤوسهم بدلا من أقدامهم.

ضحكت نجلاء عاليا، ولم تكن كلماتي مصدر إضحاكها، بل لأن بلدوزر موافقتي أزاح الصخور والعوائق عن طريق مكنوناتها التي تروم مفاتحتي بها من لحظة دخولي، فانهمرت:

ـ الفكرة أننا نريد مصادر تمويل ذكية، ونريد تجنيد كل طاقاتنا لإنشاء آلية عمل لتوفير هذه المصادر، لم أجد أحدا يملك ما أرومه، وإن وجدت فإني أخشى الغدر، ولدي شراكة مع رجل ستقابله الليلة، هدفنا مشترك، وأحدنا يعتمد على الآخر لنيل ما نريد، هذا الرجل له مخططاته، وأنا لي مخططاتي الخاصة أيضا، لكن العائق الوحيد هي مصادر التمويل الآمنة، وتحقيق مرادنا يكمن في هذه الشبكة التي عكفت معه على دراستها أكثر من سنة، ولن نجد أأمن ولا أبرع منك، فماذا تقول؟

ـ لابد أن أطلع على كل شيء حتى أستطيع تنفيذ الأفكار كما يجب.

ـ لك هذا، لكن لا خيار أمامك غير التنفيذ إن علمت بكل الأسرار، وإن لم تنفذ لا أضمن لك شيئا؟

ـ لم أفهم؟

ـ إن علمت بالأسرار يا أيمن، أصبحت شريكا ليس لديه إلا خيار العمل أو الموت لا سمح الله، حتى تموت الأسرار معك.

ـ أهي على هذا المستوى من الخطورة؟

ـ وأكثر مما تتصور، ومازالت لديك فرصة القرار.

ـ موافق على المشاركة، لكن لن أقبل بذلك المرتب الزهيد.

ـ أتسميه زهيدا، وأنت لا تقبض إلا ألف وخمسمئة ريال؟

ـ معادلة العمل أو الموت ليست كما تتخيلين.

ـ كم تريد؟

ـ أريد نسبة مئوية لا تقل عن ٣٠٪.

ـ أرى الطمع يكشر عن أنيابه.

ـ إن أردتم فأنا مستعد.

ـ لسنا وحدنا في هذا يا أيمن، فلدينا منظمات تريد الكثير منا، وسنعطيك ١٠٪.

فاوضتها حتى استقريت على ١٥٪ بشق الأنفس، ثم هاتفتْ الرجل الذي لم يتأخر عن الحضور، فدخل وبيده اليمنى شنطة أنيقة، وفي اليسرى حقيبة حاسب آلي، سلّم وجلس، ضخم الجثة، وسيم القسمات، يبدو عليه الهدوء والبراءة، لكن هذه الصفات لم تكن إلا قناع الشيطان، بل مردة الشياطين، أغلقت نجلاء كل شيء في المنزل، حتى الخدم صرفتهم، بعد أن وضعوا المائدة وما نحتاج إليه من مشروبات على الطاولة، فعرّفته بي، وأخذت تعرفني على الشيخ عثمان شرف، الرجل العصامي، الذي يصنع من الرمل ذهبا. ويخلق من المستحيل أسمن الفرص. التفت إليّ وقال:

ـ د. أيمن، الآن قبلت العمل معنا، وأنا موافق على النسبة التي اتفقتما عليها، لكن لك خمس دقائق للتفكير، بعدها لا تلمني إن قلت لم يعد لديك إلا الخياران اللذان أخبرتك بهما نجلاء. هل اتفقنا؟

ـ نعم اتفقنا.

ـ إذن أنت شريك أساسي في عملنا، وهذه الشراكة تفرض عليك الالتزام بالسرية، والتفاني في خدمة هذه الشراكة بما يعود على الشركاء بالنفع، ومن منطلق هذه الشراكة سأطلعك على كامل الأسرار التي يقتضي عملك العلم بها. فأنت محور العمليات الإدارية لالتقاء مصالحي ومصالح نجلاء، تقتصر أعمالك على إنشاء الشبكة بالشروط التي سنتفق عليها، ومن خلالها تقوم بعمليات توفير مصادر التمويل التي نحتاج إليها، وتضمن سلامتها، وتتحمل كافة المسؤوليات المترتبة على أي خرق لمهامك، فإن قبض عليك لا تعرفنا، ولا نعرفك، ونحن كذلك. عليك الالتزام بأخلاقيات العمل، وتأكد أن نسبتك قابلة للزيادة كلما تفانيت في تحقيق طموحات الشراكة، وروحك على كف عفريت إن خُنت.

ـ ماذا تريدون أن أعمل الآن؟

ـ كل تركيزك نريده الآن على صنع شبكة آمنة جدا، لا يستطيع بشرٌ الشك فيها أو اختراق قواعد بياناتها بأي صورة كانت، تؤمّن خلال هذه الشبكة مواقع سرية لي ولك ولنجلاء، كل موقع منفصل عن الآخر، وكل واحد منا مسؤول عن سرية معلوماته، بحيث لو انكشف أمره، لا يُنفذ من خلاله إلى المواقع الأخرى، هل يمكنك هذا؟

ـ هذا الأمر بسيط، لكن ماذا يتضمن هذا الموقع؟

ـ سيتضمن حسابات بنكية تنشئها بأسماء وهمية في مصارف عالمية تستطيع اختراقها، بحيث تنقل المال عبر هذه الحسابات في أي وقت تشاء، وتجزؤه كما تشاء.

ـ هذا صعبٌ جدا.

ـ ألا تستطيع القيام به؟

ـ بلى، لكنه خطرٌ، ويحتاج إلى دقة متناهية.

ـ ولمَ اخترناك في نظرك؟

ـ المصارف هي عصب الاقتصاد العالمي، وأي مساس بها تُجند لاكتشافه كل الطاقات والحيل.

ـ نريد أن تدخل إلى قواعد بيانات هذه المصارف، وتفهم سيرورة العمل المصرفي فيها؛ حتى تتقن الطرق التي لا يمكن أن تلفت انتباه العاملين فيها، والمراقبين لها. خصوصا في دول

العالم الثالث، التي لا تملك التقانات الدقيقة في الكشف المبكر لأي خرق.

ـ سأرى ما يمكنني فعله.

التفتت نجلاء، لتبدأ شرح ما تريده:

ـ أريد أن يتضمن موقعي برنامجا يقوم بتشغيل كاميرا الطرف الآخر دون أن يحس بعملها، وتسجيل كل حركاته أثناء تجوله في الموقع، وحفظها ضمن قواعد البيانات، لأن عملي يقتضي تجنيد فتيات لمهام خاصة يؤدينها، دون أن يعلمن بما يؤدينه. وكذلك أريد مراقبة الفروع التي سننشئها في أكثر من مدينة، بزرع برمجيات تجسسيه في الحواسيب التي نوزعها على العاملات أو العميلات اللائي نتعامل معهن، أريد أن يرسل الموقع ملفاته التجسسية دون أن تكتشف، ودون أن يشعر المستهدف أنه تحت سيطرتنا، حتى نضمن انصياعه لما نريد، دون أن يكون مصدر تهديد لنا، ودون أن تكون له فرصة ولو ضئيلة أن يصبح مصدر توجس.

ـ هذا أيضا يحتاج إلى المزيد من الوقت، لكن بما أنني أصبحت شريكا أريد تفصيلات أكثر عن عملك يا شيخ عثمان، وكذلك أنت يانجلاء.

ـ عملي هو توفير مصادر دخل آمنة للجماعة التي أعمل على تمويلها بأية طريقة.

ـ ما مهام هذه الجماعة؟

ـ إعادة هيبة هذه الأمة المسلوبة، ونصرة الإسلام والمسلمين.

ـ وأنت يا أستاذة نجلاء؟

ـ أنا كذلك أعمل وعملنا جماعي، لكن الشيخ عثمان مع الشباب، وعملي مع الفتيات، ولكل طرف من هؤلاء طريقة في التعامل. الفتاة تحتاج إلى عاطفة، وكيان خاص بها يلبي رغباتها المادية، أما الشاب فيحتاج إلى تحقيق بعض مطامحه، وتفجير طاقاته الكامنة.

ـ إذن فأهدافكم سامية يا شيخ.

ـ نعم هي كذلك، وملخص الموضوع يا أخي، أن الفتيات يعملن مع نجلاء على توزيع شنط التجميل، التي نخبئ فيها احتياجات الزبائن من المواد الخاصة، فيجنين المال بطريقة شرعية، نصرفها على الشباب المجاهدين، وهذه المخدرات لا تُرسَل إلى أبناء الشعب، بل

نرسلها إلى أبناء وبنات الذوات بطرقنا الخاصة، بعد أن نتأكد من الشخصية، فلدينا فتيات سندربهن على اصطياد المستهدفين، وفتيات ننشئ الحسابات بأسمائهن في جميع مصارف الدنيا، تستطيع أنت التحكم بهذه الحسابات وتحريك الأموال من خلالها، التي نحتاجها في شراء الأسلحة، والإنفاق على المهربين، وحُفّار الأنفاق.

ـ هذا مخطط شيطاني يا شيخ.

ـ يتبسم مزهوّا، وأنت الآن تجلس على عرش الشيطان، ولا خيار أمامك، فكن مطيعا لشيطان يملك من الهدى، ونصرة الدين أكثر مما يملكه العُبّاد الضعفاء المستكينون. كم تحتاج من الوقت لتنفيذ هذه الأعمال؟

ـ شهرين.

ـ هذا الوقت كثير، وأرى أن شهرا واحدا كافٍ لإنجاز المهام. ونحن سنوفّر لك كل ما تحتاج إليه.

تتدخل نجلاء:

ـ جهزت له جناحا كاملا، يحوي كل سبل الراحة، والأجهزة التي يحتاج إليها.

هنا أبديت موافقتي وحماستي للعمل، فتعاهدنا على الإخلاص والسرية، وخرج الشيخ عثمان لأدخل مع نجلاء إلى جناحي الخاص، وغرفة العمليات المكتظة بأرقى أنواع الحواسيب، وتقنيات الاتصال، والبرمجيات بنسخها الأصلية، فتريني غرفة نومي، وزر نداء الخادمة، وقد هيأت لي أصناف الملابس الجديدة التي أحتاجها في خزانة الملابس، شعرتُ بأهميتي حقا، وبدقتها في العناية بالتفاصيل، وكأنها تدرُسُني من سنين.

تأكدت من عمل الأجهزة، وقوة الاتصال وسرعته، فأنجزت مهمة تقنيع اتصالي وخفائه وشدة مراوغته للخصوم، ففي الثانية الواحدة يرتدي أكثر من خمسة أقنعة مضللة، وأمنت شبكتي بجدران فولاذية نارية عاتية، ثم جربت اختراق بعض المواقع التي يظنها أصحابها حصينة، ببرامج خاصة أصنعها لهذا الغرض، مذ كنت أخترق أجهزة الفتيات لأكتشف زيف بعضهن وهي تحادثني وتحادث آخر في نفس اللحظة. ثم دخلت للنوم مع أذان الفجر، والمدهش بل المخجل أني صحوت وأنا في حضن نجلاء، لا أدري ما الذي أتى بها إلى

غرفتي، فمن فرط خجلي منها ومن ذاتي، حاولت التسلل من الغرفة إلى غرفة العمليات دون أن تشعر بي، ولم تصحُ إلا متأخرة، لتدخل عليّ محمرة مبتسمة، تبرر خوفها من كوابيس فضيعة أقضت مضجعها، فلم تجد الأمن إلا في سريري.

سارت الأمور كما خططنا لها جميعا، فكنت أحقق تقدماتي، ونجلاء تطبق خططها بجواري، وقد جنّدت فتيات شاليه أبحر القديم، لتصطاد من خلالهن من تريد، ذُهلتُ حقا من الأسماء التي تحويها قواعد البيانات، وهي تتهاوى في أكف الفتيات كأوراق الحماط في الخريف، وذهلت أكثر من هشاشة المُثل التي يتبناها الكثيرون من أولئك المشاهير، لكن المفزع أن تكون أنظمة المصارف أكثر هشاشة من بسكويت الويفر، يسهل اختراقها والتجول فيها، والتلاعب في حسابات المستثمرين كيفما أشاء.

أرصدة يشيب لها رأس الرضيع في حسابات أطفال، وفتيات، وإنفاق محموم على بهرجات أوروبا من تلك الحسابات، لا أصدق حقا أنني كنت أعيش الشهر كله بمبلغ ألف وخمسمئة ريال، أدفع منه كراء البيت وآكل وأشرب وألبس وأشحن جوالي وجهاز الكونكت. وطفلٌ ينفق أكثر من عشرة آلاف دولار على اللعب مرة واحدة في ملاهٍ في باريس. فما بالك بالفتيات والشباب، وكبار الشخصيات.

كانت نجلاء تهيء لي كل سبل الراحة التي يتمناها شاب انفرط عقد تقاه، يرى وجهه قطعة ظلام، فلن تضره الكتابة بالفحم على جبينه. تجنبت حنين التي لا تنقطع رسائلها عني كل يوم، تجنبتها حبا لها، فتاة نقية عفيفة، لا أريد أن أغرقها في سوادي وقبحي، فقط طمأنتها أني بخير، وحاولت أن أصرفها عني، فأخبرتها أنني سأسجن لعجزي عن دفع بعض ديوني، صدقتني المسكينة لكنها لم تكف عن عادة رسالة الصباح يوميا، لأنني كنت أحب تلك الرسالة، فبرمجتها على وضعي الجديد، الذي لا يسمح لي باستخدام الجوال للرسائل من داخل السجن إلا يوم الجمعة لمدة ساعة فقط. تفرّغ نفسها لتلك الساعة من كل أسبوع تراسلني خلالها وأرد عليها بالرسائل فقط، لا أجرؤ يا يحيى على سماع صوتها.

بعد أن هيأت لهم كل شيء، جاءني الشيخ عثمان، وأسهب في شرح النواحي الأمنية ثم أشار بضرورة مغادرة جناحي الملكي في فيلا نجلاء، وأن تبيع الفيلا أو تتصرف فيها،

وتتخلص من خدمها، وتبحث عن مسكن جديد في الطائف، أما أنا فأرشدني إلى السفر إلى جازان، لقربها من المناطق الآمنة في حالة الطوارئ إن أردت الهرب بأسرارنا، وافقت نجلاء على مضض، وهي تقول في وداعي، أنني عيّشتُها أجمل لحظات حياتها، لم أأسف على فراقها لفرط مللي منها، فتوجهت إلى جازان، لأجد الشيخ قد هيأ لي بطريقته هذا المسكن الكئيب، لكنه يقع ضمن منطقة نفوذه الأمني، الذي لا يقدر أحدٌ على اختراقه مادام الشخص الذي يعتمد عليه يتبوأ مكانته هنا، فكان أمن هذا المكان الرديء معادلا لرفاهية جناحي السابق في فيلا نجلاء. وأول عمل في هذا المكان كان انتقامي من زهير أتناوي، فقد نسفت كامل رصيده البنكي.

ـ لو سمعت نصف هذا السواد من غيرك، فلن أصدّق أنك تعيش هذه المآسي، يا صاحبي تأكد أنك تسير في الاتجاه الخطأ، الذي لا يليق بـ د. أيمن ضاوي.

ـ لكن حياة الظلم والذل لاقت بصاحبك.

ـ لم يجتهد في رفع الظلم عن نفسه.

ـ بلى وربك، لم أترك جهة إلا واشتكيت عليها، لكنهم يقولون كل ادعاءاتك باطلة في ظل غياب الدليل المادي، أو شهود العيان.

ـ هل شكوتهم إلى مدير الجامعة؟

ـ نعم، ولم أجد منه استجابة إلا استجابة روتينية جوفاء.

ـ وديوان المظالم؟

ـ كل الجهات التي أذهب إليها تطلب مني إثباتاتٍ وأنى لمثلي تلك الإثباتات، لا أملكها، حتى تظلّمي ضد إدارة مكافحة المخدرات، باء الفشل، فقد طالبت بفحص دمي الخالي من هذه المادة المخدرة، لكنهم اكتفوا بالحيازة أيا كانت النية. كذلك طالبت برفع البصمات عن سيارتي لربما وضعت بفعل فاعل بداخلها، لكنهم لم يجدوا إلا أيدي أفراد الأمن، وأشك بأن أحدهما مُرسَلٌ من أتناوي، فوضع المادة المخدرة في سيارتي.

ـ هل اتصل بك د. زهير بعدها، أو ابنته عبير؟

ـ كلا لم يتصلوا بي أبدا، وهذا جعلني أشك؛ بل أجزم بضلوعهما في الأمر.

ـ يا أيمن، ليتك تطيعني وتقلع عمّا أنت عليه الآن، اجلس مع نفسك جلسة الصادق الأمين، بربك ماذا تجني من دماء الناس، فو الله لو أعطوك مليونا كل ساعة، لهو أنجس مالٍ جنيته في حياتك، لو عملت سائق أجرة، يعمل بشرف لكنت أعلى وأغلى في نظري مما أنت عليه، كيف تعمل مع خفافيش الظلام العابثين بأمن وطنك؟

ـ أنا لا أعمل معهم في عملياتهم الإرهابية ضد المسلمين، الفرقة التي أعمل معها فرقة مختصة بقتل الكفرة والمشركين والمارقين، وكل عملي إلكتروني يتلخص في اختراق الأنظمة المصرفية أيا كانت، وتحويل الأموال منها إلى حسابات خاصة، لا يشك المصرف ولا يحس باختفائها من حساباته الاحتياطية إلا مع كل ربع من العام، عند اقتراب التدقيق في الاحتياطات المالية أقوم بتغطية النقص فيها من خلال حسابات العملاء الخاملة حتى تنتهي الحسابات الربع سنوية، فأعيده.

ـ وكيف تحصل على الإنترنت الآمن؟

ـ لا تسأل عن أموري التقنية السرية.

ـ بربك كيف؟

ـ أرأيت جهاز الصرف الآلي بجوار المسجد؟

ـ نعم رأيته.

ـ هو مصدري الحيوي الذي يزودني بأسرع إنترنت عرفته، وعمليتي لا تستغرق أكثر من خمس عشرة ثانية كي أتمها إذا بدأت.

ـ أصدقني القول يا أيمن، أتعمل معهم برضا وراحة ضمير؟

ـ أقسم لك لست راضٍ عن أعمالي، لكن مجتمعي همّشني، ورآني ذلك البدوي الذي لا يستحق أن يحيا حياة السعداء العالِمين، احتقروني حتى احتقرتُ ذاتي، وأقصوني حتى شعرت بأنني ميتٌ في أعماقي، لا نفع مني، ولعلك تذكر مشكلتي مع د. رياض الذي تلاعب في درجاتي وكاد أن يخسف بمعدلي، كي يقدّم طالبا آخرَ عليّ في التخرج، لكنني لم أسكت له حتى أخذت حقي منه.

ـ يا أخي كلنا نتعرض لتلك الأحداث في دراستنا، وفي حياتنا، لكن يجب أن نكون أقوى

عند الشدائد والعقبات، وأنت رجلٌ مثابر قوي العزيمة، حاد الذكاء، وقد استطعت أخذ حقك من د. رياض وأنت طالب، فكيف الحال وأنت طبيب، لأنك واجهت الظلم وطرقت كل الأبواب التي تعيد إليك حقك المسلوب، ولأنك على حق واجهت بشجاعة وقوة، فنلت، لكن أن تضعف وتستكين أو تفكر بالانتقام فقط، فهذا لا يقول به عاقل.

ـ بل رجل بدوي فقير.

ـ لا تقل هذا، ولا تضخم عقدة النقص في ذاتك.

ـ أنت طيّب وعلى نيّاتك، ألا تدري أن مجتمعنا مقسمٌ إلى طبقات؟ طبقات عرقية واقتصادية ولونية؟. نحن البدو الفقراء أدناها، لا يجب أن نتميّز عن أولئك المتنفذين، الذين ملؤوا الوزارات والجامعات يحجزون الكراسي لبعضهم البعض، ويتبعون سياسة الامتصاص وملء الأطباق، لا نجد بعدهم إلا الفتات المتناثر من أطباقهم المتخمة بكل شيء وليته يغني أو يسمن من تغيير، وحتى الفتات لم يسلم من امتصاصاتهم. نجحوا في كبح تفكيرنا، وتحجيم قدراتنا و طموحاتنا، فالجنون أن يكون طموحك يفوق الوظائف الشعبية العادية، التي بالكاد تجدها، والموت أسرع إليك من ارتقاء درجات سلّمها.

ـ هل تقدمت بمشروعك لاستخراج براءة اختراع.؟

ـ وهل أجرؤ على وضعه بين أيديهم؟ هذا المشروع يا يحيى مغرٍ جدا، هو حلمي الذي لن أتنازل عنه ما حييت، ألا ترى من علِموه يتهافتون عليه، لكنني لا أخشاهم؛ لأنني أمتلك برمجته المعقدة، ولن يستطيع بشرٌ أن يصنعه كما أتخيله دون الرجوع لي.

ـ ألم تفكر في الدخول بمشروعك على الوزير مباشرة؟

ـ وهل من السهل الدخول إلى مكتب معاليه؟ ذهبت مرتين وبالكاد أصل مكتب مدير مكتبه، وكلتا المرتين تكون الإجابة بسفر معاليه إلى مؤتمر، أو حضور جلسة مجلس الوزراء، فأعود خاوي الوفاض.

ـ لمَ لا ترسل برقيّة إلى الملك شخصيا؟

يصمت أيمن، ويطرق، وكأنني قد أشعلت شمعة في أعماقه، ألمح في عينيه امتنانا لم أره مذ لقيته اليوم، يرفع رأسه إليّ:

ـ هذه الفكرة لم تخطر لي على بال، أتذكر أنني أبرقت برقية للديوان الملكي لطلب منحة أرض، وبعد الاستفسار عن مآل البرقية، قالوا أنها حُفظت، مع أن بعض زملائي حصلوا عليها.

ـ وما علاقة هذا بالمشروع؟

ـ ربما كانت عائقا عميقا في اللاشعور، أدى إلى عزوفي عن فكرة البرقية، لكن سأجرب هذا الحل.

ـ لا تتردد، جربه، وأن استطعت الوصول إلى الملك أجزم بأنك ستجد حلا شمسيا لمأساتك ومشروعك.

ـ لا تكن أفلاطونيا، وتظن الدخول على أعلى شخصية في البلاد سهلة، دخولي على مدير المستشفى يحتاج حجزا وانتظارا، رغم أنه ينشغل بالمهاتفات أو قراءة الصحف، أو تصفح الإنترنت، فكيف بوزير، وكيف بالملك؟

ـ لا تدع تصرفات هؤلاء المثبطين تنشر رانها على قلبك، وتلقي بك في أتون التعميمية العمياء، الكل يعلم اهتمام الملك بالعلم والمتعلمين، كافح بكل الطرق للوصول إليه، وشرح مشكلتك، أقسم لك أني متفائل بالخير إن بلغته.

ـ أراها فكرة صائبة، لكنها تحتاج إلى جهود مكثفة، وصبر وعزيمة على مماطلة الموظفين.

اغتنمت لحظة التنوير التي أراها تتجلى في عيني أيمن، أحسست باشتعال عقله، ودوران تفكيره في فرصته الأخيرة لإثبات ذاته. فسألته:

ـ أتترك هذا العقل المشرق يعمل سارقا للظلامين الإرهابيين؟

ـ إن لم يطعك زمانك، أطعه.

ـ حكمتك فاشلة جدا، بل (إن لم يطعك زمنك، أرغمه على إطاعتك).

ـ وكيف للأشرم أن ينفخ بالونة.

ـ يرتق شرمه، فيجده قادرا على نفخ القرب. عد إلى رشدك يا أيمن، ليتك تعلم أين تذهب تلك الأموال التي تسرقها من البنوك وحسابات الموسرين، وتودعها في حسابات عصابات الإجرام والقتل والظلام، لا يستخدمونها إلا في قتل المسلمين المستضعفين، تأمل كل أعمالهم

الإرهابية، تجدها في مجمّعات شعبية، أو أسواق خضار، أو حافلة نقل عامة، أو مسجد أو حسينية، أو مطعم مكتظ بالفقراء الجائعين، فما الرسالة التي يرسلها الضالون بدماء الضعفاء والمغلوبين على حياتهم، هل يظنون أنهم سيرتقون إلى السلطة بهذه الأفعال، أو أن الشعوب سترهَبُهُم وتمنحهم قيادها لأنهم أجرأ على القتل؟. أفِقْ من سباتك يا أيمن، أصحُ يا أخي وصديقي الفذ، واعرف من تكون. أنت عبقري يجب أن يبني الوطن، لا يساهم في هدمه. أولئك الذين هدموا مستقبلك بحفنة من حبوب الكبتاجون، هل تساعدهم في هدم آلاف الشباب المغرر بهم؟

ـ وإذا كان مدّعو الأفضلية والتفاني في خدمة الوطن يعبثون بمقدراته وشعبه، ثمّ أولئك الذين وصفتهم بالموسرين، من أين لهم كل هذا اليسر ونحن تحت أحذية العسر؟

ـ أرزاقهم المقسومة، فليس من الحكمة أن نكون جميعا أغنياء.

ـ هي أموالنا التي ينتهبونها ليلا ونهارا، عرقي وعرقك، واستعبادهم أعناق احتياجنا، هي أموال ربوية، أو نهب مشاريع المال العام. وأصدقك القول أن المشايخ أباحوا لنا كل السبل التي نستطيع بها نصر هذه الأمة وإخراجها من حلك الدجى.

ـ من مشايخك هؤلاء؟

ـ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وباعوا الدنيا بالآخرة.

ـ أيبيحون لكم أموالنا ودماءنا من أجل مطامعهم السياسية؟

ـ ليست مطامع سياسية يا يحيى، بل أن تعود هذه الأمة إلى مكانها الخاوي الذي ينتظرها في الأعلى.

ـ بعد أن تدمروا كل عرق حياة ينبض فيها؟

ـ وهل ترك العابثون فيها عرق حياة بفسادهم، ونهبهم للأموال والثمرات؟

ـ هل تظن الله سيتركهم يعبثون؟

ـ نعم لقد تركهم يعيثون فينا فسادا ونهبا وإجراما، ونحن لا نملك الدلائل، أصواتنا حافية، تدميها أشواك بلوغ المشتكى، وذواتنا البسيطة عارية من الحناجر.

ـ أرجوك يا أيمن كفّ عن هذا التفكير السخيف جدا، لم أعهده فيك والله، لا أخفيك أن

الأمة ترزح تحت وطآت كثيرة جعلتها تتخلف، لكن ثمة سبل كثيرة نستطيع من خلالها النهوض بأمتنا، لستُ بارعا في الجدال ومقارعتك بالحجة، حتى أرد على شبهك التي تتوافز تترى، لكن مجرد إعمال بعض العقل الإنساني فيها؛ يقوّض دعائمها ويجعلها دكّاء. هيا يا أيمن، نبحث عن منابت الضوء، نسقيها بعقولنا، نرعاها بإسلامنا المعتدل، ننير بها العالمين، هيا نبني سلما عاليا من صوتي وصوتك وأصوات العقلاء، نركّبها في بعضها البعض حتى تبلغ عنان السماء.

ـ أندعو عليهم كما يفعل الضعفاء على المنابر؟

ـ كلا، بل نفضحهم، نكوّن مؤسساتنا التي تعنى بإيصال أصواتنا حيث نشاء في اتزانية وعقلانية تحمينا وتبني أوطاننا. نبحث عن القلوب الصادقة النقية، ونؤلّفها على قلب رجل واحد، لا يحمل سلاحا، ولا يبذر فكرا هدّاما.

ـ مؤسساتنا تخترق بورقة صغيرة، وتقوّض دعائمها، فتهوي طوبة ضخمة ترضخ لسان صوتنا الضعيف.

ـ عندما نعمل معا، فنظهر الحقائق، لن تصرف الدنيا أسماعها عن صدانا الصادق، أما أن نرد على الخطأ بأفدح منه كما تفعل الآن فهذا هو الظلام الحالك.

ـ إن تركت هذا العمل الذي تصفه بالانتقامي الضال، فهل سيعطيني وطني عملا يحييني حياة كريمة؟

ـ نعم، ستجد العمل الذي تريده، تخصصك نادر يا أيمن، ودقيق جدا، والبلد لا تستغني عن مثل تخصصك، جرّب تقديم أوراقك على كل الهيئات الصحية في بلادنا، فإن لم تجد فجرّب في دول الخليج.

ـ كل دولنا الإسلامية مختطفة بأيد سوداء بغيضة، تعطي الذهب للآخرين، وترذ في أعيننا رماد التجاهل وملح الجحود، لا تلتفت إلينا إلا وقت احتياجها لنا، تتبدل نبرة المسؤولين، وتكثر الوعود والهبات، إذا همّهم هامّ، أو ألمّت بهم إحنة، أو اصطلوا نار محنة، يهيمون في ملذاتهم، حتى يُمَسَّ أمنهم، فتفتديهم الشعوب بأرواح شبابها، حتى إذا أمنوا، لم يتذكروا تلك الأرواح، ولا من أنجبها وربّاها على حب الإسلام والأوطان.

ـ لا تكن متأثرا بتفكير أولئك المارقين.

ـ ليس تأثرا يا يحيى، بل هي الحقائق المرة.

ـ تفاءلوا بالخير تجدوه.

ـ تفاءلتُ كثيرا، ولم يقتلني إلا تفاؤلي وطيبتي، ها أنا طريد في بلدي، سُلِبتُ كل شيء.

ـ بلدك لم تخطئ في حقك يا أيمن، بل أنت من أخطأ.

ـ صدقتْ، ثقتي بتلك المجرمة وأبيها هي التي أردتني، لكن بلدي لم تستمع إليّ، وقفت معهم ضدي.

ـ أنت الآن على بر الأمان، فأعلن التوبة وأقلع عمّا تقوم به، واصعد إلى الرجل الأبيض.

ـ ليس قبل أن أدق ناقوس التفكير الصائب في عقول منظّرينا، والمتبجحين بدراساتهم المهترئة عن منابع الإرهاب في بلادنا، التي حصروها في اللحية ودور التحفيظ، أريدهم أن يعوا أن الظلم أقوى منابع الإرهاب، وأن هضم الحقوق أكبر أنهار التنكر للوطن، هل رأيت سخفهم في فرض مادة تعلم أبناءنا حب الوطن؟!، بالله عليك متى كان حب الأوطان نظريا، الوطن فكرة عظيمة، ليس للقول في هذه الفكرة إلا أزهد نصيب، الوطن حب يعتمل في الصدور، تترجمه الجوارح إلى أفعال، لا أقوال. لا شيء يخفى اليوم في بلادنا، والتمايز بيننا ونحن أبناء بقعة واحدة، فبربك كيف يدعوك أبوك لحبه، وهو يفضل أخاك، يمنحه كل شيء ويلجمك بالفتات، ويمُنّه عليك؟!. وتأمل ما قلته ذات بكاء:

أبي وجدتكَ قاسيا
والحبُّ من رئتيكَ ماتْ

والماءُ غارَ ولا فراتَ
يغيثُ أسئلةِ النباتْ

إنّي أبيتُ على الطّوى
والخيرُ ملءَ يديكَ باتْ

أهتزُّ فوقَ يدِ الظنونِ
وأنثني نحو الثباتْ

وأراكَ في لججِ النعيمِ
على الموائدِ والفراتْ

حقي لديكَ مؤجلٌ
ولإخوتي كلُّ الهباتْ

وتلومُ إنْ ألفيتني
بين المخدرِ والبناتْ

وتسيلُ نُصْحاً تستفيقُ
على شتائمِهِ العِظاتْ

فتقولُ للدنيا خُذيْهِ
ووزّعيهِ على الرواة

لم تغنِ عندكَ حيلتي
لو في مبالغةِ الصلاة

وتقول شعرا يا أيمن، مؤثرة جدا، ولا أخالك كتبتها إلى أبيك العم ضاوي فقط. هل لديك أشعار أخرى؟

ـ كلا هذه الوحيدة التي كتبتها بالفصحى، كل أشعاري أكتبها بالشعر النبطي. لكن ليس مناسبا أن أسمعك منها الآن، أنا مرهق يا يحيى، متعب والله جدا، أعلم أنني أسير في

الطريق الخطأ، وأعلمُ أن ما أقوم به هراء لا يمت للدين بصلة، لا يعدو تنفيس عن مكبوتاتي ومكبوتات من أعمل معهم، فربما تعرضوا لمواقف مؤلمة مثلي، برّرَتْ لهم القيام بما يقومون به، أتاحت لهم امتطاء أية وسيلة لبلوغ غاية الانتقام ممن أجرم في حقهم، أعلم في قرارة نفسي أنني عربيد أكثر من كوني مجاهد، وأعلم أنني أجاهد لغاية ليست تلك التي أحاول أقناع الآخرين بها، أنا أسامر النساء وأعاقر الخمر، وأدير شبكة بيع مخدرات، وأنهب المال من حسابات الناس وأعمل مع من يزهقون أرواح الأبرياء وقليل من غير الأبرياء، لكنني أجد راحة عظيمة فيما أقوم به، أجدني قد أخذت بعض حقوقي المسلوبة، لا تظنني غريرا يا يحيى، لكن رسالتي التي أريد إيصالها أن يدرك المسؤول المتسلط على رقاب الناس، أن المسؤولية ثابتة والمسؤول متغير، والمنصب مشلح أبيض ناصع، يجب أن يسلّمه إلى خَلَفِه بذات اللمعان الحقيقي والنظافة من دنس الظلم والمحسوبيات، وأن يعلم علم اليقين، أنه يهدم الوطن برعونة أفعاله، فإن جرح روحا فسيكون هذا الجرح مميتا لها، وإن لم يُمِتْها فستجرح مَن يتبجح المسؤولُ بالتفاني في خدمته زورا، ومن سيُجرح غير الوطن؟. جلّ من أعرفهم من الشباب الجامح في غي المخدرات والفساد والإرهاب، ليسوا إلا صنائع هذه الجروح ممن لا يدركون فضاعة قراراتهم الغبية، فليتهم يدركون دور الواسطة ـ التي يبحث لها البعض عن سند شرعي، حتى ألبسوها القربى الدينية بمصطلح (شفاعة) ـ في صناعة الإجرام لأدركت أنها أم الإجرام، فكيف بنهب الأموال، وهضم الحقوق، وتفضيل أناس على آخرين. دعني أفكر في هذا، ربما أنجز عمليتين مهمتين، وأجمع مبلغا يمكنني من السفر خارج المملكة.

ـ هل تضمن ألا يفتضح أمرك غدا؟

ـ العلم لله.

ـ ليس غيبا هذا يا أيمن، أنت تسير في طريق الهاوية السحيقة المدمرة، وإن قُبض عليك ستعدم ربما.

ـ قل خيرا يا رجل.

ـ الخير ما أقول. ربما العمليتان اللتان تزمع أنجازهما تكونان نهايتك، أو تكونان سبب

هلاك الكثير من أبناء وطنك، أو أشقائنا في الأوطان العربية والإسلامية، أو إخواننا في الإنسانية.

ـ ليحدث ما يشاء الله، لا يهمني ما سيحدث. ما رأيك لو حوّلت المبلغ الليلة إلى حسابك يا يحيى وتقاسمناه؟

ـ كلا، إلا هذا يا أيمن، والله لا أقبل به.

ـ دعابة فقط، أيها الرجل الخوّاف الذروق.

ـ عدني أن تترك هذا الظلام من اليوم؟

ـ لا أستطيع وعدك بشيء، لكنني ـ حقا ـ أفكر في الدخول على الملك.

ـ هذا التفكير الصائب، وأنا سأرافقك، هل تتذكر عهده للأمة، وكلماته البيضاء التي تجعل كل قلب شريف يهب إلى مؤازرة خططه ومشاريعه الجبارة؟، هل ترى اهتمامه بالتعليم وابتعاث أبناء الوطن إلى أرقى الجامعات العالمية، وبناء المدن الصناعية، وزيادة الجامعات الوطنية أضعاف ما كانت عليه؟ ألا يشجعك هذا على وضع يدك في كف النور، بدلا من تدنيسها في مخالب الظلام؟

يطرِق أيمن، تحتشد في رأسي أحاديث الجمل عن النور والظلام، أشعر بنشوة وأنا أؤثر فيه، أقرأ في عينيه دمعة متكلسة، جففتها قسوة الحياة، وحجّرها اليأس والقنوط، داخل هذا الرجل أنصع بياضا من جليد أنتراكتيكا، لكنه يتخبط في ظلام القهر الأعمى، وقد غلفوه بالشمع الأسود، أرى مهمتي إذابة هذا الشمع، والوصول إلى عمق بياض أيمن، فأحفزه على مرافقتي إلى جدة، دون بحث المخاطر الذي تتربص به من أرباب الظلام، ودون الالتفات إلى مثبطات همته:

ـ هيا يا أيمن، يدي ممدودة يا صديقي، سترافقني الآن في هذه اللحظة إلى حيث يجب أن تكون.

ـ كلا، لن أطيعك في هذا. أنا أنتظر ردا من جامعة ألمانية أرسلت إليها مشروعي العلمي عن طريق صديق لي عرفته خلال الإنترنت.

ـ كيف تثق به وأنت لا تعرفه شخصيا، أين حذرك الأول؟

ـ أولئك القوم ليسوا مثل قومنا يا يحيى، هم أوفياء صادقون عمليون، لا يتعدون على ملكيات الآخرين الفردية، بل يحترمونها ويقدسونها.

ـ أستغرب هذا التناقض فيك يا أيمن.

ـ أي تناقض؟

ـ قبل قليل تؤيد عمل الذين عملت معهم في قتل الكفرة والمشركين، والآن تمتدح أخلاقهم وصدقهم.

ـ آه يا يحيى، الواقع المر جعلني لا أعرف الصديق من العدو، وربك حتى أنا لا أعرفني، حينا تجدني ملتحٍ، لا أبارح المسجد، وحينا أحلق لحيتي، وحينا أتوغل في الحياة حتى أكفر بي وبكل شيء، حينا أدخن، وحينا أراه مضرا، لم أترك أمرا محرما إلا أتيته، ولم أدع باب تقىً إلا طرقته.

ـ لا ألومك يا أخي، مررت بظروف نفسية عصيبة، ليتني كنت معك ساعتها.

ـ أنت وفيٌّ يا يحيى، وأقسم لك، لولا المسافة التي قطعتها من أجلي، وحرصك رغم تعنتي، لما أقلعت عن هذه المهنة الخطرة، لأنني أرى الحياة لا تساوي شيئا، وحتى لو قُبض علي وسُجنت أو أُعدمت، فلن أبالي بأي مصير.

ـ هل انتهينا الآن من هذا يا أيمن؟، يجب أن نغادر الآن هذا المكان، لا ندري ماذا تخبئ سجف الظلام في هذه اللحظة، لن ينفعك الندم إن أشرقت شمس حجة الوطن، الوطن الذي أمدك بالعلم من سن السادسة، حتى تخرجت طبيبا، دون أن تدفع قِرشا واحدا، بل كان يعطيك مصروفاتك الشخصية، بناك لتكون بانيا، ليستطيع بناء بناة الغد من خلالك.

ـ نعم، لن أعود إلى براثن الرذيلة الدموية المقيتة، ولا في عفونة المخدرات، ولن يستعبدوا ذكائي بأموالهم العفنة. أنا لم أسمح لأستاذي باستغلال دماغي، فإذا بي ألقي به في هذه الأكف المتسخة؟! عجبا والله، كيف نوّمت الظروف ضميري، ودحرت جبروت عقلي الذي لا يؤمن حتى بالمسلّمات، لأكون مطية مطيعة لهم. أتعلم ما المؤلم في الأمر يا يحيى؟

ـ ماذا؟

ـ إذا كان عميد كلية فقط، استطاع أن يفعل كل هذا بي، فما بالك بأعظم من عميد كلية؟

وإذا كان المظلوم طبيب، تخصصه نادرٌ ومهم، فما بالك بإنسان عادي، لا يملك إلا هذه الوظيفة؟! لا أتخيل ما وراء هذين السؤالين من آلام ودموع ثجاجة، وحقوق تُنتهب بالقوة، وأفواه تكمم تحت سطوة النفوذ والغلبة.

ـ أوافقك، فنحن في الظلام حقا، ظلامٌ صنعته أيدينا، عصفتْ بنا أفكار العالم، لتتهاوى مبادؤنا ومثُلُنا العليا تحت سطوة الرأسمالية، وقيمتك التي يحددها حسابك البنكي، ألا توافقني أن من أكبر عورات الثقافة الحديثة ما يطلقون عليها بطاقات التميز؟ عندما يأتي أحدهم، وأقدامنا قد تفطرت في طابور البنك، فيتقدمنا جميعا بهذه البطاقة. تبا للطبقيات التي نصنعها.

ـ أوافقك يا يحيى.

ـ أرجوك هيا بنا، أقسم أن الخوف يعصف بروحي مذ دخلتُ هذا المكان، فما بالك وقد سمعتُ منك كلما سمعت، يجب أن نسير الآن يا أيمن، السيارة معي، ولديّ ما يكفيني ويكفيك من المال، وأنا أتكفّل بكل شيء، هيا يا صاحبي.

ـ أعدك أن ألحق بك قريبا.

ـ كلا يا أيمن، لن أخرج من هنا إلا برفقتك.

ـ يا يحيى، لا تظن الأمر بهذه السهولة، لا تظن خروجي من عالمهم أني أترك هذا المكان وأخرج فحسب. أنا أنجز لهم عصب استمراريتهم، أعطيهم الملايين، فكيف إن اختفت هذه الملايين فجأة؟ وتعطلت كل مخططاتهم؟

ـ يا صديقي، ليس الخطأ أن نخطئ بالأساس، بل الخطأ أن نستمر مخطئين، لن يستطيعوا المساس بك أبدا.

ـ هل تضمنهم؟. أنت لا تعرفهم، لا تدرك أخطبوطيتهم، ألم أخبرك بالخيارين اللذين قالتهما نجلاء والشيخ عثمان، العمل أو الموت، الموت يا يحيى، لا حل وسط.

ـ إلجأ إلى وزارة الداخلية واكشف كل المخططات، فتكون قد كفّرت عن خطئك، وأرحت ضميرك، وأمنت شرهم.

ـ وأعيش ما تبقى من حياتي في غياهب السجن؟

ـ حقيقة لا أدري ما أقول، أجرمت كثيرا يا أيمن، لكن لا أظن الوزارة ستتجاهل تعاونك في كشف المصائب الآتية.

ـ لا أستطيع يا يحيى، مجرد التفكير في هذا الأمر، يجعلني أرتعد.

ـ سأضعك أمام خيارين يا أيمن، إما أن ترافقني، وإما سأكشف الأمر أنا.

ـ أتخون المواثيق والصداقة؟

ـ تغليب المصالح مقدمٌ في العقل السوي على العواطف المدمرة. إن لم تطعني، فعين العقل أن أفي لك يا صديقي وأنقذك، وبإنقاذك أنقذ بلادي من الإرهاب والمخدرات.

ينظر إليّ بعين أشد حرارة من شمس الظهيرة، يكاد يذيبني بهما كما يذيب الحداد حديدةً بشعلة غاز الأوكسجين، أحس الكلمات تزدحم في حنجرته ولا تجد منفذا إلا من خلال تعابير وجهه الأسمر المكفهر، كل خلية في وجهه ترمي بشرر، تتحرك قسماته لا إراديا، وترتعد شفاهه، والخوف يسري في أوصالي سريان سمّ الأفعى، فلا أضمن تصرفات هذا الكائن الغريب، الذي أراه للمرة الأولى على هذه الهيئة، تنحبس مفرداتي في جوّه العابس القاتم، أتوق إلى تلمّس مفردة تنقذ الموقف من الانفجار، ربما تعابير الخوف على وجهي، واغروراق عينيّ بدمعي كانت أصدق من كل لغات الدنيا، أصدق من ابتسامة الأم في وجه يحيىها المريض، ملامحي الخائفة الباكية جعلت أيمن ينكسر أمامي، يجرف ليمون دمعي كلس روحه المتراكم، يتضافر دمعه ودمعي في نتق حصاة سدت قناته الدمعية، لينكمش وجهه العابس، تتحدر على سفوحه الجرداء من الإنسانية دمعات غلاظ، يجهش أيمن بالبكاء، ينكب على الأرض، يعلو نشيجه، يتحرر الطفل المقيد في أعماقه، أحرّك يدي بحذر، أكاد ألمس رأسه، لكنني أتراجع خوفا أن يصحو الأسد المكلوم في أعماقه مجددا، فأتركه ينتحب، وأزيز صدره يقتلع جذور روحي، يسحق قلبي المشفق عليه، أتذكر كلمات أمي عن انكسار الرجال، بعدما اكتشف والدي خيانة أعز أصدقائه وشركائه، تلك الأيام التي كانت أسوأ أيامنا وأبي ينطوي في غرفته، لا يخالطنا، ويثور لأتفه سبب، مددتُ يدي مجددا وبالكاد لمست الشعرات العلى من رأس أيمن، فزاد نشيجه وانتحابه، وكأنه الطفل الذي ينتظر لمسة حنان أمه، اقتربت أكثر، ربتُّ على كتفه، وحركت يدي على رأسه، وأنا أهلل وأكبر وأحوقل، وهو يندب حظه، ويدعو على نفسه،

ويعاتب والده ودنياه ومجتمعه، في كلمات بالكاد أفقهها مع بشاعة صوت الباكي المتألم، بالكاد هدأ من نحيبه، لكن نشيجه يقطّع نياط قلبي، أحضرت له الماء، وأسندته للجلوس والشرب، لا يرفع عينيه المجهدتين عن الأرض، أخاله يتجنب النظر إليّ، فآثرت التشاغل عنه بأي شيء كي تهدأ روحه، يتمدد على الفراش فيدخل في نوم عميق قبيل صلاة الفجر، وخيول الخوف تجوب شراييني، ماذا لو كانت هذه اللحظة مصيرية.

طرأت لي فكرة البنج المخدّر، فكرت في شرائه من إحدى الصيدليات، واستغلال نومه وتنويمه بالكامل، لكن احترت في تلك الأجهزة التي تملأ الغرفة، ستكون أدلة مادية على أيمن، تغرقه في ظلمات السجن، وكيف سأستطيع حمل أيمن بمفردي إلى السيارة، وإن سحبته سيرانا أحد العابرين فيشك ويبلغ الأمن، قمت للاختلاء بفكرتي في دورة المياه وتوضأت للصلاة، عدتُ إلى الغرفة لأجدها مضاءة، وأيمن قد شغّل كل الحواسيب الستة، قرأت الموقف قبل أن أنبس ببنت شفه، فنظر إليّ وأنا أرقبه، فابتسم ببراءة طفل منتشٍ وقال بلهجة المنتصر الشجاع:

ـ ليفعلوا ما يريدون، لا أبالي ورب محمد، سأدمر كل الشبكات التي صنعتها، وسأعيد ما أستطيع إعادته من الأرصدة المسروقة، سامحني يا ربي، سامحني على ما فعلت في عماي وضلالي القديم، فابتسمت واقتربت منه ووقفت بجواره ويدي على كتفه، تذهلني سرعته في استخدام الكمبيوتر، فلم يدع شيئا إلا ودمّره ببرامجه الفظيعة، يذكرني بانتشاء أخي سمير في تدمير ألعابه بعدما يمل اللعب بها. يقوم أيمن، يحمل الأجهزة واحدا تلو الآخر إلى أعلى رأسه ثم يلقي بها على الأرض، ليستخرج القرص الصلب من بين الحطام، ويدقه بمطرقة حديدية حتى يتحول إلى قطعة مجهولة المعالم من الأساس، ويجمع أقراصا وأوراقا كثيرة، ويدخل بها إلى الحمام، فيضرم فيها النار وهو يتمتم بكلمات لا أفهم جلّها، يشير إليّ أن أجمع ملابسه، فأجمعها بسرعة في كيس بلاستيكي، ويحمل جهازه الشخصي، نخرج إلى السيارة، وقبيل خروجنا وقف على باب الفناء، بصق بازدراء مر، فلا أخال بصقته اخطأت وجه نجلاء والشيخ عثمان، فنمتطي السيارة دون إحمائها حتى، وسط صيحاته المنتشية، وفرحتي بعودته إلى ما أظنه صوابه.

١٠

" يولد الأطفال باكين،
ندما على تسعة أشهر في الظلام "

* الجمل

- ١٠ -

عيناي تحترقان، أنظر في المرآة فأخال أحدا سكب فيهما شطة (تاباسكو) الحارقة، أخذ منهما الاحمرار كل مأخذ، لا أشعر بالنوم إلا إذا تحسست حرارة عينيّ، أما جسدي فيتوافز نشاطا، العرق يتفصد من كل رأسي ووجهي، فكري يعمل فوق معدل عمله في الاختبارات الدقيقة المعقدة، وسيارتي بالكاد تلامس الإسفلت في طريقي من جازان إلى جدة، يجب أن أستغل فترة انشغال دوريات المرور بالمدارس، والتهافت على محال الفول والتميس للإفطار الصباحي، لأنهب الطريق قبل أن يلاحقنا أنصار الشيخ عثمان، أيمن مايزال في حالة انتشاء عجيبة، انتصر على خوفه، حطّم الأغلال التي فرضتها مأساته عليه، لا أشعر برغبة في النوم والإدرينالين يتدفق جامحا خلال جسدي، رغم تحطيم لوحات قياس المسافات آمال بلوغي جدة ظهرا، همست لي آخرها: (جدة ـ ٦٩٠ كلم)، أشغلت فكري بقسمتها على سرعتي في تلك اللحظة ١٨٠ كلم/ الساعة، ربما الأربع ساعات كافية لنصل جدة قبل الظهر.

تطعن خاصرة اطمئناني لوحةٌ فوسفورية ساطعة (أمامك نقطة تفتيش)، أربكتْ كل حواسي، أخشى أن الشيخ عثمان لم يختر هذه المدينة لإقامة أيمن عبثا، ربما استطاعت أخطبوطية نقوده شراء بعض الذمم، التي يجندها الآن لملاحقة أيمن، وأنا مرافقه الخاص المتلبس بجرم مرافقة مجرم عتيد.

سيف خوفي يبتر حنجرة فيروز (أنا عندي حنين، ما بعرف لمين..)، فنهبتُ أيمن من حضن نشوته بضربة على فخذه، عدّل من جلسته، ربط حزام الأمان، ارتدى شماغه بطريقة توحي باحترامه لذاته. كل مترٍ قبل نقطة التفتيش يرفع معدلات الرعدة الداخلية في روحي، وصعود العجلات على مطبات التفتيش يوهن أفئدة الأمل، صوت مفاتيح سيارتي المجلجل بعد هبوط المطب كرنين الأصفاد، رغم انعدام الازدحام أمام النقطة، أرى حركة لرجال الأمن على الجانب الأيمن من الطريق بقرب سياراتهم، وتوق مكبوح القدرة أن أزيد السرعة، قبل أن يعترض أحدهم طريق عبوري، نقترب أكثر، ألحظ شرطيا ينظر باتجاهنا، تتسارع نبضاتي، لا يكفي أكسجين الدنيا كله لإرضاء شهقة راحة واحدة، حدقتاي متصلبتان على قدمي

الشرطي، كل الأماني التي تجوس خلالي، أن تستطيع عيناي تكبيل ساقيه النحيلتين، فيقتلها بخطوة عجولة، يتبدد أمل العبور وهو يتجه إلى المسار الذي نسلكه، تصفع غبائي فكرة عدم الوقوف، يلكمها عدد نقاط التفتيش على الطريق، يشلّ جريانها عبر جهازي العصبي، ويسحقها جبن سيارتي عن السير في الطرق الصحراوية والوعرة، يتعرّش الاستسلام كرسي عقلي، يذوي الأمل تحت قدمي الجندي الأسمر المنتصب كفزاعة اللصوص، كل حواسه تتهيأ لاستيقاف العابرين على أجنحة الخوف، أجمع كل مهدئات رعدتي، وأستجمع كل رزانتي التي كنت أتصنعها أمام الجمل ربما سرعتنا اللامبررة، وهربنا من الخوف أوقعنا فيما نخشاه، أخشى أن تنزلق قدمي على الدواسة الخطأ، أو تنطفئ السيارة فتذروني الريح في يوم عاصف، قلة الجنود تشي بتدني الخطر من جهة أيمن، لم يعلم الشرطي أنه شحن روحي أمناً، وأوقف مرازب اضطرابي بابتسامة لم أعهدها في رجال الشرطة الذين يستوقفوننا على الكورنيش، أو بجوار ملاهي النورس، أوقف السيارة وكأني على الماء، فينحني الشرطي، يحييني وأنا لا أصدق تلك الابتسامة الوضيئة التي أشرق بها وجهه الأسمر، بودي لو أقبله، يستأذننا في اصطحاب رجل مسنٍ تقطعت به السُبل إلى أول محطة وقود نصادفها، تنبلج أساريري وأبادله الابتسامة بابتسامةٍ ساذجة حقيقية، وأكرم ابتسامته بقبول طلبه بكل سرور ومحبة.

يركب المسن، ثيابه الرثة، وروائح العرق المنبثقة من جسده النحيل، وعصاه المبتذلة الكئيبة، كلها توحي بشقائه في الحياة، تفضح رغبته الدفينة في الموت لو كان يجرؤ، منع الشرطي أيمن من النزول عن المرتبة الأمامية تقديرا للمسن، فانطلقنا غير مصدقين، أدق وصف لحالنا في تلك اللحظة، حال قاتلٍ في (برحة الجفالي) يهوي السيّاف بالسيف على عنقه، فيوقفه وريث الدم، يستخرجه من بين أنياب المنايا ومخالبها، ليولد من جديد، تدفقت دمائي عبر أوردتي بعدما انهارت سدود الخوف والترقب، لكن أطرافي ماتزال تضطرب بزلازل عصبية تتوالى هزّاتها على قدمي ويدي كالحمى النفاضة.

فضول أيمن وقد تلبّسه الأمن أو ربما تذكره لأبيه جعله يلتفت إلى الرجل، يسأله عن حاله، فيجيبه بهدوء مرغم، وصوت غائر في أنفاق التعب، مدّعيا أنه بخير، فيسأله مرة

أخرى عن ظروف حياته، تمنيت لو أنه لم يسأله عندما أجاب بلكنته الجنوبية:

ـ أعيش وحدي، بعد وفاة زوجتي، ولدي الوحيد سافر إلى جدة، لم أعد أقوى على امخدمة مع أصحاب امّزارع، فسكنت في امّحطة.

ـ هل تعمل في المحطة؟

ـ كلا، لكن صاحبها ـ جازاه الله خيرا ـ سمح لي أن أسكن خلفها، فابتنيت لي بيتا خاصا، آكل لقمتي من تمسيح زجاج امسيارات، وبيع امّساويك على امّسافرين.

ـ وابنك، ألا يساعدك؟

ـ ابني بالكاد يعول أولاده، من عمله حارس أمن في أحد بنوك جدة.

ـ ألا تستفيد من الضمان الاجتماعي؟

ـ امضمان أعطاني مساعدة لمدة سنتين، وأوقفوها حتى آتي بكشف طبي، يؤكد عجزي عن العمل.

ـ والجمعية الخيرية ياعم....؟

ـ اسمي مرعي، الجمعية ياولدي مازالوا يدرسون حالتي، كلمت عبده صاحب امّحطة، ووعدني إذا عاد من الرياض يتوسّط لي عندهم.

وصلنا إلى المحطة، خلفها مسكن العم مرعي، شبك حديدي أزرق، كالشبك الذي يضع فيه عمّي سامي شياهه القلائل، شبكٌ يفصّله الحداد من معدن كثير الثقوب يسمونه (البقلاوة)، فتحاته على هيئة معينات، تهبّه الرياح من كل الجهات، غطّاه العم مرعي بشراع بلاستيكي أزرق يزيد حرارة الشمس ضراوة والتهابا، في ركنه الأيمن سرير من الحديد وفراش مطوي على نهاية السرير، مغلف بأكياس الشعير البلاستيكية، تقي الفراش الغبار، وألسنة شمس تهامة الملتهبة، ليست بعيدة عنه حاويات القمامة، التي يتناوب عليها عمّال المطعم والبوفيه والعجلاتي، ويلقون فيها كل شيء، ولا أخال عمال البلدية يأبهون بالمراقبين ـ إن كان ثمة مراقبون في الأصل ـ لأن الحاويات تختبئ خلف مبنى المحطة الضخم، كما اختبأ نفاية المجتمع (العم مرعي).

أنزلناه هناك فمدّ أيمن يده إلى العم ووضع فيها مبلغا من المال، يداري دمعته وهو يقبّل

رأسه قبلة ابنٍ لأبيه، والعم مرعي يلهج لنا بأصناف الدعاء، وألذ دعواته على قلبي قوله: (الله يحميكم يا أولادي، ويوجّه لكم).

انطلقنا على أجنحة هذه الدعوة، ودمعات أيمن وصمته تغازلان كيس دمعي، وتضاجعان حنجرتي فتنجبان بيضة عملاقة، أتمالك نفسي لتحترق عيناي أكثر من ذي قبل، أطلق سراح دمعتي بتنهيدة مكبوتة بالكاد حازت حريتها من جوار البيضة التي تسد حنجرتي، وسيارتنا تنهب الطريق مارقة عن كل لوحات المرور ووزارة النقل، تمرّد الفتاة على قيود أسرتها؛ إذا غشي طوفان الحب سويداء قلبها. نظرتُ إلى أيمن الغارق في صمته:

ـ هل ترى ظلم المجتمع وقسوته؟ أين الدين؟ أين الرحمة؟ أين الإنسانية؟

ـ لو رأيت غير هذه الحالة، لقلت أن صاحب المحطة من الخيّرين.

ـ الجمعية الخيرية المصطبغة بصبغة الدين تنتظر واسطة للعم مرعي، كي تمنحه مؤونة ومبلغا زهيدا. ألا يؤلم حقا؟

ـ هذه المناظر تزيدني كرها لمجتمعي، تزيدني عتوّا ونفورا منه، هذه التصرفات التي نصِفها دائما بالفردية، ليست فردية، بل هي نسقٌ ترسّخ في ذواتنا، موت الإحساس بالآخر، موت الحس الوطني، والأدهى تلاشي الشعور الديني والإنساني إلا في حركات تعبدية جوفاء، أو مظاهر إنسانية خادعة. حتى عمل الخير ينتظر واسطة، ليسجل موظف الجمعية سابقة لدى الشافع؛ كي يشفع له في مصلحة أخرى، وهكذا تسير الأمور.

ـ الفقر يا أيمن من أكبر المعضلات الوطنية، الفقر هو المهدد الرئيس للأمن، وللدين، ولدعائم المجتمع. الفقير يجبره الفقر أن يتنازل عن مبادئه تدريجيا، يستبيح السرقة، يحترف الإجرام، يصل به الحال إلى بيع عرضه، وبيع ذاته لعصابات الإجرام والمخدرات والإرهاب.

ـ الفقير إنسان مقهور مظلوم، ويتعاظم هذا الشعور في بلدنا أكثر، لأنه بلدُ خير ورفاه، يرى الناس يتقلّبون في النعمة، وهو محروم من ركائز العيش الكريم، فيشعر بالظلم والقهر، كالقهر الذي شعرتُ به من الظلم، فبعثُ نفسي للشيطان وللانتقام، الفقير يكره الأغنياء، يتمنى موتهم، ولو يملك وسائل إبادتهم لما توانى.

يدير أيمن المسجل على أغنية (صوتك يناديني تذكر) فتسافر بنا تلك الكلمات الشفيفة، والأداء الراقي إلى عالم أجمل من واقعنا المر، نطوي الطريق بشراهة الخائف، الأجواء مخضلة بندى صوت فنان العرب، يدبُّ الأمن في روحينا، فيغشّينا الله النعاس أمنة منه، لنقف في استراحة تقليدية ضخمة، ونستأجر فيها مرغمين غرفة للنوم، نصحو على رنين جوال أيمن، أتذكر أنه أغلقه تماما قبل سيرنا، لكن محمد عبده وفيروز قد تضافرا فأحييا حنينه إلى حبيبته حنين، هاتفها خلسة بعدما نمت، نسي الجوال مفتوحا، أفزعني منظر عقرب الساعة وقد قارب الثالثة قبيل العصر، أيقظت أيمن، فهبَّ مذعورا والجوال يواصل الرنين، نظر إلى شاشة الجوال، فطار قلبي من ردة فعله وهو يبحلق فيّ بَحْلَقَةَ المفزوع، وتلعثم في جملة (الشيخ عثمان يدق)، دق الله عنقه، هل أرد؟ أومأت إليه بالموافقة، فأطاع أيمن ورد عليه، سمعتُ من مكاني صراخ عثمان، يهدد ويهدر هدير السيل، وأيمن صامتٌ لم ينبس ببنت شفه، كل ردة فعله أن أغلق الخط، ثم هاتف حبيبته حنين، وحذرها من الاتصال برقمه هذا، حتى يهيأ الله له طريقة يهاتفها بها هو.

ألقى بشريحة الجوال في المرحاض، وأمرني بالخروج على عجل، لم نغسل وجهينا حتى، أخذ مني مفتاح السيارة وقادها بجنون وتهور، وأنا في حيرتي أسأله ما الأمر يا أيمن:

ـ الأمر جلل، فقط تمسّك جيدا، وساعدني في مراقبة الطريق.

ـ ماذا يحدث؟

ـ كيف عرف عثمان مكاننا، وذكر المحطة بالاسم؟

ـ قل خيرا يا رجل؟

ـ والله هذا ما حدث، هل تظن العم مرعي من أنصاره؟

ـ لا أظن هذا.

ـ كيف عرف؟

استغرقنا في صمت لا يمزقه إلا صوت الهواء وسيارتنا تخترقه بعنف وسرعة، ثم اهتديت إلى ما سمعته يوما من أحد أصدقائي، وهو يخبرنا عن فتاة خطفها شاب من قريتها، لا أحد يدري أين اختبأ بها، فاستطاع الأمن تحديد مكان إقامته عن طريق برج الجوال الذي يسكن

في محيطه، فأخبرت أيمن بالأمر، فقهقه عاليا:

ـ هذا ما ظننته، لذلك تخلصت من شريحة الجوال. بعض القصص مفيدة يا يحيى. يا ترى كيف يستطيع هذا الرجل اختراق كل شيء؟

ـ لابد أنه يعرف موظفا في الاتصالات أو في الأمن، فلا أهش من سرية المعلومات في هذا الزمان.

ـ يجب أن نغير مسارنا، الطريق الساحلي متوقع وخطر، فما رأيك؟

ـ لا أعرف الطرقات حقيقة، بالكاد أسير على هُدى اللوحات.

ـ هل تعرف أحدا من أهل الجنوب، نسترشده في الطريق الموصلة إلى جدة من غير الطريق الساحلي؟

بحثت في جوالي سريعا، فوجدت رقم أحد زملائي من سكان النماص، ترددت في مهاتفته، وقد انقطعت عنه زمنا بعيدا. لا أجد من الوفاء مهاتفته الآن، أخبرت يحيى بالأمر، فأشار أن أهاتفه بزعم أنني سأزوره، ومن ثم أسأله عن طريق عودة إلى جدة من غير الطريق الساحلي، وكان الفرج أسرع من مكالمتنا، عندما اعترضتنا لوحة مرورية تهتف بنا أن نسير باتجاه أبها، تفتقت ذاكرتي عن ترابط مدن السروات بطريق شفوي يربط أبها بالباحة إلى الطائف، ومن الطائف نستطيع عبور الطريق إلى مكة، ثم نستطيع التوجه باتجاه المدينة المنورة عبر الجموم، لندخل جدة من جهة المدينة المنورة من منطقة عسفان التي كنّا نخيّم فيها بعد الأمطار، سلكنا هذه الطرق جميعا، لا يستوقفنا إلا نقاط تفتيش، أو وقفات خاطفة لشراء العصائر والكعك والبسكويتات، أما الصلاة فنؤجلها حتى نصل إلى منطقة نظنها آمنة فنؤدي فيها الصلاة سريعا، ثم ننطلق، أغلب ظننا أن طريقنا لم تخطر للشيخ عثمان على بال، وليجنّد من يريد في اصطيادنا، وقد ترك أيمن شريحة جواله في مرحاض الاستراحة، ربما فليبحث عنه مجندو عثمان وزبانيته.

وصلنا جدة قبيل منتصف الليل، بلغ مني الإرهاق كل مبلغ، لكن رائحتها العزيزة على قلبي، مارت نشوتها في روحي، أيقظت جمال الدنيا كله في رئتي وعيني وقلبي، وشريط الذكريات يمر بشوشا يتراقص على أعمدة الإنارة، على إيقاع أغصان شوارعها الخضراء،

كأنني أولد من جديد في هذه اللحظة، وأيمن يصيح مغنيا:

ـ (اشتقنا والله اشتقنا، يا أحلى دنيانا اشتقنا)

وأنا بجنون أهتف (جدة غير، والله جدة غير يا أيمن).

توقفنا أمام مطعم البيك، اشتقت إلى روائحه الشهية، فهو أشهى مطاعم جدة للغائبين عنها ـ في نظري وعلى حد علمي من زملائي من خارج المنطقة الغربية ـ فاشترينا عشاءنا ولم أنس نصيب أمي وإخوتي، لم أحبذ إخبارهم بقدومنا، كنت أتوقع ألا نفلت من ملاحقة القدر المكتظ خشونة، يكفيهم عناء غيابي في جعبة الجمل الافتراضية، مررت على محل الحلويات واشتريت الحلوى التي تحبها أمي، وقبل أن نصل إلى بيتنا في حي الصفا، خشيت أن تكون أمي نائمة خصوصا وأننا في منتصف اليوم الثاني من الأسبوع الدراسي، وأنا أعرف حرص أمي على نوم إخوتي مبكرا من أجل المدرسة، فأيقظتها باتصالي، وهي بأعلى صوتها تهاتفني مندهشة، فلم أزدها عن قولي: أعدي الشاي يا أم شيماء فأنا قريب من البيت.

عند باب العمارة كانت الأصوات تخترق طبقات الجو العليا، وأخواي هشام ونبيل يقفان، يستقبلاني بالهتاف وشقاوة الصغار، وأنا أضمهما إلى صدري، أحملهما وأقبلهما ودموعي تتناثر على صدري، فيتوجهان إلى أيمن يسلّمان عليه، ويحملان معه أمتعتنا، فأصعد الدرج على أجنحة شوقي لمن أخرجها شوقها رغم حيائها إلى منتصف الدرج متلثمة بشيلتها، أقبل وجهها وهي تضمني على صدرها بكل قوتها، وعبارات الحمد والثناء تثج منها غيثا ينعش روحي، ويذكي دموع امتناني، أخذت أقبّل يديها وهي تسحبها من يدي وتسحبني لتدفعني إلى أخواتي المتيبسات شوقا في الداخل، فيتلاقفنني تلاقف الدمية العزيزة الغالية، في صخب العبارات والتحميدات والأخطاء اللغوية والبدليات، التي ستكفينا أسبوعا من الضحك، لم أشعر بلذة لقاء في حياتي كاللذة التي تتفجر خلالي في هذه اللحظات الدافئات، وما أتذكر أنني كنت أجد في نفسي لإخوتي وأهلي كل هذا الشوق والحب والفرح الذي أعيشه الآن، كنت أرى هذه العواطف عادية، وألمس مبالغة المسلسلات في تصويرها، ها هم بين نبضاتي كل الأعين تدمع، كل الأفواه مبتسمة، الكل ينظر إلي، ويكلمني، لا أدري على من أرد، الكل في قمة نشاطه وحيويته.

يدخل أيمن إلى المجلس بملابسه وجهازه، ويدخل إخوتي بالعشاء والحلويات، وأعذاري المحمرة خجلا تندلق حياء عن عدم إحضار الهدايا الخاصة؛ لأن محلات الهدايا مغلقة والوقت متأخر، فأراني أجمل هدية لهم في هذه الليلة الأسعد في قلوبنا جميعا، أعدهم بأجمل الهدايا في الغد.

يفتح الشقيان علب العشاء، فيقمن أخواتي ويحضّرن أواني السفرة، تسألني أمي عن رفيقي، لتشهق فرحة مدوية عندما علمَتْ أنه أيمن ضاوي، تقوم إليه فألحق بها، تدخل وتسلم عليه بخجل شديد، وتسأله عن أحواله، وعن أهله، فيطمئنها، ثم تستأذنه فيشير عليها مداعبا أن تأخذني معها لأنه (طفش) من مرافقتي، فأرفض عرضه رغم رغبتي الحقيقية فيه، لكنه يهمس في أذني، أنهم يشتاقون إليك جدا، وسيكرهونني إن حرمتهم وجبة العشاء معك، أنا سأتعشى مع هشام ونبيل.

تناولتُ عشائي كألذ عشاء من سنين بعيدة مع أمي وأخواتي أريج وآمنة وهيا، وسط الفرحة العارمة، والعواطف المتأججة والكلمات والضحكات البريئة الشهية، وطُرف أختي آمنة التي لا تكف عن تزيين جلساتنا بها دائما، لكنها الليلة أشهى من كل شيء، أشهى من الجمل ودمه الأثقل من الكاتشب، وكلماته المستقاة من عصارات الفلفل الأحمر.

طردتهن أمي بعد العشاء إلى غرفة نومهن، رغم امتعاضهن، وتصريح أريج في رغبتها في الغياب غدا، لكن أمي أصرت أن ينمن، فقدرت مشاعرهن، وأمرتهن ألا يبلغن أقاربنا بقدومي، حتى يكون الغد كله لأهلي بعيدا عن صخب أعمامي وأخوالي، وشددت عليهن أمي وعلى نبيل وهشام أيضا. جلستُ مع أمي قليلا، ثم ألقيت نظرة على أيمن لأجده قد أطفأ الإنارة وغار في كهوف النوم العميق، عدتُ إلى سيدة الأحباب، وقد جهزت غرفتي وطيبتها، وأمرتني بالنوم، لكني لم أطعها، بل دخلت المطبخ وأعددت قهوتها التي تحبها وقهوتي كذلك، وفتحت علبة الحلوى، وجلست بجوارها، أحدثها عن سفري، وأسألها عن حياتها وحياة إخوتي، عن أختي شيماء ومولودها طارق وزوجها زياد، وعن اهتمام أعمامي بهم في غيابي، فأخذت تحدثني عن كل شيء، لم ندرك جريان الوقت إلا بصوت أذان الفجر، أمرتني بالنوم رغما عني، تمنيت أن أرى إخوتي وهم يغادرون إلى المدرسة، لكنها رفضت لأن

التعب بادٍ على وجهي المترهل، صليت وخلدتُ للنوم، وهي تضع البطانية بنفسها على جسدي، أشعر بالفرق بين هذه الحجرة الحنون وحجرة الجمل الجامدة.

صحوت على صخب الشقيين وقد عادا من المدرسة، فتحممت وصليت الظهر، فوجدت وطاب من يد الغالية، تناولت منها شيئا خفيفا؛ لأني أعلم بما ستعده على الغداء الأشهى من يديها، دخلت غرفة الضيوف لأجد أيمن مستيقظا، تناول إفطاره، ويعكف على قراءة كتبٍ عتيقة في مكتبة والدي، وما إن رآني حتى، ابتسم وأخذ يرمي بتعليقاته السخيفة عن دلالي، ونومي العميق في حجر أمي كالطفل الصغير، ثم لوّح بورقة وجدها في أحد كتب أبي، وقال:

ـ هذه الورقة يا يحيى عزيزة على قلبي، كتبتها أنا بنفسي، وناولتها والدك بيدي، هي قصيدة كتبها أبي بعدما انهار سوق الأسهم، وخسر الكثير من المال فيه، فطبعتها على كمبيوتري، وأعطيتها والدك كي يرسلها إلى الأستاذ خليل في جريدة المدينة، لكنه لم ينشرها بحجة أنها تقليدية، ولم ينظر إلى المأساة التي أخرجتها.

ناولني أيمن القصيدة، قرأتها فتذكرت العم ضاوي وهو يلقيها في سمرة مسائية على سطح منزلنا:

يمرُّ على الإنسانِ حينٌ من الدّهرِ
يغافلُهُ من حيث يدري ولا يدري

فَيُبكيهِ وقتٌ شاحبُ اللونِ ظالمٌ
ويُضحكُهُ كالطفل شيءٌ من اليسرِ

تطوفُ بهِ النعماءُ والثغرُ باسمٌ
وتهوي بهِ الأرزاءُ في خانةِ الصفرِ

ويعلو إلى الجوزاءِ مالاً وحظوَةً
ليهبطَ في البيداءِ كالمرسمِ المبري

ترى الرثّ عقلا للملايين قبلةً
وذا اللبّ خِلواً، في عداءٍ مع التّبرِ

إذا البحرُ أزجى للمساكينِ دُرَّهُ
طوتْها عن الصيادِ دوامَةُ النهرِ

يزيدُ الغنيْ مالا وزلفىً ومنصباً
ونزدادُ موتا تحتَ طاحونةِ الفقرِ

شعرتُ بالمرارة في قصيدة العم ضاوي، وتجاذبت الحديث مع أيمن عن تلك المرحلة السوداء التي سحقت الكثيرين، وألقت بهم تحت براثن النسور الضارية الخالية من الرحمة، حتى ضاع كد السنين سدىً، ربما تعلّموا من تلك المحنة دروسا حقيقية، رغم غلاء الدرس. لم يفصل لغطنا إلا صوت السفرة في يد هشام الجائع، وقد رتّباها كما تريد أمي تماما، فتناولتُ ألذ وجبة غداء مع ضيفي أيمن، الذي اعترف بسرٍ خطيرٍ عندما كان يأتينا دائما وقت الغداء أو العشاء للسؤال عن شيء، فيجبره أبي على تناول الوجبة معنا، حبا في طهو أمي. بعد الغداء لم يجلس أيمن، وأقسم أنه لن يجلس، لم أستطع ثنيه عن نيته، فأعطيته مفاتيح سيارتي فرفض بشدة، عرضت عليه النقود فأبى، كانت تلك اللحظات مؤثرة جدا وأنا أفارقه مرغما، ودعني ممتنا لحفظي لصداقتنا النبيلة، ووقوفي حتى أخرجته من محنته السوداء، فاستحلفته أن يهاتفني فور حصوله على هاتف خاص به، كي أطلع على مستجدات حياته الصاخبة كعادتها، وربما أرافقه إلى والده في قريتهم البعيدة.

شعرت أن أيمن لم يذهب حبا في الذهاب، لكنه صاحب مبادئ، ويشعر بأنه أخذني من أهلي رغما عني وعنهم، جلستُ مع أحبائي، وقلت لهم:

ـ (تدللوا) سأذهب بكم حيثما تريدون اليوم؟

صاح هشام (جنغل لاند) والبنات يردن درة العروس، ونبيل صامت، حتى سألته فقال

المكان الذي تريده أمي. فقالت أمي، أمنيتي أن نصلي المغرب والعشاء في الحرم المكي، وبعد الصلاة نذهب إلى أي مكان تريدونه، فوافق الجميع، ولم يخلدوا للقيلولة حتى، بل انشغلوا بحل واجباتهم وتنظيم أشيائهم، والبنات يساعدن أمي في غسيل الأطباق، تناولنا الشاي، وبعد صلاة العصر خرجتُ متخفيا عن أنظار الجيران الأعزاء إلى مكة، صلينا في أطهر بقعة، وتجولنا في المشاريع العملاقة المحيطة بالحرم، وتوسعة المسعى، والبرج العملاق بساعته الضخمة، الذي يراه القادم شاهدا على مكة، عدنا بعد صلاة العشاء إلى جدة، تجولنا على الكورنيش الذي اشتقته كثيرا، وكلما دخلنا حديقة شعرنا بالملل فيها، لا تجديد، ولا كسر للروتين الذي اعتدناه، أما غلاء الأسعار الفاحش، فيشعرك حقا باستغلاليتهم وجشعهم في نهب أموالنا دون مقابل يستحق ما ندفعه. لم نعد إلا بعد منتصف الليل عندما شددت أمي على العودة، فخلدنا للنوم، وفي مساء اليوم التالي، حضر أعمامي وأخوالي جميعا مهنئين لي بسلامة الوصول، وسط عتاب عمي سامي لأني لم أهاتفه، ولم أعتبره كبير العائلة بعد أبي، فقبلت رأسه، وأعلنت للجميع أن العشاء ليلة الخميس سيكون في بيت عمي سامي، أو في أي مكان يحبه، فكان حس الدعابة في روحه أقرب من شعر أذنه وهو يقول: ورشتي أحب الأمكنة إلى قلبي.

بعدما تفرق الجميع، أخذني عمي سامي إلى غرفة الضيوف وأغلق الباب، وشعرت بالرهبة التي أشعر بها دائما مع الجمل، وأحسست بوحشة الأسلوب، فقال:

ـ ابني يحيى، أنت الآن كبير أهلك، وتقوم مقام والدك ـ رحمه الله ـ فلا تطل الغياب عنهم، وانتبه لهم، أنا لن أدّخر جهدا في غيابك، لكنك تعرف التزاماتي ومشاغلي، وليس لهذا الأمر اختليت بك، بل علمتُ من نبيل أن أيمن ضاوي جاء معك، وأنت تعلم السمعة التي جعلت والده يغادر إلى القرية، فاحذر منه يا ولدي، حتى لو لم تسلك مسلكه فألسنة الناس لا ترحم.

حمدت الله أن أيمن لا يسمع هذه الكلمات المحرِقة، وفي داخلي صراع يتوق إلى تبرئة أيمن من هذه السمعة السوداء، فتشجعت وقلت:

ـ يا عم سامي، أنت على رأسي، وأنت أبي، ولن أنسى مواقفك معنا ما حييت أنت وكل

أعمامي، أما أيمن، فقد علمت قضيته بحذافيرها، وهو مظلوم والله وقد وقع ضحية مؤامرة خبيثة.

ـ لا علاقة لنا يا بني بالظلم الذي تعرض له أيمن، سواء أكان حقيقة أم فرية، سمعتك وسمعة بيت أبيك أهم من كل التبريرات، وعندما تظهر براءة أيمن رسميا ويؤمن بها الجميع مرحبا به، أما على هذه الحال، فلا أوافقك، لتعلم أن لديك أخوات، والفتاة قارورة، أبسط خدش يجعلها بائرة، يتجنبها الجميع.

ـ كلامك عاقلٌ جدا ياعمي، لكن أيمن بريء والله.

ـ المهم، هذا ما أردت أن تنتبه إليه، لأني أعرف طيبتك ووفاءك لأصدقائك وللناس جميعا، فأنت ابن أبيك.

ـ سلمتَ ياعم.

يخرج عمي سامي، وأجد كلامه منطقي في مجتمعي الظلامي كما يصفه الجمل، فالوزر يشمل الجميع في دنيانا المائرة بالأقاويل، وحواشي الرواة والوضاع وزياداتهم.

فاتحت أمي في الأمر واقتنعت ببراءة أيمن، لكنها أيضا بررت منطقية نصيحة عمي سامي. سامرتها في غرفتي، وأخذت تلمّح لي عن إعجاب سوسن ابنة خالي مبارك، وفرحها بعودتي سالما، وكثرة أسئلتها عني، فلم أحرك ساكنا أمام كلمات أمي خشية أن تلزمني بوعد، وأنا أجهل مصيري في عالم الجمل. كان يوم الثلاثاء ماتعا عندما جئن خالاتي وأبنائهن الذكور فقط، واجتمعنا في سهرة جميلة، كنت أخشى أن تفاتحني خالتي أم سوسن هي وأمي في أمر سوسن، لكن لم يحدث ذلك. الأربعاء كان الأجمل على الإطلاق في منزل عمي سامي المرح جدا، فاستمتعنا بليلة مؤنسة، وتواعدنا أن يكون الغداء لجميع العائلتين على نفقة جدي لأمي في استراحته الجميلة في حي السامر، استمتعنا بالسباحة في البركة الكبيرة، حتى جاء عمي سامي، فأفسد المتعة بالضحك، وهو يتصيد الصغار ويدفعهم في غفلاتهم نحو المنطقة العميقة من البركة. أما المساء فكان لأصدقائي الذين أعرفهم، اجتمعنا عصرا على ضفاف أبحر، واستأجرنا مركبا بحريا، على أنغام قيثار صديقي مروان، ولم نعد إلا بعد منتصف الليل عندما هاتفتني أمي، وعلمت بتقصيري في حقها.

يوم الجمعة كان ثقيلا رغم روحانيته، لكنه اليوم الذي سأفارق فيه الأحبة، وأعود إلى سلاسل الجمل، وليت أهلي يعلمون إلى أين سأعود، كان خالي مبارك يشعر باختلاف في تفكيري، ويقول لعلك تقرأ في كتب فلسفية، أو تتابع قناة الجزيرة كثيرا يا يحيى، لكني لم أعلق على الموضوع وقد ارتسم الجمل أمام عيني محذرا من الانجرار خلف ما يختبئ في جمجمتي المحشوة بفكره. أعدت أمي الغداء الشهي جدا، وجلستُ معهم وأنا أقرأ الوجل في أعينهم جميعا، أخذني الشوق إليهم وأنا بينهم، حاولت التغلب على مشاعري، وطمأنتهم أني سأعود بعد شهر على الأكثر، ودّعتهم على دموع أمي وأخواتي، ودعائهم لي بالتوفيق والعودة سالما، ووصاياها لي بالاهتمام بنفسي والابتعاد عن رفقاء السوء. لا أنساها وهي تودعني وكأنها تملأ رئتيها برائحتي، شعرت بخوف شديد من طريقة توديعها، لكني تجاسرت متصنعا للابتسامات الزائفة، قبّلت الجميع، ومضيت أدوس وجه ألمي وخوفي.

في السيارة أجهشت بالبكاء كثيرا، بكاء حرقة على فراق أحبتي، خصوصا وأنا أخرج من نورانيتهم وبياضهم إلى ظلام المجهول في عالم الجمل، الذي اقتنعتُ به، لا أدري أهو السحرُ أم إرادة الله، أم فضولي، خرجت من جدة على الطريق السريع متجها إلى الجنوب على الطريق الساحلي، وقرص الشمس ينغمس محمرا في دكنة بحر الشعيبة، لأنطلق إلى المحافظة التي أضعت فيها يحيى، ثم أتبعه عمّال الفندق متعلقاتي الشخصية، هممت أن أعرّج على مركز الشرطة لكن كلما تذكرت ذلك الرقيب، شعرت بدفع مغناطيسي يبعدني عنه، فمررت على النزل الذي أضاع عمّاله متعلقاتي، سألت الاستقبال عن أشيائي، فأجابوا بالنفي، حتى عن سجن أحد منهم أو مساءلته، تشجعت وأكملت طريقي إلى مركز الشرطة، فوجدتُ رقيبا آخر استقبلني ببشاشة، أعلمته بالأمر، بحث ووجد معاملتي، ثم هاتف الرقيب الأول عبر الجوال، الذي احتج بشكّه في عودتي، خصوصا وأني لست من أبناء المحافظة، لكن الرقيب البشوش، أكّد لي أنه سيعمل على هذه القضية شخصيا، وسيصل إلى نتيجة ترضيني، أكرمني جدا، وأشعرني باهتمامه وهو يعطيني رقم جواله، ويشيعني إلى باب المركز. خرجت من المركز وكأني وجدتُ متعلقاتي المفقودة حقا.

سرت على طريق المحافظة، فوجدت نافذة عالم الجمل قد أُشرعت لي، ولن أحتاج إلى

سائق المديرية، بعد استبدال سيارتي بسيارة عمي محمود ذات الدفع الرباعي، سرتُ في طريقي إلى قرية تاوه والظلام مطبقٌ حتى على أعناق النجمات الغائرات في مقاريب الجمل، اللائي أظنهن يشين بقدومي هذه اللحظة للجمل المستلقي على سطح القصر، تجاوزت المنحدرات الحادة بسلام، ومررت بالينابيع التي بالكاد رأيت التماعها مع ضوء المصابيح في حلك الدجى، كانت المفاجأة بعبور شخصٍ سريع أمام سيارتي، لم أتبين ملامحه، ظننته من عبيد القرية، وفي اقترابي من المستوصف عبر ذات الشخص لكن ليس بسرعته الأولى، فكان الرجل الأحمر، لم يومئ لي، نزلت من سيارتي فوقف أمامي، يكلمني بلغة إشارية بإصبعيه الوسطى والسبابة، فهمت أنه يريد سيجارة، فقلت لا أملك، لكنه أصر، وأنا أحلف له أنني لا أدخن، فزاد إصراره، وأمسك بباب السيارة، تذكرت أن عمي محمود يدخن، ربما شم هذا المأفون رائحة التبغ في السيارة، ففتشت وعثرت على بغيته، فأخذ التبغ واختفى، سرت بتؤدة نحو نفق العبور إلى القصر، وجدت العربة مهيأة لي، لكنها دون أحصنة هذه المرة، تلفتُّ يمينا ويسارا فلم أجد حصانا واحدا، وما إن استويت في العربة حتى انطلقت بي سريعا، كان الحارس الوسيم في انتظاري في موقف العربات، أخذني إلى غرفة خاصة بالتعقيم، وعقمني، ثم لف حريره على يدي، واتجه بي إلى الجمل، تصافحنا باليدين فقط، لا أجرؤ على أكثر من هذا أبدا، ويده تتلظّى كعادتها، أخاله مخلوقا كهربائيا، أو مخلوقا يسير بطاقة حرارية، أما اللثام فمازال عنوان وجهه، استقبلني أحسن استقبال وأجلسني بقربه، وسألني عن أهلي كثيرا، وعن أيمن، وعن مشاق سفري، فأخبرته بكل شيء، حتى عشائي في المحافظة، فأذن لي بالذهاب إلى حجرتي، وعندما هممت بالخروج ناداني وصعقني بسؤاله:

- يحيى، هل وجدت متعلقاتك الشخصية في النزل؟

- كلا لم أجدها، هل تعلم عنها شيئا.

- ستجدها في حجرتك.

- كيف جئتم بها.

- بعد شكواك على رقيب الشرطة يوم سفرك، ونفي مدير النزل عن علمه عنها، أرسلتُ

من وجدها في منزله، فأخذناها.

ـ هل عاقبتموه؟

ـ عقابا بسيطا، يجعله يتوب عن سرقة متعلقات النزلاء المتغيبين، خبأنا أوراقه الرسمية وعقوده في مكان سري لا يعلمه، سيضطر إلى دفع مبلغ يؤدبه عن سرقة الآخرين. المهم، لا تشغّل لعبتك في القصر أبدا، ولا تستخدمه ما دمت في عالمنا.

ـ لماذا؟

ـ ستعلم هذا غدا.

دخلت حجرتي منهكا، وسعدت وأنا أجدُ أشيائي بحذافيرها، فاستلقيت على سريري، لينتصب شبح أيمن أمامي، وتفتك بي استفهامات الوحدة في هدوء هذه الحجرة، لم يتصل بي أيمن، هل أصابه مكروه لا قدر الله؟ هل قبضوا عليه؟.

لم أشعر بنفسي في ضجة الاستفهامات إلا صباح اليوم التالي.

أين معجّنات أمي، والشاي الطازج، وابتسامتها، من هذه الحياة الروتينية القلقة، وهذه المأكولات الغريبة التي أتصبح بها في قصر الجمل، لم أجده في المجلس، ولستُ مشتاقا إليه، لن يجد من الكلمات إلا عقلانيته، والقدح في عالمي، أتناول إفطاري أشعر بنشاط يؤزني إلى ارتياد الرابية الخضراء، والاستمتاع بصباح العصافير والورد، أجد أستاذي آران يجوس خلال الرابية مع لبيبة لم أرها من قبل، أسير بتؤدة باتجاههما، وأشعر من حركة قدميهما أنهما يسيران باتجاهي أيضا، أمامي مفترق في الممر الملتوي عبر الأشجار، أخشى أن أسير باتجاههما فيضيقان بي، وأخشى أن أبتعد عنهما وهما يريدان ملاقاتي، فعدلت إلى شجرة البرتقال، فجلست تحتها كما جلس نيوتن تحت شجرة التفاح إن صدق الرواة، إن كانا يرومان لقائي فسيأتيان، وإن لم يريدا فسيذهبان في سبيلهما، أتأمل الثمار المتلئة بالحيوية والحياة، تتدلى من بين الأوراق الغاصة بالخضرة والنضارة، وتداخل اللون البرتقالي اللامع، مع الأخضر الغامق اللامع لأوراق الشجرة، يبعث في النفس شعورا شفافا، أتمنى لو أن هذه الرابية بكل ما تحويه في مدينة جدة، فهل ستبقى بهذه النضارة والترتيب والجمال في عالمي الحقيقي، أم يستأجرها مستثمر، يؤجّرها على مستثمر أصغر، وهو بدوره يؤجرها على العمالة

الوافدة، فيؤجرون كل كرسي فيها على المتنزهين الذين أحيا فيهم جشع المستثمرين رغبة زائفة في التنزه في طعوس البر المقفر، وتبجحِ بعضهم زورا بأصالة هذه الرغبة في ارتياد الأماكن البكر البعيدة عن الضجيج، ولا أرى ضجيجا يساوي امتصاص الجيوب المزقة.

يغيب وجه أستاذي آران خلف ابتسامته منعدمة اللون، وهما يتوجهان إليّ تحت شجرة البرتقال، لأقف مستقبلا بابتسامة مستقاة من أستاذي، يجلسان معي، ويعرّفني باللبيبة (رِكزا)، التي ستتولّى تعليمي هذا الشهر، تتبسم اللبيبة مزهوة، لكنني أشعر بالخجل أمامها، فلم تدرّسني أنثى، لكن التجربة مثيرة، ربما يكون التعليم الأنثوي أبلغ من تعليم الرجال، خصوصا والتعليم باللمس يحتاج إلى نعومة أنامل لا تحملها أنامل أستاذي آران، نتحادث تحت الشجرة قليلا، ثم نقوم ونتجوّل خلال الرابية، حتى وصلنا قاعة الدرس في القصر، فندخل على الضئيل جابار، يستقبلنا، ويرشدنا إلى المكان المخصص لي هذا الشهر في القاعة التعليمية، ويعطي أستاذتي الجديدة رِكزا أدواتها الخاصة بتعليمي، فتنصرف أستاذتي بعدما واعدتني الساعة الواحدة بعد الظهر، أستاذي آران رافقني إلى مجلس الجمل، وفي الطريق أفشى لي سرا خطيرا عن رِكزا، على سبيل التحذير من الوقوع في الخطأ معها، فهي ابنة أخي الجمل، فاستبشرت خيرا بهذه اللبيبة التي ربما تكون أجرأ من أستاذي آران في فهم أسرار عائلة الجمل الملثم. وجدنا الجمل مجتمعا بالحراس، فخرجنا إلى صالون الحلاقة، وهناك حلقن الجميلات شعري، حتى صارت جمجمتي أنعم من حبحب اللِّيث، لم أرفع عيني في مفاتن الجميلات بعد تجربتي معهن في حلاقتي الأولى، وعمليتهن في التعامل الرسمي معي، واكتشافي أنهن افتراضيات لا حياة فيهن، فلم أجد في جمال الأجساد إغراء والأرواح تحلق بعيدا عني، لنعود إلى الجمل وقد انفضّ حراسه، فيدنينا، ويخبره أستاذي عن استلام اللبيبة رِكزا لزمام تعليمي هذا الشهر، فيشكره كثيرا، ويسلّمه هدية مغلفة لا أدري ما تحويه، أخالها ثمينة من الفرحة التي ارتسمت على وجه أستاذي الذي ودعنا وخرج. حياني الجمل وأشار أن أقترب من عرشه الأسدي وأخذ يحدثني عن الأسبوع الذي غبت فيه عن القرية، والمستجدات العلمية التي قرؤوها في سديم الخير، وأخذ يسألني عن أهلي كثيرا، ويبدي تعاطفه معي في بعدي عنهم، ويتمنى لو أن في يده الآن إحضارهم إلى عالمه، لكن الفكرة لم

ترقني أبدا، فتذكرت تحذيره لي من استخدام الكمبيوتر والجوال في القرية، فسألته:

ـ لماذا تمنعون استخدام وسائل التقنية في القرية؟

ـ تتذكر جيدا يا يحيى، وتذكرك يشي بتقدمك في التعليم، أما ما أسميتها وسائل التقنية، فلا نعدها كذلك، لأنها وسائل تدميرية أكثر من كونها وسائل تقنية، خصوصا على المستوى الشخصي.

ـ كيف تعُدّها كذلك؟

ـ الكمبيوتر جهازٌ يحطم ذاكرة الإنسان، يعلّمه الخمول والاتكالية، والعضو الذي يعتاد الكسل في جسم الإنسان، يشعر بعدم أهميته فيبدأ في السبات العميق، وإن طال السبات فمصير هذا العضو الاضمحلال والتلاشي، فهلا تأملت فيمن يعتمدون على تقنية الكمبيوتر لديكم، كيف ضعفت ذواكرهم، وأصبحوا اتكاليين. أجدادك يا يحيى في الزمن القديم، كان الرجل منهم يخرج من قريته إلى المدن البعيدة، وقد وصّاه الكثيرون من أصحاب القرية لشراء احتياجاتهم شفهيا، فيعود بعد زمن بكل ما طلبوه منه، دون أن ينسى شيئا، حتى في دقة الوزن والمكاييل. وفي زمنكم لا تستطيع في ساعة أن تتذكر خمسة أشياء يريدها أهل بيتك دون تدوينها في ورقة، وأحيانا تنسى أنك تحمل الورقة حتى. أما الجوال فخدمته جليلة بالتواصل مع الآخرين عن بعد، لكنه في ذات الوقت مضر بالصحة لاعتماده على تقنية خطرة.

ـ ما البدائل لديكم؟

ـ لدينا الطبيعة يا يحيى، وأسرار الله في الإنسان، لدينا تقنية أقوى من الجوال، آمنة جدا ومجانية. بعض علماؤكم يسميها (التخاطر)، أما نحن فنسميها (التواصل) بحيث أكلمك في الوقت الذي أشاء، حتى لو كنت نائما. تحاول الظهور لكم، وتتبرج أمامكم، لكنكم أوغلتم في ظلام الأحلام والتأويل، وتعبير الرؤى، حتى عدلتم عن الطريق الموصلة إليها، وإن حدثت في بعض الأحيان عندكم، خلعتم عليها قداسات الشخوص، وأسميتموها (كرامة)، هل قرأت في كتب الكرامات يا يحيى؟

ـ لم يسبق أن قرأت شيئا كهذا؟

ـ لتقرأ كرامات الصالحين عندكم، ومحّصها بعقل، لتجد أن التواصل موجود عندكم من

زمن بعيد، لكنكم في ظلماتكم تعمهون، وعلى خطى السابقين تهيمون، لا تبحثون عن الممكن في اللاممكن، ولا تقلّبون الأمر على أكثر من وجه، تقتنعون من الحقيقة بوجه أو نصف وجه.

ـ أعطني مثالا ياسيدي على ما تقول؟

ـ في إحدى غزوات الفتوح الإسلامية، تواصل الخليفة عمر بن الخطاب مع قائد الجيش الإسلامي آنذاك فوجهه وقال له (يا سارية الجبل)، فسمع القائد توجيه الخليفة، ففعل ونجا. لكن أسلافكم أدرجوها تحت بند (الكرامة)، فاندثر النور تحت سجف الظلام، وبقيت في كتبكم تحت بند الكرامة.

ـ والكمبيوتر، ما بديله عندكم؟

ـ الكمبيوتر الذي عندنا تعرفه جيدا يا يحيى، ودائما تجدنا نراقبه ونقرأ منه ما نريد، ونخزّن فيه ما نشاء.

ـ هل تقصد النجوم وسديم الخير؟

ـ نعم، كل علومنا ومعلوماتنا، يدوّنها الألباء في النجوم، لكن الأهم منها، ذاكرة الإنسان عندنا، التي تحفظ كل شيء، لا يمكن أن تنسى شيئا أبدا، تستحضره فتراه ماثلا أمامها، فالكتاب الذي نقرؤه، نراه أمامنا حتى برقم صفحته، وبهباءات الغبار التي تمر على الصفحة، لأننا أحيينا في الذاكرة قوتها واستيعابها.

ـ وكيف تنسون الأحداث المؤلمة؟

ـ تقنيات النفس لدينا مؤهلة لنسيان ما نريد، فيستجيب العقل للمعلومة المزعجة، فيبعدها عن الذاكرة حسب قوة إزعاجها للذات، فوفاة شخص عزيز مؤلمة، يجب أن يتخلص العقل من هذا الإيلام، لتبقى تاريخا تذكريا فقط. كالجرح الجسدي الذي يبقى أثره في الجسد، كلما رأيته تذكرت حدوثه بحذافيره، لكن جسدك لا يشعر بالألم المصاحب.

ـ تقنياتكم حقا مذهلة.

ـ هل تذكرت شيئا من علومنا في سفرك إلى عالمك؟

ـ لم أتذكر إلا تذكرا عاديا كالذي أتذكره من عالمي قبل مجيئي إليكم.

ـ لأننا تعمّدنا ذلك، فلا نريد أن نحيي فيك خاصية التذكر حتى تستوفي تعليمك، وتكون

مؤهلا لكل شيء، لكن في قاعة الدرس تجد ذاكرتك نشيطة جدا، تتذكر كل شيء. هل لفت انتباهك شيء في عودتك إلينا لم تعهده:

ـ نعم، لم أجد الخيول التي تجر العربة.

ـ ذكيٌّ ما شاء الله يا يحيى، لا توجد خيول في الأساس، والعربة تسير خلال حقل مغناطيسي أفقي بخاصيتي الجذب والدفع، لكن وضعنا الخيول كيلا نشعرك بغرابة عالمنا وسحريته من البداية، ولو تتذكر أولى زياراتك لنا، عندما وجدت الثورين الذين يجران الرافعة، فقد كانا افتراضيين أيضا، ولم يرفعك إلا حقل مغناطيسي خاص. فنحن لا نريد أن نقحمك في عالمنا إلا بالتدريج كي يكون استيعابك أفضل، وهذا الذي حث عليه الدين، هل تتذكر شيئا من هذا في الدين؟

ـ هل تقصد المؤلفة قلوبهم؟

ـ بالضبط هذا ما أقصده تماما، فلا يجب أن نولج الإنسان في الأمر بحذافيره مباشرة، بل التدرج في الأمر أنجع. فالنفس البشرية تجزع وتفزع من الأمور التي لا تستوعبها، ولا توافق طباعها، لذلك تجد الإغراء والإغواء يعتمدان على مبدأ التدرج.

ـ وأيهما استخدمت معي يا سيدي؟

ـ الإغراء بالطبع، لأننا كنا نبهرك ونستثير فضولك لكن بجرعات قليلة متفاوتة.

ـ لقد استثرتم فضولي حقا، ووجدتني لا أستطيع كبح جماح رغبتي في معرفة أشياء كثيرة.

ـ قل لي، كيف وجدت أيمن؟

ـ وجدته في أسوأ حالاته، وجدته يتردّى ظلماتٍ بعضها فوق بعض، ويهوي إلى الدرك الأسفل من الظلام.

ـ الظلام يا يحيى خنجر في خاصرة العقل، ولكل شيء في الوجود وجهان، يمثلهما الليل والنهار، فوجه أبيض، ووجه أسود، وإن تذكرت تعريفي للإنسان عندما قلت لك أنه مجموعة من الحيوانات، وهناك حيوان يملك مساحة أكبر في الإنسان تجده طاغٍ على تصرفاته، لكن ظروف الحياة تجتزئ من مساحة هذا الحيوان، وتعطيها لحيوان آخر، يظهر في الظرف الذي يستحقه، فالإنسان الشرير مثلا، تكون مساحة الحيوان الشرير فيه متسعة،

حتى إذا وقع في كف شرير أعتى منه، تقزمت مساحة الضاري فيه، وتوسعت مساحة حيوان أضعف، فالأسد أو النمر تضيق مساحته فيختنق، وتتسع مساحة الأرنب أو الشاة، فيخنع هذا الإنسان، ويستسلم، وقد اتسعت مساحة الثعلب الماكر أيضا، ومع انفراج الظرف تعود المساحات لطبيعتها الأولى، وهكذا.

لكل إنسان وجهان في الحياة، ككل شيء في الطبيعة، فالسكين نستخدمها لخدمتنا في تقطيع ما نتغذى عليه، فيكون استخدامنا لها نافعا مثمرا، ونستخدمها لنغول بها حياة بريئة، فنقع في المتاعب لاستخدامها بيد شريرة، السكين هي السكين، لكن اليد التي استخدمتها اختلفت، عندما كان أيمن في أيدي الخير كان طبيبا مميزا نافعا، وعندما أسقطته الظروف في أكف الشر الماكرة، بات على ما وجدته عليه من الظلامية والشر.

ـ أنت حاكم هذه القرية، كيف تعرف الإنسان الخيّر من الشرير؟

ـ لا أدّعي علم الغيب، ولا أخرج عن بشريتي التي قدرها الله، لكنني أحرص على العدل في قريتي، وألا يبيت كائنٌ في نفسه جرحا من جور، أو يشعر بمظلمة تحرفه عن طريق الصواب، وإن خرج الأمر عن علمي ووقع، فعلمته فلا أتهاون أبدا في رفع الظلم عن المظلوم، أيا كان من أوقع الظلم، العدل وهو ما دعت إليه شرائع السماء و العقلاء، وبداية انحراف العجلة عن المسار، نقصان حجمها، فإن أحس الإنسان بالنقص، بدأ في ازدراء حاله، وحال مجتمعه، حتى يخرج عن المسار، فلا يستطيع التحكم في ذاته حتى.

ـ ما قصة الرجل الأحمر؟

ـ هل رأيته قريبا؟

ـ نعم جاءني البارحة وأعطيته تبغا.

ـ هو أخي الشقيق.

ـ أخوك؟!

ـ نعم أخي، كان لبيبا، بل من كبار الألبّاء، أضلّه هواه فغوى، أعماه الزهو فخرج عن السنن، ذرته رياح الغرور على أنياب الخطر، لم يبالِ بسطعة النور، ليرتميَ في أحضان الدجى، استبدل أثداء الهدى بكؤوس الضلال، فأوغل إلى إبط الإثم، انتشلته رحمة الأخوة من

شدق الهلاك، فعاد وعدنا راحمين محبين، حتى أتى بطامة التقويض والانطفاء، عندما...

بتر الحارس الوسيم محاقن سمعي، وأوقف قطر الجمل؛ يستأذن لدخول اللبيب (مائز)، الذي دخل فسلم وجلس صامتا، فنظر إليّ الجمل نظرة وشت لي أن الأمر سري، فاستأذنتهما وذهبت إلى حجرتي، وبعد الصلاة وجدت أستاذتي رِكزا في انتظاري، جلستُ أتحسس نعومة أناملها على جمجمتي، تولج نهار العلم في ليل جهلي، لا أنبس بكلمة في حضرتها، فخرجتُ معها إلى مجلس الجمل، الذي سألها عني وأوصاها بي كثيرا، فلمستُ روحها المرحة في حضرة الجمل، وميلها إلى الظرافة رغم رقتها، ورسميتها معي، لا أدري لم يعتبرني الألباء طفل الجمل، وبعد كل درس يرافقني الأستاذ إلى مجلسه، هل أنا عهدة يجب أن يسلمها كل لبيب إلى الجمل حتى يخلي مسؤوليته؟. بعد الغداء ذهبت أستاذتي، وبقيتُ مع الجمل، أتوق إلى سماع قصة الرجل الأحمر، لكن الجمل قاطع توقي:

ـ غدا سترافقني إلى جزيرة قصوى؟

شعرتُ بفرحة عارمة وأنا سأزور جزيرة العلوم الرئيسية في عالمهم، فمن المثير حقا أن أتعرف على هذه الجزيرة المختلفة.

ـ حقا؟!

ـ نعم، فاللبيب مائز أخبرني بهذا قبل قليل واستأذنني في الترتيب وإبلاغ الألباء المعنيين بالأمر.

ـ من اللبيب مائز؟

ـ مسؤول الصناعة في عالمنا، يعادل عندكم وزير الصناعة. وهناك شؤون صناعية يجب أن نقف عليها جميعا، وسنلاقي وفد رتال كذلك.

ـ إذن فهو اجتماع للقرى الثلاث.

ـ نعم، تهيأ لمرافقتنا، ولأنني سأنشغل عنك هناك سترافقك أستاذتك رِكزا، تشرح لك كل شيء وهذا جزء من تعليمك، فالأمر ليس مسليا فقط كما في رتال.

١١

" الممكن في حقيقته المجردة:
ثمرة حلوة من شجرة المستحيل "

* لوحة على مدخل قصوى

- ١١ -

إحضار وجبة إفطاري إلى حجرتي يعني أن مجلس الجمل غاصٌّ بالألباء، دخلتُ المجلس لأجد مقعدي شاغرا بجوار أستاذتي رِكزا، والجميع قد تأهبوا للسفر إلى جزيرة قصوى، لا أدري أي فكرة سنمتطيها لتطوي لنا الأرض إلى قصوى، أبمركبتنا؟ أم بسفينة؟ أم بوسيلة نقل خطرت للألباء ولم تخطر على بال جهلي؟. قام الجمل وتبعتْه أستاذتي رِكزا ويدها الناعمة في يدي، تبعَنا حشد الألباء، لنركب ذات المركبة التي حملتنا إلى قرية رتال، ولأنني أعرف أسرارها لم أغفل عن كل حركة منها، فهي أشبه بالطبق على يد ناعمة ترفعه بهدوء إلى الأعلى، ثم تزلقه على رغوة أكثر نعومة في أجواز الفضاء الهادئة، ليتني أحظى برؤيتها من الخارج وهي تقلع كي أتصور هذه الآلة العجيبة، لم يتجاوز زمن الرحلة أكثر من ساعة، إن كانت ساعتهم كساعاتنا تحسُب الساعة ستين دقيقة، لربما لديهم تقنية زمنية لم تسفر في ظلامنا. الجمل يحدثنا عن قيمة الوقت الذي توفره المركبة العجيبة، والراحة التي يشعر بها في أسفاره شبه اليومية إلى رتال وقصوى، فتهللت أسارير استفهاماتي الزمنية:

- سيدي، كم نحتاج من الزمن إلى قصوى؟

- عشرون دقيقة فقط.

- هل توقيتكم كتوقيتنا في حساب الساعة والدقيقة؟

- نعم، مثله تماما. إلا في الانتقال من مكان إلى آخر على الأقدام أو آلات النقل الأرضي، فلدينا اختراق للزمن، يعتمد على الاختزال.

تذكرت تنظيف الحراس للمستوصف الوهمي، وسرعة حضور الألباء إن طلبهم الجمل إلى مجلسه، وحركته في الرابية الخضراء الذي بالكاد أراه في مكان، ثم لا ألبث أن أجده في الآخر.

- ما سر هذا الاختزال؟

- ليس سرا، بل يعتمد على التحرر من مغناطيسية الأرض، والتحرك خلال مجال مغناطيسي أفقي، تبثه العصا التي تراها في أيدينا، فنخترق الزمن.

ـ ولم لا يكون في آلات النقل الجوي كذلك؟

ـ آلات النقل الجوي كهذه التي نركبها الآن، تعتمد على المجال المغناطيسي الصاعد، ولا حاجة إلى المجال المغناطيسي الأفقي ما دمنا نتحرر من الجاذبية في الفضاء الخارجي.

ـ هل تحملكم هذه المركبة إلى كواكب أخرى؟

ـ كلا؛ لأن لكل كوكب خصائصه، ونوعه الخاص من المركبات التي توافق تلك الخصائص من حيث المناخ والتضاريس، ونوع المهمة.

يغرق الجمل في أحاديث جانبية خاصة مع اللبيب جابار، أما أنا فأصغي إلى أستاذتي المرحة، وهي تحدثني عن عمل المركبة يعمل بالمغناطيس، حتى الأبواب ترتبط بمجالات مغناطيسية لفتحها وغلقها، والمقاعد كذلك تعتمد على ذات التقنية الدقيقة. فسألتها عن انعدام الخدمة على متن المركبة كما في طائراتنا، فبررت ذلك بقصر وقت الرحلة، لأن أنظمة الخدمة لا تكون في مركبات التنقل على كوكب واحد، أما مركبات العبور بين الكواكب فهي مزودة بأرقى أنواع الخدمات.

استمر حديثي مع أستاذتي حتى فوجئت على حين غرة، بالأبواب تُفتح على قاعة رحبة، برودتها كما تشتهي الأجساد، سرتُ وأستاذتي خلف الجمل وخلفنا جموع الألباء، أشعر بالزهو وأنا أحظى بهذه الأهمية وأتقدم الألباء. لو سقطت شعرة على بلاط القاعة اللامع الأملس لسمعتُها، من فرط هدوء الجمع الغفير، وفي نهاية القاعة جِسرٌ زجاجي يمتد إلى قاعة أخرى، نرى البحر تحت أقدامنا بزرقته القاتمة، وأمواجه الناعمة في لثم جدران القاعتين، على الطرف الآخر من نهاية الجسر، يقف مجموعة من الناس، في ملابس بيضاء ناصعة، استقبلونا بحفاوة ليست كتلك التي في رتال، فكأن بروتوكولاتهم الرسمية أميز من الترفيهية، دلفنا إلى قاعة ضخمة، كل شيء فيها أبيض، بياض عين المولودة، بياض تشتهي النظر فيه وخلاله، الطمأنينة فيه تبعث على الاسترخاء، وقد رُتّبت محتويات القاعة بطريقة احترافية في نمنمة الأبيض بالأبيض، وتناغم الشكل واللون، فلا وجود للزوايا الحادة أبدا، لم أعرف من الجمع المحتشد في القاعة سوى حاكم رتال، الذي اختلط بياض شيبه ببياض الأشياء كلها، فكان ساطعا وقورا، جلست مع أستاذتي في الصف الثاني والجمل يتوسط حاكمَي

قصوى ورتال، لترتفع منصة نصف دائرية عليها سبعة ألباء، إناثا وذكورا، تجنح إلى ميسرة القاعة، وتظهر منصة أخرى عليها لبيب ولبيبة، فيبدآن مخاطبتنا، بلغة بالكاد أفقهها، يتوجهون بالحديث إلى الألباء السبعة، الذي بدأ أوسطهم بالشرح عن منجزات النصف سنة النجمية الماضية، وكل لبيب يستعرض ما فعلته مجموعته الصناعية، و الشابان يسألان الألباء بحفاوة وأدب جم، لا نشعر بالملل رغم جنوحنا إلى الاسترخاء، حتى جاء دور حاكم قصوى (مرفال)، ظننتُ الشرح عن المنجزات هو لبُّ الاجتماع، لكن الدهشة عندما كان الحدث الرئيسي ليس إلا تقاعد بعض عمال الصناعات الحرارية، وقف مرفال وصعد منصة خاصة، وألقى خطابا مقتضبا بيّن فيه أنظمة تقاعد عمال قصوى؛ لأنهم يقومون بأعمال خطرة، فمدة العمل لا تتجاوز خمس سنوات نجمية، من مرحلة حياة العامل الوسطى، له الحق بعدها في احتراف أي عمل يريده لا يحوي أي مظهر من مظاهر الخطورة، وتتكفل القرية التي ينتمي إليها بكافة مستلزمات حياته وأسرته المادية والترفيهية، ثم تبعه الجمل شاكرا ومقدرا لهم، وكان آخر الخطباء (قاوش) حاكم رتال الذي أغرى العمال المنتمين لقرية رتال برفاهية لا تخطر لهم على بال، تسلّم كل عامل شهادته قطعة من النور منقوشة صورته عليها، وهي أنفس هدية يحصل عليها إنسان في عالمهم، لا يمتلكها إلا من يستحقها عن جدارة، فسألت أستاذتي:

ـ هل سيعيشون ما تبقى من حياتهم بلا عمل؟

ـ من قال لك هذا؟ ألم تسمع حاكم قصوى، يسمح لهم بمزاولة الأعمال منعدمة الخطورة.

ـ وإن أرادوا مواصلة أعمالهم؟

ـ قانون قصوى لا يسمح بعد خمس سنوات نجمية بمزاولة أعمال خطرة.

ـ هل يحق لهم أن يصبحوا ألباء.

ـ نعم، يحق لمن أراد ذلك أن يتدرج حتى يصبح لبيبا. فأنا كنت عاملة في معامل الطاقة وتقاعدت منها، فأحببت التعليم وهاأنذا معلمتك.

خرجنا من القاعة أنا وأستاذتي فقط، وهي تداعبني، تضحك كلما تباعدت قدماي وهممت بالانزلاق عن الممرات الزجاجية المائلة، وتوجهت بي إلى المصانع الحرارية، شرحت لي عن

تركيز الحرارة المجلوبة من الطاقة الشمسية، أو الثورانات البركانية، وتنقيتها من كل أصناف المادة، كالهواء وبخار الماء والغازات منصهرة الجزيئات، لتبقى الحرارة بمفهومها المجرد مضغوطة في كرة صخرية مجوفة، جلبها الألباء من الكوكب الملتهب عطارد، وصهارات معدنية تغطي الصخرة معادة التصنيع على هيئة كرة، تعلوها طبقة من معادن فولاذية، وفوقها طبقة من مادة البلاتينيوم عالية النقاوة، مغطاة بالألومنيوم، ثم تترك فراغات هوائية تليها طبقات الألومنيوم الثلاث، بعدها تأتي طبقة كروية من العسل النقي مغطاة بالبلاستيك عالي المقاومة، وفوق البلاستيك فراغ مملوء بالماء المهدرج، تحفظه طبقة بلاستيكية مقواة عازلة شفافة، تغمس هذه الكرة في المحيط، بعيدا عن الجزيرة، تقية انفجارها، تكفي هذه الحرارة لإذابة أي شيء تلمسه، وتُستغل في الصناعات بأنواعها. يُمَد إليها أنبوب التعبئة من المناطيد الحرارية على سفن جمع الحرارة من الجهة المقابلة للجزيرة، وينطلق منها أنبوب رفيع لولا عزله بطرق معقدة لسخنت رقعة واسعة وعميقة من مياه المحيط، ولثارت أعاصير لا قِبل للبشرية بتحملها، لكنهم دائمو الحرص على تفقده وصيانته، وتبديل أجزائه بانتظام قبل بلوغ العمر الافتراضي، هذه الحرارة المركزة تنتج طاقة متجددة، تفتح الباب أمام المزيد من الفتوح العلمية، والصناعية بأنواعها.

ثم أخذتني إلى المصنع الحراري، حيث وقف العاملون فيه سدا منيعا بيننا وبين حجرة التصنيع الحراري محكمة الإغلاق، فابتسمت أستاذتي وأخذتني إلى صناعات التبريد الحديثة، المعتمدة على الصخور الثلجية، فتذكرت أنها الصخرة التي جلبها الألباء قبل فترة إلى مجلس الجمل في أغطية جلدية سميكة، وتجولت بي من مصنعٍ إلى آخر، حتى وقفت بي على رصيف الحيتان الضخمة، لأرى رأي العين مالا يستوعبه عقلي، ولم يخطر على قلبي قط، مجموعةً من حيتانٍ ضخمة، تتعاقب على السير الزجاجي الأبيض، فترتفع لتمج من أفواهها كميات من الأسماك، والسير الزجاجي يسير باتجاه مبنى زجاجي مقابل. أذهلني المنظر، فسألتُ ركزا:

ـ هل الحيتان حقيقية أم افتراضية؟

ـ خلقها الله، وعلمنا تسخيرها لخدمتنا، فعلماء الأحياء البحرية عندنا يطوعون الحيتان

وغيرها من الكائنات البحرية، وقد أراحوا العاملين من ركوب أخطار المحيط وصيد الأسماك.

ـ وكيف يستعبدونها؟

ـ كما تستعبدون الجمل والحصان والدولفين والحيوانات الأخرى في عالمكم.

ـ كيف لكم تعليمها بهذه الدقة والتناوب؟

ـ لم تسمع شيئا مني عن دقتها، فلو تعلم أنها تصيد بفترات محددة، ومن مناطق صيد مختلفة، حسب نوعية الأسماك وهجرتها، فالحيتان مقسمة إلى مجموعات، لا تقل المجموعة عن عشرة حيتان، حسب أماكن الاصطياد التي تذهب إليها، تتناوب هذه المجموعات على مدار الساعة ولكل مجموعة مهمة صباحية ومهمة مسائية فقط، بعدها تخلد للراحة في مكانها المخصص، ولكل مجموعة طاقم إشرافي من الألباء يعنى بكل شؤونها. فإن خرجت للتنزه في المحيط، فلا تتأخر ثانية واحدة عن موعدها، وإن عانى أحدها مشكلة صحية، فالألباء يعرفون ذلك من خلال متابعتهم لها في فترات راحتها. وكيف تستغرب يا يحيى هذا، وكأنك لم تقرأ عن الخضر عليه السلام، وتمكنه من العلوم البحرية والمائية.

لم أنبس ببنت شفه، وكل ما فعلته أن تبعتها حتى دلفتُ خلفها إلى مبنى تجميع الأسماك، فأجبرنا العاملون على ارتداء ملابس خاصة، ونحن نراقبهم من خلف الزجاج، يقطّعون الأسماك وينظفونها بعناية وشاعرية حتى، يضعون كل نوع في سلته الخاصة، ثم توجهنا إلى مرفأ الحيتان، المكان الذي تستريح فيه بعد مهامها، وقد غطي بقباب زجاجية ضخمة في أعلى القبة يجلس ألباء الحيتان، طلبت من أستاذتي الصعود، فحركت رأسها بالنفي، ولم أجادلها. سرنا إلى نهاية المبنى، حيث المكاتب الضخمة للألباء المهتمين بالأحياء البحرية، خلف كل مكتب بيئة بحرية خاصة يدرسها بأحيائها في مبنىً ضخم من الزجاج، يحوي مجموعة من الأحياء البحرية التي يعكفون على دراستها وتسخيرها لرغباتهم، حسب شرح أستاذتي، التي بررت الاهتمام بالأحياء البحرية؛ لأهمية البحار للإنسان الذي يواجه انكماش اليابسة، وانصهار المياه المتجمدة، فلا بد أن يفهم سلوك الكائنات البحرية ويسخرها لخدمته إن لجأ إلى الحياة المائية يوما، وقد تلاشت اليابسة وأصبحت قاعا يجثم فوق صدره محيط. كما استغل الأحياء البرية على اليابسة وسخّرها لخدمته. عجبتُ كثيرا للأسماك التي

تنقل ما يأمرها اللبيب بنقله من مكان إلى آخر، وأسماك أخرى ناطقة كالببغاوات، وأذهلتني الأسماك السريعة التي يمتطيها غواصون مدربون، لكن الذي لم أستوعبه كيف لهم أن يتنفسوا تحت الماء دون أجهزة التنفس الاصطناعي تحت الماء، فسألت أستاذتي فقالت: أنهم داخل فقاقيع ضوئية شفافة مملوءة بالأكسجين الذي يكفي الغواص ساعتين على الأقل، وهذه الفقاعات مرنة ومقاومة للتمزق، ومع ذلك فهي ماتزال للاختبارات العلمية فقط لم تتح لأي استخدام آخر، لأنها تحد من تعاطي الغواص مع المخلوقات البحرية، فألباء البحار يدرسون إمكانية تكييف أجهزة الغواص للتنفس كالأسماك داخل الماء، لكن هناك عقبات تواجههم لم يستطيعوا التغلب عليها بعد.

نخرج من مبنى الأسماك والذهول يطوف بعقلي الصغير، أمام هذه العقول الكبيرة، في عالمٍ لا يؤمن بتلاشي الإنسان من الوجود قريبا، يواجه الطبيعة بتحدٍ، ويستغلّها أيما استغلال، يرى كل شيء خُلق له، لا يحتقر كائنا، ولا يحفز على قتل حشرة. نتجول على شواطئ البحر المزدانة بالتنسيق النباتي المدهش، والمصادِّ الصخرية البديعة، على مد الشواطئ التي سرنا خلالها، لم نجد مبنىً واحدا يحجب البحر عنا، سوى المصاد البحرية الزجاجية المبنية في عرض البحر، تبعد عن الشاطئ قرابة الخمسمئة متر، نسير على جسر زجاجي يوغل في البحر حتى وصلنا إلى مبنى تحلية ماء المحيط، وخاصية التبخير الهائلة، من خزان الغليان الزجاجي في وسط البحر، الذي يمر به الأنبوب الحراري الرفيع، فتسمع اضطراب الماء في الخزان، والبخار بكثافة يتصاعد إلى القبة الباردة العالية، ويسيل من خلال جدرانها إلى أنابيب زجاجية ضخمة، يندفع من خلالها بقوة إلى شبكة التوزيع، غير الأنبوب الذي يمر بالشاطئ، وتتفرع منه صنابير للاستحمام بعد السباحة في البحر، وأنابيب تندفع شلالات في مرتفعات خضراء، ويسيل ينابيع إلى الروابي، الجميلة حتى يعود إلى البحر، وكأن المشروع بأكمله نافورة ضخمة متوزعة. سألت أستاذتي:

ـ ألا يؤذي خزان الغليان الكائنات البحرية بتسخين محيطه؟

ـ كلا، فدرجة الحرارة في المياه المحيطة به عادية جدا، ويمكنك السباحة ولمسه حتى، لأنه معزول بزجاج معشق بفتات الصخور الثلجية من الجهة الخارجية، تعادل حرارة المحيط

الخارجي لتكون طبيعية.

ـ كيف تحافظون على الأنابيب الزجاجية من تراكم الطحالب؟

ـ جريان الماء ودرجة حرارته تمنع تكوّنها خلال الأنابيب، وإن أرادوا تنظيفها، زادوا درجة الحرارة درجة واحدة فقط. كذلك هذا الزجاج لا يقبل تكوّن أي مادة خلاله، ألم تستغرب كثرته في الجزيرة، في المباني وحتى في المصاد، هذا الزجاج يا يحيى مجلوب من كوكب الزجاج الوامض.

ـ أين هذا الكوكب؟

ـ أنظر إلى السماء، إذا وجدت كوكبا لامعا، له وميض مختلف عن باقي النجوم، فمرة تراه أحمر ومرة يميل إلى الزرقة، إذا دققت النظر فيه رأيت ألوانا عدة، خصوصا إن تأملته بالمقراب. يسميه فأسلافكم (نجم الغول) لتغير لون وميضه المتعاقب، والفلكيون في عالمكم يزعمون أنهما نجمان يدوران حول بعضهما.

ـ لا أدري، لكن كيف يقللون تدفق المياه، إن اكتفت القرية من الماء؟

ـ نخفض الحرارة من خلال الصخرة الثلجية في أعلى خزان الغليان، فتنقص إلى درجة أو درجتين على الأكثر، فيقل التبخير، وتبعا لذلك يقل تدفق المياه.

ـ وأنى لكم وضع هذه الأبنية كلها في أعماق المحيط؟

ـ بكل سهولة، من يملك الطاقة المغناطيسية، يستطيع بلوغ قاع المحيط دون أن يتبلل بقطرة ماء.

عدنا إلى عمق الجزيرة، خلال المروج الخضراء، والشلالات البديعة، أشجار الجوز والنخيل تتوزع على أطراف المروج، والصغار بنضارة الأبيض يلعبون تحتها، النوارس في تآلف عجيب معهم، لا يطيّرونها ولا تنفر منهم، كأنهم الوِلْدان المخلدون بملابسهم البيض، حتى وصلنا إلى مركز العبادة، وفيه كل الشعائر الدينية تقام جنبا إلى جنب، فترى الناس مختلطين يسيرون ويتكلمون مع بعضهم البعض حتى يصل الشخص إلى الطريق الموصلة إلى دار عبادة ديانته، يودع رفيقه ويذهب إلى مسجده أو كنيسته أو معبده، دخلت إلى المسجد الأبيض الجميل الهادئ، لا يختلف عن مسجد الجمل إلا بألوانه الناصعة، أما الإنارة وكوات الصوت

فكأنها هي، الرمل الناعم الأبيض يغطي أرضيته، الماء يسيل على امتداد محيطه الداخلي في هدوء، صلينا الظهر، وبعدما سلم الإمام، إلتفتُّ إلى الخلف فوجدت النساء يصلين خلفنا، لا يفصل بيننا وبينهن فاصل إسمنتي ولا خشبي، خاشعات مطمئنات في صلاتهن، فخجلت وعدت بنظري إلى موضع سجودي، خرجت فكانت ركزا تنتظرني، وتتوجه بي إلى قاعة الطعام الفارهة جدا، تناولنا المأكولات البحرية اللذيذة، كنت أتجنب بعض القطع لعدم استوائها، وبعضها لم أذقها لغرابتها. تناولني ركزا حلوى حيوان الإسفنج التي تحبها كثيرا، فأجدها حقا لذيذة. استأذنتني لمقابلة صديقتها في الحديقة، فلم أمانع. خرجت وحدي أتنزه حول مبنى قاعة الطعام، أتأمل جمال الجزيرة، ودهشتي بمنجزاتهم الصناعية التي أحتاج إلى شهور لاستيعابها. تقودني أقدامي إلى المروج الخضراء الجميلة والمياه الرقراقة المنسابة من بين الأشجار، وطريقة تقليمهم للأشجار بأشكال هندسية مدهشة، لم ألبث طويلا حتى عادت أستاذتي، فسرت معها إلى خيمة المعروضات الصناعية، حيث اجتمع القادة، أخذنا مكاننا في الاجتماع، ووزعت دهشتي بين المصنوعات الغريبة، بكل أصنافها واستعمالاتها. تجولنا داخل أروقة المعرض حتى ارتفع أذان العصر، سرنا إلى المسجد، وبعد الصلاة خرجت لأجد ركزا واقفة تنتظرني، فتغيب عني عندما التفتت فازرا بوجهها الذي لم يُخلق بجماله حسبما رأيت، عيناها تسقيان روحي فرات الشعور، نورانيتها تسحق سجف ظلمتي، لم أعد أرى شيئا حولي غيرها، وهي لا تجرؤ على رفع عينيها عن عيني، سلمتُ متلعثما، فصافحتني بيدها الناعمة الدافئة، فاستأذنتنا وهرعت بين جموع الناس، بودي أن أناديها بأعلى صوتي أن تعود، أستاذتي تسحبني، وأنا متسمّر في مكاني أرقب مائس قدها يتثنى بين الجموع حتى وارتها المباني، أفيق على صوت ركزا تسألني بحدة:

ـ ما بك، هل تشعر بشيء؟

خجلت منها، وكدتُ أذوب في جلدي، لولا رحمة كف فازرا التي تداركتني، وروحي تنضح بنورها، ورئتاي تكتنزان عبيرها الأخاذ، كأنني رأيت في عينيها بريق دمعة، تشعرني بالحرمان والبعد، هل عرفتني؟، هل شعرتْ بما شعرتُ به؟ هل أنا كامنٌ في أعماقها كما هي كامنةٌ في أعماقي؟. أظنني رأيت احمرار وجهها، وترقرق دمعة خجولة، لابد أن تلك الدمعة

قد نهبتها من يدي، كي تواريها عني وعن ركزا، ربما لم يجرفها بهذه السرعة إلا خجلها، أسير بين جموع الناس، وكأني في صحراء مقفرة إلا من رائحة فازرا، ليتني أدري بما تكنه لي هذه الفاتنة، ليتني أملك البقاء في قصوى، والالتقاء بها وحدي، لا يبعد كفي عن كفها خجل، ولا يصرف عينها عن عيني صارف ولا دمع.

أسمع في لاوعيي همهمة ركزا تحاول التواصل معي، وتخشى أنني متعب من المأكولات البحرية الغريبة، تتوالى أسئلتها، وأنا لا أدري بما أجبتها. كل الأفق أمامي يرتسم فيه وجه فازرا، أرى تلك الدمعة الرقراقة في عينيها تكبر وتكبر حتى تسيل على أنعم وجنة فتعطي المروج جمالا لم تتخيله نضارتها.

نسير إلى قاعة المغادرة برفقة الجمل، أرى وجه فازرا في كل شيء حولي، يرتسم في المباني، في الوجوه، في أجنحة النوارس، أشم أريجها في نسمات البحر المسائية، أشعر بخشونة كف أستاذتي ركزا، بعدما لمست أنعم أنثى، خرجنا إلى الجسر المؤدي إلى القاعة، وقبل بداية الجسر كان المودعون يصطفون، كاد نبضي أن يتوقف لمرأى فازرا بين الجموع، دون شعور بمن حولي رفعت يدي ولوحت بها مودعا، ففرجت العُنّاب عن البرَد، بابتسامة تؤجج في قلبي بذرة روحها، وتسقيني ألم الفراق، غابت في الجموع بعدما دخلنا قاعة المغادرة، ليتني لا أغادر قصوى، ليتني أبقى حبيس بحرها ومصانعها، ليت الجمل ينساني هنا ولا يدّكر، لا أود المغادرة، كأن أقدامي قد سُلسِلت بأثقال فولاذية، بالكاد أجرها، ويد أستاذتي تسحبني حتى أجلستني على مقعدي في المركبة، لنطير إلى تاوه، تحت مطر أسئلة الجمل:

ـ هل أعجبتك قصوى؟

ـ نعم سيدي، أعجبتني أكثر من رتال.

ـ بم أعجبتك؟

ـ بكل ما فيها من ثورات علمية لم تخطر على بال أحد في عالمي.

ـ ما أكثر شيء لفت نظرك فيها؟

ـ كل شيء فيها لافت، لكن الحيتان وألباء الماء، وتكريم العمّال كانت أبرز المذهلات.

ـ هل زرتَ مصنع المركبات؟

ـ كلا، لم أره، رغم توقي إليه. لم تخبرني به أستاذتي ركزا.

ـ ستزوره لاحقا، فهي حريصة أن تريك الأشياء على دفعات، هذا عالم النور يا يحيى، كل أمرٍ في مكانه، وحسبما كرّمه الله، ألا تكرّمون عمّالكم؟

ـ العمال أنواعٌ عندنا، فلدينا عمّال وافدون، ولدينا عمّال محليون، الوافدون لا يحظون بشيء، حتى مرتباتهم نراها تسلب اقتصادنا، وقد وهبونا جهدهم وعرقهم، أما العمال المحليون فبالكاد يعيشون على الفتات.

ـ أنتم لا تهتمون بالعامل، والعامل أساس نهضة الأوطان، هم الطبقة الكادحة التي تنفذ مخططات الطبقة المفكرة، فتمثّل الطبقتان جسم إنسان، الطبقة المفكرة رأسه، والطبقة الكادحة يديه، فلو كتفت يديه أو شدختهما، فماذا ستفعل بعقله وأفكاره؟ لا يحتقر العامل إلا أمة جاهلة، الدين يأمر بإعطاء العامل حقه ومكانته، بعيدا عن نظرات العبودية القاتمة، ويجب أن يعلم رب العمل، أن ظروف العامل هي التي جعلت عنقه في يد الموسر، فليضع نفسه مكانه، ولا يستأمن الدهر إلا أنوك.

ليس إكرام العامل إلا محفزا لعطائه، فكلّما أحبك العاملون معك، تفانوا واجتهدوا في إرضائك بما يجيدون ويعلمون.

لا أحب تفلسف هذا الجمل، ولا أجد الوقت مناسبا لهرطقته، فكل الفكر يتبتل في محراب فازرا الجميلة، أشعر بكلماتٍ ليست كالكلمات تمور في أعماقي، دواوين شعرٍ تنتحر على صلابة عيني الجمل وجُمله التهكمية بمجتمعي الظلامي، وتباهٍ بنورانية عالمه، كل ما أريده الآن أن نهبط بسلام، وأذهب إلى حجرتي، تشعر أستاذتي باشمئزازي من كلمات الجمل فتشغله عني، فأهيم في تلك العين الممتلئة نورا وماءً أجبرها اجتماعه على شاطئ رمشيها المسبحان بحمد الفتنة على الاستئذان قبل أن يبلل خديها الوضيئين الناعمين أمام ركزا، حركة شفتيها وهي تستأذن، تعزف أوتار قلبي المحموم بها، فأسيل لحنا عذبا على شفة الشعور العذب، أشعر بطاقة نابضة تسري في أوردتي، تطوف بحجرات قلبي الأربع. لكن الجمل لا يفوّت فُرص الثرثرة، ولو كنت نفسانيا لزعمتُ أنه يعاني عقدة كبتٍ قديمة،

فأصيخ إليه مضطرا بعدما تمرّد على محاولات أستاذتي ركزا:

ـ العامل يا يحيى إنسانٌ كادحٌ أدغمته الظروف في ياء التبعية، وكبلته لقمة العيش الكريمة في قطرة عرقه، فلا يُدخِل إلى جوفه إلا بمقدار ما تُخرِج مسام جسده، ولتعلم أن العامل يقدّم راحة نفسه على راحة جسده، وأتذكر قصة حكاها والدي قديما عن رجلٍ من أهل فلسطين يبحث عن عمل، فدخل مزرعة أحد الموسرين، وطلبَ عملا، فقال له صاحب المزرعة عندي لك عملا، لكن لا أراك أهلا للعمل، فأبدى الرجل استعداده لقبول أي عمل يسنده إليه، أطرق صاحب المزرعة مليا ثم قال: أريد أن تنقل أشجار الزيتون من أماكنها في وسط المزرعة لتكون على أطراف البستان، وأي شجرة تموت لن أعطيك ليرة واحدة، وستعمل مقابلها شهرا في المزرعة مجانا، فلم يتردد العامل في قبول المهمة رغم قسوة التشرّطات، بدأ الحفر عن الشجرة الأولى، دهش صاحب المزرعة من جدية العامل، فأمره بالتوقف، وسأله: لماذا قبلت بهذا العمل الشاق وتشرطاتي القاسية؟.قال العامل: سمعتك البيضاء ياسيدي، فكل العمال الذين عملوا معك كانوا يثنون على إنصافك وكرمك، ولن أتردد في العمل لديك. وفجأة دخل أخو صاحب المزرعة وهما يتناقشان، فصاح بالعامل: ما الذي جاء بك إلى هنا؟. قال العامل: أبحث عن رزقي. فعلم صاحب المزرعة أن العامل قد عمل مع أخيه، ثم ترك العمل عنده. فقال لأخيه: خالق الناس بخلق حسن.

لم أصدق أن المركبة قد حطت بنا، وأسكتت الجمل الذي أخذ يشرح لي ما يستفاد من القصة التي ساقها عن أبيه عن جده، ولو طالت المسافة لأتى بأقاصيص عمال الأقدمين وعبيدهم وكأنني سأغير في نظرة الموسر إلى الفقير المحتاج، وسأقلب متلازمة انخفاض الرحمة مع تزايد بريق الذهب، كدتُ أن أركض بعدما لمست قدماي أرض تاوه، فتصنّعت التؤدة حتى دخلت حجرتي فأغلقت الباب، لأستخرج دفترا من حقيبتي العائدة من أيدي الغدر في نزل المحافظة، فأتمدد على بطني، وقلمي مرتمٍ على جبين قلبي، يسير مطواعا على أوراق دفتري النقي، بكلمات تشبه الشعر، كنت أترنم بها والجمل يمج فلسفاته الهاذرة، يحسبني أبالي بكلماته الجوفاء، لا يدري عن غريق في روح شفافة، شمس أضاءت روحي، بددت قتامي وخوفي، أقتات على ضوئها، لأضيء كالهلال النيّر التابع للشمس المنيرة، فأكتب ما

أحسسته :

هناكَ التقيتُكِ في عالمِ الروحِ..

حيثُ المكان الذي عقمتْهُ الشموسْ..

فأنبتَكِ الطهرُ هالةَ ضوءٍ..

وأشرقتُ من وهجِ الروحِ نورْ..

فكنتُ الهلالَ الجميلَ..

تغذّى الضياءَاتِ من روحِ شمسِه..

وأحْيَا المساءَ..

وجابَ السماءَ..

، ، ،

صليت المغرب ثم أبحرت في عيني فازرا، لا أريد أن يقطعني شيء عن التفكير فيها، أتأملها وهي تقف بين الجموع، تغدق على شمعة أملي إضاءة ثغرها الجميل، أسمع هتافها في أعماقي تهمس في أذن تعاستي أعذب الكلمات، وتجلد البعد بتلويحة (إلى اللقاء)، أوغلُ في تأمل عينيها، وأوغل حتى أراهما قصيدتين لم ينجبهما شاعر، بابين إلى خلود النقاء فأكتب فيهما :

الباب الغارق في عينيك..

بمَ يسرق علبة ألواني؟!

أهيم في عينيها كثيرا، تتكدس حروف شعري في حنجرة قلمي، أنفضه بعنف، وأخربش به راسما عينيها المغرورقتين بالدمع، أحار في رسم الدمعة المترقرقة، أتوق إلى إسقاطها، تعاندني اشتهاءَ النوم على شاطئ رمشها الأسفل، أرسم قلبي مجنحا يطير من صدري كعصفور سئم قفصه، فجاب الرّبى مغردا باسم الحرية، هل سأحرر قلبي من مقامع عقلي الجلاد، أم سأملّكه تلك الفاتنة فتصنع فيه ومنه ما تريد، أرسم كفها الناعمة وهي تلوح، فيجلد عقلي ظنون قلبي الغرير، لربما كانت تلك الدمعة لتذكرها قرية تاوه، ولربما كانت التلويحة

لصديقتها ركزا، هل أنا معتوهٌ حقا، لأتخيل أنها تحبني، وماذا لديّ لتحبني وأنا القادم من عالم الظلام، أي تعيسة أنت يافازرا لتقعي في غرام رجل ظلامي جاهل، تعلمه صديقتك ركزا أبجديات العلوم. يا الله، تتزاحم الأنفاس في صدري المسكين، فأزفر آهةً كآهة عنترة الأسود الذي أغرقته ظروفه في حب غانية بيضاء، لم ترَ فيه أكثر من عبدٍ أسودٍ، هل أنا في عيني فازرا كعنترة المسكين في عيني عبلة؟! ربّاه هذا الشعور قاسٍ جدا، لا أقوى حتى على التفكير فيه. فازرا تحبني، نعم تحبني، ولو كانت لا تبالي بي لوقفت عندما أتيت، لكنها خشيت أن يفتضح حبها أمام ركزا فانصرفتْ.

غرقت في لجج كل شيء ولم أشعر بنفسي إلا صباح اليوم التالي، أجمع دفتري وأقلامي وأخبئها في حقيبتي، أردد بصوت عبدالمجيد عذوبة بدر:

البارحة..

البارحة.. غمضت انا عيوني..

على وجهك سريت..

حبست بعروقي..

دفا صوتك.. دفا صوتك..

وسريت..

...

أغادر غرفتي إلى مجلس الجمل. أجده جالسا ينتظرني على الإفطار، وابتسامته تشي بأن لديه أمراً عن عالمي والتوق إلى التهكم به يؤزه أزا، أو أن صدره مليء بأحاديث لم يطلعني عليها بعد، أبادله الابتسامة بأختها، والإفطار العسلي يسيل لعاب جوعي النائم دون عشاء، ينظر إليّ الجمل فأستمع إلى نظرته التي تقول لي أصغِ يافتى:

ـ متى رأيت (ياسوم) آخر مرة يا يحيى؟

ـ ياسوم؟

ـ الرجل الأحمر اسمه ياسوم.

ـ أها، عندما عدت من جدة، وجدته وأعطيته علبة سجائر.

ـ هل قال شيئا؟

ـ لم يتكلم معي مذ رأيته أبدا، لا يستخدم إلا لغة الإشارة فكأنه أبكم. ماذا حدث؟

ـ يبدو أنه نجح في اختراق الحجاب إلى عالمكم.

ـ وأنى له ذلك.

ـ هو من كبار الألباء. وكل ما يحتاجه أن يتنازل عن النور ليعود إلى بشريتكم، ويحيا في عالمكم.

ـ هل يشكل خطرا علينا أو عليكم؟

ـ خطره على نفسه أكثر، لأنه إن دخل عالمكم فسيكون منبوذا بلونه الأحمر الفاقع، وربما يسجن أو يقتل، أو يعرض في حديقة حيوان للنظارة.

ـ ما مشكلة هذا الرجل؟

ـ ياسوم مشكلته طويلة ومعقدة، فلربما كانت تركيبته النورانية غير متزنة كما يجب، كان اللبيب المسؤول عن الطب، ونبغ في مجاله حتى أصبح كبير الألباء، لكن لديه نزعة شهوانية جعلته يتخطى الحدود إلى العاملات، بالتعدي عليهن، ومضايقة اللبيبات، وعوقب أكثر من مرة، لكنه تمادى حتى بلغ الأمر به أن أجرى تجربة على طفلٍ صغير من ابناء السجناء، ثم اتخذ الألباء قرارا بتنحيته من منصبه، وبقي لبيبا في الطب دون أن يملك ناصية قرار، ثم بدأ يثير المشاكل في مجتمع الأطباء، حتى ضاق به الجميع، فقمنا بإرساله إلى رتال ثلاثة أشهر، وهناك اعتدى على رئيسه فأعادوه إلينا، وفور عودته، اتصل بالطبيب السوداني الذي عُيّن في المستوصف، فتواصل معه، وكان الطبيب السوداني (التوم) شغوفا بالسحر، وما يتصل بأعمال الشعوذة، وربما تتذكر الثعبان المجفف المعلق على باب العيادة، حيث وجده التوم في الجبل، وأحضره إلى المستوصف واستخرج منه بعض الأشياء التي يظنها تساعده في أعماله الطفولية، أخذ ياسوم بمعاونة الطبيب يخيفون السجناء بالثعبان، وينكلون بهم، حتى بلغني الأمر، فحذرتهما أكثر من مرة، لكن ياسوم أغرى الطبيب بدخول عالمنا وتجاوز السجناء إلى طريق القصر، حاولت أن أثنيه لكنه أصر، وقال أن هذا الرجل لديه قوى خارقة، نستطيع أن نمزجها مع علومنا ونتوصل من خلالها إلى كشوفات عظيمة، أقنعته بأن التوم جاهلا قادما من

الظلام لا يملك إلا الوهم، ولو كان في يده أن يقوم بقوى خارقة لما ترك السودان وجاء إلى الخليج، فاقتنع ووعدني أن يترك الأباطيل، لكني لم أسترح لوعده، فكلفت من يراقبه، حتى وجدناه يسرق المقاريب ويذهب بها إلى الطبيب، ويشي للطبيب ببعض الأسرار المهمة، فأمرت باحتجازه، ولم نستطع لما يملكه من مهارات تفوق مهارات الجند، فهو ثعلب ذكي جدا، واستطاع الاختباء هو والطبيب في الكهوف لأكثر من أسبوع كامل، حتى عرفنا مكانهما أخيرا، فانتدبت إليه المتصرف مع مجموعة من أمهر رجالنا، ووجدوهما في كهف مظلم، أمرت المتصرف أن يتربص بهما حتى يكون الطبيب وحيدا، ولما تمكنّا من الطبيب منفردا، قاما بتنفيذ خطة الإرعاب التي لم يصمد كثيرا أمامها، حتى انهارت قواه، فكبلوه وذهب به بعض الرجال إلى المستوصف، أما ياسوم فقد عاد ولم يجد الطبيب، فاتجه إلى المستوصف وهناك ضبطه الرجال، وأتوني به مكبلا، فاجتمع كبار الألباء وقرروا حجبه، وتأميره، فحجبوه عقليا، ولم يبقوا له إلا غرائزه العادية كالحيوان، وبمحلول التأمير جعلوا لونه أحمر كما رأيته، أمارةً ليعرفه الجميع، ولا يتعاملون معه. أما التوم فقد أوصلناه إلى مدير الشؤون الصحية دون عقل، ولم نتابعه بعد ذلك. المقلق يايحيى أن ياسوم في آخر معلومة وصلتني عنه قد بهُت اللون الأحمر في جسده، وهذا ربما يؤشر إلى تغلب مقاومته على المحاليل الطبية، وما يزال الرجال يبحثون عنه حتى الآن.

ـ إن دخل عالمنا فربما يتغير لونه، ويستطيع العيش هناك.

ـ لكن قواه العقلية لا تمكنه.

ـ ألم تقل أن مقاومته هي التي جعلت اللون الأحمر يخفت قليلا، فربما تجعل الحجاب العقلي أضعف أيضا.

ـ هذا ما أخشاه. وإن زال الحجاب، فسيشكل خطرا عظيما.

ـ وإن حدث هذا، فماذا في أيديكم؟

ـ لابد أن نقبض عليه ونودعه السجن حتى ينصلح. أو لن نجدد خلاياه.

ـ ألن تقتلوه؟

ـ لا قتل في عالمنا أبدا.

ـ ألا تستطيعون تحديد مكانه من خلال النجوم؟

ـ سأرى ما في وسع الألباء.

ـ ماذا تعطيني إن أتيتك به؟

ـ ماذا؟ أو تستطيع يا يحيى؟

ـ سأحاول.

ـ لن أسمح لك بالاقتراب منه، فلو انكشفت له الحجب، لدمر مشروعنا، وأول شيء سيقوم بتدميره أنت.

ـ ولماذا يدمرني؟

ـ إن أفاق سينتقم، وأنت أثمن شيء لدينا في هذه المرحلة. لذلك يجب أن تحتاط يا يحيى جيدا، ولا تخرج إلا برفقة أحد الحرس، وسأعين معك، أمهر حراسي، يستطيع مقاومته.

ـ سيدي أنا أشعر أني في سجنٍ وأنا بدون حارس، فما بالك بحارس وخوف، وتقييد.

ـ هل تعلم أن (فازرا) تقضي سجنها بسبب خطأ بسيط في نتائج فحصك؟

تنهدتُ وأنا أعلم أنه يريد إظهار أهميتي بهذا السؤال، وليته يعلم الجرح الذي نكأه بذكر اسمك يافازرا البعيدة، ليتك لم تخطئي في تلك الفحوصات، وليتني لم أكن السبب في شقائك الذي أصبح شقائي. أنظر في عيني الجمل، وهو يفكر، هاتان العينان فيهما أسرارٌ عظيمة، لا أدري كيف أفك رموزهما، هل ستساعدني (ركزا) وتشرح لي غموض هذا المتدثر باللثام منذ التقيته؟ ليته ينام وينقشع هذا اللثام عن وجهه فأراه رأي العين، أو تهب عاصفة هوجاء ونحن في المرج الأخضر تقتلع عمامته ولثامه، توقي إلى رؤية وجهه يتأجج كل يوم، هل ملامح هذا الرجل العظيم تطابق أفعاله، هل سيكون وجهه وجه حكيم أم شرير، أم تقي أم أي وجه تحمل يا جمل؟!

قاطع هواجسي بعد صمت بقوله:

ـ كيف تقيّم لياقتك الرياضية؟

ـ جيدة جدا يا سيدي، فأنا ماهر في السباحة، وبعض الشيء في كرة القدم، والكرة الطائرة.

ـ والألعاب القتالية؟

ـ هذه لم أجربها قط.

ـ ما رأيك إن جربتها في عالمك الجديد؟

ـ لا أعلم، لكن ربما تكون أعنف مما هي عليه في عالمي.

ـ اطمئن، ستراها بنفسك واحكم، هيا بنا.

خرجت معه إلى المرج الأخضر، وسرنا خلال الطرق حتى تجاوزنا الأماكن التي كنت آلفها، ثم استدرنا من خلف الرابية المرتفعة، وهبطنا سريعا إلى مبنى صالة الألعاب الكبرى تحت سفح الجبل من الجهة البعيدة عن القصر، دخلتُ معه إلى الصالة البيضاء الساطعة، أرضها لم يغيروا فيها شيئا بل هي أرض المرج الأخضر فاستقبلنا رجلٌ نحيل القامة، طويلٌ مشرّبٌ بحمرة، لولا سواد شعره لحسبته (توني بلير)، رحب بالجمل، فعرفه بي، وعرفني به اللبيب (زادل) مدرب الألعاب القتالية في الصالة الرياضية، لم يطل الكلام بينه وبين الجمل حتى، أخذ يقيس جسدي بعينيه سريعا، ثم أشار إليّ أن أتبعه، ففعلتُ على الفور، وبجوار المسبح وأنا أسير خلفه جريا، كانت الطريق ضيقة بالكاد تتسع لشخص واحد، تفاجأت به يسرع أكثر، ثم يرتدُّ إليّ بلكمة قوية، لم أستطع تحاشيها إلا بإلقاء نفسي في المسبح، فتبللت كلي في تلك المياه الدافئة، وبالكاد توازنت، لأطفوَ فوق الماء وأراه يشير إلى الجمل الواقف يرقب المشهد من بعيد، مد (زادل) يده فأخرجني من المسبح، بودي لو أملك القوة الكافية فألكمه ليسقط في المسبح، لكنني حسبتُ العواقب، فلم تكن رياح الحظ مواتية.

أخذني إلى غرفة تبديل الملابس، ألبسني مجموعة أنيقة من الملابس القطنية الخفيفة، ناعمة باردة، المذهل في الأمر أنها مريحة، لولا رؤيتي لها على جسدي، لظننتني لا ألبس شيئا البتة، أشعر بجسدي متحررٌ من كل شيء، أمرني بالوقوف على سائل هلامي صبه في قالب مربع، فوقفت عليه، أشعر به يرفعني لم تخترقه قدماي، فأخذه بعد نزولي عنه، وناوله إلى رجل يقف جواره مباشرة، وفي أقل من خمس دقائق، وحذائي الرياضية جاهزة، سألته على الفور:

ـ ماذا حدث بالضبط؟

ـ لا شيء، فقط أخذتُ قياساتك الدقيقة عبر جهاز القياس الذي يأخذ وزنك وعرض

القدمين وطولهما، وتفرق أصابعك في الأمام أو اقترابها، وارتفاع القدم، وبروز الكاحل، وفور أن يرى العامل القياسات يأتيك بحذائك مباشرة، كيف وجدتها؟

ـ في الحقيقة لم ألبس حذاء براحتها وخفة وزنها.

ـ ستساعدك على الجري وأداء التمرينات الرياضية كما يجب. هيا أرني سرعتك في مضمار السباق.

رافقته وأخذنا نجري جريا خفيفا، ثم متوسطا، ثم أطلق لساقيه الريح، تذكرني حركتهما بالكابتن (هادي صوعان) في الأولمبياد، حاولت اللحاق به، وهيهات أن أبلغ نصف سرعته. بعد وقوفنا أخذ يعلمني طريقة تحريك اليدين، وأهميتهما في التجديف في الهواء أثناء الجري باتزان، وإغلاق الفم، وحركة القدم أثناء وضعها لتعطي الإنسان خاصية الوثب المدغم في الجري عندما ينزل على المشط الأمامي من القدم، جربت بتعليماته وأحسست على الفور بتحسن جريي عن ذي قبل وبلغت سرعة معقولة في نظري ونظره وهو يحفزني.

أخذني بعد الجري إلى صالة حمراء، صالة الألعاب القتالية، أراني الأجهزة التي تشيب لها رؤوس الرُّضع، أجهزة تقذف باللاعبين مسافات متفاوتة لا تقل عن ٢٠ مترا، من ارتفاعات متفاوتة، ويجب أن يتوازن اللاعب في الهواء وينزل على قدميه، ويقوم بمهمة محددة أثناء نزوله، أو سيتعرض لخطر يفاجئه، وآلة أخرى تدور باللاعب بسرعة تصيبه بالدوار، ثم تطلقه على الأرض، وعليه الجري بخط مستقيم والتقاط الطبق الذي يلقي به المدرب في الهواء. غير آلات الشقلبة، وآلات القوة التي تقبض على أذرعة اللاعبين وأقدامهم وعليهم تخليص أنفسهم منها بالقوة العضلية في وقت قياسي حسب مرحلة التدريب. كل هذه الآلات وغيرها الكثير، مررت عليها والمدرب يشرح، لكنه طمأنني أن ممارسة هذه الألعاب بعد اجتياز النقطة (ج) في السرعة، فأنا بالكاد بلغت اليوم النقطة (م) حسب الترتيب الهجائي معكوسا، وأعلى النقاط ستكون (أ).

خرجنا من الصالة الحمراء، وعدنا إلى البيضاء، دخلنا حجرة سمّاها، حجرة التيارات المتعاكسة، دخل معي وشرح لي كيفية المشي داخل تلك الحجرة، وأخبرني أن هناك أجهزة تقيس قوتي في مقاومة التيارات القوية بأصنافها المائلة والعمودية والمستقيمة والمنبثقة من أسفل،

باختلاف درجاتها الحرارية من باردة إلى حارة. ثم أمرني بخلع ملابسي، ولم يعطني إلا الرقعة الجلدية التي تحمي مناطقي الحساسة، دخلت في معمعة الهواء الذي بدأ بسيطا ثم تعالى، حتى كاد أن يصمّ أذنيّ بصفيره، فاستنفرت كل حواسي وهرموناتي؛ أحاول مقاومة تلك التيارات، مرة تقرصني بردا، ومرة تلسعني حرارة، وتيار يدفعني إلى أعلى وآخر إلى الأمام وهكذا بقيت في صراعٍ معها، بالكاد مشيت خطوتين إلى الأمام، ثم توقف كل شيء، وانفتح الباب لأخرج مرتعدا من فرط تدفق الإدرينالين في جسدي المقاوم، حياني زادل، وأعجب بمهارتي عندما كان لا يراني أستطيع التقدم خطوة واحدة، ثم أخبرني أنه في نهاية التدريبات ستجتاز هذه الغرفة بأمتارها الخمسة عشر كلها، وأنت قوي البنية سليم الحركات، متقد الذهن.

أخذني إلى حجرته، وشرح لي أنظمة الصالة، وأهمية المحافظة على الممتلكات فيها، سواء أكان أثاثها أم مستلزمات المتدربين الشخصية، فلا خزانات بأقفال للملابس، ولا يجرؤ أحدٌ على لمس شيء لا يخصه. فسألته:

ـ هل هناك أصناف من الأطعمة أتجنبها أو أركز عليها؟

ـ كلا، كل ما يعجبك شرط أن يكون طبيعيا، لكن تقيّد بقاعدة الغذاء المثلى:

" نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع "، في هذه القاعدة أغنى النصائح للمحافظة على الجسد سليما من الأدواء والترهلات.

ـ سأفعل ذلك سيدي، هل أذهب الآن؟

ـ نعم، وأراك غدا في مثل الوقت الذي حضرت فيه.

ـ والملابس ماذا أفعل بها؟

ـ ضعها مكان ملابسك، وهناك من سيتولى أمرها.

خرجتُ لأجد رجلا ينتظرني عند الباب، هيأته توحي بأنه من حراس الجمل فلم أبالِ بوجوده، لكنه اقترب مني في احترام جم، سلّم وأخبرني أنه مكلف بحراستي، ثم سار خلفي. لم أفرح به حقيقة وشعرت بالخوف والتوتر، لكني لا أملك خيارا في القبول أو الرفض في عالم الجمل، ولما بلغنا القصر، لم أجد الجمل كالعادة قبيل صلاة المغرب، سألت الحارس فأجاب بنفي علمه، جلسنا فإذا بالحارس يقف فجأة، يصغي بعناية، ثم يقول (نعم لقد

عاد)، أتلفتُ في كل الأرجاء لأرى الجمل، لكني لا أرى شيئا، ولم أسمع حسّا، أتأمل الحارس الواقف وكأنه يحادث أحدا بإصغائه، ثم يختم الموقف بقوله (نعم سأخبره بذلك). لم أتمالك نفسي الآن فوقفتُ وقلتُ له:

ـ ما الأمر؟

ـ الجمل يا سيدي، يسأل عن عودتنا إلى القصر، ويخبرك أنه في قصوى لأمر طارئ.

صعقتني بإجابته، فسألته منفعلا:

ـ وكيف لك أن تسمعه وتحادثه وهو في قصوى؟

ـ بالتواصل سيدي.

تذكرتُ قول الجمل عن التواصل واستشهاده بكرامة عمر بن الخطاب وسارية، لكن قررت أن أتغابى:

ـ وما التواصل؟

ـ أن نتحادث عن بعد أنا وأنت.

ـ بدون أجهزة اتصال.

ـ نعم كذلك.

آمنتُ عميقا بقدرات هذا الجمل وعالمه الخارق للعادة واللاممكن، وكيف له أن يحادثه بهذه السهولة، والوضوح؟ ما الأمر يا ترى؟، لو كانت هذه التقنية في عالمي، لارتاح الناس كثيرا من عناء شركات الاتصالات وجشع القائمين عليها، ولتخلصنا من أعباء كثيرة على صحة الإنسان بدءا بالموجات الكهرومغناطيسية للجوال، وانتهاء بالتلوث البيئي الذي تحدثه ملايين أجهزة الاتصالات التالفة سنويا. ناهيك عن توفير الأموال وبذلها في خدمات أنجع.

هؤلاء القوم لا يجعلون مواطنيهم يبددون ثرواتهم، فالماء متوفر للجميع بأعلى نقاوة، والإضاءة طبيعية في كل منزل، والتبريد كذلك طبيعي، وهاهو الاتصال كذلك، والتعليم متاح للجميع، والعدل وارف، والأمن مستتب، والصحة مكفولة ثلاثة أعمار لكل فرد إلا من تلف تلفا كبيرا كسقوط أو غرق أو دهس، وحتى الترفيه مكفول، والوظائف مؤمنة للجميع مع هذا؟ ماذا سيريد الإنسان الذي يحيا هذه الحياة الكريمة؟

لا مبررات كي يخرج عن الطريقة المستقيمة وينحرف إلا القلة القليلة جدا من المارقين تربويا أو نفسيا، وبينا أنا في هذه الهمهمة، أقيمت الصلاة فصليتُ في المسجد، وفي الصلاة كان الشيطان هذه المرة حاضرا، فقد أحضر لي فازرا الجميلة كلها، وحرك في رأسي كوامن أمانٍ بالتواصل معها، عبر تقنية (التواصل)، لكن كيف؟ طرأت لي أستاذتي (رِكزا)، فانطلقت إليها بعد الصلاة، ولم أجدها، سأل عنها الحارس فأخبروه بأنها مع الجمل في قصوى. فعدتُ أجر أذيال الخيبة. ولا صدر حانٍ في هذه الغربة يحتضن روحي إلا دفتري، المندس تحت وسادتي، كلما فتكت بي أبناء الليل (الأرق / الظلام / الوحدة / البرد / الوحشة / السرمدية...) سامرته، وطيف فازرا يعانقني، ويثج في قلبي أصناف المشاعر، لكن الليل يكبلني في البعد عنها، وليته يكتفي بتكبيلي:

كفَّ يا ليلُ يديكَ السودَ عني
لستُ إلا ناسكا في دِيرِ فني

وابتعد عن نغوةِ اللحنِ ودعْها
تندلقْ ما بينَ إطرابٍ وأنِّ

هل أنا صِنو التعاساتِ لأغدو
عندليباً ذنبُه حُسنُ التغنّي؟

ويكأنّي دميةٌ في جوفِ ليلي
داسَها أطفالُهُ حتى تغني

مِتُّ فقدا، وفراق الإلف ليلٌ
يتبنّاني، فيا نعمَ التبنّي..!!

١٢

" العقل والعاطفة صديقان يغار أحدهما من الآخر "

* ركزا

- ١٢ -

في حجرتي الدافئة طقسا، والباردة روحا، كنت أقلب عين الذكرى بين أهلي وفازرا، وصديقي أيمن، لا أدري لماذا تحضرني (سوسن) ابنة خالي، هل أجري وراء سراب فازرا وأترك سوسن التي تحبني، أم ماذا تخفي ألواح أيامي القادمات؟ أشعرُ بالضنك حقا من هذا الشعور المتمترس خلف وجهك يا فازرا، هل تحبينني فعلا أم أتوهم أشياء افتراضية يخلقها خيالي العابث، الذي قيّده واقعي القديم، ولم يصدق وهو ينطلق محلقا في كل الأرجاء في هذا العالم الخيالي العجيب، ربما لم تكن تلك الفتاة التي رأيتها في قصوى، ربما كانت فتاة أخرى طبع خيالي صورة فازرا على وجهها، وإن كانت فازرا؛ فربما تلك الدمعة المتمددة على رمشيها لم تكن دمعة شوق ومحبة، جعلتها تهرب كي تداريها، بل دمعة أسى عندما رأت المتسبب في إقصائها عن (تاوه)، لكن لماذا تلحق بي وتودعني؟ ربما أيضا لم تكن فازرا، يا الله، الحيرة قاتلة، متى تعودين يا رِكزا، سأواجهك بأسئلتي، ولن أخشاك، أنتِ أنثى والإناث دائما لديهن طرقهن في لمح الدقائق العاطفية، فعسى أن تكون فازرا قد باحت لكِ بنبضة تكونت بفعلي، لكن كيف ستبوح لها و قد هربت خشية فضيحة دمعتها وقتذاك؟، الأهم أن تكون ركزا قد لاحظت شيئا يطابق حدسي. آآه يالك من حدس أبله، تحب وأنت لا تعلم بحقائق الأمور بعد، لماذا نقع في الحب عميانا دائما؟ ولماذا تختلف أقدار هذا الحب؟ لم أجدها تطابق التمنيات أو الواقع إلا قليلا، سوسن تحبني وأنا لا أبالي، وأحب فازرا وهي ربما لا تبالي، كم أنتِ مرهقة يا عواطفنا المجنونة، تسيرين دون هدى عقل أو بصيرة.

الحب، الشعور النبيل، الذي أعيى علماء النفس، حتى تفلسفوا وأفرطوا في فلسفته تحت وطأة عجزهم عن فهم كنهه، حتى اعتبروا تضحيات الحبيب من أجل حبيبه ظاهرة نفسية، أسموها الماسوشية، والتلذذ بالألم، لم يجربوا الحب يا فازرا، لم يجربوه، ولم يشعروا بلذة آلامه المبرحة، يظنون أننا نتلذذ بآلام الفراق، وحرقة الأشواق من أجل حاجة نفسية، لم يعلموا أن سلطان الحب، هو الذي جعل الألم لذيذا، وليست مزاعمهم الخرقاء بأنها إرادة نفسية، أو ترسبات ماضوية.

حبيبتي البعيدة جسدا، الحاضرة روحا، إليك يهمي شوقي المرتبك، شوقي الباحث عن التماعة فأل في دريّة دمعتك الخجولة بقصوى، في ارتباكاتك، والرعشة الخفية عبر نعومة أناملك، متى تقلب عيناك صفحات قلبي في دفتري المزدحم بك:

إليكِ على البعد يحيا ارتباكْ..
أنادي على كل شيء هناكْ

أنادي على لحظات ارتوائي
وماؤك يختارني عن سماكْ

تجيئين مزنا وسيم السجايا
يثج على قامتي من ضياكْ

ويصغي لصوت الثرى في حدائي
وصوت القصيدة يغزو عُلاكْ

أنادي على كل صوت تهادى
على شرفة النور فوق السِماكْ

تفتش عن دانتي في البعاد
وما أخطأت إذ رأتك الملاك

سيأتيك صوتٌ غشاه الذبول
به عطشٌ يشتهي عذب ماك

إذا مسّك الحر من ناره
فذاك اشتياقي إلى ملتقاك

صحوت مبكرا، ووجدتُ الجمل في المسجد، سلمت عليه بعد الصلاة، وجلسنا إلى الإفطار، وحارسي الشخصي لا يبقى معي إذا كنت في حضرة الجمل، سألني عن الصالة الرياضية وما فيها، أجيبه وبالي منشغل بتقنية (التواصل) هل أسأله عنها؟ أم أسأل عنها ركزا؟، ربما لن يجيبني فأنا خبير بتسويفاته، والأصوب أن أعرِض عن هذا وأسأله عن رحلته:

ـ لم أعلم بذهابك إلى قصوى؟

ـ كان الأمر طارئا بعد عودتي من الصالة الرياضية.

ـ لعله خير، إن شاء الله؟

ـ هو خير بإذن الله، حدثَ مدٌّ متوسط وسط المحيط، بعد انزلاق بعض طبقات الأرض، أحدثت خلخلة في القاع، فاضطرب المحيط وتحركت موجة عارمة كالتي تسمونها (تسونامي)، لم يتنبأ الألباء لهذا الانزلاق، لكنهم انتبهوا للحركة العنيفة، فأخبروني وتحركت مباشرة، قبل وصولنا كادت أن تضرب جزيرة قصوى، لكن الألباء تمكنوا من إعادة اتزان المحيط بواسطة القوى المغناطيسية، حتى تراجعت حدة الموجة وتلاشت تماما، كان أخشى ما أخشاه ألا يسيطروا سريعا، فتضرب الكرة الحرارية أو أحد أنابيبها فتغلي المنطقة المحيطة بالجزيرة كلها، وتحترق.

ـ يا الله، إنه حادث جلل.

ـ الحمد لله أن آتانا فضل العلم، وجنبنا هذه الكارثة.

ـ وعالمنا الذي يقع على طريق الموجة، هل تضرر؟

ـ حسب المعلومات، الموجة لم تصل إلى الأرخبيلات والجزر، فكانت في عرض المحيط، ونحمد الله أننا تنبهنا لها، ربما لم يشعر بها عالمك يا يحيى.

ـ لماذا رافقتك استاذتي ركزا؟

ـ ركزا لبيبة تعليم، ولبيبة إدارة الكوارث ـ أيضا ـ، وقد رافقني معظم الألباء من هنا.

ـ ليتني كنت معكم.

ـ كنت معنا يايحيى، ولم تغب عن بالي، رغم الحادثة، وكنت قلقا عليك من ياسوم، لكن اطمئن الحارس الشخصي سيبقى معك فقط حتى تجيد الدفاع عن نفسك، وبعدها ستتولى أنت حماية نفسك.

ـ هل ياسوم قوي إلى هذا الحد؟

ـ لا أعلم حقيقة عن هذا، لكن الأمر المنطقي أن نتحسب ونستعد لأي مواجهة مع هذا المارق، فلا أحب قول (ليت: لو) بعد وقوع الحادثة.

أعجبني منطقه هذا جدا، وتذكرت لوكَنا هذه المفردات بعد كل حدث، وهيهات أن تجدي، رفعت رأسي مزهوا بعرض خدماتي:

ـ سيدي هل أساعدكم في القبض على ياسوم؟

ـ ماذا لديك؟

ـ ياسوم يحب التبغ جدا، دائما ما يأتي يبحث عنه، فما رأيك لو أحضرنا تبغا عند المستوصف وأشعلناه، فسيأتي على رائحته، ثم نستطيع القبض عليه.

ـ فكرة صائبة يا يحيى، لكن دعني أقلبها على كل وجه، وأطرحها على المتصرف، لكن لن ننفذها حتى تتقن كل تدريباتك الدفاعية.

ـ سيطول الأمر.

ـ كلا لن يطول، المدة كلها أسبوعان فقط.

ـ إذن ليتخذ المتصرف الإجراءات بنفسه، ويجعل أحد الجند يدخن فتقبضون على ياسوم بدوني.

ـ كلا، ياسوم ليس غبيا، يعلم أننا جميعا لا ندخن، لكن الآتين من عالمكم يدخنون، ولن يصدق إلا إن رآك أنت تدخن أو أحدا آخر من عالمك.

ـ أكل شعبك لا يدخن؟

ـ نعم لا ندخن فقد ثبت ضرره صحيا.

ـ حسنا إذن سأتم تمريناتي وبعدها نرى.

ـ يحيى، أريد أن تتعلم مني أشياء كثيرة، وأحرص على ملازمتك مجلسي، وتنقلاتي، وطريقة إدارتي للأزمات التي تواجه عالمنا هذا وعالمنا الكبير.

ـ أتتدخلون في مشاكل عالمنا يا سيدي؟

ـ ألسنا جزءا من هذا العالم، هل تتذكر حرب الخليج الثانية؟

ـ نعم، كنت في الصف الأول الابتدائي وقتها.

ـ قام النظام العراقي آنذاك بحرق آبار النفط الكويتية، وكانت سحب الاحتراق كثيفة جدا، فكان المشهد مرعبا يهدد بتلوث المنطقة بأكملها، فلم يكن أمامنا بدٌّ من التدخل، وكل الإجراءات في عالمكم كانت إجراءات بسيطة على مستوى الأفراد، وتوعية خجولة، فاقترح الألباء أن نتدخل، فقمنا باستخدام القوى المغناطيسية لتفريق تلك الكثافة السوداء وتمزيق مركزها، حتى استطعنا تبديدها، ولم تصل إلينا في هذه المناطق.

ـ ولماذا لم تتدخلوا في الحرب؟

ـ يا بني، في حكمتنا ألا ندخل أبدا في النزاعات الإقليمية ولا الدولية، ولو كان الأمر كذلك لتدخلنا في قضية فلسطين السليبة، لكن أبجديات سياستنا ألا نتدخل ونحن خلف الحجب، فإما أن نكون طرفا معلوما فنتدخل، أو نلتزم الحياد.

ـ هل ستتدخلون إن رفعتم الحُجُب عنكم؟

ـ لا نتدخل في النزاعات مطلقا فمنشؤها عقدي أو سياسي أو اقتصادي، ونحن لسنا أمة مثلكم لها أيديولوجيا معينة، عقيدتنا الإنسانية كلها.

صمت قليلا، ثم استطرد:

ـ المهم يايحيى أن يحيا الإنسان حرا لا يسلم قياده لأحد إلا بما تقتضيه مصلحته أو واجباته، فنحن في حكمتنا ألا نخضع لأحد أو نسلمه قيادنا.

ـ ألا تراني سلمتك قيادي، واستسلمت لك مرغما.

ـ لا أعني هذا يا يحيى، أقصد ألا تسلم عقلك لمن يعبث به.

ـ وهل عبث في عقلي مخلوق كما عبثت يا سيدي.

امتعض من اتهامي، ولهجتي الحادة في الخطاب، التي لم يسمعها من فترة طويلة، ثم عدّل جلسته، وعلمت أن حصة الفلسفة ستبدأ الآن:

ـ يحيى، ركز جيدا فيما أقوله، ولا تجبني عليه اليوم، فكر فيه مليا، وأجبني وقتما شئت، تجرد من كل شيء إلا ذاتك، بعد أن تنتف منها كل شعرة لم تكن بصيلتها أصيلة، ولا تسايرني، بل سر معي، ولا تسر معي، بل وازني، وسر إلى جواري، تضع شمعة متقدة حيث لم أرَ وجوبها أنا، وتطفئ شمعتي التي وضعتها حيث ترى خطرها.

يا يحيى، نحن نتأنسن بالشكل البشري المميز على بقية المخلوقات فنستطيع الوقوف والسير على طرفين فقط من أطرافنا، ونجلس، ونتكلم بلغة عامة كالضحك والبكاء واللغة الإشارية، ولغة خاصة تفرضها بيئاتنا ومجتمعاتنا، ونستلقي للنوم على ظهورنا أو جنوبنا، وبعضنا على بطنه، فنشابه كل شيء، وقلما تشابهنا المخلوقات، رغم أننا نجد بعض الشبه الذي تتشيء به بعض المخلوقات، ولكن لا يجب أن نقر به، لأننا تميزنا بأعظم منحة لم تتحقق لغيرنا، ولم يحاول مخلوق آخر نعلمه أن يشاركنا ميزة (العقل)..

العقل: لا أجد شبيها له إلا السكين ذات الحدين، يحمل في حده الأول الخير والبناء وفي حده الآخر الشر والهدم، فلا حياة دون بناء وهدم، وخير وشر ومن المتناقضات ينبثق الإنجاز والإعجاز، الرأس المدبب لها يثقب سجف الظلام والتحدي، مع رهافة المقدمة كي يكون الانسياب إلى العمق المراد بلوغه، وامتلاء مؤخرتها لتثبت في قرارة الهدف المنشود وتتسع فجوات الضوء إلى حيث وجهتك تتبعك كل مكونات ذاتك التابعة أو الحليفة للعقل القائد، إلا أن العقل لا يتسمى به حامله إن جعل له مقبضا كالسكين يمسك به غيره، فيصبح أداة للآخر لا سلطان لك عليه، فتلمّس عقلك دوريا فإن وجدت له مقبضا فهناك من يتحكم بك غيرك، وذاتك لاتملك قرارا أصيلا، ولا رأيا مستقلا. فهل يرضيك أن تكون دائم التبعية، وبتعبير أدق (إمعة)؟

العقل: مدينة بيضاء لا معبّدة ولا مرصوفة، تتحرك فيها ذاتك بحرية، تحدد معالم خارطتها بنفسك، تضع انحناءات طرقاتها والتواءاتها وضيقها واتساعها. تدرك أنت أين تزيد الإضاءة، وأين تخفتها، وأين تنصب لوحة (قف) ومتى تضيء (الإشارة الحمراء/ الخضراء).

فلا ذات أخرى تقيّم معالم عقلك فتحيا (تابعا).

نتأمل الذوات (التابعة) و (المتبوعة) فالتابعة ليست إلا ذوات تسير وفق المرسوم لها إلى أن تموت، تحقق طموحات المتبوع، والذات المتبوعة تتفاوت خرائطها، فليست خالية من شوائب التبعية، لكنها أقل من الذات التابعة كليا، فتترقى الذوات المتبوعة في تبعياتها لذوات أخرى، إلى أن تصل للذات المنعتقة من التبعية، وهي ذات معدومة أو نادرة جدا..

ـ أجدت سيدي وأصبت، ولي عليك أن تولي صوتي من سمعك نصيبا، وأن تنظر إلى حال السامع الطيّع في عالمك مذ أولجته قسرا، فإليك سيرة صوتي:

صوتي المنشق عني يهرب، يعوم، يغرق، يغرب، أزمع البحث عنه، فتسألني ظنون غبية كنت أخبئها لليلة السفر في الكون.

أتذكر صوتي الجميل، آخر عهدي به عندما انغمس في النهر الأحمر. أجول على كبد الماء، أنبش جزيئاته المتلكئة، أحرثه بحثا عن علامة الغروب الأخيرة. أغطس تحت الطبقة الأولى: أفقد حاسة الشم. وتحت الثانية: أشعر بانفلات حسي. أصل الثالثة: لا أملك إلا عينين من زجاج قاسٍ، أعجبتا الطبقة الرابعة: لألثم طمي القاع بلا نور. أصوات كثيرة، أتحسسها بإذني وقد فقدتُ حواسي. أرهف سمعي، ربما أجد صوتي. رهافة سمعي المتقدة بعد فقدان الحواس ازدادت. الجلبة في القاع تصخ آذان بصيرتي. عقلي المجبول على التأمل، أشعل عينه السدّاء. يخيّل إليه أن الأصوات جسوما مكبولة في الوحل، أفواهها منصوبة إلى أعلى. على تقدير تحاشي إثارة الطمي الراكد في القاع. في هدأة الغداء المتساقط من طبقة اليأس العليا، كنت أصيخ بشدة علّي أسمع بحة صوتي. رفعني التيار إلى منفى الأوكسجين. أسير على يتم حواسي وقدري. لم يبق لي إلا حاسة سمعي. وآهة صوتي المكبول. فعشت سامعا طيعا.

قهقه الجمل عاليا، وقال:

ـ الآن يطمئن قلبي وقد وجدتك تقترب جدا، فتصبح واحدا منا، أثلجت صدري يا يحيى، آمنت أن عقلك الآن يعمل، يبحث عن ذاتك، وأجزم أن في أعماقك ذات ستنعتق من التبعية حتى لي أنا. وستصبح قائدا عظيما وموجها للإنسانية، فابحث عن صوتك الجهور.

تدخل ركزا باسمة كعادتها، وأفرح وهي تقطع فلسفة هذا المجنون التي لا ينفك يرهقني بها آناء السأم وأطراف الملالة. مرأى ركزا جعل نبضات قلبي تتسارع، كرجل خجول مكلف بإلقاء كلمة أمام حشد كبير، تتزاحم في أعماقه الخلجات، وتتسارع نبضاته، ويشعر بأن الأكسجين المحيط به شحيحٌ جدا. سلمت علينا وجلست تتحدث ببرود عن قصوى والكارثة، لا تعلم أن كارثتي أقوى، تمنيت لو أن قصوى تدمرت، فتعود فازرا إلى تاوه، أراها في الغدو والآصال، أشفي غليل أشواقي المائرة في أعماقي. ولم أصدق عيني والجمل يستأذننا للراحة، فيخرج، وتقوم ركزا، فأقوم خلفها وهي تسير على مهل:

ـ أستاذتي.هل أنت مشغولة الآن؟

ـ كلا، ربما أخرج إلى المرج هل ترافقني؟

هذا ما كنت أتمناه حقا، أن نذهب وحدنا إلى هناك، وقلبي يقول، أنت محظوظ وقد صارت المهمة أسهل الآن، لا تتردد في البوح لها بكل شيء، وليكن ما يكون.

ـ نعم سأرافقك بكل سرور.

سرنا خلال المرج الأخضر، الكلمات تجتمع بانتظام على لساني، حتى إذا تحركت شفتاي، انفرط عقدها، فتناثرت أشتاتا، لأطبق شفاهي من جديد، وأجمعها بين الحنجرة والثنايا، وركزا تثرثر عن قصوى، وجهود الألباء في درء مخاطر الكارثة. فانبجس السؤال دون وعي مني:

ـ هل قابلت فازرا؟

نظرت إليّ نظرة مسمومة، فالسؤال قد شط عن النسق، وابتسمت ابتسامة خفيفة، فشعرت بحرارة وبرودة تجوب تقاسيم وجهي المحمر خجلا، لكن سرعان ما روّحت ابتسامتها عن قلبي المرتجف كقطاة عروة بن حزام من شدة الخفقان، فقالت:

ـ هي مصادفة بكل تأكيد، لقد سألتني عنك عند لقائي بها؟

زادت خفقاتي شدة، وشعرت بجسمي كله ينتفض، وزني لا يساوي ربعه في تلك اللحظة، شعرت أنني سأطير عند أخف نسمة تمر بي. الثبات يارب، فازرا تسأل عني؟ تحبني؟ فحلق السؤال العفوي:

ـ بالله عليك؟ وماذا قالت؟

ـ لا شيء، سوى أنها تسأل عن مراحل تعليمك، ومدى جدواك في عالمنا.

كم كانت ملامح ركزا باردة، وقاسية وهي تسرد إجابتها العقيمة المتحجرة، الإجابة التي كسرت نفسي، فعاد وزني إلى معدله الطبيعي، لكنها ليست مقنعة لقلبي الذي يجزم أن فازرا تحبني، بل تعشقني، كما أعشقها وأشتاق عينيها، خيم الصمت قليلا، ثم فاجأتني:

ـ لماذا تسأل عنها؟

ـ كلا، فقط لأنني كنت السبب في سجنها وإبعادها عن تاوه.

ضحكت بصوت عالٍ وقالت، وهي تأكل الكلمات بضحكها:

ـ ماذا تظنني أنت وهي؟ واستمرت في الضحك.

لا أدري ماذا أقول، أشعر بأنها تحمل كلاما مبهجا، لكنني سأحبس مشاعري أمام هذه الأنثى اللامبالية. فصمتت، وقلبي يشتهي أزها على مواصلة الحديث. لكنها جسرت على الصمت أكثر مني، إلا من نظرات ترسلها إلى عينيّ كأنها تقرأ فيهما ما يختبئ عن كل البشر، حتى عن كتابة كلمات الحب في سوادها وبياضها.

لم أحتمل صمتها التعنتي المضني، ولن أضيع هذه الفرصة، لابد أن أسألها، أن أصارحها، فضحكتها وكلماتها تدل على شيء مهم، وعلى إشارة كلون المرج الأخضر للبوح بما أكنه، فسألتها:

ـ ماذا قالت لك أيضا؟

ـ قالت، أنها مشتاقة.

ـ مشتاقة إليّ؟

ـ مشتاقة إلى تاوه.

هذه المرأة تتلاعب بي حتما، إجاباتها قاسية، من الأفضل أن أعود، فلن أحتمل استخفافها بمشاعري، بهذه التصرفات الحارقة. في أعماقي حدس، يرى أنها تخبئ شيئا عني، ليتها تقول. لابد أن أصبر وأزيد الضغط عليها بالأسئلة، حتى يخرج من فيها نورا يرسم لقلبي الأعمى خريطة هدى، فهل الحب من طرف واحد، أم قلب فازرا مزدحم بي،

كما ازدحم بها قلبي. لا سبيل أمامي إلا الجرأة، وسأتجرأ أكثر:

ـ هل أرسلت لي شيئا معك؟

ـ نعم.

بلهفة مجنونة وابتسامة مستبشرة تغشى وجهي، أسألها:

ـ ماذا أرسلت؟

ـ تقول أبلغي الغريب أن يخرج من عالمنا، وقد تسبب في تعاستي.

هنا لم أحتمل صخرية ألفاظها، شعرت بغضب يقتلعني من أرضي، يطير بي إلى أبعد مجرة، ويهوي بي على أم رأسي، فلو كان الموت في يدي، لما حرمته من اقتطاف روحها، وبعثرة جسدها مائدة لضواري المرج.

توقفت مكاني، وهي تسير بخطى متثاقلة، وتجول ببصرها في جمال المرج، الذي أراه جافا، شاحبا من هول ما سمعت. سارت هي قليلا ثم التفتت إليّ، فاستدرت وقفلت عائدا بخطى حثيثة. لا أستجيب لنداءاتها. أسمع خطاها خلفي، لكني لا أبالي بها مطلقا، فأوقفني خبثها عندما قالت:

ـ يحيى، توقف، سأخبرك بشيء مهم.

توقفت لا إراديا، يتجمهر نبض قلبي، مشرئب الأعناق إلى هذا الخبر الذي ستزويه، هل ستكون قسوة أخرى، أم ستخبرني بما يطفئ جوع الشعوب الهادرة في نبضي، لو بفتات فرح، أو رذة ماء تقيهم حر الأشواق المتعاظمة.

ـ ماذا لديك، أيضا؟

ـ يحيى، لا تظنني غبية، أعلم سبب سؤالك عن فازرا، وعلمت ذلك من لحظة لقائكما في قصوى، لكنها لا تحبك، لا تريدك، تراك غريبا عنا، فلا تلتفت إليها، وتشغل قلبك بها، هي فتاة عادية، لا تليق بشخصية مهمة مثلك، وأنت تعلم المكانة التي يخطط الجمل أن يبوأك إياها، فلا تقضِ على مستقبلك بالتفكير في تافهة مثلها.

هل تعلم يا يحيى ما بذله البعض من أجل التقرب منك، من أجل أن يصبح ملازما لك؟ فكر في هذا جيدا، إلى اللقاء.

استدارت وانصرفت وأنا متسمر مكاني، لا أقوى على الحراك، ما هذا الخطاب الذي تلته ركزا على شعبي الأعزل، شعبي المنتمي إلى فازرا، الهاتف باسمها مع كل نبضة، هل تتحدث صدقا؟ أم أنه ضربٌ من كيد النساء لا علم لي به ولا قِبَل؟

سرت كسير الخاطر إلى القصر، بالكاد أجر خطاي جرا، دلفت إلى غرفتي، جلست على طرف سريري، حائرا، تمور في أعماقي تيارات متعاكسة، تصادمها يزلزل كياني، أحاول استعادة كلمات ركزا، التي ألقت بي في بحر من الهلام لا ساحل له، مرة تقول أعلم من لحظة (لقائكما)، فجعلتنا مثنى، وفي هذا دلالة على اشتراكنا في المشاعر، لربما باحت لها فازرا، وتعمدت أن تخفي عني لمآرب في نفسها، خصوصا وهي تتحدث عن المكانة المنتظرة لي. ومرة تقص نبأ كرهها لي، وقد تسببت بتعاستها، وكلا الشعورين على تباينهما، يشتركان في دمعة فازرا في قصوى، فأيهما؟

ثم ضحكة ركزا الأولى، التي تبين أنها شمت رائحة حب في كلينا. لكن من تقصد بالذي بذل الكثير من أجل أن يصبح ملازما لي؟. لم أذكر مطلقا أن واحدة لفتت انتباهي بشيء إليها في جميع القرى الثلاث. هل تقصد نفسها؟

يا للحيرة التي أوقعت نفسي فيها، ماذا أفعل الآن؟ آآآآه، تبا لهذه الأسئلة التي لم تبارحني مذ ولجت هذا العالم. قيل السؤال باب المعرفة، فصارت المعرفة باب الأسئلة، كلما عرفت بعض شيء، أفرز أسئلة وأسئلة.

آآآه يا فازرا:

أترقصين على صدر المدى شفة   حمراء، يقطر من أرجائها تعبي

متعَبٌ أنا يا فازرا، أنت حبيبتي، ويجب أن أكون حبيبك، لن أصدّق ما قالته ركزا، سأحبك أكثر، لأن قلبي يقول أنك تحبينني، وأني هواك الكامن في رئتيك، تصبرين على شهقة واحدة منه، ترفض الزفير، كما رفضت رئتاي أن تزفر أكسجينك الغالي، لا أدري أين أذهب الآن؟

خرجت من الغرفة، أشعر باختناق، أبحث عن منبت شعاع أبذر فيه رجائي لأصل إلى

فازرا، أستفتي قلبها مباشرة، لا أدري ماذا أفعل؟ إلى من ألجأ فيساعدني؟ خذلتني ركزا، وأدمت قلبي، سأذهب إلى الصالة الرياضية ربما أجد أحدا يساعدني بعيدا عن الجمل، ألتقي الحارس الوسيم قبل خروجي من القصر، أسلم عليه، أفكر في مفاتحته بالأمر، أو استدراجه بأي طريقة، أقل الأمر أن يرشدني إلى طريقة. فسألته:

ـ هل تجيد التواصل عن بعد؟

ـ نعم، كلنا نجيده.

ـ أما أنا يا صديقي فلا أجيده.

ـ نعم لأنك لم تصل بعد إلى مرحلة تعلمها. لكنك ستتعلمها.

ـ في أي المراحل يعلمونها؟

ـ في المراحل النهائية، قبل أن تصبح لبيبا.

ـ ألا يتعلمها إلا الألباء؟

ـ المرشحون لأن يصبحوا ألباء.

ـ وهل رشحوك لتصبح لبيبا.

ـ كلا، مازال الطريق طويلا، لكن يجب أن يتعلمها كل من يعمل في الأمن.

ـ جميل.

يؤزني قلبي أن أطلب منه خدمة، لكنني أخشى أن يرفض، أو ليته يرفض ولا يبلغ الجمل، لكنني أتغلب على مخاوفي:

ـ أريد أن أتراسل مع شخص في قصوى، فهل تخدمني في هذا الأمر؟

ـ هل يعلم الجمل؟

ـ كلا لا يعلم.

ـ لابد أن نستأذن منه أو من المتصرف.

ـ لكنني لا أريد أن يعلم هذا أحد غيرك.

ـ لماذا؟

ـ الأمر سري جدا.

ـ هذا المحظور بعينه.

ـ لكنه لايضر أحدا. ويهمني جدا جدا.

ـ كيف يكون سريا حتى عن الجمل، ولا يضر أحدا؟

فرحت بمجاراة الحارس، ولابد أن أستغل فضوله جيدا:

ـ أمر يخص هذا (وأشرت إلى قلبي).

ـ ماذا تقصد؟

ـ أحب فتاة جميلة في قصوى.

فابتسم الحارس بخبث، وقال:

ـ ما أعلمه أنك يا سيدي لم تعش في قصوى لتحب أحدا.

ـ بلى أحبها جدا جدا، وكل ما أريده أن أستعلم قلبها، هل يحبني؟

ـ أخبرني من هي؟

ـ إذا وعدتني بالمساعدة سأخبرك.

ـ لا أستطيع مساعدتك، لأني أخشى أن غضبة الجمل.

ـ ألم يأمركم الجمل بخدمتي وتلبية طلباتي.؟

ـ بلى.

ـ إذن، لم تخاف وقد أمرك؟

ـ هذا ربما يغضبه.

ـ وربما لن يغضب، فهو يحبني كثيرا، ولن يؤذيك إذا علم أنك لبيت رغبتي.

ـ هيا، أخبرني من هي؟

أشعر بسعادة وقد أشعلت فضوله أكثر:

ـ عدني بالمساعدة.

ـ أعدك بذلك.

ـ إنها (فا....).

ـ أكمل.

ـ فازرا.

فتغيرت ملامحه سريعا، وسألني باستغراب واندهاش:

ـ فازرا؟

ـ نعم فازرا، المسجونة بسببي في قصوى. أرجوك أخبرها بأني أسأل عن حالها كثيرا واشتاق إليها جدا.

ـ لا أستطيع.

ـ لماذا لا تستطيع، ألم تعدني؟

ـ بلى وعدتك، لكن...

ـ لكن ماذا؟

ـ فازرا، قريبتي.

ـ قريبتك؟

ـ نعم، هي ابنة عمي.

صفعتني إجابته وخشيت أنه يحبها، أو يريد الزواج منها، كما في عالمنا، لنني تسلحت بالجرأة، وقلت سأواصل معه إلى النهاية دون امتعاض أو تنبؤات حارقة، فسألته:

ـ جميل إذن. هذا يسهل الأمر.

ـ بل يصعبه، لأن هذا محرج جدا لي أمامها، فربما تغضب مني.

ـ لن تغضب منك، هاتفها للسؤال عن حالها، ثم قل لها، دائما يسألني عنك يحيى، ومن ردها ستعلم إذا كانت تريد الاستزادة عني أم لا، هيا جرب، أرجوك، فِ بوعدك.

ـ حسنا، لكن الأمر محرج جدا، ما رأيك أن نؤجله للغد؟

دائما ما يكون التأجيل ناتجا عن التردد، ويتحول مستقبلا إلى رفض قاطع، وهذا ما أخشاه، ولن أفوت هذه الفرصة مطلقا:

ـ بل الآن، هيا أرجوك.

ـ ماذا أقول لها.

ـ سلم عليها، وأسألها عن حالها، وأنك تطمئن عليها بعد خبر الكارثة القريبة منهم، ثم

تحمد الله على سلامتها، وقبل النهاية تقول (تذكرت، يحيى دائما يسألني عنك، ويقرئك السلام)، ثم بعد ردها تقول (ويقرئك أكثر من السلام) ستسألك ماذا، فقل لها، يقول (مشتاق إليك جدا).

تلفت يمينا ويسارا، ثم بدأ التواصل. وأنا أتسمّع إلى حديثه إليها، وأتمنى لو أني مكانه فأسمع لحنها العذب، فالتواصل ليس كالاتصال بالهاتف عندنا، الذي يستطيع معه من بجوارك سماع الطرف الآخر، أخشى ما أخشاه أنه يكذب كي يقنعني وأذهب، هل يعقل أن يفعل، تتبخر أسئلتي، وقد سمعته يقول (يحيى دائما يسألني عنك، ويقرئك السلام)، ثم صارت الثواني أياما، بل شهورا، بل سنينا، وأنا أنتظر أن يردف بالجملة الأخرى، التي تؤكد ظنوني، هل حقا هي تتحدث الآن، ويطول حديثها، أنظر في وجهه أحاول قراءة ملامحه واستجابتها لما يسمع، لكن وجهه لا يثبت على حال، فهو محمر شديد الخجل، وروحي المائرة لا تجعل عيني تثبتان أو تركّزان، لم أستطع قراءة ملامحه، حتى صدح بقوله (مشتاق إليك جدا)، نقلها بأمانة عالية، كدت أن أقبّل جبينه، بقيت أكتم أنفاسي من أجل أن يسمع كل حرف تقوله، وينقله لي، ففاجأني وهو يقول (هو لم يبلغ مرحلة التواصل في التعليم بعد)، علمت أنها سألته (لماذا لا يكلمني هو؟).

ثم ودعها، فانثالت أسئلتي الجارفة عليه، لكنني اختزلتها في:

ـ كيف كانت؟

ـ قال كانت تضحك بصوت خافت، وصوتها بعدما قلت مشتاق إليك بدا عليه الخجل، وغلفه الدفء، وهي تبلغك السلام والشوق، وتقول أنها سترسل إليك رسالة اليوم.

ـ يا الله، بالله عليك؟

ـ نعم.

قفزت إلى جبينه وقبّلته، ثم سألته:

ـ متى تصل الرسالة، ومع من ترسلها؟

ـ سترسلها إلي، وسآتيك بها وقتما تصلني.

ـ هل يأتي بها البريد؟

ـ كلا، ستأتي هي من حالها.

ـ كم ساعة من قصوى حتى تصل إليكم؟

ـ في أقل من دقيقة.

شكرته جدا، ورجوته أن يأتيني بها حالما يتلقاها، وألا يجعل أحدا يقرؤها، ثم عدت إلى غرفتي أكاد أطير من الفرح، لا أشعر بالأرض في قدمي، أغلق الباب على نفسي، أرقص جذلا، قلبي يخفق بشدة، وعيني تنظر في الساعة كل نصف دقيقة، ثم أكبت أنفاسي، لربما أسمع خطو الحارس يحمل الرسالة إلي. أخذت دفتري من تحت الوسادة،لأبشره بالنبأ العظيم، فهو رفيق مشاعري الأمين:

شوقي إليكِ يذيبُني
والصبرُ من شوقي يلينْ..

والروحُ عندكَ تستثيرُ
حبالَ شوقِكِ كي يبينْ..

هيا استفيقي يا نسائمَ
واملئينيَ أوكسجين..

وتبسّمي بيَ فرحةً
يحيا بها القلبُ الحزينْ..

حتماً سأشرقُ كلّما
أشرقْتِ لي تتبسّمينْ..

لأنزَّ عطراً حانيًا
ينسيكِ عطرَ الياسمينْ..

وتسيلُ روحيَ شاعرًا
من ضوءِ روحِكِ يستبينْ..

نهارٌ متناقضٌ جدا، بين شؤم ركزا، إلى فأل الحارس، ماذا ستكتب إليّ فازرا؟ هل هي مثلي شاعرة؟ وهل شعرهم كشعرنا العربي يلتزم بتفعيلات الخليل؟ هل ستكتب لي بالعمودي أم بشعر التفعيلة؟

أتذكر أغنية (إنسان) التي غنتها الفاتنة زنوف في رتال، وتفاعيلها الخليلية الجميلة، حتى وإن تباينت في بعض مقاطعها، لكنها منغّمة عذبة، فكيف إن كانت من فازرا؟

الوقت لا يمضي، ودفتري يراود روحي عن فرحها، فتنثال قبلة على بياضه:

وهجٌ قد مدَّ للصبحِ جناحَه..
أفْزَعَ الليلَ بإقبالِ انزياحَهْ..
فَهَمَى القَطْرُ..
سَمَا العِطرُ..
زَهَا الزَّهْرُ..
على شدوٍ نَدِيٍّ..
وتنادَى العُشْبُ والماءُ عِنَاقاً..
وارْتَدَى الجَدْبُ مِنِ الأَفْراحِ وَاحَةْ..
آآه، ما أجملَها من نَشْوَةٍ..
خَطَفَتْ روحيَ مِن مَهْمَهِها..
فأفاقَتْ طَائِرًا ضَمَّ صَبَاحَهْ.
لِيَسِيلَ اللَّحنُ مِن قَلبَيْهِمَا..

" تَعَبٌ وَلّى، فَأُبْدِلْنَاهُ رَاحَةْ "..

طارت حمائم أذان الظهر من مسجد القصر في سماء تاوه، لكن جلاله اليوم في الروح المنتشية أبلغ، فأخرج مسرعا للصلاة، لم أكن أهتم كثيرا لمقابلة الحراس، لكن فازرا جعلت الأمر مختلفا، صرت أراقب كل الحراس، أبحث عن الوسيم، فأجده أمام باب المسجد مبتسما، بإنائه المعطر وحريره الناعم، وابتسامته الوضيئة، فأسلم عليه، وأسأله، فيجيب بالنفي وهو يتلفت، فأدخل إلى المسجد، أصلي، ثم أخرج مسرعا إلى غرفتي، فقلبي معلق بها اليوم جدا، يناديني الحارس، فأهرع إليه مبتسما، لكنه يصفع ظني، فالجمل يطلبني في المجلس، فمن غير العادة أن أذهب إلى غرفتي في هذا الوقت، يجب أن أكون معه وقت الغداء، دخلت إلى مجلس الجمل، عينيّ لا تفارق الساعة، سلمت عليه ثم جلست، فبادرني:

ـ على غير عادتك اليوم يا يحيى، خرجت من المسجد إلى غرفتك.

ـ نعم يا سيدي، أشعر ببعض التعب.

ـ ما بك؟

ـ اشتقت إلى أهلي.

ـ هون عليك يا يحيى، لقد قطعت شوطا لا بأس به في التعليم، والجميع يثنون عليك. ويغنيني ما سمعته اليوم منك عن شهادات كل الألباء، فمازلت مشتاقا إلى مثل ذلك الحديث الشيق.

قطعت حديثه ركزا ـ أيضا ـ عندما دخلت فسلمت عليه، وجلست دون أن تسلم عليّ، ولم أكترث لها، ثم اعتذرت عن درس اليوم وانصرفتْ، تناولت الغداء مع الجمل وبعض الألباء، أشعر بأني في سجن، كل تفكيري أن أذهب إلى غرفتي أنتظر رسالة فازرا، لربما وصلت وأنا هنا بين هؤلاء المتوحشين، آكل طعامهم بدون نفس تتقبله إلا رياء ومجاملة.

لم أصدق أني خارجٌ من بروتوكولاتهم، أتوجه إلى غرفتي أسير على أمشاط نبضي، قلبي يخفق بشدة، أفتح الباب، يسقط بصري سريعا على ورقة بيضاء عند موضع أقدامي، أنقض عليها انقضاض الصقر الجائع على أرنب سمين، ألتقطها، أقبلها بعمق، أضمها على صدري،

أغلق الباب، وأفتحها برقة:

في الصمت، في اللاكلام.. في البعيد جدا.. في تخوم نبضي الأسيف..
نقبتُ عن مفردة.. أصد بها طوفان السواد..
أحشرها في ثقبٍ يتسع مع كل نبضة..
أصمّ بها أذن اللحظة الخرساء..
فرّت معاجمي، وغرقت تحت الرماد..
يحيى.. يامن سابق الكلمات، واتخذ في الوريد طريقه..
يامن تستفيق على إشراقاته أبجدية كانت معطلة..
وتزهر بها معاجم خابية..
جئتني نسيما..
ثم تكاثرت.. حتى أصبحت رياحا.. تنفض عن شاهقاتي غبار الصمت والاعتيادية..
تضاعفت حتى عصفت في أعماقي..
تقتلع نباتاتي اليابسة.. تحرك ركود تربتي..
ويا لعارضك الممطر..
حينما احتدم.. وسد كل الأرجاء.. لا أرى إلا وميض برقه..
وزمزمة رعده العذب.. فأهدأ غافيةً على رذرذات مطرك..
ها أنا قد تصدع فؤادي بعدما اهتز وربا بمائك..
ينبت بهجة، وسرورا..
يتلظى إلى عذوبتك.. يتناهى عطشا.. كلما أبدلتَ سحابة بأخرى..
هاأنا أنتظرك عطشا..
أنظر إلى الساعة، أراقبها بعناية.. أراها سريعة رغم مرارة الانتظار..
لأني أؤمن بشوقك إلي.. وأخشى أن تطير الثواني..
مذ أشرقت عيناك في قلبي، لم ألتذ براحة بعيدا عنك.

ناضلت كي أكون بقربك في التعليم، وفي قصوى.
رأيتك هناك تبتعد عني إليها، لكن ما في قلبي لم يتزحزح.
لم أستطع البوح لك، لكني حسبت عينيّ باحتا إليك.
أنا المنحنية تحت إرادتك، فامنحني القرب.
أتراني أستحقك؟
أتراني أحتمل البُعد النهائي..
هل أتاك حديث زجاج روحي المتصدع من أنباء الصبح؟
يا للقدر..
يا لسرعته في كل شيء..
ليته يتريث، حتى ينمو زرعك..ويثمر..

محبتك / ركزا، ،

جحظت عيناي، أركان الغرفة لا تكف عن الدوران، أتأمل التوقيع مرة أخرى، أعيد قراءة الرسالة، أشعر بالدوران يزداد، كل شيء حولي يمور، وكل خلية في جسمي يختل نظامها. ركزا تحبني؟ أستاذتي التي كانت تعلمني تحبني؟، لا أشعر أن قلبي مال إليها إلا معلمة وأختا كبرى، ماذا يحدث في هذا العالم؟

ألا يحق لرأسي المسكين أن يخلو من علامات الاستفهام؟ ألن يسأم يومي سرد النقائض فتلا ونكثا؟ ركزا تحمل كل هذه المشاعر لي؟ لا أصدق هذا مطلقا، فهي أنثى خاوية من كل شيء عاطفي، بابتسامتها الباردة، وروحها المرحة، وقسوتها أحيانا.

آآآآآه يا الله، ماذا أفعل الآن، ماذا أقول؟ ليتك تعلم يا جمل، كم أعاني في عالمك، وماذا لو علمت؟ وقد أصبح يحيى عالقا في ثلاث، لا يريد منهن إلا واحدة.

ركزا، لن تحبني إلا من أجل ما قالت لي في المرج عن المكانة، لن آبه لرسالتك، ولن أنظر حتى إليك يا ركزا، حتى لو فرشت قلبك على الأرض، لسلكت طريقا أخرى. يرن في أعماقي

ناقوس إنذار، إن لم أراعِ ركزا، ستسعى على تقويض علاقتي بفازرا، وستعمل بكل طاقتها لإفساد ما بيننا، لأنها في الأصل لا تحبني، فلديها أجندتها ودوافعها الخاصة البعيدة عن الحب.

سأنتظر رسالة فازرا، لأرى ما تحمله، ثم سأفكر في إرسال رسالة ركزا إلى فازرا، لأستبقها، وماذا لو لم تصل رسالة فازرا؟ ماذا لو أن ركزا أرسلت لها رسالة الآن، فتراجعت فازرا ولم ترسل؟

يوم عجيب بحق، متناقضاته لا تطاق. لا محيص عن انتظار رسالة فازرا الحبيبة، ولا مناص من رقصة ألم على دفتري الحبيب الذي لا يسع شكواي صدر غيره:

أقبلتِ بالتوت أم أقبلت بالماء..
.... لن تقدري أبدا يا(ركز) إروائي..
وادعتِني وخيولُ الشوق قد سُجرت..
...... أكبادُها بلظى الحرمان والداء..
ونجمةٌ أُزهقت في جيد أمنيتي..
..... كانت تروم لدى التوديع إرضائي..
وكم أمانٍ يراها القلب مقبلةً..
...... أجفلنها عنوةً أفواه رمضائي..

ربما غفوت، أو غبت عن الوعي، أو سكرت من متناقضات يومي التعيس السعيد، أو أبحر عقلي في أكوان بعيدة عن الواقع، سمعت طرقة على الباب، قمت كالمجنون، عندما هممت بفتحه، أمسك بيدي ظنٌّ مأجورٌ أنها ركزا، فبأي وجه سأقابل هذه الأنثى الشيطانية، لا بد أن أعقر الحياء وأدبَ التلميذ، فأبعدها عن طريقي، أو أن أسايرها حتى أتمكن من مبتغاي، فأصمتها بقرار أبدي، يارب أسألك الثبات.

فتحت الباب، فإذا الحارس الوسيم مبتسما، فقفز قلبي من مكانه، فناولني علبة صغيرة،

وانصرف، فتحتها على عجل، فكانت ورقة بنية شفافة، مبرومة، انتزعتها من العلبة وبدأت أفتحها رويدا رويدا، حتى ظهر تحتها أنبوب عطر صغير، فقرأت الورقة التي حملت عبارتين الأولى:

أحبك

وفي نهاية الورقة كانت الثانية:

وداعا.

يا الله، يا الله، ما هذا اليوم الثقيل جدا، لا فرح إلا بضده، ولا ابتسامة إلا بغصة، ولا نبضة إلا بجيش أسئلة مكتظ بالحراب والرماح، كيف لي أن أقرأ حبا مذيلا بوداع؟

لو كتبت إلى اللقاء، أو تركتها فارغة. هل قصدت إلى اللقاء؟ هل قصدت التوديع الوقتي في الرسالة؟ أم هو الوداع الأبدي؟

هل راسَلَتها ركزا؟ أم ما الأمر؟

خذني إليك يا الله، وأعتق رقبة قلبي من هذه المشانق المتوالية، لابد أن أشم عطرها الذي أرسلته، ربما ينزل على قلبي السكينة. أفتح الأنبوب الصغير فيفوح برائحتها التي أعرفها جيدا، رائحتها التي اختزنتها ذاكرتي من ليلة السطح المشؤوم، الذي أدخلها قلبي، ثم زُج بها في السجن. هذا الحب يا فازرا مليء بالمتناقضات من بدايته، ومازالت تتوالى.

عدت أتفحص العلبة الصغيرة، فإذا في قاعها حشوة تقي الأنبوب الزجاجي، اقتلعها، لأجد تحتها ورقة بيضاء، أفتح الورقة على عجل، لا ريث فيه إلا المحافظة على الورقة الرهيفة كمرسلتها، يضوع عطر قلبها الطفولي المدلل بكلماتها:

و قلبي طفلٌ..
نضارتُهُ ساحِره..،
وضَحْكاتُهُ.. متعةٌ للمَسامِع،
تشتهي النَّاسُ قولَه..
وما عِلِموا عن عذابِ المَدامع؟!

عنِ الاغتراب..

عنِ الانكسار..

عن كلِّ شيءٍ دفينِ الحنين،

......

و قلبي طفلٌ..

إذا غبتَ عنهُ.. تكتَّمْ

إلى اليُتمِ آلَ مصيرُه

أنهكهُ.. الخوفُ و السُّهدُ و الانتظار

و شَفَّ الفؤادُ البكاء

.. إلى أن تعوديَ

يا كفُّهُ الحانية.

......

يا كفَّهُ الحانية:

أحبُّك.

دموعي تبلل صدري، تهمي تباعا وأنا أتهجى لحنها الخاشع، أقرأ، ثم أعيد القراءة، أفتش العلبة عن ورقة أخرى، ليتني أجد عطرا آخر من قلب فازرا، أعود إلى الأوراق، وأغرق في القراءة والتحليل، أتوق إلى الكتابة، فأحاول، ثم أمحو، ثم أحاول:

أوقدتُ ديواني على شفتيكِ تِسآلاً

وحبريَ في يديكِ رسُونُهُ

ما ضرّ لو تغفو القصيدةُ ريثما يصحُو العناقُ وتبسمين..

ولا أدري ما الخدر الذي يسري في جسدي بعدما أكتب إلى فازرا، فيعصف بي النوم، لا أصحو حتى لأذان صلاة المغرب. ربما عندما تثج السحائب غدقا على جمرات الشوق، يخرج

الجسد إلى السكون بعد التخبط خلف مجاهل العقل، وتمتمات الأرواح، وفي السكون يجد قرارا للنوم والدعة، وليته يبقى كذلك.

تفاجئني طرقات خفيفة على باب غرفتي الملتهبة بالأحداث اليوم أكثر من مجلس الجمل ذاته، أصحو على الطرقات، ومهما حاولنا تجاهلها فنحن لا نستطيع أبدا، لأن الفضول دائما وتوقع قادما بأمل أو حلم نتمناه ما ينفك يسري في عقولنا، مهما حاولنا إغفاله، ولا أخال اختراع عدسة الباب، أو ثقبه أو الكاميرات إلا نتاج هذا الأمل، أما في عصرنا فلربما هاجس الخوف أكبر، لأننا مطاردون دائما، نتوقع القادم بشر أكثر من الطارق بخير، لكن باب غرفتي لم تصله هذه التقنية بعد، ولابد من فتح الباب واستجلاء الأمر.

كانت ركزا خلف الباب مباشرة، دفعتني ودخلت عنوة، ثم أغلقت الباب وراءها، لم أرها على هذه الصورة من قبل، خداها ينزان عرقا، ووجنتاها تكادان تتفطران دما، أما عيناها فقد بالغت في تجميلهما، لكنهما لا تثبتان، بل تدوران في كل الاتجاهات، قدمت لها كرسيا، فجلست وابتسمت، ورأت رسالتها على المنضدة مقلوبة، فأطالت النظر إليها، ثم سألتني:

ـ هل قرأت الرسالة؟

ـ نعم قرأتها عدة مرات.

ـ أتأسف جدا لما بدر مني في الصباح.

ـ لا تهتمي، لم يحدث شيء.

ـ لكني أغضبتك.

ـ لا تهتمي، دائما نغضب ويتلاشى الغضب.

ـ هل بددته رسالتي؟

ـ نعم.

ـ هل أعجبتك؟

ـ ربما.

ـ إذن لم تعجبك؟

ـ لم أقل أنها لم تعجبني.

ـ يحيى، أرجو أن تصغي إلي، أن تفهم ما أود إيصاله إليك، ليس من عادتي البوح بما في صدري، لكن الظروف أقوى من الكبت. بحق أنا أعجبت بك من لحظة التقيتك، أحسست تجاهك بشيء غريب لم أعهده في نفسي، لأنني لا أبالي بأحد، كان من المقرر أن يتولى تدريسك اللبيب (زاوي) لكني أقنعته بصعوبة التعامل معك، ورغبتي الشديدة في تولي هذا الأمر، لأن الألباء لا يلغون ترشيحهم له إلا بناء على رغبته، ولاقتراحه بمن يخلفه أولية مهمة في الترشيح التالي، فكان يحيى من نصيبي أنا، تحملت بعض شكوك الألباء الآخرين، وبالأخص الذين حاولوا الارتباط بي، فرفضتهم، لم أستطع أن أبدي لك مشاعري تجاهك، ربما خجل، أو ربما خوف، بعد تحذير اللبيب جابار لي، لأنك قادم من عالم الظلام، الذي يرى المرأة بعين شهوانية مفرطة، فكنت أخافك في بادئ الأمر، كنت أتوق أن أبدي لك بعض مشاعري في قصوى، ونحن نجول بين المصانع هناك، لكني لم أستطع، ثم منظرك أنت وفازرا أغضبني جدا، حاولت أن أكبت ما أكنه لك. عند عودتنا إلى تاوه لم تتح لنا الفرصة لنتحدث كما نتمنى، وقلت سأدع كل شيء للوقت، لكن سؤالك اليوم عن فازرا أشعلني غيرة، فاستيقظ هاجس فقدك في أعماقي. ربما جرحتك ببعض كلماتي أو تصرفاتي لكنها خرجت رغما عني، وقد تجرأت و أرسلت لك من فرط خوفي على مشاعرك ومستقبلنا.

ـ يا ركزا، القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء، وليس بيدي الاختيار.

ـ ماذا تقصد.

ـ أقصد أني لا أستطيع أن أكذب عليك مطلقا، خصوصا في أمر كهذا.

ـ هل أنا كاذبة.

ـ لم أقل ذلك.

ـ أنت تهينني بقسوة. أرأيت كيف يسري في قلبك الحقد. لقد اعتذرت عن قسوتي تجاهك صباحا وبررت لك ذلك، لكنك تريد أن تعاملني بالمثل. لماذا؟

ـ لا أدري كيف تصلين إلى هذه الاستنتاجات.

ـ أنا غبية أيضا. شكرا يا يحيى شكرا لك. أستحق هذا وأكثر.

شعرت أنها تبحث عن استفزازي الآن، وحاولت ضبط نفسي لكن تقوّلاتها تخرجني عن

طوري، فانفجرت فيها:

ـ أنت لا تحبينني ولم تحبيني مطلقا، وقد قلتِ الصباح أن مكانتي مغرية.

ـ لم أقل هذا. لم أقله، أو أنك لم تفهمه كما يجب.

ـ يكفيني هذا منك. لا أريد منك شيئا، أنت أستاذتي وأختي الكبرى.

هزت رأسها، ودمعتها على خدها هامية، لا أدري أهي دمعة صادقة، أم أن النساء كما يقال دمعتهن إرادية وقتما شئن همت. خرجت من الغرفة سريعا، وجلست في غرفتي أقلب رأسي في السقف، لا أدري إلاما ستؤول الأمور مع ركزا.

تعبت كثيرا في هذا اليوم، لكن يجب أن أضع حدا للأمور، فيكفي أن سوسن معلقة بي في جدة، فهل أعلق هذه أيضا، وأجلب المشاكل لنفسي. صليت المغرب في غرفتي، ودللت روحي بهدية فازرا وتنشقت عطرها وشعرها حتى صلاة العشاء، فخرجت أصلي.

بعد الصلاة لن أكرر هفوة الظهر، عندما توجهت إلى غرفتي، فيجب المرور على مجلس الجمل، والعشاء معه. سلمت عليه، وكان المجلس خاليا إلا منه على غير العادة، ورابتني عيناه، لكنني تجاهلت الأمر، ثم جلست على أريكتي، أشار أن أجلس بجواره، ففعلت، فنظر إليّ نظرة تزلزل قلب عنترة، ثم قال:

ـ العجب أن الإنسان دائما ينسى ما يقول. أو لا يستفيد مما يسمع. هل تذكر حوارنا المبهج عن العقل والذات صباح اليوم؟

ـ نعم.

ـ تذكره بذاكرتك فقط، لم يعه قلبك، ولم تتمثله جوارحك.

شعرت أن أمرا حدث لا تحمد عواقبه، والسؤالان مقدمة لمحاضرة ربما أختنق بعدها أو أفقد صوابي. فسألته:

ـ ماذا حدث يا سيدي؟

ـ يحيى، الله سبحانه وتعالى أنعم على الإنسان بنعمة العقل، ويجب عليه أن يتسلح بهذا العقل ليتقدم به، وأصعب اللحظات عندما يتوقف العقل عن العمل، وندع الساحة للاعب آخر غير العقل. إن اشتعال العاطفة يا يحيى أمرٌ ينوّم العقل تماما، ويلقي بصاحبه في تخوم

اللامبالاة بأشياء كثيرة، فيصبح كل همه إرضاء هذه العاطفة.

تأمل نفسك عندما تثور أشواقك لأهلك، لو لم تحكم عقلك، لأخذتك عاطفتك وأخرجتك وأنت لم تكمل ما يريده عقلك ويطمح إليه.

عندما دار حديثه حول العاطفة تركز ظني كله على أن ركزا فعلتها، لكنني لم أستبق الأحداث مطلقا. سأرى ما يريده حين استطرد:

ـ أنت الآن في عالمنا، في طور الإعداد وتطوير قدراتك لتخرج من الظلام إلى النور الأبدي، وتحظى بما لم يحظ به أبناء عالمك، فتنتقل إلينا بعادات مجتمعك؟ تجري خلف النساء، والغرام، والحب، والشعر.

يا بني، لماذا فعلت هذا، ولماذا لم تسألني قبل أن تغرق في هذا البحر المالح؟

ـ ماذا تقصد سيدي؟

ـ جاءتني ركزا وأخبرتني بكل شيء.

ـ بم أخبرتك؟

ـ بما بينك وبين فازرا، ونبهتني إلى أن هذا قد يضر بتأهيلك، وقد لاحظت أن قدراتك العلمية ليست كما كانت في البداية قبل سفرنا إلى قصوى برفقتك.

ـ سيدي، ركزا لم تخبرك الحقيقة. ركزا تريدني أن أحبها هي، وهي التي تدّعي أنها تحبني، ويجب أن تبعدني عن فازرا.

ـ لا يهمني هذا، ولم أسألك عنه، المهم أن تخرج من هذا البحر المالح، قبل أن يفسد عقلك.

ـ إن أردت أن يصلح عقلي فانقلني إلى قصوى.

شعرت بشرار يتطاير من عينيه، كلمات تظهر منهما تحمل سيوف حتفي ربما. لكنني لم أحاول التزحزح عن موقفي. عندما قال:

ـ لن أنقلك مطلقا.

ـ إذن يجب أن تخرج ركزا من هذه القرية، لا أريد أن أراها، أما مشاعري فلا سلطان لك عليها، وسأجعلها منعتقة منك بعدما كبلت عقلي وجعلته تابعا لك. يكفي أنني لم أحب فازرا

إلا بسببك وبسبب عالمك الذي أدخلتني إليه.

لم يرد علي، بل خرج من المجلس، فخرجت أنا أيضا إلى غرفتي. بودي أن أقضم ركزا تحت أسناني وأطحنها بطواحني ثم أبصقها على شرفة الغرفة، فتهب ريح الصباح تبعثرها بعيدا عن تاوه، وقد فعلت فعلتها، وأخبرت الجمل.

ما جعلني أهدأ قليلا، أنني نحّيت عاطفتي، وأشعلت منارة عقلي، فقلبت الأمر كثيرا فوجدت فيه عطايا ربانية جليلة، فأجمل لحظات التعاسة والمواقف القاسية، يجب ألا نتخلى عن نورانية العقل العظيمة، ففيها العزاء للمكلوم، لأن العاطفة، تسلك مسلكا مظلما وهي تبحث عن مهيجات، تلقي بظلالها على العقل، وتزيد الألم في الذات.

أول المنح الربانية، أن خبر حبي لفازرا قد بلغ الجمل، وهذا ماكنت أحذره فانعتقت منه، وخصوصا ردة فعله التي لم تكن بتلك الحدة، بل كان تخوّفا على أهليتي التعليمية. والمنحة الأخرى أن ركزا لم تتصرف هكذا إلا لأنها لا تحبني فعلا، ولأنها لا تحبني فقد بلغت مرحلة اليأس سريعا، وحمدا لله إذ تخلصت منها. ما أجمل حقا أن نواجه مآسينا بعقولنا، نتعمق فيها، نقلّبها.

ابتسمت وأنا أشعر بجمليتي التي استقيتها من أستاذي الجمل، فقطع ابتسامتي الحارس الوسيم يناديني إلى العشاء في مجلس الجمل.

سرت إلى مجلس الجمل، فوجدت ثلاثة من الألباء لم أرهم من قبل، جلست بالقرب منهم، ألمحهم يتابعون النظر إليّ وكأنني كائن غريب، لم أبالِ بنظراتهم، تعشينا سويا، وهم يتكلمون مع الجمل في شؤون خاصة، لم أتدخل فيها، لأنني غائب الروح، روحي هناك في قصوى، وبعد العشاء استأذن الثلاثة، فنظرت إلى الجمل، وهممت بالوقوف كي أستأذن، فأشار بيده أن أجلس، فتفاجأت بدخول ركزا، وجلوسها إلى جوار الجمل، وتمعرات وجهها من فرط حنقها عليّ، أو تشفّيها بالموقف الذي تضعني فيه، لكنني أتقبل الأمر بصدر مستبشر لأنني أستشرف نهايتها وانصرافها عني، فتكلم الجمل:

ـ اعلما، أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الرجل والمرأة لحكمة عظيمة، فجعل بينهما مودة ورحمة، يتناسلان فيستمر الجنس البشري، وهذه حكمته تعالى في كل شيء من مخلوقاته التي

قدر لها الاستمرارية، حتى النباتات جعل فيها ذكر وأنثى.

تتقارب أرواح البشر وتنجذب إلى بعضها بقدرة ربانية عجيبة لا نعلمها، حتى تنصهر وتتمازج، وتصبح روحا واحدة لا يفصلها إلا الموت، قد جئتيني ياركزا وأخبرتيني عن يحيى وعلاقته الروحية بفازرا، فاستدعيته وأخبرني بأمرك معه، ولأنني أتحرى الدقة والعقلانية في الأحكام فقد استدعيت ثلاثة من ألباء العدل، وعرضت عليهم الأمر، فكان حكمهم أن يبتعد كل منكما عن الآخر، وأن يبقى الاحترام بينكما كما بدأتماه أول مرة، فماذا تقولين؟

نظرت ركزا إلى القبة في أعلى المجلس، كأنها تجمع كلمات دعاواها وحججها، ثم التفتت إليّ بنظرة عادية جدا، وأشاحت بنظرها إلى الجمل وقالت:

ـ كما ترى سيدي، سيبقى يحيى تلميذي وأخي.

فالتفت إليّ الجمل الحكيم، كأنه يسألني عن قولي فأجبته مباشرة:

ـ سأعتبرها أستاذتي وأختي الكبرى. لكني أشترط ألا تتعرض لفازرا، أو تحاول تشويهي أو قطع صلتي بها، كما أرجو أن تعين لبيبا لتدريسي غيرها.

فأجاب الجمل:

ـ أنا أضمن لك هذا، أليس كذلك يا ركزا؟

ـ نعم سيدي أعدك بالوفاء، لكن لا علاقة للأمر بالتدريس.

ـ بلى يجب أن تبتعدا عن بعضكما، وهذا قرار نهائي حكم به الألباء فكتمته حتى طلبه يحيى، وهو حق له.

قامت ركزا على الفور، دمعتها تسبق خطاها، وسعادتي لا توصف، وقد تخلصت منها نهائيا على يد أعلى سلطة في هذا العالم، وبقيت لي حبيبتي فازرا، المسوّغ الأكبر على قبولي في هذا العالم المخيف المثير. فالتفت إليّ الجمل:

ـ النساء يا بني خطر داهم على الرجل، خاصة إن أغضبهن ولم يلتفت إليهن، فهن ألطف شيء في الحياة، وهن أشرس كائن أيضا، تظل الواحدة تنقّب عن كل ما يؤذي من أغضبها، لأنها مسيّرة بالعواطف، فأصفى حالات عقل المرأة تكاد تكون معدومة، لكنها تتجلى في منافستها لامرأة أخرى، وهذا ما حاولت ركزا أن تفعله معك منافسة لفازرا.

اتق النساء يا يحيى، ثم غمز بعينه وأردف: ألم تسمع شاعركم عندما مرّ بنسوة فأعجبه شأنهن فجعل يقول:

إن النساء شياطينٌ خُلقنَ لنا   نعوذ بالله من شرّ الشياطين

ثم ضحك الجمل، فاهتبلت الفرصة دفاعا عن الناعمات:

ـ لكنهن لم يسلّمن لقوله بل أجابته إحداهن:

إن النساء رياحينٌ خُلقنَ لكم   وكلكم يشتهي شمّ الرياحين.

ثم استأذنت الجمل وقمت إلى غرفتي، لربما أرسلت فازرا، وما أصفاها الآن بعدما ذهب عنها الحزن، ونفضت روحي من ضباب ركزا، دخلت غرفتي المتضوعة بعطر فازرا الساحر، ترتسم عيناها على كل الموجودات في غرفتي الزاكية بذكرها وشعرها، وشفتاها لا تكف عن الهمس في أذني بصوتها الساحر " أحبك "، أرتلها على وزن شفتيها، وطريقة كتابتها في رسالتها الدافئة. التي لم أتمالك جموح رغبتي في فتحها وقراءتها، واستنشاق عطرها الأزكى، الذي وضعت منه قطرة على وسادتي، ثم غرزت أنفي على مركز دائرة القطرة، فجمعت الوسادة على وجهي حتى لم يبق في صدري ذرة أوكسجين غير عطرك يا فازرا، كأنني دفنت وجهي في مفرق صدرها، مع فارق النعومة، ثم أستلقي على شقي الأيمن، وأغمض عينيّ استجلابا للنوم، وهيهات أن تجعلني عيناك أنام، قبل أن أقبلهما، ومن غيرك يا دفتري المخلوق من روحي يهدي لجسدي الخدَر، تتوافز الكلمات على شفاهي عطرية، وقد ثملت بعطر فازرا، الذي مهما جمعت عطور الأرض، وأجبرت على استنشاقها، فلن تمحو جزءا من عطرها الغالي، أفتح دفتري الأمين، أقلب صفحاته، أرسم قلبينا متعانقين، يحوطهما الدفء والشعر والحب وعطر حبيبتي:

تأملتُ عينيكِ في خلْوتي
فناديتُ أينَكِ يا حُلوَتي؟!

تعالي نعطرُ صدرَ المساءِ
وعطرُكِ يختالُ من نشوتي

وعيناكِ تجمعُ لونَ الشعورِ
ضياءً يقاسِمُني مُهجتي

وثغرٌ أدوخُ على شَطّهِ
فأغرقُ فيهِ على قُبلتي

١٣

ـ " الحب روضة نسيمها السموم، وثواب قاطنيها الجمر "

* فازرا

- ١٣ -

ارتفاع درجة حرارة الغرفة أثناء النوم، يعني أن وقت الاستيقاظ قد حان، وتستمر الحرارة بالارتفاع، لابد أن انهض لأضغط زر التنبيه الحراري، الذي وضعوه بذكاء في دورة المياه، حتى لا يدعوا مجالا للعودة إلى الفراش بعد خطوات الصباح الجديد الأولى، ليت الوقت يتأخر قليلا، لأبقى مع حبيبتي فازرا زائرة المنام اللذيذ، وعطرها وشعرها العذب الذي يسري في أوردتي عبر همسها الناعم وغنائها الرائق ليستقر في قلبي الذي توطنته أنثاه الأجمل، لكن الحرارة قطعت سعب الشهد في قلبي الحالم بحبيبتي النائية فازرا، فأنهض من فراشي، أتفحص باب الغرفة، لربما وصلت رسالة من حبيبتي، فأزفر من بلادتي، والغباء الذي تسنم أفكاري، كيف لي أن أنام ولم أحاول استغلال الحارس الوسيم ليرسل لي رسالة إلى حبيبتي، آآآه من غبائي، لماذا لم أفعل، لابد أنها انتظرت ردي على رسالتها، ربما لم تنم البارحة، أي غباء تسنم فكري، حسبي الله عليك ياركزا، التي أفسدت يومي وأفكاري، لابد أن أرسل إليها رسالة الآن، سأرسل قصيدة البارحة، فأخرجت دفتري، وقبل أن أستأصل قصيدة البارحة من قلبه الأمين، فاح عطر فازرا، فانثالت قصيدة بطعمها وعطرها السابغ:

مازال عطرُكِ في يدي..
مازال طعمُك في شفاهِ قصائدي..
يومَ التقاءِ الساكنَين، ذوى السكون..
تحركتْ أكوانُ أسلافي..
نادى على الشفتينِ سلطانٌ غريبْ..
يروى حكايةَ عطرِنا المهموسُ في رئةِ الوجُود..
وتذوبُ جملتُه الأخيرةُ
لم يقلْها..
رغم لهفتِنا إليها..

لم تطعْهُ معاجمُ النّسماتِ..
بقيَت حبيسةَ أمنياتِ الوردِ..
يطلبُها من النحلِ الرّحِيقْ..
..
أحبك،،

أنسخها في ورقة أخرى على عجل، وأحاول طيّها بطريقة لائقة، ثم أضعها في مغلف صغير، أبللها بعطرها علامةً على وصول رسالتها، ثم أهرع إلى الحارس، فلا أجده، فأدلف إلى مجلس الجمل، فأجده خاليا من كل شيء خلا ضوء الشمس، أخرج في كل الاتجاهات وكأني في الربع الخالي، حتى الحراس لا أحس منهم أحدا، ولا أسمع لهم همسا، ولا هسهسة ولا خشخشة.

أتوجه إلى مباني التعليم سريعا، أجدها قاعا صفصفا، أعود إلى حجرتي، أجلس أتحسس الهدوء، فلا تلتقط أذناي غير الخواء، أتذكر حلمي الجميل البارحة الذي لم أتذكره فور استيقاظي؛ لأن هاجس تقصيري في الرسالة إلى فازرا قد شل تفكيري حقا، أغمض جفناي وأسيح في ملكوت فازرا، فأتذكر أبياتها الرائقة في الحلم، ربما لم يكن حلما، ربما فتحت نافذة تستطيع إرسال ما تريد إلى قلبي، لربما هي التي جعلتني أفكر في إرسال رسالة إليها، ليتها تستطيع فتح نافذة التواصل مباشرة معي، أو تستطيع أن تأخذ رسائلي إليها، تنهمر قصيدتها في ذاكرتي بتفاصيل شدوها بها، أستل دفتري من تحت وسادتي المعطرة، فأكتب قصيدتها:

و القلبُ مشتاقٌ لكُم ما أُغرمَتْ
قمريةٌ بحدائِها للنّائي

أتظنُّ عيني غيرَ قبرِ مدامعي؟
أمْ قد تظنُّ بجفنِها إغفائي؟

كذِبا يساقُ إليكَ إنّي للهوى
سلوانَةً، أو ليلتي بصفاءِ

قد صارَ حبُّك مذهبي وتشيُّعي
وعقيدتي وطنيّتي و ولائي

إني أحبُّكَ يا طريقَ تعثري
لو متُّ عطشى لن تجودَ بماءِ

تنهدت طويلا، قبلت الورقة، ضممتها إلى قلبي، حضنتها، أتخيلها جسد فازرا الراوي، وعينيها الجميلتين، أدركت حقا أنها لم تنم ليلتها، وهي تنتظر ردي، ربما تستطيع التواصل معي إذا نمت فقط، أما في صحوي فلا تستطيع، يستحال أن تكون هذه القصيدة محض حلم، بل هو واقع ليلتها المرة، وأرادت أن تنقل إليّ معاناتها لأكتب إليها، قلت في نفسي سأكتب لها تحت أبياتها ردا يليق، قصيدة جديدة، غير قصيدة العطر، فلن يأبى الشعر أن يستجيب لرغبتي في الكتابة إلى حبيبتي، حتى إذا اجتمعنا يوما أريتها ما كتبتْه لي، وما كتبتُه لها، فكنت عاجزا عن الكتابة، و الاستفهامات تعتمل في أعماقي، لابد من خطب مدلهم في هذا العالم، أخفى الجمل وعالمه، (اللهم اجعله خيرا). الساعات تمضي، والجوع والملل يتعاظمان في ذاتي المتعبة من فرط التفكير. فتطرقني فكرة الخروج إلى النادي الرياضي مرورا بالمرج الأخضر، ربما أظفر بإجابة، قطعت المرج الأخضر حتى بلغت النادي، والخواء يهيمن على كل شيء، بحثت عن رائحة إنسان في النادي، فخرجت خائبا، عدت إلى حجرتي والحيرة تمزقني ماذا يجري؟ أين الجمل؟ أين العالم الذي احتل ذاتي ولم يبقِ قطرة من فضولي؟

العجيب أن كل شيء على حاله، عدا العرق البشري المعدوم، لا حس لإنسان في هذا العالم، ولم أسمع أذان الظهر كالعادة، حملت نفسي إلى المسجد فصليت وحدي في محراب

الجمل الغائب، ثم توجهت إلى العربات في النفق، فانحدرت بي كعادتها. شغلت سيارتي، ونزلت بجوارها أنفض عن زجاجها الغبار وأتلفت لربما رأيت أحدا، تدور في ذهني فكرة الذهاب إلى المحافظة، لأنني أشعر بوحدة مخيفة جدا، فسأقضي الليلة في المحافظة، وأعود صباح اليوم التالي؛ لاستجلاء الأمر الغامض، سرت بالسيارة على مهل، وفتحت جميع النوافذ، لربما ناداني أحد قبل المغادرة، فلا حاجة لي بالمحافظة إن كان هنا من يؤنس وحشتي، فكانت المفاجأة عندما وصلت الماء الجاري، الطريق مسدودة بأحجار ضخمة، ساورتني فكرة إبعادها، لربما هي أحجار شكلية، ضخمة خفيفة الوزن، كبعض الأحجار في مناطق الحرات البركانية، التي تجدها ضخمة لكنك تستطيع حملها بيد واحدة، فانثلم حد ظني ولم أستطع زحزحتها، حاولت تحاشيها وافتتاح طريق آخر، وأنا أتمتم بالمثل العربي " الحاجة تفتق الحيلة " فكانت حيلتي مرتوقة بإحكام.

عدتُ أدراجي إلى المستوصف، وبقيت في سيارتي، ربما يمر بي أحدهم، والظنون تطوف بجمجمتي المتخمة صداعا، ماذا يحدث أين اختفى الجميع. هل حدثت كارثة في إحدى القرى الثلاث، أم هل رفضني عالمهم؟

أعمق فكرة كانت تستقر في خاطري أنني قيد اختبار، وأنهم جميعا حولي، يراقبون الحركات والسكون، وأنا أتذكر ما فعلوه بمغتصبي الأراضي من عالمي عندما حاولوا الاستيلاء على المنطقة.

لكن المصيبة التي تعلق برأسي المسكين فكرة زوال عالمهم تماما، وبقاء الافتراضية في رأسي، فلا هم بقيوا معي، ولا أنا استطيع العودة إلى واقعي، هل سأبقى حبيس هذا العالم العجيب الخاوي؟

تمضي الساعات والملل يلوك نفسي، والكسل يتمدد في كل أرجاء جسدي المتعب، أشد أهدابي إلى أعلى بعد كل تثاؤب، أحاول مقاومة النوم في هذه الوحدة القاحلة، أقاومه تارة بالتلفت، وتارة بالتمطي، وأحيانا بمحاولات غنائية بائسة محاولا رفع صوتي بـ

(أيّوه، قلبي عليك التاع،

ما يحتمل غيبتك ليلة،

لبيك يابو عيون وساع،
ما غيرك أحد ألبي له)

فترتسم عينا فازرا الواسعتان كأجمل ما تكون عينا الأنثى فتنة وإبهارا للرجل الشرقي، عاشق الحَوَر الفاتن، أغمس فيهما كل أدواتي القرائية، أبحث عن طيفي الضائع في عالمها، وعالم الجمل الجبار، فأغيب عن وعي المحسوسات وغير المحسوسات حولي، ممن أظنهم بجواري يراقبون كل حركاتي وسكناتي بصبر الممتحن، الذي يريد أن يبوأ تلميذه أعلى الدرجات، لأنه في الأساس يعده لذلك المكان الأعلى.

أستخرج ورقة من درج السيارة، فقد تركت دفتري في الغرفة، وأشعر برغبة الكتابة إلى فازرا الحبيبة. فأكتب لها، ثم أشطب ما كتبت، ثم أكتب لعينيها، يأسي من بلوغها، وقد تعذر أن تبلغها رسالتي التي صرفني عنها شؤمي المقيم البارحة:

عيناكِ آيتانْ..
وقلبي الصغيرُ مئذنهْ..
تغذيانهُ خشوع..
وتنضحانِ طهرَكِ المقدسِ الجليلْ..
وهمسة الخلودِ
تثج في عروقي الحنين
تكاثرت حبيبتي
ذاتُ الجلال أغرقت مرافئي
وللحنين غفوةٌ في زحمةِ الرُّسُل

عيناكِ كوكبان
إن زاغ قلبي عن هداهُما شقيتُ
وأُتلِجَتْ قوافلي ضلالَها القديم
ولن تساومَ الظلامَ جذوةُ القبس

وكوكباك مشعلان ناشطان..

يقطّران في عيوني الهدى

—

عيناكِ جُمعتان

بوابتانِ للضياء

إن (سهَمَتْ)أولاهُما تبسّمَ الهلال

ومدّ ساعدَ الضياءِ في يدي..

يرفعني إليك..

يضفي على وسامةِ الفصولِ رقةَ الوتر

ويشتهي إطلالتي..

لأنني في جمعتيكِ ياحبيبتي قمر

قد تاهَ من أطواره، عرجونُه القديم

،،

أعدت قراءة كلماتي، أسندت ظهري للاسترخاء، غرقت في بحار النوم، كان يومي حافلا بالمتناقضات كلها، فرحي بأطياف فازرا اغتالها الجوع والخوف والوحشة واضطراب الأفكار المؤذية، نمت بعمق، حتى الأحلام لم تدونها ذاكرتي المؤقتة، ربما ألغاها عقلي الباطن المتخم بمتناقضات الوجود الذي بذرني فيه الجمل، وأسقاني لأتبرعم فيه بين الصفرة والخضرة.

هل أنت تفاحة الخروج من الجنة يا فازرا، هل أُخرِجتُ من هذا العالم العجيب بزلة قلب، واستعجال نبضة بريئة؟ مؤلم أن تتسبب الأشياء التي نحبها ونشتهيها في إقصائنا عن الحياة، وأعمق الألم إن لم نحصل على ما نحب، فنخسره، ونخسر مكاسبنا الحقيقية والوهمية حتى. تبا لحظي التعيس الذي لم يهديني البسمة إلا وأتبعها جيش اغتيالات لكل نبتة ألفت مرج بسمتي المؤقتة، حتى رسالة واحدة لم أستطع أن أرسلها إليها، لعله خير، فدائما ما تولد الفرحة بين أنياب المأساة والألم، ربما تتكشف الأنواء عن سح عميم.

بين الصحو والنوم أشعر بآلام متفرقة في جسدي، أسمع صوتا قريبا، أشك فيما أحس

وأسمع، وأجزم أني أحلم، أحاول التعمق في نومي، لكن الصوت يعلو، ويعلو، يهتف بي، يناديني (يا ولد) ويكرر قوله (أنت حي؟) (سلامات) أميز لكنة غريبة في هذا الصوت، تذكرني باللكنة الجيزانية عندما رافقت صديقي أيمن هناك.

أحاول أن أفتح عيني، لكني أجد صعوبة في فتحها، أحاول الحركة، فأجدني جامدا لا أتحرك، والصوت يدنو مني أكثر، كأنه يتوجس خيفة، بدأ الشك يدب في أعماقي أني لا أحلم، طرأت على بالي فكرة أن الجمل فعل أمرا جديدا ليس في حسباني، هل غضب مني حقا ونفاني من عالمه؟ هل ألقى بي بعيدا عنه، بعدما اكتشف عاطفتي نحو فازرا، أم تسلطت ركزا علي أثناء نومي وتلاعبت بعقلي؟ هل حدث لعالمهم شيء ليلفظني بهذه الطريقة الهمجية؟ أم زال عالمهم، وبقيت حبيسا لافتراضيتهم المجنونة.

دنا صاحب الصوت حتى شعرت بيده تربت على كتفي، شعرت بموجة من الآلام الفظيعة تجوب جسدي بأكمله، أشعر بحرارة محرقة تحت جسدي الملامس للتراب، فتحت عيني اليسرى، أما اليمنى فلم أحتمل وخز الألم فيها، الشمس محرقة جدا، وأنا متكوم على بعضي كالنائم في العراء في ليلة باردة، وقد ثنا ركبتيه إلى بطنه، وكرفس قدميه داخل ثوبه، أجدني على تلك الصورة متكوم في أعماق هشيمة السّمر الشوكية، أول شيء أراه من جسدي ساعدي الأيمن الذي كان تحت خدي الأيمن، أتأمل فيه جرحا غائرا وطويلا بامتداد الساعد، وحوله خموش جروج صغيرة، أحاول رفع رأسي، أرفعه بمرارة مؤلمة، ألفظ من فمي أتربة وحتاحت من لحاء وعيدان الهشيمة البالية.

أنظر إلى أعلى في وهج الشمس الحارقة، أشاهد زول رجل مسنٍ مئتزر بـ (مصنف) مقلم الأخضر والأبيض والأحمر، وقميص مقلم بألوان لا أتبينها مع وهج الشمس، وحول خصره (كمر) أخضر، غرز في منتصفه خنجرا في جراب جلدي داكن، حذاؤه (النايلون الصيني) الزائدة عن قدميه الحادتين بالكاد تقيه لظى الرمضاء المسجّرة، وساقاه النحيلتان مبقعة بآثار كدمات قديمة، وبين قدميه عكاز أملس، شبه منحنٍ عند قبضته في الأعلى، وملابسه تثبت لي أنني في المنطقة الجنوبية.

حاولت الاعتدال أكثر لأتبين معالم وجهه، لكن ألم ساقي الشنيع أبى، فأغمضت عيني

أجاهد الألم، وأحاول سحب ساقي اليمنى، لم أفلح، رفعت ساقي الأيسر قليلا، وسحبت ساقي الأيمن فاستطعت بصعوبة فائقة جدا، فسمعت الرجل يقول لي:

ـ قف، دعني أساعدك، ساقك مكسورة.

ألقيت بخدي على ذراعي المعطوب، أسمع صوت ضربات عكازه على أطراف الهشيمة الحائلة بيني وبينه، أسمع همهمته وهو يضرب الأغصان ويلقي بها بعيدا، ثم خفت الصوت وهو يلقط الأشواك، اقترب مني أكثر ثم انحنى لأشعر بخشونة كفيه وهو يدخل إحداهما تحت كتفي الأيمن الملامس للأرض، واليسرى تحت إبطي الأيسر، ويجلسني بهدوء، ثم يسحبني للخلف بتؤدة مبالغ فيها، وأنا جثة هامدة، لا أقوى على الحراك.

نظرت إلى ساقي اليمنى فرأيت مفصلا جديدا في منتصفها لم أعهده، ومع حركتي على أخاديد الأرض الصغيرة وشدة الألم أدركت أنها مكسورة تماما من المنتصف، والرجل يواصل سحبي حتى أسند ظهري على جذع شجرة السدر بهدوء.

جثا بجانبي على ركبتيه ونظر إلى ساقي، وأخذ يطلق أصوات الشفقة على حالي المزرية (أووووه / ثم يصدر صوت طقطقة بلسانه في تجويف ثناياه العليا كمن يقول (لا) بذلك الصوت)، يبدي تعاطفه لحالي وساقي المقسومة جزأين لا يؤلف بينهما إلا اللحم والجلد، نظر إلى وجهي ومسح التراب العالق فيه، تشعرني رقته إذا اقترب من شق وجهي الأيمن، أنني مصاب فيه أيضا، ثم أخذ يفتش شعر رأسي، أشعر بآلام مبرحة وهو ينزع الأشواك من جمجمتي ومن كتفي الأيمن برفق. ثم سألني:

ـ من أنت؟

فلم أجبه، لأني لا أستطيع التحدث، لساني يؤلمني، حلقي جاف جدا. أشرت إليه بيدي إشارة فهم منها أن العطش قد استبد بي، فنهض سريعا، تابعته بعيني ما استطعت أن ألوي رقبتي خلف حركته السريعة، حتى غيّبته الأشجار.

بقيت أنتظره، وأتأمل حالي، وأنا ملقىً في هذه الأرض الحارقة النائية، التي لا أرى فيها أي أثر من آثار الحياة الحديثة، أحاول أن أتذكر ما الذي أتى بي إلى هنا. فكان الهاجس الأكبر في نفسي أن عالم الجمل قد تدمر، ربما هجم ياسوم على عالمهم فأخل بمنظومتهم حتى

تدمروا، أو أن كارثة بيئية لم يستطيعوا السيطرة عليها دمرتهم.

هل حدث انفجار عظيم أخرجني من ذلك العالم، يا تُرى أين الجمل الآن؟ ماذا حل به هو أيضا؟ ليتني تعلمت لغة التواصل من عالمهم قبل أن أضيع.

قطع الرجل حبل أفكاري حاملا عبوة بلاستيكية قديمة، وإناء للشرب، يرافقه شاب في السابعة عشرة من عمره ربما، يرتدي ذات الملابس التي يرتديها الرجل المسن، غلب ظني أنه والده لفرط التشابه بينهما، جلس الرجل إلى جواري، وأخذ الشاب يسكب الماء في إناء الشرب بنجابة، مرة ينظر إلى الإناء، وإلى جسدي المنهك نظرة أخرى، وعلى وجهه علامات الاستغراب والتعاطف.

أخذ الرجل الإناء من ابنه ورفعه إلى فمي مباشرة، أحاول الإمساك بالإناء بيدي اليسرى حتى أشعر أنني لست عالة عليهم، فتمضمضت من الأتربة والدماء التي تملأ فمي، ثم جرعت الجرعة الأولى، شعرت ببرودتها وهي تأخذ طريقها في حلقي حتى تبلغ معدتي الخاوية، شربت شرب الهيم، ولم أرتوِ بعد، لكن الرجل أدرك أنني سأتعب من كثرة الشرب على بطن خاوٍ.

همس الرجل المسن في أذن ابنه، وقفز حثيثا كالظبي في افتزازاته وسرعة حركته، أما الرجل، فقد كوّم لي ترابا، ووضع عمامته عليه، وأخذ رأسي برفق وأمالني عليه، فكان وسادة وثيرة، وجلس إلى جواري وبدأ سؤاله:

- من أنت يا ولدي؟

- أنا د. يحيى.

- أنت يمني؟

- كلا، أنا سعودي.

ابتسم الرجل، ابتسامة لم أفهم مغزاها أبدا، ثم استمر يسأل.

- ماذا حدث لك؟

- والله، لا أعلم ياعم.

- هل هربت من عملك، أم سرقت شيئا، أم انتقم منك أحد لأمر ما؟

ـ كلا، كلا، لم يحدث هذا. أين نحن الآن ياعم.

ـ نحن في اليمن ياولدي، ألا تعرفها.

ـ أبدا، لم أزرها من قبل، لكني أسمع عنها كل خير.

ـ كيف لم تزرها من قبل، وأنت الآن فيها، هل تبحث عن عمل.

ـ لا، أنا طبيب، ولا أحتاج إلى البحث عن عمل.

ـ كل الناس تحتاج إلى العمل اليوم، الطبيب وغيره. لقمة العيش صارت مُرة ومضنية.

بادرته بما يدور في رأسي من أسئلة:

ـ ياعم، هل حدث زلزال، أو شعرتم بهزة إرضية؟

ـ لا، لم نشعر بشيء من هذا.

ـ إذن، ماذا حدث لي؟

ـ والله لا أدري يابني. هذه المنطقة لا يمر منها إلا المهربون أو دوريات حرس الحدود التي تطاردهم، ولربما كنت مع أحد المهربين وطاردتكم دورية حرس الحدود فانقلبت سيارتكم، أو سقطت أنت من السيارة.

ـ لا، أبدا لم يحدث هذا، فأنا كنت أجلس في سيارتي، نعم نمت قليلا، لكنني لم أكن أسير بالسيارة. هل وجدت سيارة مقلوبة بالقرب من هذه المنطقة؟

ـ لم نبحث بعد، لكن رأيت آثار سيارة كانت تدور في هذه المنطقة، ربما تبحث عنك. هل كنت تحمل أمتعة ثمينة؟ لربما هجم عليك بعض اللصوص وضربوك وأخذوها؟

كلا، لم أحمل شيئا من هذا. ولم يضربني أحد. ربما حدث زلزال أو شيء من هذا القبيل أتى بي إلى هذه الأرض.

قاطعنا الابن وهو يحمل صحنا كبيرا، انتشرت على أطرافه أرغفة سمراء طرية رائحتها زكية، أتذكر أن خالتي أم سوسن كانت ترسلها إلينا في رمضان خاصة، وفي وسط الصحن صينية مملوءة بالسمن، فأجلسني الرجل ورحّب بي على المائدة معتذرا عن قلة الطعام، أكلت بنهم، لأنني حقا شعرت بالجوع بعدما شربت الماء، وشعرت به أكثر عندما شممت رائحة الخبز، تلك الرائحة التي تفوق روائح العطور بشتى أصنافها، والمدهش على طيب رائحة

الخبز، لم يصنع الإنسان عطرا من تلك الرائحة الزكية، ربما أطرح هذه الفكرة على الجمل إن قابلته يوما، عله يصنع عطورا برائحة الخبز نهديها إلى الجوعى في أفريقيا والعالم، ربما تكون بلسما لمآسي الجوع الوحشية.

بدأ عرقي يتصبب أكثر، والابن يسير على غير هدى بين الأشجار، فسألت الرجل:

ـ عماذا يبحث؟

ـ عن آثار السيارة التي كانت تدور بين الأشجار، ربما كانت تبحث عنك.

فاستمر الابن يسير بين الأشجار ونحن نراقبه، يغيب تارة ويظهر أخرى، ثم صعد أعلى تلة وأخذ يدور في أعلاها، وبعد زمن عاد. فقال:

ـ يا عم لم أجد أي سيارة في هذه المنطقة، ولا آثار انقلاب. هناك آثار سيارة كانت تدور كثيرا في المكان، لكنها عادت إلى الطريق، ربما مضى على وجودها ثلاثة أيام على الأقل.

نظر الرجل إلي، وقال:

ـ أنت هنا من ثلاثة أيام؟

ـ لا أدري والله يا عم.

ـ ربما كنت في غيبوبة يا بني، لكن لا تهتم، المهم الآن أن تسير على قدميك، ولكل حادث حديث. ثم التفت إلى الشاب وقال:

ـ ابق هنا، سأعود بعد ساعة.

احضر لي الشاب ماء للوضوء، ثم ذهب عني بعيدا، توضأت في مكاني، لا أستطيع الحركة، وغسلت الدماء عن ساعدي وخدي الأيمن وما يظهر لي من جسدي، وصليت العصر جالسا، تحت تلك الشجرة.

عاد الشاب يحمل مرآة في يده، نظرت في وجهي، فرأيت العجائب، لم أعرفني، لم أعهد وجهي هكذا، أنا الدكتور يحيى، الشاب الوسيم، الناعم، وجهي شاحب، مجعد، تبدو على وجهي علامات الفقر والعوز والمهانة، عيني اليمنى منفوخة من ضربة في أعلى الحاجب، يذكرني وجهي بالعمال الذين كان يستأجرهم أبي باليوميات في بناء منزلنا، وخدودهم غائرة بالكاد تخفي أضراسهم، وخطوط الزمن بادية على ملامحهم التعيسة.

لم أتوقف كثيرا عند هذه الجزئيات التي مارت عميقا في وجداني، والرجل يعود إلينا برفقة ثلاثة رجال. حاولت جاهدا تبين ملامحهم بعيني الصحيحة، ولم أعثر في خرائط وجوههم على وجه مألوف، يحمل كل واحد منهم عصا غليظة، ليست عكازا على كل حال، ساورني الشك في نياتهم، لكن هيئاتهم لا تدل على أشرار متأهبين لفعل عنيف بجسد رجل مصاب منهك.

سلموا علينا بعشوائية وبراءة، وهم يتفحصون ملامحي كلها، لهجاتهم خليط بين السعودية واليمنية والخليجية، وضعوا عصيّهم على الأرض وجلس أحدهم يرتبها ويربطها ببعضها حتى كونت ما يشبه النعش، ووضعوها بجواري، ثم وضع الشاب عليها بطانية أحضرها مفرشا عندما أحضر المرآة، ثم جروني بهدوء و قول مالك بن الريب يمور في رئتي:

خذاني فجراني بثوبي إليكما..... فقد كان قبل اليوم صعب قياديا

جروني بهدوء وعناية إلى النقالة البدائية، وحملني الرجال الثلاثة والشاب، أما الرجل فحمل الآنية وتبعنا.

ساروا بي خلال الأشجار المتناثرة، حتى أشرفنا على منزل الرجل، شاهدت المنزل من بعيد، صندقة مغلفة بقطع التنك الذي يعبأ فيه الزيتون والحلاوة الطحينية وسمن الشوكة، بدا القدم على تلك الصندقة لفرط الصدأ الذي ألغى معالم التنك وأباد لمعته، محاطة بسور من الأخشاب المحلية مرصوصة بإحكام، وبجوار المنزل مجموعة من العرائش المتناثرة، كانت أدناها لنا، العريش المخصص للضيوف بجوار دوحة سمر ضخمة، وكأنها امتداد لظلها الوارف وقد غشتها نبتة متسلقة معمرة، ساروا بي حتى وصلنا إلى العريش المرتفعة نسبيا، والمسقفة بأغصان نبات المرخ، وضعوني ممدا برفق تحتها، ثم جلسوا، كلام الرجال الثلاثة قليل جدا، تبدو على ملامحهم التعاسة المتأصلة.

انبرى الشاب سريعا إلى الأثافي القريبة من العريش، وأخذ يجمع الحطب، ويوري النار، ثم وضع عليها إبريقا ضخما شاحب الملامح، أسود اللون من كثرة ما اصطلى بالنار الموقدة، صرف نظري عنه صوت الرجل وهو يرحب برجل مسن، يحمل ميسما على كتفه، ويعتمّ

بعمامة بينة وأصلها البياض، ويلبس ثوبا لم يعتد مكابس البخار في كيه، نهض الجميع وسلموا عليه، وأخذ الرجل يشرح له قصتي، فاقترب المسن من عيني وأخذ يتفحصها، ثم ذراعي، ووجدته يركز على العظم، ثم انحدر إلى ساقي المكسورة وأومأ للرجال الجالسين بإشارة سريعة، تواثبوا على إثرها، وكبلوا حركتي. وأنا في أقصى درجات الدهشة، ماذا تريدون؟ ماذا ستفعلون بي؟

أشعر بألم جسدي من قبضاتهم الحديدية وهو يوثقونني، لكني لا أبالي بالألم، وأنا لا أعلم ما ينوون بي، فاقترب مني الرجل، وقال:

ـ لا تخف، تحمل يا ولدي، العم أيوب أفضل مجبّر للكسور، ولن يؤلمك، تحمل بعض الألم، كلها أيام وتسير على قدميك، فأجبته:

ـ مستحيل. مستحيل أن أجبّر ساقي بطب بدائي عقيم، ستتلوث رجلي، هذا كسر تام انفصلت فيه العظمتان عن بعضهما، لابد من تعقيم أولا، حتى لا تحدث مضاعفات أو غرغرينا. إن كنت تخاف الله، فأوصلني إلى أقرب مستشفى، أو أعطني هاتفك الجوال أهاتف أهلي، أنا د. يحيى، أتعالج في أفخم المستشفيات في العالم، وليس على يد جاهل لا يفقه في الطب شيئا.

ـ يا بني، لا توجد مستشفى، ولا سيارة تقلك إلى صنعاء، فهي الوحيدة التي فيها مستشفى أممي، والهاتف الجوال لا يعمل عندنا. العم أيوب جبّر زوجتي، وابن عمي، وكل أهل المنطقة هو الذي يقوم بتجبير كسورهم.

ثم نادى الرجل على أحد الجالسين ليكشف عن فخذه التي جبرها العم أيوب برهانا على مدى احترافيته في التجبير. حاولت كثيرا أن أثنيهم عن نيتهم في تجبير ساقي، لكنهم صموا آذانهم، واستغشوا عني بعزمهم، عصب الرجل بعمامته على عينيّ بقوة، وآلم عيني المجروحة، لكن سرعان ما نسيت ألمها، والعم أيوب يسحب ساقي ليركب طرفي العظم المكسوة في مكانهما، ثم أسمعه يقول (أوثقوه ريثما أثبت الجبائر).

مرارة الألم المصاحب لشد ساقي كاد يفقدني وعيي، و العجيب أن الألم يتعاظم حتى يتجاوز حدود إحساسي به، مثل الصوت وحدوده، فعندما تتجاوز حدته القدر المعقول

لأسماعنا لا نسمعه، وعندما ينقص عنها أيضا لا نسمعه، وقد فعلها الألم الذي بلغ من عظمته أنني لم أعد أشعر بساقي، وكأنه خدرها موضعيا، كل ما أشعر به هو العرق الذي يتفصد به جسدي، لدرجة جعلتهم يظنون أنني دخلت في إغماءة، فتح الرجل العصابة عن عينيّ، رأيت العم أيوب يكيف الجبائر الخشبية على شكل ساقي، يسحّف النتوءات بالسكين حتى يحكم تثبيتها على ساقي الحدباء، ثم أخذ يربطها بربائط جلدية، يلفها على الجبائر الخشبية بطريقة عجيبة متقنة.

عند الانتهاء من التجبير اقترب مني العم أيوب وقال:

ـ يا ولدي بإذن الله، إذا سمعت كلامي لن تبلغ خمسة عشر يوما إلا وأنت تسير عليها باستخدام العكاز، وبعد شهر تستغني عنه.

قاطعه الرجل:

ـ ماذا نعطيه يا شيخ أيوب.؟

ـ أنا سآتيه كل صباح وأتأكد من كل شيء، وضعت له (الثفاء) وشحم الدجاج على ملتقى العظمتين. يحتاج الراحة، وشرب الحليب بكثرة. (والشفاء قدّامه إن شاء الله).

نهض العم أيوب فقام الرجل ووضع شيئا في جيبه، وهما يتكلمان، لا أدري ما الذي وضعه ربما تكون أجرة التجبير، ثم أخذ الرجال في ارتشاف الشاي الذي أعده الشاب، أسمع همهمتهم، لكنني لا أدري ما يقولون والألم يسري في ساقي رويدا رويدا، كل أمنيتي أن أنام ولا أشعر به.

بعد برهة صحوت على صوت الرجل يؤذن لصلاة المغرب، فتوافد إليه مجموعة من الرجال من عرائش متناثرة في أطراف المكان. تقدم أحدهم وصلى بنا المغرب. المدهش أنه يقرأ القرآن بلهجة قريبة من اللهجة النجدية، تفرست قسماته بعد الصلاة فكانت ملامحه قريبة من النجدية أيضا.

صمتُّ وكتمت كل شيء في صدري. فأنا طريد المتناقضات في الحياة، مذ ولجت عالم الجمل وأنا فريسة الشكوك والظنون والحيرة، لم أضع يدي على حقيقة جازمة في أي أمر دلفته، أو دلف عالمي عنوة. الأسئلة تطاردني مذ عرفت ذلك العالم المشؤوم، وها هي تطاردني

وأنا أغادره أيضا:

هل مازلتُ في عالم الجمل؟ هل أنا مكسور افتراضيا أيضا؟ هل هذا من بنود اختبارات الجمل لي؟ أم ماذا؟

كيف أكون نائما في سيارتي، ثم أصحو في أحضان هشيمة بهذه الحال المزرية؟ هل يريد الجمل أن يختبر شجاعتي؟

استقر في ذهني أن أصمت، فأنا في طور الاختبار، وربما الجمل يريد أن أنخرط في سلك عسكرية عالمه الافتراضي، وستكون عسكريتهم أعنف من العسكرية في عالمي، لاسيما والعساكر يتمتعون بكل سبل الرفاهية والحياة الكريمة، حتى أن أجسادهم تضاهي أجساد المدنيين في اندلاء الكروش وتورم السيقان والأفخاذ والأرداف، من المؤكد أن هذا جزء من عسكرية الجمل التي لم يخبرني عنها يوما، بأمارة هذه العرائش المتفرقة في هذه الأرض المقفرة من كل مظاهر التمدن والحضارة. سأغلب ظنونك بي أيها الجمل، سأحقق نتائج مذهلة في اختباراتك، وأولها اختبار التجبير البدائي فقد اجتزته بنجاح.

هل يعقل أنني سقطت من الجو؟ سأحاول أن أسأل الشاب إن وجد بقايا مظلة ممزقة؟ لكن كيف تكون لي مظلة، وأنا حتى لا أملك ملابس عسكرية، هل ملابس العسكرية عندهم (حوكة وقميص)؟.

حرك الصباح حباله الصوتية بنحنحة العم أيوب، وهو يطمئن على ساقي ويرتشف الحليب بجوار النار، ولم يطل المكوث بعد أن نظر في ساقي، ثم انصرف إلى شأنه، أما أنا فتناولت نصيبي من الحليب الساخن، وبقيت أرقب المشهد في العرائش، الحركة الدائبة للناس منها، فهذا منطلق خلف مجموعة من الأغنام، وآخر يسوق الإبل، وثالث يحمل آنية بلاستيكية ضخمة، وآخر يضْمِد ثورين تحت مقرنة خشبية، ربما يروم حراثة أرض أو جرف تربة.

ثم جلت بنظري إلى الصندقة الوحيدة في المشهد حولي، لأرى أطفالا أو نساء، فلم أظفر من هذا بشيء، فتعزز معتقدي بأنني في اختبار جملي ضخم، خاصة وأنا أتذكر منظر الثورين اللذين رأيتهما في قصره في أول زيارة، والأحصنة التي تجر العربة في نفق السرعة، ثم تختفي

بعد فترة لأدخل في عالمهم تدريجيا، فكل هذه المشاهد حولي لا تعدو أن تكون افتراضية.

يجب عليّ التصرف داخليا على اعتبار أنها افتراضية، أما ظاهريا فسأتعامل معها كما هي، لأحرز تقدما في الاختبار يفاجئ الجمل المحتقر لعقولنا، والمستخف بهممنا. ثم سَرَتْ في داخلي ابتسامة خفية، واعتداد بعقلي الذي أدرك ما يظنونه قاصرا عن إدراكه، و سرعان ما تبددت تلك البسمة اليتيمة، وصوت الجمل ينبثق من أعماقي: (لم تدرك ما أدركت بفضل عقلك، بل بما تفضل به عالمنا عليك، بعدما انتشلناك من عالم الظلام).

ما أمرّها كلمات الجمل، حنظلية عندما تخرج متهكمة بعالمي، مزلزلة عندما تمس عروش قناعاتي، فتتهاوى كبناء الطفل على الشاطئ إذا عصفت بأركانه موجة شاردة من بطش البحر.

جاء الرجل الطيب يحمل صحنا كبيرا على رأسه، تزدحم فيه أطباق حديدية مترعة باللحم المقلي (المقلقل) وصوانٍ من المرق الساخن، ولم يتموضع على الأرض إلا والرجال يتوافدون من العرائش حتى غص عريشنا بهم، وعلى إثره جاء الشاب على عجل فوق رأسه وعاء من الخصف، وضعه بجوار صحن اللحم، مملوء بقطع الخبز السميك مختلف ألوانه، بعضه يميل إلى الحمرة، وبعضه إلى السمرة أقرب، ثم وزع الرجل الطعام علينا، لأنني لا أستطيع الجلوس ومزاحمة الجوعى، فسألته:

ـ ما هذا الخبز؟

ـ فأجاب ـ باستغراب ـ ألا تعرفه؟، هذا خبز (الميفا) يا ولدي. يخبزه النساء بعد تخميره في حفرة مملوءة بالجمر تحت الأرض.

نظر إليّ الجميع باستغراب، لكني تجاهلت نظراتهم، تناولت إفطاري، وأنا أستمع إلى أحاديثهم، فإذا هي مزيج من اللهجات المريبة، لهجة حجازية، لهجة نجدية، لهجة خليجية، و لهجات جنوبية متباينة، وكلهم يبجلون ذلك الرجل في عباراتهم وينادونه العم (مقبل)، فالسامع لأحاديثهم يظن حقا أنهم يعملون أجراء عنده. لكن كيف يكون هذا؟

لن يكون إلا بحيل الجمل المحكمة، ولا بد أن العم مقبل هو الجمل عينه، تشكل بشكل آخر. أو أنه من الألباء العسكريين، كلفه الجمل باختباري. وإخفاء شخصيته والعالم عني.

انتظرت حتى تفرق الرجال، فخطر في بالي أن أعبث مع العم مقبل، وأسأله بعض الاسئلة التي أقوي بها إدراكي لحقيقة المشهد الذي أعيشه، لكن سرعان ما تبدد عندما لمحت الشاب قادما يحمل صينية، قدمها إليّ مترعة بلذيذ العسل، فقلت في نفسي، استدراج الشاب إلى مرادي خير من المجازفة مع العم مقبل. لكن العم ربما لا ينوي القيام عندما التفت إليّ متسائلا:

ـ لم تخبرنا باسمك يا ولدي؟

ـ أخبرتكم بالأمس، أنا د. يحيى.

ـ ما الذي جاء بك إلى هنا يا يحيى؟

ـ لا أدري ياعم مقبل، حقيقة مازلت أفكر في الأمر، أنا أسكن في مدينة جدة، وأهلي كلهم هناك، لكنني أعمل في مستوصف في المنطقة الجنوبية، ولا أدري ما الذي حدث حتى وصلت إلى هذه الأرض.

ـ ابتسم ساخرا ـ أنت من أهل جدة إذن؟

ـ نعم.

ـ متى آخر عهدك بجدة.

ـ قبل شهر تقريبا.

ـ وكيف هي الآن؟

ـ من أجمل المدن يا عم مقبل. اشتقتها جدا.

ارتسمت ـ أيضا على شفتيه ابتسامة ـ لا أدري ما مغزاها، ثم أردف:

ـ كانت كذلك يا ولدي. أما الآن فقد تخلت عن جمالها وحازته مدن غيرها، لم نكن نسمع بها.

ـ ماذا تقصد.؟

فتح فاه ليجيب لكن الشاب قاطعه عندما أحضر الشاي وحزمة خضراء لا أدري ماهي. فسألني:

ـ هل تحب هذا؟ (وأشار إلى الحزمة الخضراء).

ـ ما هذا؟

ـ ألا تعرفه أيضا؟ إني لا أدري من أين أتيت وأنت لا تعرف خبز الميفا، ولا تعرف القات؟ ثم التفت إلى الشاب وضحكا ساخرين.

ـ أهذا القات حقا؟

ـ لا، ابن عمه ـ وضحكا بصوت مرتفع ـ يا ولدي هذا القات نبات طيب، مفيد لكبار السن أمثالي، ولولاه لبعت أغنامي وإبلي وأنا أبحث عن (الفياجرا) ثم جلجلت ضحكاته أعلى ـ وتناول غصنا طريا منه وأخذ يمضغه، ويقول: قبل ثلاث سنوات في صنعاء، شعرت برجفة، وزغللة في نظري، وأغمي علي، ونقلني ابن عمي إلى المستشفى الأممي، فأثبتوا أني مصاب بداء السكري، وأعطوني أدوية، طلبوا أن أستمر عليها يوميا، لكني وجدت دوائي في القات، بعدما أخبرني به العم أيوب.

ـ الذي أعرفه أن القات من المخدرات وهو ممنوع في بلادي، ومحرم الاتجار به أو تعاطيه.

ـ ضحك طويلا، إذن أنت لا تعرف شيئا يا ولدي. فالدول العربية الآن تتنازع على زراعة القات وتصديره إلى العالم، ليكون رافدا استراتيجيا لاقتصاداتها المنهارة.

هنا ضحكت في أعماقي ـ منتصرا ـ بعدما تأكدت أني في الاختبار الجملي، وقلت عليّ أن أساير الأمور:

ـ إذن صار القات نباتا استراتيجيا للدول العربية، وستعمد الجامعة العربية إلى إحياء القومية العربية، والضغط على اليمن لتبعث بخبرائها لزراعته في كل الدول العربية.

ـ بالضبط يا ولدي. أصبت تماما، لكن اليمن رفضت الفكرة، وتعهدت بتصديره إلى الدول العربية بأسعار أخوية.

قام العم مقبل وبقيت أنا والشاب الذي سمعت اسمه لكنني لم أحفظه، لكثرة ما سمعت من الأسماء فكان مدخلا مناسبا للحوار معه عندما التفتُّ إليه وزغده الأيمن محشو بالقات، كأنه حشر فيه كرة تنس صغيرة، فسألته:

ـ ما اسمك؟

ـ مراد.

ـ هذا والدك؟

ـ كلا هذا عمي، توفي والدي وأنا صغير، فتزوج عمي من أمي حتى يحفظني أنا وإخواني، وصار أبا لنا.

ـ عمك الجمل؟

فتغيرت ملامحه واستغرب سؤالي وأجاب بامتعاض:

ـ كيف؟ عمي مقبل، من قال لك اسمه الجمل؟

ـ لم يقل لي أحد، لكنني تخيلت ذلك. أين تقع قرية رتال؟

ـ لم أسمع بها من قبل.

قلت في نفسي، هذا المراد يتمرد عليّ. لكنني سأباغته:

ـ يقال أننا الآن في فصل تزاوج الحيتان، وربما تنقص عليكم الأسماك إذا انشغلت عنكم بالتزاوج.

نظر إليّ الشاب مندهشا بحق:

ـ وما يدريني عنها؟

ـ هل سافرت إلى زحل قريبا؟

نهض مراد مرتبكا، ولم ينبس بكلمة واحدة، سوى نظرات فزعة، وربكة بادية عليه خصوصا بعد سؤالي عن اللبيبة ركزا.

بعد صلاة الظهر عاد العم مقبل، وسألني عن حالي، ثم أخذ يتكلم مع الرجال الذين توافدوا في موعد الغداء، و انفرد مراد باثنين منهم وأخذ يتكلم معهما بصوت خافت، لكن نظراته تتجه إلي بين الفينة والأخرى، وهما يسترقان النظر كذلك بحرص ألا يلفتا انتباهي.

ناديت العم مقبل وسألته:

ـ متى تنكشف الحجب؟

فصمت الجميع، ولم يجبني.

قلت في نفسي لقد ألقمتك حجرا أيها الجمل، وأفسدت اختبارك، فإن غيروا معاملتي فإدراكي صحيح، وإن استمروا على حالهم، فلا بد أن أزيد الضغط عليهم.

في الليل بعد صلاة العشاء، كانت السماء صافية، وأنا مستلقٍ على ظهري، فأخذت أجول بنظري في أرجائها وقلت بصوت مرتفع:

ـ الليلة يموج البحر موجة عظيمة، وربما تنفجر الكرة الحرارية، وتغرق قصوى بمصانعها وحيتانها وزجاجها المرد من زجاج الفضاء.

وكعادتهم صمتوا ولم يجبني أحد إلا بنظرات لم أستطع قراءتها، ولم أجد لكثير منها التفسير الملائم، فإن قلت أنهم مشفقون علي، ففكرة اختبارهم لي تنفي هذا الحدس، وإن قلت أنهم خائفون مني، فكيف يخافون من كائن هم يتحكمون به. ولم يخطر ببالي استغرابهم من المعلومة لأن قراءة السماء من صميم معتقداتهم الجملية. فانصرف الجميع بعد العشاء، وخلدت إلى نومي.

صحوت مبكرا، وأول شيء تبادر إلى ذهني صمت الجميع البارحة، طغى يقيني أني تمكنت منهم ولابد أن يشرحوا للجمل ما قمت به، فكانت مفاجأتي أكبر من ذلك عندما جاء العم أيوب، وأخذ يتفحص ساقي، ثم أخذ يتفحص رأسي وصدري، والمريب في الأمر أن الجميع تفرقوا عندما بدأ فحصه لي، فقلت في نفسي لا تراجع، سأفاجئ العم أيوب بسؤال أرى ردة فعله بعده، فبادرته:

ـ هل وجدتم ياسوم؟

ـ فنظر إلي نظرة متأنية، وجال بعينيه كأنه يفكر، ثم قال: نعم، كان هنا قبل الفجر وذهب إلى صنعاء وسيعود في الليل.

ـ هل ستقبضون عليه؟

ـ نعم. ثم لاذ بصمت عميق.

تيقنت أني في اختبار الجمل، وارتاحت نفسي جدا، وأيقنت أن الكسر افتراضي، وأنني بخير، وأن منظر وجهي الشاحب كذلك، فقلت:

ـ يا عم أيوب، أنا أعلم كل شيء، وأعلم ما يريده الجمل، فأعد ساقي وملامحي كما كانت، وأخبر الجمل أنني اجتزت الاختبار.

ـ أبشر يا ولدي.

ثم قام ونادى العم مقبل، فجاءه على عجل، وتحدثا بعيدا عني. ثم عاد العم أيوب وأخذ يتفحص رأسي، فوجد بعض السحجات، وجروح الأشواك تحت شعري، فطلب مقصا، وقام بحلاقة شعري بطريقة عشوائية، وأخذ يتحسس رأسي ويتفحصه ثم قام، وتبعه العم مقبل يتحدثان وهما يسيران بهدوء ثم افترقا.

قبيل المغرب، جاء العم أيوب يحمل ميسمه نادى الرجال، فأمسكوا بي، وجردوني من ملابسي بالكامل وغطوا نصفي الأسفل ببطانية خشنة، وأقبل مراد يحمل تيسا أسود اللون بالكامل، لا نقطة لون في إهابه غير السواد المصمت، ذبحه العم مقبل بنفسه على خلاف القبلة، أراقبه وهو يجمع دماء التيس في إناء معدني، ثم يناوله للعم أيوب، وأنا في دهشة لا أدري ما الأمر، أخذ العم أيوب يمرر الدم على رأسي، ويتمتم بكلمات لا أفهمها، ثم يحرك الدم على عنقي وصدري وظهري، ويضرب بين كتفي بقبضة يده ثلاث مرات، والرابعة على صدري، ويتمتم ويرفع صوته بما لا يفهم، ويكرر هذه الأفعال كثيرا.

ثم سجاني بالبطانية وجعل أربعة رجال يجلسون على أركانها الممتدة على المفرش، رائحة الدم المؤذية تخنقني، حتى شعرت بأن روحي ستخرج وأنا أبحث عن ذرة أكسجين، صرخت، فاقترب صوت العم أيوب من رأسي وهو يتمتم بسرعة عالية، حتى كاد أن يغمى علي، بعدها أزاح البطانية عن نصف جسدي العاري، والجميع يهللون ويكبرون، ويدعون له بالعافية، ثم أخرج دفترا متهالكا من ميسمه، وأخذ يكتب فيها بحبر سائل أزرق، على ضوء الفانوس بعجل، وبخط كبير ركيك غير منتظم، ثم يطوي ما يكتبه بطريقة عجيبة حتى تصبح أشكالها مثلثة، مثل حبة (السنبوسك)، و بعد أن لفّ منها قرابة العشر، جعل إحداها في قماش، وقام بخياطته بنفسه، وجعل لها تعليقة، ثم ربطها على عنقي وهو يتمتم، وأخذ واحدة من اللفافات المثلثة، ففكها، ثم غمسها في طاسة الماء، أذابها حتى امّحى حبرها، كادت الورقة أن تذوب أيضا، طلب إناء ماء كبير، ومحا فيه أربع لفافات من أوراقه، أمرهم أن يغسلوا به جسدي الملطخ بالدماء في الحال، ثم أمرني بشرب ماء الورقة الأولى، والتفت إلى العم مقبل وقال له:

ـ بقي أربع لفافات يشرب واحدة كل صباح وكل مغرب.

جلس الجميع بقربي حتى جاء العشاء، وأنا صامت لا أتكلم، أدركت أنني أخطأت السبيل، فهؤلاء البدائيون لا يمتون لعالم الجمل بصلة، أو أن عالم الجمل الذي رأيته افتراضيا، بدأ يظهر على حقيقته عالما مترعا بالسحر والشعوذة الضالة، لا يمت للعلم والنورانية بصلة.

كنت أقرأ في سري المعوذات وآية الكرسي، وكل ما أحفظه من القرآن. وأدعو الله بإلحاح: " اللهم إني أسألك باسمك الأعظم الذي إذا سألت به أجبت، اكشف لي ستر ما حولي، وبدد سحائب حيرتي، وأغثني يا رحمن الدنيا والآخرة، اللهم أزل عن عيني وعقلي الغبش، وأنر بصيرتي بعد حيرتي، اللهم.... "

غرقت في النوم، وصحوت بالعم أيوب جواري يتفحص رأسي وجسدي، والعم مقبل يذيب المحوة في الماء لأشربها، فشربتها، وقررت التخلي عن التذاكي والحديث عن عالم الجمل حتى يكفوا عن ممارساتهم المؤذية، ثم أخيرا لذت بالصمت تماما، فلن أتحدث مهما حاولوا معي، فلا أتواصل معهم إلا بلغة الإشار

١٤

" إن بعض المسلمين – مع الأسف – لم يجدوا طريقة للتقدم في نظرهم إلا تقليد الأوربيين، ولكنهم لم يقلدوهم فيما كان سبب قوتهم ومنعتهم، ومضت عشرات السنين على الذين يدعون لتقليد الأوربيين، ولكن من منهم عمل إلى اليوم إبرة أو صنع طائرة أو اخترع بندقية أو مدفعا؟"

عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود

مؤسس المملكة العربية السعودية

- ١٤ -

استمرت بي الحال عشرة أيام، بعدها بدأت الأمور تتغير فقد أحسست بالعافية تدب في جسدي، أما عقلي فقد استبدت به الفكر المتباينة عن هذا العالم المحسوس الذي عطل كل توقعاتي، وأمات كل حدس ينبت في خاطري، حتى صار الصداع قرينا لا فكاك منه، ماذا حدث بالضبط؟ هل مرّ بي عالم الجمل في حلم ثقيل، أم كان عالمي الحقيقي هو الحلم الذي أعيشه الآن؟

أحيانا يكون الشك دافعا إلى التفكير، لكن التفكير المضني المفضي إلى نتيجتين متضادتين هو النكد الحقيقي، أشبه ما يكون بفراش جميل اللون من ورقات البرشومي الضخمة.

الشك قديمٌ في عقلي، تعودت عليه منذ الصغر، ولا أدري من أين استقيته، ربما من أسرتي أو مدرستي أو مجتمعي، أو أنني أحاول النبوغ دون وعي، يسكنني الشك في أشياء كثيرة تحيط بي، أحب تأملها، وأسلم من عبثيته تجاه تصرفات الناس وأقوالهم، لم يكن يساورني الشك حيالها، ربما لعدم مبالاتي بأشياء كثيرة.

أتذكر أفكاري الطفولية، عندما كنت أشك في وجودنا الحقيقي، وأتخيل أن العالم كله في بطن حوت ضخم، وأن الأرض الجافة وجبالها ليست إلا خلايا الحوت الميتة وعظامه التي لم يعد بحاجة إليها، والأمطار هي إفرازات جسده الداخلية. أما الزلازل والانهيارات ليست إلا بفعل تحركات الحوت وعنفه في محيطه الخارجي الذي لم أستطع تصوره آنذاك. لا سيما وأنا أسمع الكبار يقولون على سبيل المبالغة تعبيرا عن عمق الحفرة إذا حفروا (حفرنا إلى قرن الثور)، لأبحث عن أسطورة الثور الذي يحمل الأرض على قرنه.

كبرت، وقرأت كثيرا، حتى وجدت الشك يساور الكثيرين، وصل بعضهم إلى افتراض أن المحسوسات التي نراها، ما هي إلا صور عقلية يفترضها العقل، وأن لا وجود حقيقي لها كما يقول الجمل. وقد غالى البعض إلى أكثر من ذلك.

اليوم في نضجي، واعتدادي بعقلي أعود فريسة للشك، لا أدري إلى أي عالم أنتمي، هل أنتمي إلى عالم الجمل، أم إلى عالمي قبله؟ أم إلى هذا العالم البدائي المقفر الذي يشاركني ضياع

الانتماء؟ فلا أدري أهو من عالمي القديم، أم من عالمي الجملي الجديد؟

فإن كان من عالم الجمل، فلماذا كل هذا التكلف في إخفائه عني، وأنا المصطفى منهم على أبناء عالمي، المطلع على معظم أسرار ذلك العالم الافتراضي المجهول. وإن كان من عالمنا المعلوم فكيف يكون ذلك. (رب اهدني وأنر بصيرتي يا الله).

هاهم النساء والأطفال في قرية العم مقبل، أراهم، وأعيش معهم بمظاهر حياتهم البدائية جدا، وجهلهم وتخلفهم وبعدهم عن كل تمظهرات العلم الدنيوي أو العلم الشرعي، فماذا يحدث في هذا العصف العابث برأسي؟

أين العلماء والدعاة، والجامعات والأكاديميون والمفكرون، أين الإعلاميون عن هؤلاء البشر؟ كيف يكون هذا العالم من عالمي الحقيقي والكل يتجاهله؟

عاد حدسي الآثم ينمو في خاطري، لا بد أن الجمل بدهائه ومكره، يريد أن يريني ظلامية عالمي الذي وصف كل أضواء حضارته بجمرة السيجارة في الليل البهيم، لا هم لهذا الجمل إلا تشويه عالمي، وترسيخ قناعاتي العميقة بسوء هذا العالم وخبثه.

وأنى للشك والحيرة أن ينضب معينهما وأنا أشاهد بأم عيني أهلَ القرية مدججين بأسلحتهم النارية في منزل العم مقبل، ثم بدء المباراة الحامية بين الرماة، بعدما نصب الفتيان أكوام من المرو في سفح مقابل للقرية، والشيخ مقبل ووجهاء القرى المجاورة يستخدمون (الدرابيل) لرؤية الأهداف وتسجيلها، ويستمر هذا المشهد الصاخب إلى قرب صلاة المغرب، ثم بعدها تمد المفارش، ويستمر المجلس إلى قرب منتصف الليل، في تسامرة مكتظة بكل شيء. أليس هذا المشهد من متطلبات التدريب العسكري؟

سرعان ما تلاشى برعم حدسي وجفت بذرته وتربته، عندما تذكرت التقنيات المتطورة جدا في عالم الجمل، التي لا يمكن أن يعيد جنود قواته إلى هذه الأسلحة البدائية الضعيفة، هذا إذا كان لديه جند في الأصل. فما حاجته إليهم وهو يستطيع التحكم في المجالات المغناطيسية، وإيقاف موجات التسونامي العاتية.

لفتني بين أولئك الجمع الآتي من قرية بعيدة شابٌ، أطال النظر إليّ أثناء السلام، لهجته الحجازية جذبتني بشدة، كنت أرمقه وهو يتابع النظرات إليّ بين الحين والآخر،

كأنه يود الحديث معي، لكن شيء ما يمنعه لا أعلمه. نظراته المتتابعة واهتمامه بمراقبتي تشعل فضولي، وتسجّر بحار شكي المتقدة أصلا، لربما أرسله الجمل لمراقبتي، وتسجيل حركاتي وسكناتي. لكن لا أظنه يراقبني بهذه الطريقة الغبية الفاضحة، لرجل يتحرى عن رجل آخر.

هل كلّت حيل الجمل بعدما تدمّر عالمه، ولم يجدني، فأرسل هذا الشاب للبحث عني؟

حاولت جاهدا استعراض وجوه الحراس، لكن لم تعثر ذاكرتي على وجهٍ يشبه تقاسيم هذا الشاب البائس، ذو الابتسامة الوضيئة، الذي نحت الواقع الأليم لوحته الواقعية على ملامحه.

تفرق الجمع بعد منتصف الليل، وهجعت إلى الصباح، وفي صباح اليوم التالي جاءني العم أيوب، أجبرني على السير على عكازين، بمساعدة مراد الذي يعضدني، ويؤنسني بكلماته حتى نصل إلى عرائش الرجال المجاورة لمنزل العم مقبل، واستمر الحال يومين، وأنا كالطفل الصغير، لا أسير إلا بمرافق، يضبط خطواته على إيقاع ساقي المكسورة، وبعدها استطعت السير بمفردي على عكازين، طلب مني الرجال في العرائش أن أجلس معهم، حتى تعودت على مجالستهم والتحدث معهم لكنني أتحدث بحذر، أساير واقعهم الذي يعيشونه، فلست في حال تسمح لي بتكرار تجربة الطلاء بالدم، وشرب محوات العم أيوب.

في العرائش تعلمت التدخين، عندما وجدتهم يخزنون أكياسا من التنباك (الدخان الأخضر) الذي يزرعونه بعد المطر، ثم يدخنونه بالغليون أو باللف، يلفونه لي في أوراق الجرائد البالية سيجارة مخروطية الشكل، رأسها قاعدة المخروط، وتصغر عند النهاية ليسهل امتصاصها، دون واقٍ من كثافة القطران الذي أشعر بلزوجته على شفتي السفلى ورأس لساني، ودخانها الكثيف ينتشر سحبا فوق رأسي، أدمنت هذه السجائر. أتذكر كلمات الجمل حول عالمه الذي لا يدخن، لكن شكي يقول هؤلاء أتباع ياسوم، وقد استطاع اختطافي من عالم الجمل، وها هو يعد العدة لأنضم لعالمه، لكنه يحاول تأهيلي، لأنتقل إلى عالمه التدميري المنتقم المضاد لعالم الجمل.

أبحث في ملامح الرجال عمّن يشبه ياسوم، فلربما تجرد من لونه الأحمر، واستطاع

التعايش مع الواقع، لكن لا شبه في كل من أجدهم حولي، ربما ذهب إلى مكان معين وسيعود، أو ينتظر أن يتم إدغامي بالكامل في عالمه، ثم يظهر بوجهه الحقيقي الذي يعشق التدخين بشراهة.

في هؤلاء الرجال سذاجة وجهل، وطيبة عميقة، أكثر ما يسوءني في مجالستهم إيمانهم المطلق بالخرافات، واستجاباتهم المبرمجة لكل صوت في محيطهم، فإن سمعوا صوت الثعلب (الحصني) ردوا عليه داعين في الحال (بعمرك)، يعتبرون صياح الثعلب وقت المغرب بمثابة الناعي لجنازة في القرية قريبا. وإن صوّت طائر البوم أو الغراب تشاءموا، وإن رأوا هالة تحيط بالقمر فسروها بأمر، وهكذا.

معظم حديثهم يدور حول (العين)، فلا أسباب تجري بأي أمر غيرها، حتى صار من يصفونه بها يتباهى، ويدّعي تحكمه بها كيف شاء، لدرجة أنهم صاروا ينصاعون لأوامره اتقاء شر عينه. والويل كل الويل لمن يحاول عدّ أغنامهم أو مواشيهم، فهذا أول أسباب محق بركتها وهلاكها. لربما نقل ياسوم إليهم عقائد الطبيب السوداني المؤمن بالسحر والشعوذة.

في اليوم العشرين الذي استطعت فيه السير على عكاز واحد، أفاقني من قيلولتي أحد الرجال، وأخبرني بأن شابا ينتظرني في العريش، وانصرف قبل أن أجمع حروف السؤال، فتحاملت على عكازي وتبعته، كان حدسي يتنبأ أن ذلك الشاب عاد لمقابلتي، وحدس آخر يتنبأ أنه ياسوم قد تمكن مني وسيكشف عن شخصه، وصدق حدسي الأول هذه المرة، فإذا بالشاب يستقبلني، ويحييني بحرارة، فأجلسوني إلى جواره، رجلي ممدودة كعادتها، وقد تعوّد عليها الجميع، رغم أن مدّ الرجل في المجالس من المثالب التي لا تغتفر ففيها دلالة احتقار المُجالَس كما رأى أبو حنيفة، أخذ الرجال يسألون عن حالي، ويحمدون الله على قيامي بالسلامة، ويستبشرون بوليمة دسمة وعدهم بها العم مقبل إذا سرت على قدمي، ثم قدّم لي أبو شاكر سيجارتي الضخمة، أشعلتها بنشوة، فسألني الشاب:

- هل عرفتني يا نايف؟

- من نايف؟

- أنت، ألست نايف المشني؟

ـ لا ، لست هو.

ـ بل أنت نايف، لكن الحادثة أثّرت على ذاكرتك.

ـ أي حادثة؟ وأي نايف. أنا د. يحيى.

التفت الشاب إلى المجموعة وقد ارتسمت ملامح الجدية على وجهه، وقال لهم:

ـ كما أخبرتكم تماما، نايف لا يعي شيئا من ماضيه، لأنه ألقى بنفسه من السيارة بطريقة عشوائية وهي مسرعة، فتأثرت ذاكرته، ودورنا يا شباب أن نحاول إعادة ذاكرته، وأفضل حل هو الذي اقترحه أبو شاكر أن نسرد لنايف كل شيء.

استمر ذهولي أمام هذا الشاب وهذا الحديث الغريب جدا، لكن أبا شاكر استأثر بالحديث وقال:

ـ نايف. أخبرنا جابر الوافي، أنه جارك في الطائف، وزميل دراسة قديم، وأنكما بعد النكبة قد تركتما الدراسة وسافرتما معا بحثا عن الرزق إلى أماكن كثيرة، كان آخرها سفركما إلى اليمن، وعملكما في مزارع (ناجي حاشد)، وفي ليلةٍ نشب شجار بينكم (أنتم الشباب الخليجيون) وبين شباب يمنيين، تطور إلى عراك بالأيدي والعصي، وأصيب بعضهم بجروح، ثم جاءت دوريات الشرطة وألقت القبض عليكم وسجنتم، وبعد شهر من سجنكم قرر حاكم صنعاء ترحيلكم إلى بلادكم، وفي تلك الليلة جمعكم رجال الشرطة في حوض سيارة عسكرية مغطاة بشراع، يحرسكم جندي في مؤخرتها، استطعت مغافلته وإلهائه أثناء الطريق، وقفزت من سيارة الشرطة وهي مسرعة، فحدث لك ما حدث. فعادت الشرطة تبحث عنك في ذات المكان، واستمر بحثهم قرابة الساعة، فلم يعثروا عليك بسبب الظلام والأشجار، وأكملوا مسيرهم بغيرك، بعد ذلك ساروا بالمجموعة المتبقية سبعة شبان منهم جابر، وأوسعوهم ضربا، ثم أطلقوا سراحهم دون تسليمهم للسلطات السعودية، لكثرة الإصابات في أجسادهم من آثار الضرب.

ـ كدت أضحك سخرية من تفاهاتهم، لكن جدية الرجال في الحديث جعلتني أجيب: لا أتذكر هذا الأمر أبدا.

فانبرى جابر بملامح مبتسمة تارة، وأخرى بملامح المشفق على حالي، لكنه حاول تلطيف

الحديث، وعلق:

ـ ليتك يا صديقي تعلمنا التعاويذ التي أعميت بها عيونهم عنك، ثم ضحك وضحك الجميع عدا المائر بالشكوك. ثم أردف:

ـ يا صديقي، أعلم أنك لا تتذكر هذا، لأن سقوطك من السيارة كان قاسيا، وهذه الإصابات في جسدك والكسر كلها بسبب تلك القفزة المجنونة. لقد سمعت من الإخوة أن العم مقبل وجدك يوم الثالث عشر من أبريل، وتاريخ ترحيلنا كان يوم ثمانية / أبريل، أي أنك مكثت أكثر من أربعة أيام في إغماءة مستمرة، تعرضت فيها لقسوة الطبيعة، وضربة الشمس الحارقة، ونزفت كثيرا، لكن عناية الله سبحانه وتعالى سلمتك من الموت، ومن الهوام الخطرة في هذه الأرض، أما ذاكرتك فستعود تدريجيا يا صديقي، هي مسألة وقت وتعود.

ـ أخي جابر، أنت مخطئ تماما، لم يحدث لي هذا مطلقا، وما الذي يعوزني للعمل في مزرعة، وأنا ابن السعودية والخليج؟

أراد جابر أن يجيب، لكن محمد وردان قاطع الجميع، وتنهد، وتحدث بأدبية عالية وحرقة، وألم شديد، استغربت أن تخرج هذه العبارات منه، فقد انطبع في خلدي أنهم لا يملكون الحد الأدنى من الثقافة واللباقة، لكن خطاب وردان أجبرني على مراجعة انطباعاتي السلبية عندما قال:

ـ أخي نايف، أحيانا يتمنى المرء أنه مات قبل أن يسمع ما حدث، فما بالك بمن رأى وعايش، من يصدق أن يتحول العنب إلى شوك؟ من يصدق أن يزول كل عزه في لمح البصر؟ من يتوقع أن تصبح أرجل الكراسي مكانا للجلوس؟ وأن يصبح سقف مجده طاولة قصيرة ضاغطة، يعيش منحنيا تحتها؟ لا يصدق هذا إلا من قال:

ما بين طرفة عين وانتباهتها...... يغير الله من حال إلى حال.

قرأت هذا البيت عميقا في أعين الساسة والإعلاميين وأساتذتي وإمام مسجدنا لحظة النكبة، حقا قرأته بعمق، وكأنني أول مرة أسمعه في حياتي، رغم أننا، قرأناه كثيرا، حفظناه، تمثلنا به، جعلناه حكمة في مجالسنا الفارهة، وزيّنا به اللوحات، وغرسناه في أدمغة النشء، لكن ثمة مكان واحد لم يستقر فيه هذا القول، قلبي وقلبك وقلوب الجميع، لم

يدخلها هذا القول إلا عابرا في بهرج الاستشهادات، واستعراض حفظنا للتراث الأدبي، ما وقر فيها ولا استقر، إلا بعد أن وقعت الصاخة.

آآآآه يا نايف،ثم آآه، ثم آآآآه.

كنت أربأ بنفسي أن أتحدث في هذا الأمر بالتحديد، فكلما سألني الإخوة في اليمن، تشاغلت بأي أمر كيلا أجيب، تؤلمني سبحنات البعض وهو يستشهد بالبيت المذكور، ويقول لي كنت عاملا عندكم، وعدتم عمالا عندي، ويقولها كل من عمل في بلداننا، واليوم نستجديه أن نعمل عنده، بنصف الأجر، وأحيانا بقوت اليوم فقط. هل تعلم يا نايف أن كثيرا من الناس في بلدان العالم، خصوصا في بدايات النكبة كان لا يحتاج إلى عمال، لكنه يبحث عنا لنعمل عنده، لأنه يجد متعة مختلفة في إذلالنا، فيشفي غليل نفسه من قوم بطروا، واغتروا بالدنيا حتى استعبدوا الناس وامتهنوا إنسانيتهم.

حالنا اليوم يا نايف كحال بنات الملك المعتمد بن عباد، هل تعرف قصته؟

ـ ليس كثيرا.

ـ كان ملكا لإشبيلية، ثم هاجمه يوسف بن تاشفين طمعا في ملكه، واعتقله وسجنه بسجن أغمات، وفي السجن زاره أبناؤه وبناته في يوم عيد، ورأى الحالة المزرية، والذل الذي لحق بهم، فبكى شعرا مرا:

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسرورا
فساءك العيدُ في أغمات مأسورا

ترى بناتكَ في الأطمارِ جائعةً
يغزلنَ للناسِ ما يملكْنَ قطميرا

برزنَ نحوكَ للتسليمِ خاشعةً
أبصارهنّ حسيراتٍ مكاسيرا

يطأنَ في الطينِ والأقدامُ حافيةٌ
كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

وهذا حالنا يا نايف كنا في رفاه ونعيم، فبطرنا، وتقاعسنا، وأخذتنا الأيام والليالي بزخرفها ونعيمها شر مأخذ، أسندنا ظهورنا إلى خزائن الأرض من النفط، ولم نؤمّن موارد أخرى تقينا حر الزمان، استمرأنا النوم والسمر والاستراحات والسفرات والمنتجعات، وأقصينا مفكرينا، أو أغرقناهم في نعيمنا حتى سد العسل منابت تفكيرهم، وأُغشيَ عليهم كما أُغشيَ علينا. تركنا الأرض جدباء جافة، بل أرهقناها بالنفايات، فلم نستصلحها، ولم تسلم من عبثنا، ملأناها هياكل إسمنتية ميتة، وفرشنا النفط عبر أرجائها، نقتلع الشجر على قلته، ونهدر الماء على ندرته، مغترين بما نملك. وجهنا أبناءنا إلى تعلم مالا يفيدهم ولا ينفعهم، ولم نعلمهم حب الأرض، وتأمين القوت، افترست الرأسمالية عقولنا، حتى صار تفكير شبابنا في المال والأعمال، باع الفلاح أرضه، أو دنس عفتها بعهر الإسمنت، فرّط فيها يلهث خلف سراب المدنية، اشترى مواتا في المدينة بنى عليها منزلا، أصبح ردما على يديه المعطلتين، فليأكل طوبه الآن، تخلص الراعي من غنمه ومواشيه، وجارى موضة الوظيفة، أفاق على رائحة الدمن، أهدر النحّال حرفته خلف بريق الاستثمار، فماع الشمع وسقط القناع عن وجه الفقر.

الأصوات التي كانت تنادي بتأمين حياة الأجيال، كان خافتة، أو كان الضجيج أعلى من قدرتها على بلوغ الأذن السدّاء، الجميع انساق في تيار البطر، علماء ومفكرون وساسة، فيما يشبه الأمية الجماعية المطبقة على التفكير، أو النسقية اليتيمة المتمكنة من الذوات الغارقة في حياة النسق اليتيم الذي لا يقبل الخروج عليه، أو نقده. أو هوس الحياة المادية، حتى صحونا على وقع النكبة، بأياد عارية، وأجساد مائعة، وهمم مخدرة، لا صنعة ولا حرفة، حتى من انتسبوا للمعاهد والكليات المهنية، كانت أدمغتهم خاوية، غاية قصدهم شهادة، تفضي إلى وظيفة إدارية.

كل سياقنا الثقافي رجالا ونساء يهرول خلف هاجس (البطالة)، ولم نفكر أبدا أننا

ازدحمنا في وادٍ واحدٍ، وتركنا أودية كثيرة، تغص بالرزق والنماء، تسابقنا وغاية الأمل أن نعمل أجراء، نأخذ أتعابنا نهاية كل شهر. فماذا يبقى للأجير؟!

آه يانايف لو أنفقنا أموالنا في مد أنبوب ضخم من دلتا النيل، يثج عذوبة مصر عبر صحارينا الجافة، كم ستكلفنا؟ أو مددناها من رأس الفرات عبر صحاري الكويت ومنطقتنا الشرقية، أليست أجدى من استثماراتنا في مباني الإسمنت وأسواق الأسهم ومزاين الإبل والسياحة المفتقرة إلى كل مقومات السياحة؟!

استرخصنا البضاعة الصينية والهندية والتايلاندية، وأترعنا بها أسواقنا على رداءة صنعها، والرأسمالية تغرينا بأن استيرادها أرخص بكثير من تصنيعها، لم نحسب للحظة سنحتاج فيها إلى كل يد عاملة، وإلى كل آلة منتجة، والعالم كله يمور بالمخترعات، ولا يكل عن البحث ليلا ونهارا عن مورد للطاقة غير النفط الذي لا نمتلك سواه.

ملابسنا التي نلبسها بأزيائنا الوطنية المميزة، لا نصنعها، بل نستوردها من شتى أنحاء العالم، ولم نسأل أنفسنا، لم يكلفون أنفسهم بصناعتها؟ وهم أصلا لا يلبسونها؟! الأرز، طعامنا المفضل الذي لا تخلو منه مائدة، لم نحاول استزراعه وتكييف أرضنا لزراعته. بل تسابقنا في استيراده وملء الدنيا بإعلاناتنا بأسماء متباينة لمنتج من مزرعة واحدة.

آآآه يا نايف، ماذا أقول؟ (قالها ودمعته تنحدر خلال شاربه، الذي لا يملك حيلة لترتيب عشوائية شعراته)، ثم استطرد:

إنها النكبة يا نايف، إنها النكبة، نبتت في دولة عربية فقيرة، تركت غناها بالطبيعة لتبحث عنه في سياقات الرأسمالية البغيضة، هل تعرف دولة السودان العربية الفقيرة يا نايف؟، هل تعرفها؟!

نبغ الشاب السوداني الطيب ميرغني، بعبقرية مذهلة، كانت أيادي السفارات الغربية أسرع إليه من أيادينا المثقلة بالشحوم والترف، اخترع في بداية الأمر، جهازا يرصد الزلازل في باطن الأرض قبل حدوثها بـثمان ساعات، ويحدد الأماكن المهددة من الكرة الأرضية قبل حدوث الزلزال، يهيئ للدولة المهددة بالكارثة إخلاء المكان المتوقع قبل وقوع الكارثة بوقت مناسب جدا، وإغلاق كل مصادر الخطر الصناعية كالمفاعلات، وشركات الكهرباء، ومصافي

النفط وغيرها، فألغى اختراع الطيب مقياس (ريختر) بمقياسه الذي أسموه (أمريسن)، ولم يظهر له أي خبر في الإعلام العربي إلا خبر صغير بأن شابا عربيا بتعبير (التنكير)، اخترع جهازا ثوريا في مجال علم الكوارث، فلم يلتفت إليه عربي واحد، لكن عبقريته أدهشت السفارة الأمريكية، وبدون تردد، تعاونت معه حتى أصبح جهازه واقعا عالميا كما أخبرتك، ثم عرضت عليه ما يعرض على النوابغ في كل أرجاء العالم المتخلف والمتحضر، فلم يجد بدا من الموافقة بعدما همّشه قومه، وتشاغلوا باللاعبين والفنانين والشعراء، وقضايا الأصالة والمعاصرة، طار إلى واشنطن ليعيش سلطانا في معمل أبحاثه، وينال جائزة نوبل للعلوم، فتبدّل حال العرب وقرروا أن يتفاخروا بابنهم العربي الذي أنقذ العالم فتهافتت وسائل إعلامهم لاستضافته على شاشاتها، وتنافست الجامعات في نشر خبر زيارته لها وإلقاء محاضرة فيها، لم يعلموا بسياقات القدر وتعقيداته، وأن العقل الذي أنقذ العالم من الدمار سيكون دمارنا، فكانت المفاجأة التي هزت العالم بأسره، حتى سُدّ ثقب الأوزون بزغاريد العالم وعويل العرب، متناقضات طارت في سماء العالم بأسره، كلها خرجت من قمقم عبقرية هذا الشاب السوداني الفقير، هل تعلم ماذا اخترع؟

ـ لا.

ـ عكف الطيب في معمله الأمريكي المتطور على دراسة مشاكل الخلايا الشمسية، حتى كوّن نظاما مذهلا، استطاع من خلاله استقطاب وتخزين أكبر قدر من الطاقة الشمسية في أصغر مساحة عرفتها هذه التقنية، وفي أطول مدة زمنية، حلّ به كل مشاكل الطاقة في العالم، استطاع أن يصنع خلية شمسية دائرية بقطر ٢ سم، تجذب من الطاقة الشمسية ما يشغّل مبنىً مكونا من ثلاثة طوابق بكامل تجهيزاته التقنية التي تعمل بالطاقة الكهربائية. وفي منظومته العبقرية، استطاع أن يصنع خزائن للطاقة (بطاريات) بأحجام صغيرة، تستطيع إطباق يدك عليها، تكفي لتشغيل ذات المبنى بكامل تجهيزاته لمدة ثلاثة أيام دون إعادة شحن، وهذه الشرائح وهذه البطاريات لا تكلف الإنسان مبالغ طائلة، وتقضي نهائيا على التلوث البيئي الناجم من موارد الطاقة النفطية، وتسيير السيارات والقطارات والطائرات لأيام دون الحاجة إلى إعادة الشحن، الذي يأتي عن طريق الطاقة الحركية أيضا.

تخيل أخي نايف، أن أول يوم من أيام الإعلان عن هذا الاختراع، هبطت أسعار النفط بنسبة ٣٠٪، وتواصل الهبوط، حتى صار النفط لا قيمة له مطلقا، وتكاليف استخراجه أضعاف أضعاف ثمنه، ومعظم الدول تملك مخزونات كافية منه لأعمال التزييت والتشحيم للقطع الميكانيكية المتحركة، أو منتجات البلاستيك والمنتجات الكيميائية، أو أعمال السفلتة وما في حكمها.

أكبر متضرر في العالم كانت دولنا، دول التخمة المالية، دول الرفاه والدلال، التي لا تحبذ إجهاد أفكار شبابها، بل تجعل الآخرين يصنعون ما يحلم به من وسائل الراحة، ويستقدمون المعلمين لتعليم شعوبهم تشغيل ما أنتجه العقل العامل، إنها دول الخليج العربي التي انهارت اقتصاداتها بسرعة عالية.

حاولوا التحرك لمواجهة الأمر، وعقدوا المؤتمر إثر المؤتمر، وطار وزراء الخارجية والاقتصاديون إلى جميع عواصم العالم يحاولون التوصل إلى حل يوقف نزيف اقتصاداتهم المنهارة، فكان العالم أقسى مما حلموا به أو تصوروه يوما، هل تصدق يا نايف؟ بعض الدول طلبت من الخليجيين أن يستعيدوا النفط المقيد بعقود آجلة، لأنهم ليسوا بحاجة إليه، فكانت تكاليف إعادته إلى الخليج باهضة مما اضطر بعضهم إلى التنازل عن العقود الآجلة، واعتبار النفط هدية مقابل علاقات إنسانية غذائية، وبعض الدول كانت لها عقود طويلة الأمد طالبت على الفور بإلغائها، وبعض الدول الأوربية فرضت ضرائب قاسية على المشتقات النفطية بحجة تلويث البيئة.

آه يانايف، كان تسوناميا عاتيا جدا، اقتلع كل شيء، فاختتل النظام الاجتماعي مباشرة، وبدأت رؤوس الأموال بالفرار بحثا عن أنظمة اجتماعية وسياسية ومالية مستقرة، فرت كل العمالة الوافدة، وبقينا نحن المساكين أطفال الرضعة الشهرية، التي تقلصت حتى صارت لا تكفي قوت ثلاثة أيام من أدنى ما يطعم البشر.

بقينا وبقيت الصحارى الجافة، شاهدة على جدب عقولنا، وجفاف ألبابنا، ها هي الطاقة الآن في كل مكان، حتى في أدغال أفريقيا، دون شركات كهرباء ولا تحكمات، ولا ضرائب، وقد احتفل الإنسان بالتحرر من أعتى قيود إعاقة التنمية، ونحن الذين كنا نمتلك

أكبر مصدر للطاقة، ولم تفدنا ملكيتنا ابتكار استراتيجية مستقبل الاستغناء هذه الطاقة والعالم بأسره، يلهث ليل نهار، لتوفير طاقة بديلة. هل تتذكر هذا يا نايف؟

ـ كلا لا أتذكر، أنتم من عالم الجمل تحاولون تشويه عالمي، أو من عالم ياسوم الأحمر ولن تخفى مخططاتكم ومؤامرتكم على عالمي. فقاطعني جابر بصوت خاشع حزين:

ـ نايف، لا تهتم، دعه يكمل عصر الحنظلة حتى النهاية.

فاستطرد وردان:

ـ كلا لم أعد أستطع الإكمال، تحدثوا أنتم.

فتنحنح جاسم، الرجل الغامض الصامت، وبدأ يتحدث بلكنة إماراتية:

ـ أخي نايف، لقد أفاض وردان في وصف النكبة، وعشناها جميعا، أنا من أهل دبي، ولا أظنها تخفى عليك بكل بهرج الحضارة الحديثة فيها،لم أظن يوما، ولم أتخيل أن تصبح دبي مدينة أشباح، لا ترى فيها للناس حسا ولا صخبا. صارت أشبه بمقبرة، وأبراجها أنصابا تذكارية على زمن أدمينا أصابعنا عضا كلما تذكرناه، وهل يستطيع إنسان نسيانه؟! لقد صدّقنا أنفسنا أننا نصنع حضارة، فانسقنا في ركب التنظير على الانفتاح الاقتصادي الكامل، حتى تسابق العالم كله على الفرص التي وفرناها على أرضنا، لدرجة صار فيها الشعب أقليّة إذا قيس إلى أعداد الوافدين، وعشنا مخدرين برفاهنا، وثرواتنا، لا ينبض في عقولنا عرقٌ بالشك أن يزول هذا النعيم، فانبترنا عن الواقع، وتوجهت العقول إلى جمع الثروة، لا ندري أن الثروة ورقا، لا قيمة له إذا انهارت الأصول.

بعد النكبة بكينا كثيرا، وقلنا شعرا مرا في مراثي النعيم، لكن الجوع أبى أن يتركنا، أخبرتني أمي أن جدي كان غواصا ماهرا، يصيد اللؤلؤ، ويعود محملا بخيرات البحر كل شهر، حاولت ركوب البحر، لكنني فشلت لأمور عدة، أولها أني لا أفقه شيئا في البحر، حتى السباحة، وثانيها أني لا أملك قاربا ولا عدة صيد. فجاء تاجرا هنديا بأسطول قوارب، وتسابقنا للعمل معه، نحاول أن نتعلم الحرفة، فكان أذكى من أن يسلمنا المفاتيح، استخدمنا أجراء، للتحميل والتنزيل، وتنظيف الأسماك بأثمان بخسة جدا، أما البحارة فكانوا بنو جلدته.

بعض الشباب ركبوا البحر إلى إيران، فلم تعد حتى جثثهم، فتوجهت مع رحلة الحج إلى مكة، حاولت العمل فيها، فلم أجد ليدي موضعا، والجوع يفري أجساد أهلها وهم يتهافتون على خدمة الحجاج بقطعة خبز، توسلت مصريا أن يأخذني معه إلى مصر لعلي أشتغل بالزراعة، فوافق شريطة أن أعمل عنده.

استبشرت خيرا بمصر، كل الذي في رأسي أن أتعلم ركوب البحر، أو العمل في الزراعة، لكن استبشاري ذبل سريعا، عندما وجدتني أعمل (صبيا) في المقهى، أقدم الشاي والمشروبات و الشيشة، وليت الأمر يتوقف هنا، بل كنت متنفس غضب الجالسين، ينادونني بأبشع الألفاظ، ويتندرون بي، حتى جسدي النحيل لم يسلم من بطش بعضهم، وتشفيهم بي. فأنفقت كل ما جمعته خلال ثمانية أشهر، لأعود إلى مكة، وفي جدة، تعرفت على أبي شاكر، وترافقنا إلى اليمن، وجدناهم أكثر رحمة بنا، رغم ما نلقاه من تعب وعنت وظلم أحيانا، لكننا صابرون.

صمت الجميع برهة، لكن جابر لا يرفع عينيه عن وجهي، يجاهد كثيرا كي يقنعني أنني صديقه وزميله القديم في الدراسة، وزميل رحلة الفقر إلى اليمن. عض شفته السفلى ورفع حاجبيه وقال:

ـ ماذا أقول يا نايف، من أين أبدأ؟. هل أبدأ من حينا، من بقالة أبي، التي ذهبت كل محتوياتها للجيران والأقارب بالمجان، لأنهم لا يستطيعون دفع ما اشتروه منها، أم من والدك المتقاعد الذي عرض سياراته الفارهة للبيع بأبخس الأثمان، ولم يجد مشترٍ، أم من عمي طلال الذي هدم منزله، وحوّله إلى مزرعة يأكل منها هو وأولاده، ثم أحرقها بعد مدة لأنه لم يستطع ريّها. وماتت على عروشها. هل تتذكر ونحن نبيع صفائح الماء في الحج بقطعة خبز؟ أم مسحنا زجاج الحافلات نظير إركابنا من حي إلى آخر. أم تتذكر ونحن نتسول الحجاج أن يعطونا بقايا طعامهم.؟ ونتسابق إلى جمعيات الغوث العالمية في كل مدينة نسمع فيها بتوزيع مؤن غذائية؟

نجري خلف كل صوت يقول هناك فرصة عمل، في أي دولة، لا نسأل عن الراتب، ولا نسأل عن ساعات الدوام، نقبل بكل شيء من أجل أن نحيا ونعيش.

تذكر يا نايف. تذكر، انفض الغبار عن ذاكرتك المتعبة، لربما آثرت ذاكرتك الهروب من واقعنا إلى عالم آخر، تذكر يا صديقي، فهذا الأمر لا ينسى ولا يمحوه الزمن أبدا.

ـ أخي جابر، وأنتم يا إخوة، أنا حزين لما آل إليه حالكم، لابد أن ياسوم غزا عقولكم، ودمر تفكيركم، وأشرب قلوبكم أفكار الجمل. الآن فقط تيقنت أن الجمل هو من فعل كل هذا، هو من أطلق ياسوم إلى عالمي ليدمر عقول الناس، ويخيل إليهم أنهم فقدوا كل شيء، فيسهل استحواذه على العالم بأسره.

قاطعني أبو شاكر:

ـ أي جمل وأي ياسوم، أنت تهذي يا نايف.

ـ لست نايف. أنا د. يحيى، سأقف في وجه الجمل وأدحض كل مزاعمه بحجج عقلية تعيد إليكم توازنكم.

ـ أنت منا يا نايف، أنت معنا عامل في اليمن، تعمل أجيرا مثلنا، وأهلك ينتظرون منك مصروفهم وإلا هلكوا.

قمت على الفور، وقام الجميع، حاولوا أن يقنعوني بالجلوس فرفضت، فأمرهم أبو شاكر أن يتركوني في حالي الآن، توكأت على عكازي، وخرجت، سرت إلى عريش العم مقبل، جلست واجما، هل حدث هذا حقا؟ هل ضاع المال والعز والأهل، وعدنا للصفر؟

هل أضعنا كل شيء، وابتلعتنا غفوتنا، لنغدو جزيئات ميتة منها، بالكاد تعيش على قوتها؟ هل أنا نايف، أم أنا د. يحيى؟ هل أنا من الطائف؟ أم من جدة؟ أم من تاوه؟

لا أصدق، ولن أصدق.

تبا لك يا جمل، تبا لك يا جمل، أضعتني يا جمل، أصبحت لا أعرفني، تبا لك ما أوسع حيلك، حتى اختباراتك لم يسبقك إليها أحد استطعت صنع كل شيء كما تريد، وحبكت الاختبار بما لا يدع مجال لشكي الطاغي أن يتنفس، نجحت في أن جعلته يسلّم أن هذا واقع لا جدال فيه.

أرجوك يكفي، أخرجني من قاعة الاختبار الأليمة هذه، فقد أبليت بلاء حسنا، لكنني لن أستسلم لمشيئتك، ولن أسلم بأن هذا واقع أبدا. لأن الإنسان مهما بلغ من الحصافة

والذكاء، فإنه لا يحيط بكل شيء.

زعم أتباعك قبل قليل أن الطاقة متوفرة لكل إنسان حتى أولئك القابعين في أدغال أفريقيا، لكنك نسيت أن تأتي بها في عالم اختبارك الناقص.

كفى هراء، دعني أذهب، لا أريدك، ولا أريد عالمك. فقط أريد العودة إلى أمي وإخوتي ومدينتي الحبيبة جدة، فما عدت أريد عالمك ولا عالمي، فقط أريد أن أجلس في غرفتي بجوار من يحبون إطلالتي.

هيا يا جمل، أرجوك أخرجني من هنا. يكفي أيها المجرم، يكفي.

ربما ارتفع صوت رجاءاتي للجمل، فسمعه العم مقبل الذي اقترب مني كثيرا:

ـ ما بك يا يحيى؟

ـ لا شيء يا عم مقبل.

ـ بلى ثمة ما يزعجك، فأخبرني.

ـ ليست لديكم كهرباء يا عم مقبل؟

ـ لا تستطيع الدولة شراء الشرائح الحديثة، بالكاد أمنتها لبعض الأحياء في المدن الرئيسية، وننتظر منظمات الغوث أن توفرها لنا، كما فعلت في أفريقيا.

ـ وهل وفرتها لدول الخليج؟

ـ لا تسل عن دول الخليج يا يحيى، فهي مأساة أخرى يا بني.

أقوم، أسير وحدي، لا أدري أين أنا، ثم أعود إلى العريش، أطلب من مراد ورقة وقلما، فيعتذر عن وجود القلم إلا مع العم أيوب، أهيم على وجهي بين الأشجار، وصلت إلى الهشيمة التي سقطت فيها، أبحث عن ورقة قصيدتي التي كتبتها إلى فازرا، لا أجدها، أسير على الطريق، ينحدرُ بي إلى وادٍ سحيق، أتأمل انحناءاته من أعلى المنحدر، أنظر لحالي الهائمة الضالة الضائعة، فكانت معادلة (وادٍ + شاعرٍ هائم = الغي).

جلست تحت شجرة سدر ضخمة، قبل غياب الشمس، تذكرني بسدرة موت الألباء خلف مسجد مذرى أغراني الرمل الناعم، بالكتابة على صفحته، سوّيته بعكازي، ثم كتبت، أعلم أن مكتوبي سيُمحى، لكن لا يضرني محوه وقد أخرجته من صدري:

إصبعُ الدهرِ فِي عيونِ الأماني
نفّرَ الشدوَ من فصولِ الثواني

وتمادى يهيضُ كلَّ جناحٍ
حلُمتْ فيه رقتي وحناني

كنتُ خِلوا من الهمومِ، وقلبي
قلبُ طفلٍ يسيرُ خلفَ بناني

وبياضُ الدُّنى أراهُ عريضاً
يتهادى على خُطاه حِصاني

صرتُ مُرًّا وأسوداً وبغيضاً
بعدما المرُّ بالزمانِ سقاني

ضاعَ وجهي فأبدلوهُ وجوهًا
تتماهى كمَا يردنَ الغواني

ولُبابي على الهوى قولبُوهُ
سائلاً كيفما تشاءُ الأواني

أخبروني بأنّني عربيٌّ
أذرعُ الدهرَ كابراً ما حَناني

مسلمٌ دربيَ الفلاحُ وربّي
لم يهنّي ولا يريدُ هواني

وبلادي على العوالمِ شمسٌ
تنشرُ الضوءَ عمقَ كلِّ جَنانِ

فتعاطيتُ فوق كلِّ فخَارٍ
أعقِرُ الشعرَ هاجيا ما هجاني

وتماديتُ في سموقِ خيالي
نخلَ عزٍّ في قسوتي ولَياني

آه، تباً وقد أفقتُ بصيرا
ليتني مت قبلَ فهْمِ المَعاني

كنتُ حُلواً وما أمرّيتُ يوماً
غير يومٍ قرأتُ فيه زماني

لستَ إلا في أخمصِ الكونِ صِفراً
مُصْمَتاً ضاقَ عن بديعِ بياني

غابت الشمس، وتنادى الليل، أطبق فكيه على حطامي، ومازلت تحت السدرة أبحث عن منتهى الليل، وإيماض الصباح.

يبدو أن الليل الذي أحكم الجمل صناعته، وتجلت عبقريته في سرمدية الظلام، هذا

الجمل الذي استطاع استئصالي من عالمي، حتى رانت أباطيله على قلبي الفضولي المسكين، فتوالت تنازلاتي عن كل شيء، تنازلت عن عالمي، ثم عن عالمه، ثم أجدني تائها حتى عن ذاتي، تفترسني الوحدة تحت هذه السدرة الكئيبة، حركة الحمائم الجاثمة في أعشاشها، تنتهبني، وصوت خشخشة الكائنات الليلية في الهشيم المتناثر، تفزز سكوني المفتعل، رعبٌ يتنامى في أعماقي، وذكرى الطبيب السوداني الذي فقد عقله تحرك هرمونات الخوف في جسدي، وملاسة الرمل تذكرني بملاسة جلد الأفعى، فأكف عن الحركة، أرهف سمعي لكل الأحساس الليلية، يشغلني خوفي عن التفكير في أي أمر آخر، فأين سيجد الخوف كهفا أرغد من صدر رجل تائه مبتور عن عوالمه الحقيقية والافتراضية، ساقه مكسورة في أرض لا يعرفها، في ظلمات بعضها فوق بعض تحت هذه السدرة النائية.

يؤلمني ظهري، فأجلس وأكوّم الرمل وسادة، أضع يدي بينه وبين خدي الأيمن، أغمض عينيّ فأرى الأمر سيان، وهما مغمضتان أو مفتوحتان، أقرأ في صمت خواتيم سورة البقرة، والإخلاص والمعوذتين وآية الكرسي، فتهدأ روحي، لكن النوم يأبى زيارة طريد الظلمات، أجلس، أتحسس سطح جمجمتي، أبحث عن المخطط التفصيلي عليها، لكن شعري النامي غطّى فروة رأسي، أضطجع مرة أخرى، أركز نظري على عيني أمي، أجمع كل حواسي في عيني الشاخصتين، أقسم في نفسي ألا أغمضهما حتى تؤلماني جدا، لربما استطعت النوم، فأقاوم حرقتهما لمعانقة جفني، أغمضتهما أخيرا وشعرت بلذة الدمع في إجهادهما، وتلذذت بتلك الإغماضة، ومن شبه السِنة جلستُ مرتجفا، صوت طرطشة في ماء قريب مني، أتسمّع، أصيخ، أرهف سمعي، أركز كل حواسي في أذني، لكن الصوت لم يتكرر.

لم يذكر لي العم مقبل ماءً في هذه المنطقة، ما الأمر؟ تعود بي الذاكرة إلى الماء في مدخل قرية تاوه، وقربه من السدر التي استظليت تحتها في محاولة الهروب من عالم الجمل، أبحث في أفكاري عن طريقة لاستضاءة أي شيء يفتق أزرة الديجور، لم يزودني علمي في الطب ولا في عالم الجمل الذي يزعم نورانيته بطريقة إشعال النار.

أشعر بالعطش، وأضحك في لحظة لا تستسيغ الضحك، وكل علوم الجمل لم ترشدني إلى طريقة الاستضاءة في الحلك، كم حدثني عن الظلام، وكم أزني إلى النور، ألم يهد له أن

يسلحني بشيء يبدد هذه العتمة؟ كم أراك ضعيفا أيها الجمل، وتفكيرك لم يدفعك أن تدس في جيبي عدسة تجمع ضياء السقف المنشور في لحظتي البائسة هذه. يا للسخرية، وأنت تقول " أني أثمن ما لديكم "، وها هو صيدك الثمين يتوه في الظلمات اثنتين وعشرين ليلة.

يقطع سخريتي صوت الماء مرة أخرى، أمسك عكازي،أتحامل على نفسي وأقوم، أصيخ السمع، فأخطو خطوتي الأولى باتجاه الصوت، أخطو خطوات أخرى حتى خرجت من ظلام السدر، أتسمر مكاني لربما عاد الصوت مرة أخرى، أتعب من الوقوف فأجلس.

أصوب كل حواسي وسمعي إلى مصدر الصوت، وأدعو الله أن أسمعه مرة أخرى، أنظر إلى السماء، النجوم بعيدة جدا، لا أعرف أسماءها، ولا الاتجاهات التي تحددها، ولا الأوقات التي تظهر فيها، ألوم الجامعة التي لم تدرسنا مادة الفلك ونحن أبناء الصحراء، فكيف نهتدي بعلامات النجم، وألوم صاحب المقاريب، المتباهي بالتنجيم الذي لم يعلمني شيئا، ولم يتباه إلا بقراءة شريط حياتي. كم أنت كاذب أيها الجمل.

أتحسس الرمل الذي زادت برودته، لربما تجاوز الوقت منتصف الليل، أشعر بالعطش يتنامى، الماء بجواري ولا أستطيع بلوغه من الخوف والظلام، والنور بعيد هناك في كبد السماء، وأنا تائه في بحر الظلمات، يا الله، كم الحياة عمياء وتعيسة بدون الأمن والضياء، كم الكون ضيق عندما يطبق الظلام فكيه على أرواحنا وعقولنا.

انتصبت واقفا، لن يثنيني الخوف عن بلوغ الماء، لن تحرفني أنياب الأفاعي، ولا حواف الصخور ولا همهمة البوم، سأسير على جسدي حتى أبلغ الصخور، ثم أجلس وأتحسس طريقي بين الصخور بقدمي وعصاي وأزحف جالسا، المهم أن أبلغ الماء، سأحرك العصا، وأحدث جلبة بين الصخور قبل وضع قدمي، حتى تهرب الهوام والزواحف، أشم رائحة الطحالب، فأشعر بالرضا عن ذاتي، وأنا لا أستسلم للظلمات وخوفي، أزحف وحواف الصخور تؤذي جسدي النحيل، لن أستسلم لفكر الجمل، ولا لأفكار العم مقبل ورعاته، ولا لبطش الليل البهيم، أجر ساقي المكسورة بين الصخور، أسمع طقطقة الجبيرة في الحواف، لكن عزيمتي تشتعل، تطول المسافة، فأقف على هاوية، أشعر أنها شاهقة، أمد قدمي وأحركها في الهواء فلا تبلغ شيئا، أحرك عصاي فلا تصطدم على مدى تحريكها بشيء. آمنت أني بلغت

أقصى ما يمكنني، زاد عطشي بسماع حركة الماء ينساب من بين الصخور، لكن الظلام والخوف تآزرا ضدي وصنعا تلك الهاوية الصخرية.

تعبت من الجلوس على حافة الهاوية، فكرة تشدني للعودة إلى الرمل، وأخرى تقول لم يتبق أمامك إلا خطوة، ربما تكون الهاوية قصيرة، فلو قفزت لوقعت في الماء، وربما تكون طويلة، وأيا كانت، فأنا لا أعلم ماذا يخبئ القاع. يجب أن أعود، فمن الحكمة انتظار الضياء.

بين العودة والمخاطرة وانتظار الصبح، خطرت فكرة السير أفقيا، فلابد من نهاية لهذه الصخرة عن اليمين أو الشمال، وعند نهايتها سأجد طريقا توصلني إلى الماء، لكن أين أزحف؟ أي النهايتين أقرب، وأي النهايتين تفضي إلى الطريق؟

حركت العصا يمينا وحركتها يسارا فلم تصطدم بشيء، وبعد عناء فضلت التيمن، زحفت جالسا باتجاه أفقي، قدماي معلقان في الهواء، زحفت ما يقارب الخمس خطوات، ولم تصطدم عصاي بشيء، هل أعود لليسار؟ أم أستمر؟ سأستمر حتى النهاية، زحفت فاصطدمت عصاي بأغصان شجرة، فرحت بهذا، كدت أعود قبل بلوغها بخطوة، زحفت حتى لمست أغصانها، رائحتها زكية، ليست شوكية، تذوقت برعما منها، له لذة وعذوبة، تذوقته مرة أخرى، حتى تذكرت المساويك التي يأتي بها أبي من مكة، ليس مسواك الأراك، أحاول تذكر اسمها، لكنه غريب، تحسست أغصانها وكسرت عودا طويلا منها، وتسوّكت به، أنها شجرة " البشام " طعمها اللذيذ ذكرني بحديث أمي عن البشامة، التي إذا ارتكز عليها قوس قزح صار طعمها أحلى وأسموها " الرندة"، زحفت من تحتها بهدوء وأنا ممسك بفرع كبير منها، أرسلت عصاي فكانت تصدم بصخور صغيرة، تحركت خلالها هبوطا، وكلما نزلت ازداد خرير الماء، واصلت الزحف جالسا بتؤدة، المسافة تطول، وخرير الماء مايزال بعيدا، اصطدمت بشجرة بشام أخرى، جزتها نزولا، شعرت بطول المسافة، فخطرت لي فكرة الرمي بالحصى، رميت أمامي مباشرة، فاصطدم الحجر بصخرة، ورميت أخرى فسمعت خشخشة الحجر في أغصان شجرة، فرميت عن يميني فطال وقت اصطدام الحصاة بالقاع، فأيقنت أن عن يميني هاوية سحيقة، رميت عن يساري، فأصبت الماء، فرحت كثيرا بعبقريتي، وأفكاري

التي تنير دربي إلى الماء، جنحت إلى اليسار في زحفي، زحفت ثلاث خطوات، وتحسست بعصاي فبشرتني ببلوغ الماء، شعرت بنشوة انتصاري على الظلمات، أحسست بارتواء قبل أن أرشف من ماء النبع العذب، جلست على حافة الماء، غسلت وجهي، تمضمضت، ثم ملأت كفي بالماء وشربت، شربت كثيرا، وكأنه أول ماء أشربه في حياتي، كيف لا يكون كذلك، وقد بلغته رغم أنف الظلام والخوف والخطر وساقي المكسورة؟

حمدت الله، فتوضأت، وصليت ركعتين. أسندت ظهري إلى الصخرة، لا أشعر بخشونتها، ولا بوحدتي، ولا بالخوف، تأقلمت مع ظروفي، كأني صخرة أو شجرة بشام أو سدر في هذه البيئة القاسية، شعرت بالأمن، وبالقوة، وبانتمائي الأصيل لهذه الأرض، وفي نشوتي سرقتني عيني، لم يوقظني إلا الطبيعة بجلبة عصافيرها الجائعة.

صحوت بين الأرض والسماء، معلقا على حافة صخرية، لو رأيتها في الضياء لما بلغت ماء النبع، أصابني الهلع، وسيناريوهات سقوطي تتوالى في ليلتي العصيبة، نظرت إلى أعلى، ما أظنه محل جلوسي الأول فكان شاهقا، جلت بنظري إلى شجرة البشام الأولى، فكان الشريط الذي نزلت خلاله من تحتها لا يتجاوز عرضه المتر والنصف، كيف سأخرج الآن من هنا؟

توضأت وصليت الفجر، وقمت أتوكأ على عصاي حتى شجرة البشام السفلى، ثم استرحت استجمع قوى الجائع، وأصعد خلال الشريط الصخري، وصوت الحصى الصغيرة يملؤني رعبا وهي تلامس قاع الشعب، جاهدت نفسي حتى أمسكت بأغصان البشامة العليا وسطعة الشمس في الأرجاء توقظ الحياة في كل الكون، سرت خلال الصخور، جلت بنظري في المكان، رأيت السدر الذي احتضنني ظلاله وظلامه، سرت باتجاهه بتؤدة، أرى رجلا متمدد تحت السدر، ربما الشيخ مقبل أو أحد رعاته، لكن الهيأة تختلف، وملابسه السعودية تبدد ظنوني، لو لم يمت أبي لقلت إنه هو، رآني فجلس، لا أتبين قسمات وجهه، قام من مكانه على عجل، أقبل باتجاهي وفجأة استدار، ناديت عليه، لم يلتفت، حاولت الاستعجال في مشيتي لكن ساقي تأبى، ناديته مرة أخرى، فاختفى بين الأشجار.

بلغت السدر، لم أجد أثرا لذلك الرجل، فتكت بي الظنون، من يكون يا تُرى، إنها خيالاتي، لكن أي خيالات وأنا لم أتخيل هذا في شدة هلعي البارحة. لا شيء من ذلك

الرجل، لا أثر ولا رائحة عطر، حتى أبياتي التي كتبتها بالأمس لم يمحها. من يكون يا ترى؟ هل صنعه عقلي المستوحش ليأنس؟ أم أرسله الجمل؟ لماذا ذكرني بأبي؟ لماذا أقبل باتجاهي ثم انصرف؟ هل يريدني أن أتبعه؟ وكيف أتبع من لا أثر له؟

كعادة فكري الذي صار مصنع أسئلة مستديمة، تعصف براسي، حاولت فك شفرات واقعي وافتراضيتي وكل شيء حولي، وطني، وأهلي، وأيمن، وعالم الجمل، والشيخ مقبل، وهذا الرجل ولم أستطع.

أشعر بوهن في جسدي، أتمدد آمنا من كل شيء في الضياء، إلا من ظلمات الأسئلة، تنتشلني من كينونتي إلى مهامه اللظى والاكتواءات والالتواءات الحادة، توردني غدران الإجابات الجافة، فأعود مليئا بالعطش، مكتظا بالاستفهامات المتوالدة. أغمض عينيّ، أفتحهما، أتأمل تشابكات أغصان السدر، أحدق فيها، أخالها تتوق إلى البوح، أراها تتحرك حتى تكاد تشكل صورة، فتتداخل وتتلاشى في دوران تتزايد سرعته فأغمض عينيّ حفاظا على ليونة كبدي.

أفتح عينيّ مجددا، أرى الدوران في عتوّه، كل شيء يدور، من فرط سرعته أرى ما فوقي صفحة ساطعة، نصفها لامع، ونصفها الباقي مموج بألوان الطيف، وكأن المشهد قرص حاسوب مرن دون ثقب في منتصفه.

أقاوم، أحاول قراءة الأشياء، لكن سمعي يشغلني بالضجيج الصاخب، أصوات تأتي من كل مكان، أصوات أناسي ومخلوقات مختلفة، ممزوجة بأصوات الطبيعة، ضجيج وهدير ومفرقعات، تموج حتى تكاد تفجر طبلة أذني، فتخف حدتها كأنها تبتعد، فتموج مرة أخرى، وخدر يسري في كل جسدي، يطوف بأرجائي المبعثرة بين السطوع والضجيج، لا أرى لا أسمع لا أحس بشيء.

غبتُ خلف كل شيء، أرى كل الأشياء راحلة، أتحسس آثارها على طريق العمى، كل الراحلين لا يلتفتون نحوي، أمي وأهلي ووطني، الجمل وفازرا وركزا، العم مقبل والرعاة، حتى الرجل الذي كان ممدا تحت السدر، كلهم لا يلتفتون، نسيوني مضغة لا طعم لها ولا لون ولا رائحة.

أحاول النهوض، لا أقوى أبدا، أحاول تحسس جسدي فلا أستطيع، أفتح عينيّ في الظلام الدامس، لا نور إلا بياض هيكلي العظمي يغادر جسدي، يعدو خلف الراحلين، ويتركني كومة لحم وعقل تحت سدرة منتهاي.

" في التيه، عندما يتخلى عنك الجميع: تجد ذاتك "

*كتبها يحيى على الرمل

،

،

،

،

،

و ما يزال يحيى مكتظا بالنور والظلام والأسئلة، ،

أحمد بن عيسى الهلالي

- مواليد ١٩٧٤م ـ حالة عمار
الإقامة الدائمة في مدينة الطائف.

صدر له:

- الغراب في الشعر الجاهلي (دراسة نقدية).
- رفيف رئة (ديوان شعر)
- وجع السوابل (ديوان شعر)
- ديوان لقيط بن زرارة وابنته دختنوس (جمع وتحقيق وشرح).
- سدرة المنتهى (رواية).

للتواصل:

جوال: ٠٠٩٦٦٥٤٤٠٧٧٧٥٠
إيميل: alhelali.a@gmail.com